

حيثُ يُغنّي جرادُ الماء

الرواية الأكثر مبيعاً على قائمة نيويورك تايمز لسنة 2020

ديليا أوينز

ترجمة: د. رمزي صالحة



رواية



دار الخيال

كِيَا

حيثُ يُغَنَي جَرادُ المَاء

Where the Crawdads Sing

DELIA OWENS

كيا

ديليا أوينز

ترجمة: د. رمزي صالحة

An imprint of Penguin Random House LLC375 Hudson Street New York, New York 10014

ISBN: 978-9953-65-085-2

دار الخيال
DAR AL KHAYAL

المنارة–رأس بيروت – بناية يعقوبيان بلوك B طابق 3
لبنان تلفاكس: 009611740110
الرمز البريدي: 20366302
Email: alkhayal@inco.com.lb

مركز الأعمال – صندوق بريد 519251
مدينة الشارقة للنشر المنطقة الحرة
الشارقة – الإمارات العربية المتحدة

www.daralkhayal.com

dar.alkhayal dar.alkhayal daralkhayal_

ديليَا أوينز

كيَا

حَيثُ يُغَني جَرادُ المَاء

ترجمة: د. رمزي صالحة



الجزء الأول
السبّخة



تمهيد

1969

السبّخة ليست مستنقعًا. إنها مساحةٌ من الضوء، حيث ينبت العشب في الماء، ويجري الماء إلى السّماء. تتجول الجداول البطيئة حاملةً معها مدار الشمس إلى البحر، وترتفع الطيور الطويلة الأرجل برشاقةٍ غير متوقعة - وكأنها لم تُخلق للطيران - على خلفية هدير ألف أوزة ثلج.

يزحف المستنقع في أنحاء السبخة، متسللاً إلى البرك المنخفضة المختبئة في الغابة النديّة. مياه المستنقع راكدةٌ ومظلمةٌ بعد ابتلاعها النور بحنجرتها الموحلة. حتى زواحف الليل قد تراها نهاريةً في هذا العرين. ثمة أصواتٌ، طبعًا، غير أن المستنقع هادئٌ بالمقارنة مع السبخة، لأن التحلل فيه عمليةٌ خليوية. تتعفن الحياة، وتفوح رائحتها لتعود إلى النثار العفن؛ اندفاعٌ حادٌ للموت المنجب للحياة.

رقدت جثة تشايس أندرو في المستنقع، في صباح اليوم الثلاثين من تشرين الأول 1969، والذي كان ليبتلعها بصمت، وبشكل روتيني، مخفيًا إياها إلى الأبد. يعرف المستنقع كل شيءٍ عن الموت، ولا يصنّفه بالضرورة على أنه مأساة، وهو قطعًا ليس بالخطيئة، صباح اليوم، قاد صبيّان من القرية درّاجتيهما إلى برج النار القديم، فلمحا سترته الكاوبوي بلونها الكحلي عند المنعطف الثالث لخط القطار.

1
الأم

1952

كان الصباح حارًا كما يليق بآب، ونشر نسيم السبّخة الرطب الضباب على أشجار السنديان والصّنوبر. وقفت أشجار النّخيل هادئةً، على غير عادتها، إلّا من رفرفةٍ منخفضةٍ بطيئةٍ لأجنحة طائر مالك الحزين يطير من الهور. ثم سمعت كيا، ابنة الست سنوات حينها، صفقة باب الشبك الخارجي. توقفت عن تنظيف بقايا حساء الذّرة من قدرها، وأنزلته في حوض الجلي المهترئ وهي واقفةٌ على الكرسي. لا صوت سوى صوت أنفاسها. من غادر الكوخ؟ ليست أمها. إنها لا تصفق الباب أبدًا.

رأت كيا، حين جرت إلى الشرفة، والدتها بتنورتها الطويلة البنّية، وبثنياتها التي تصل إلى كاحلها، متجهةً نحو الدرب الرّملي، ومنتعلةً

حذاءها العالي الكعب. كان ذلك الحذاء العريض الرّأس - حذاءها الرسمي الوحيد - مصنوعًا من جلد التمساح المقلّد. أرادت كيا أن تناديها بصوتٍ عالٍ، ولكنها كانت تعلم جيّدًا أنّها يجب ألّا توقظ والدها. ففتحت الباب ووقفت على الدرج المصنوع من الإسمنت والألواح الخشبية. رأت، من مكانها، حقيبة القطار الزّرقاء التي حملتها أمها. أدركت كيا، وبثقة الجرو الصغير، أن أمها ستعود ومعها قطعةٌ من اللحم ملفوفةٌ بورقة زبدةٍ بنية، أو بدجاجةٍ مدلّاة الرأس. لكنها لم ترتدي حذاء التمساح أبدًا، ولا حملت معها حقيبة.

كانت أمها تنظر دائمًا إلى الخلف حيث يلتقي الممشى مع الطريق، رافعةً إحدى يديها وملوّحةً بكفّها الأبيض، وهي تدخل الدّرب المتعرج عبر الغابة الموحلة بهورها كذيل قطة، متى فرض المد ذلك، حتى البلدة. ولكنها مضت اليوم قدمًا بخطواتٍ غير موزونة. كانت قامتها الطويلة تظهر وتختفي عبر الفتحات بين أشجار الغابة، حتى لم يعد يبدو منها سوى لمحاتٍ من الوشاح الأبيض بين أوراق الشّجر. جرت كيا إلى بقعةٍ تكشف الطريق؛ من المؤكّد أن الأم ستلوّح من هناك. ولكنها لمحت الحقيبة الزرقاء لدى وصولها - لونٌ غير متناسبٍ مع الغابة - وهي

تختفي. شعرت بثقلٍ سميكٍ كوحل القطن الأسود يضغط على صدرها وهي عائدة إلى الدرج لتنتظر.

كانت كيا صغرى الخمسة من أشقاء وشقيقات يكبرونها سنًا، ولكنها لم تذكر أعمارهم لاحقًا. كانوا يعيشون مع والدهم ووالدتهم، مكدّسين كالأرانب في كوخٍ بدائي، تحدق شرفته الأمامية، المغطاة بالشبك، بعيونٍ كبيرةٍ من تحت أشجار السّنديان.

خرج جودي، أقرب الأخوة لكيا، والذي يصغرها بسبع سنوات، من البيت ووقف خلفها. كان لديه نفس العيون الدّاكنة والشّعر الأسود. وهو من علّمها أغاني الطّيور، وأسماء النجوم، وكيفية الإبحار بالمركب بين الأعشاب المنشارية.

قال جودي: «ستعود أمي».

«لا أعلم. فهي تنتعل حذاء جلد التمساح».

«الأم لا تترك أطفالها. هذا ليس من طباعها».

«ولكنك أخبرتني أن أنثى الثعلب تترك صغارها».

«نعم، ولكن أنثى الثعلب تلك مزقت قائمتها. كانت لتموت جوعًا لو حاولت إطعام نفسها وأطفالها. فوجدت أنه من الأفضل أن تتركهم، وتعالج نفسها، ثم تنجب المزيد حين تستطيع تربيتهم بطريقة أفضل. أمّي لا تتضوّر جوعًا. ستعود». لم يكن جودي واثقًا كما أظهر، لكنه قالها لأجل كيا.

همست مختنقةً: «لكن أمي تحمل تلك الحقيبة الزّرقاء وكأنها ذاهبةٌ إلى مكان كبير».

يقع الكوخ خلف أشجار النخيل التي انتشرت عبر الرمال، وحتى الأهوار الممتدة كالعقد، وإلى السبخة ما وراءها. أميالٌ من الأعشاب المنشارية الصلبة لدرجة أنها نمت في المياه المالحة، تخللتها بضع أشجار انحنت لتتخذ شكل الريح. تجمعت غابات السّنديان حول الجهات الأخرى من الكوخ، وحمت الهور الأقرب، الذي اكتظ سطحه بالحياة التي حواها. هب الهواء المشبّع بالملح وأغاني النورس من البحر عبر الأشجار.

لم تتغيّر الملكية كثيرًا منذ القرن السّادس عشر، فلم تكن أراضي السبّخة المنتشرة محددةً قانونيًّا، بل طبيعيًا - جدولٌ هنا، وسنديانةٌ ميتةٌ

هناك - حددها خارجون على القانون. فالمرء لا يبني ملجًأ بين أشجار النخيل إلا إذا كان هاربًا من أحد، أو ضاقت به السبل.

كانت السبّخة محروسةً بساحلٍ ممزّق، دعاه المستكشفون الأوائل «مقبرة الأطلسي» لأن التيّارات العاتية، والرياح الهوجاء، والصخور الضّحلة، حطّمت السفن كالقبعات الورقية على امتداد ما سُمّي لاحقًا شاطئ كارولاينا الشمالية. كتب بحارٌ في مذكّراته: «أبحرنا على طول الشّاطئ... لم نجد مدخلاً..... ضربتنا عاصفة هوجاء..... أُجبرنا على الخروج إلى عرض البحر لحماية أنفسنا والسّفينة، وأبعدنا تيارٌ سريع».

«الأرض مليئة بالسّبخات والمستنقعات، ما نهانا عن الاستقرار فيها والعودة إلى هذه المنطقة؛ عدنا إلى سفينتنا».

استقر الباحثون عن أرضٍ حقيقية، وأصبحت هذه السبّخة السيئة السمعة شبكةً جرفت خليطًا غير متجانسٍ من البحّارة المتمردين، والهاربين، والمدينين، والهاربين من الحروب ومن الضرائب ومن القوانين التي لم يقبلوها. توالد من لم تقتلهم الملاريا، ومن لم يبتلعهم المستنقع، حتى أصبحوا قبائل من أهل الغابات تشكلت من أعراقٍ وثقافاتٍ متعددة، كان كل واحدٍ منهم قادرًا على اجتثاث غابةٍ بفأسٍ صغيرٍ لجني

دولاراتٍ معدودة.

كان لكلٍ مستعمرته، كفئران النهر. غير أنه كان عليه التأقلم مع حدوده، أو الاختفاء يومًا ما في المستنقع. انضمّ إليهم، بعد مئتي عام، العبيد الهاربون إلى السبّخة، والذين دعوا بالآبقين، والعبيد المحررون المفلسون والمحاصرون، والذين انتشروا في أرض الماء لضيق الخيارات.

كانت أرضًا قاسيةً ولكنها لم تكن يومًا قاحلةً. عجّ الماء والأرض بسرطانات الرمل، وجراد الماء، وطيور الماء، والأسماك، والقريدس، والمحار، والغزلان السمينة، والأوزات المكتنزة. لم يكن الباحث عن غذائه ليتضور أبدًا.

كنا في العام 1952، وكانت بعض الملكيات تعود لمجموعاتٍ لا يجمعها جامع منذ أربعة قرون. وعاد معظمها لما قبل الحرب الأهلية. احتل آخرون الأرض لاحقًا، وخاصة بعد الحرب العالمية، حينما عاد الرجال محطّمين ومعدمين. لم تحتجزهم السبّخة، بل صنّفتهم وكتمت أسرارهم كأي أرض مقدسة، لم يهتمّ أحدٌ بامتلاكهم الأرض لأنّ أحدًا لم يردها. كانت أرضًا يبابًا سبخة.

سنَّ ساكنو السبخة قوانينهم الخاصة، كما قطَّروا مشروبهم من الويسكي، لم تكن القوانين منقوشةً على الحجر، أو مسَّطرةً في وثائق، بل مطبوعةً على الجينات في أعماقهم. كانت قديمةً وطبيعية، كتلك التي فُقست من الصّقور أو اليمامات. يعود الإنسان إلى هذه الغرائز الهادفة إلى البقاء حين يحاصر أو ييأس. قوانينٌ سريعةٌ وعادلةٌ لأنها منقولةٌ من جيلٍ إلى آخر أكثر من الجينات الألطف. لم تكن مبنيةً على الأخلاق، بل على الحساب البسيط. تتحارب اليمامات ما بينها، كما الصقور.

لم تعد الأم يومها. لم يتحدث أحدٌ عن هذا الموضوع. أقلهم الوالد. كانت تفوح منه رائحة السمك المقرفة والمشروب. ضرب على غطاء القدر، وقد فاحت منه رائحة السمك والمشروب، وقال: «أين العشاء؟».

هز الأشقاء والشقيقات أكتافهم وقد غضوا النظر. شتم الوالد ومشى، عارجًا، عائدًا إلى الغابة. كانت هناك خلافات سابقًا. تركت الأم البيت مرةً أو مرتين من قبل، ولكنها كانت تعود دائمًا، وتغمر من يود الغمر.

طبخت الأختان الكبيرتان عشاءً من الفاصولياء الحمراء وخبز الذّرة، ولكنّ أحدًا لم يجلس إلى الطاولة، كما كانوا يفعلون مع أمهم. كان

كل واحدٍ منهم يسكب الفاصولياء من القدر، ويضع خبز الذرة فوقها، ثم يأكلها على فراشه الأرضي، أو على الأريكة الذاوية.

لم تستطع كيا الأكل. جلست على درج المصطبة ناظرةً إلى السبيل. كانت طويلةً نسبةً لسنها، ونحيلةً ذات بشرةٍ لوحتها الشمس بشدة، وشعرٍ أملسٍ غزيرٍ وأسودٍ كجناح الغراب.

أوقفت العتمة مراقبتها. يُغرق نقيق الضفادع صوت الخطوات. لكنها استلقت على سرير المصطبة مُصغِيةً، رغم ذلك. استفاقت، في ذاك الصباح فحسب، على نشيش الدهن في المقلاة الحديدية وروائح البسكوت المحمر في فرن الحطب. رفعت مئزرها وهرعت إلى المطبخ لتحضر الصحون والشوك وتنقي السوس من الجريش. كانت أمها تحضنها، في أغلب الفجور، وتبتسم وتقول: «صباح الخير يا ابنتي المميزة». ثم تقوم الاثنتان إلى أعمالهما اليومية كراقصتين. كانت الأم تغني بعض الأغاني الفولكلورية، أو تردد بعض أغاني الأطفال: «ذهبت هذه الخنوصة الصغيرة إلى السّوق»، أو تراقص كيا رقصة «الجترباغ»[1]، فتضرب أقدامهما الأرضية الخشبية إلى أن تسكت الموسيقى في الراديو الذي يعمل على البطاريات، فيبدو الراديو وكأنه يغني لنفسه في قعر

البرميل. في صباحات أخرى، كانت الأم تتحدث عن أشياء للبالغين لم تفهمها كيا، ولكنها اكتشفت أن كلمات أمها يجب أن تستقرّ في مكانٍ ما، فامتصّتهم في جلدها وهي ترمي المزيد من الحطب في فرن الطبخ، وتومئ برأسها وكأنها فاهمة.

ثم تأتي مهمة إيقاظ الجميع وإطعامهم. الوالد ليس هناك. للوالد وضعيتان: الصمت والصّراخ. كانت الأمور بخيرٍ حين يطول نومه، أو يغيب.

كانت الوالدة هادئةً هذا الصباح. بسمتها غائبةٌ، وعيناها حمراوان. كانت قد ربطت وشاحًا أبيضًا على أسفل جبينها بأسلوب القراصنة ولكن لون الندبات الأرجواني والأصفر كان باديًا. وضعت الأم أغراضها الشخصية في حقيبة القطار، مباشرةً بعد الفطور وحتى قبل غسيل الأطباق، وسارت على الدرب.

أخذت كيا موقعها مجددًا على الدرج في صباح اليوم التالي، وقد تسمرت عيناها على السبيل كنفقٍ ينتظر القطار. كانت السبّخة أمامها مغطاةً بضبابٍ منخفضٍ لامس أسفله الناعم الوحل. ضربت كيا الأرض بأصابع قدميها ولفت الأعشاب حول حشرات أسد النمل، ولكن الطفلة

ذات الست سنوات لا تستطيع المكوث طويلاً، فما لبثت أن مشت نحو الشاطئ مصغيةً للأصوات المنبثقة من بين أصابع قدميها. جلست على حافة المياه الصافية، مراقبةً الأسماك الصغيرة تتجوّل بين المناطق المشمسة والظلال.

ناداها جودي من غابة النخيل. حدّقت صوبه. قد يكون قادمًا بخبرٍ جديد. عرفت من حركته، خلال سعف النخيل الشوكية، أن أمهم ليست في البيت.

سألها: «هل تحبّين أن نلعب لعبة الاستكشاف؟».

«ولكنك قلت أنك كبير جدًّا على لعب الاستكشاف».

«كلا... مجرد كلام. لن أكبر على اللعب أبدًا. فلنتسابق».

ركضا عبر المسطحات المائية، ثم عبرا الغابة حتى وصلا الشّاطئ. صرخت عاليًا حين تجاوزها وضحكت إلى أن وصلا إلى السنديانة العظيمة التي مدّت أذرعها الضخمة فوق الرمل. كان جودي، وأخوهم الأكبر، قد مَسمَرا بعض الألواح الخشبية على الأغصان كبرج مراقبةٍ وقلعةٍ على الشجرة. كان معظمه قد تداعى، متدلّيًا من المسامير

الصدئة.

كانت، إذا سُمِح لها أن تساهم بالعمل معهم، تقوم بذلك كالعبدة جالبةً لإخوانها البسكوت الساخن المسروق من مقلاة أمها.

أما اليوم، فقد قال لها جودي: «أنت القبطان».

رفعت كيا يدها اليمنى وصاحت: «اطردوا الإسبان». كسرا عصيًا واستخدماها سيوفًا وهاجما علّيقة التوت، صارخين وطاعنين الأعداء.

ثم مشت نحو جذعٍ مليءٍ بالطحالب - متنقلةً بين الواقع والخيال - وجلست. انضم جودي إليها بصمت. أراد أن يقول شيئًا ليحول انتباهها عن ذِكر أمها، ولكن الكلمات لم تخرج منه، فتشاغل بمشاهدة ظلال حشرات الماء.

عادت كيا لاحقًا إلى درج المصطبة وانتظرت طويلاً، ولكنها لم تبك قط وهي تنظر إلى نهاية المسار، كان وجهها جامدًا، وكانت شفتاها مجرد خطٍ تحت عينين مترقبتين. ولكن أمهم لم تعد ذلك اليوم أيضًا.

2
جودي

1952

غادر شقيق كيا الأكبر، وأختاها، المنزل خلال الأسابيع التالية لمغادرة والدتهم، وكأنهم يتمثلون بها. كانوا قد تحمّلوا غضب أبيهم المحمر الوجه، والذي كان يبدأ بالصراخ، ثم يتصاعد الصراخ ليصبح ضرباتٍ من قبضة اليد، أو لكماتٍ بظاهر الكف، حتى اختفوا واحدًا تلو الآخر. كانوا قد قاربوا البلوغ أصلاً. نسيت كيا أعمارهم، لاحقًا، وأسماءهم الحقيقة. لم تذكر سوى أنهم كانوا يدعون ميسي ومورف وماندي. وجدت كيا كومةً من الجوارب تركتها أختاها على فراشها.

في الصّباح، حين كان جودي هو الأخ الوحيد الباقي، استفاقت كيا على قرقعة المقلاة ورائحة سمن الفطور. هرعت إلى المطبخ ظنًّا منها أن

أمها قد عادت لتقلي خبزًا أو كعكة ذرة. ولكن جودي كان واقفًا عند مدفأة الحطب، يحرّك حساء الذّرة. ابتسمت لتخفي خيبتها فربّت على رأسها، مشيرًا إليها بلطفٍ أن تلتزم الصمت. يستطيعان تناول الطعام لوحدهما ما لم يوقظا والدهما. لم يعرف جودي كيفية صنع البسكوت ولم يكن هناك قطع لحم الخنزير المقدد، فأعدّ حساء الذّرة والبيض المخفوق بدهن الحنزير، وجلسا معًا يتبادلان النظرات والابتسامات بصمت.

غسلا صحنيهما بسرعة، ثمّ ركضا خارجًا نحو السبّخة وهو في الطليعة. صرخ والدهما، في تلك اللحظة تمامًا، وعرج نحوهما. كان جسده يبدو وكأنه يتأرجح من ضعف الجاذبية، لنحافته غير المعقولة. كانت أضراسه صفراء كأسنان كلبٍ هرِم.

نظرت كيا إلى جودي: «نستطيع أن نركض ونختبئ في منطقة الطحالب».

أجابها: «لا بأس. ستكون الأمور بخير».

وجد جودي كيا، قبيل المغيب، جالسةً على الشّاطئ ومحدقةً نحو

البحر. لم تنظر كيا إليه حين اقترب منها، وأبقت عينيها على الأمواج المتصادمة. لكنها علمت، من طريقة كلامه، أن الوالد صفعه على وجهه.

«كيا يجب أن أغادر. لا أستطيع العيش هنا أكثر من ذلك».

كادت أن تستدير نحوه، ولكنها لم تفعل. أرادت أن تتوسل إليه كي لا يتركها وحيدةً مع والدها، ولكن الكلمات علقت في حلقها.

أضاف جودي: «ستفهمين حين تكبرين». أرادت كيا أن تصرخ لتقول أنها قد تكون يافعةً، ولكنها ليست غبية. كانت تدرك أن الوالد هو سبب مغادرتهم. ما يحيّرها أن أحدًا لم يصطحبها معه حين غادر. فكّرت بالمغادرة ولكنها لم تكن تعرف مكانًا تلجأ إليه، ولا تملك مالاً للحافلة.

نبّهها قائلاً: «كيا، انتبهي لنفسك. أتسمعين؟ إذا جاء أحدهم لا تذهبي إلى البيت. قد يحظون بك هناك. اركضي نحو السبّخة واختبئي خلف الشجيرات. أخفي آثارك دومًا. علّمتكِ كيف تفعلين ذلك. تستطيعين الإختباء من والدنا أيضًا». ودّعها، ولما لم تجبه، جدّ المسير متجاوزًا الشّاطئ نحو الغابات. التفتت، أخيرًا، وراقبته يبتعد.

قالت للأمواج: «هذه الخنوصة الصغيرة بقيت في البيت».

كسرت شرودها وأسرعت إلى الكوخ. نادت باسم جودي في الصّالة ولكن أغراضه كانت قد اختفت، وكان سريره الأرضي خاليًا من أغطيته.

غرقت في فراشه تشاهد ما تبقى من النهار ينزلق على الحائط. بقيّ الضّوء بعد الشّمس، كما يفعل دائمًا، وتجمع بعضه في الغرفة فاتخذت الأسِرّةُ وكومات الأغراض المبعثرة أشكالاً وألوانًا أكثر من الأشجار خارجًا.

فاجأها الجوع، شيءٌ مبتذلٌ حقًا. ذهبت إلى المطبخ ووقفت عند الباب. خلال حياتها كلّها، كانت الغرفة تأخذ دفئها من خبز الخبز وسلق الفاصولياء، أو فقاعات حساء السّمك. أما الآن، فالغرفة هادئةٌ ومظلمة. صرخت بصوت عالٍ: «من سيطبخ؟». كان بإمكانها أن تسأل: «من يريد الرقص؟».أشعلت شمعةً وحركت الرّماد الحار في مدفأة الحطب وأضافت قشًّا. ضغطت على منفاخ الهواء إلى أن استعر اللهب، فأضافت حطبًا. استخدموا البراد كخزانة صحونٍ لأن الكهرباء لم تصل إلى منطقة الكوخ. كانوا يبقون الباب مفتوحًا بمضرب الذباب للسيطرة على العفن. ورغم ذلك، بقيت عروقٌ من الفطور بلونها الأسود المخضرّ تنبت في

الشقوق.

أخرجت البقايا وقالت: «سأضع حساء الذرة في دهن الخنزير وأسخّنه». فعلت ذلك وأكلت من القِدْر. نظرت إلى الخارج منتظرةً والدها ولكنه لم يأتِ.

زحفت إلى سريرها على الشرفة حين أطلّ القمر غير المكتمل ولمس الكوخ أخيرًا - فراشٌ غير مرتبٍ وضع على الأرض، بشراشفٍ حقيقيةٍ مغطاة بورودٍ زرقاء كانت أمها قد اشترتها من عروضات الباحة - كانت كيا لوحدها ليلاً وللمرّة الأولى في حياتها.

كانت تقوم كل عدة دقائق، بدايةً، لتجلس وتنظر من النافذة. مترقبةً خطواتٍ قادمةً على ضوء القمر. كانت تعرف كل أشكال الأشجار التي تظهر هنا وهناك وتتتحرّك مع حركة القمر. كانت متشنجة لفترةٍ لدرجة أنها لم تستطع البلع إلا حين أصغت للأغاني المألوفة لضفادع الشّجر والجنادب والتي ملأت الليل. كانت هذه الأغاني أكثر بعثًا للراحة من أغنية: «ثلاثة فئران عميٍ مع سكّين حفر»[2]. حمل الليل رائحة الحلاوة. الرائحة الترابية للضفادع والسمندلات التي عاشت يومًا آخر مقرف الحرارة. نامت السبخة في حضن الضّباب المنخفض... ونامت كيا.

لم يأتِ والدها لثلاثة أيّامٍ. جلبت كيا الفجل من حديقة أمها وسلقته للفطور والغداء والعشاء. خرجت إلى قنّ الدجاج لتجلب بيضًا، ولكنها وجدته خاليًا من البيض والدجاج.

«أنتم أوساخ الدجاج. أنتم مجموعةٌ من أوساخ الدجاج». كانت تنوي رعايتها منذ مغادرة أمها ولكنها لم تفعل شيئًا. هربت الآن كسربٍ غير متجانسٍ لتقاقي بعيدًا خلف الأشجار. عليها أن تنثر بعض حبات الذّرة علّها تبقيها بالقرب منها.

ظهر والدها، في مساء اليوم الرابع، وبيده زجاجة خمر، واستلقى على سريره. دخل، في الصّباح التّالي، المطبخ وصرخ: «أين ذهب الجميع؟».

أجابته كيا دون النظر إليه: «لا أعلم».

«أنت كالكلب الهجين، لا تعلمين شيئًا. لا نفع لكِ كالأثداء على الخنزير الذّكر».

تسللت كيا بهدوءٍ خارج باب الشرفة، وذهبت باحثةً عن الصدف. اشتمّت رائحة دخان، فنظرت إلى الأعلى لترى سحابةً مرتفعةً من جهة

الكوخ. ركضت بأقصى سرعتها مقتحمةً الأشجار فرأت نارًا ملتهبةً في الفناء. كان والدها يرمي رسومات أمها، وفساتينها، وكتبها، في النار.

صرخت كيا: «كلاااااا». لم ينظر إليها، بل رمى راديو البطارية القديم في النار. أحسّت بالنار تلفح وجهها ويديها حين مدت يديها إلى الرّسومات، فدفعها اللهيب إلى الوراء.

هرعت عائدةً إلى الكوخ لتمنع والدها من إحضار المزيد، محدقةً بعينيه. رفع قبضته في وجهها ولكنها لم ترتدع. استدار فجأةً، وعاد عارجًا إلى مركبه.

غرقت كيا في مقعدها الإسمنتي والخشبي مشاهدةً رسومات أمها المائية للسبّخة تترمد. جلست إلى مغيب الشّمس حتى توهجت الأزرار كالجمرات، وذابت ذكريات رقص «الجيترباج» مع أمها في اللهيب.

تعلّمت كيا، خلال الأيام المقبلة، من أخطاء الآخرين، وربما من الأسماك الصغيرة، كيف تعيش مع والدها. ابتعدي عن طريقه، ولا تدعيه يراكِ. اهرعي من ضوء الشمس إلى الظلّ. كانت تستيقظ وتغادر البيت قبل استيقاظه، وتعيش في الغابة وفي الماء، ثم تأتي إلى المنزل لتنام

في سريرها على الشرفة في أقرب منطقةٍ تصل منها إلى السبّخة.

كان والدها قد حارب ضد الألمان في الحرب العالمية الثانية، حيث أصيبت عظمة فخذه بشظايا وتحطمت، فكانت آخر مصدرٍ لفخرهم. كان شيك الإعاقة الأسبوعي هو المصدر الوحيد لدخلهم. مرّ أسبوعٌ على مغادرة جودي فأصبح البرّاد فارغًا وبقي، بالكاد، القليل من الفجل. ولما دخلت كيا المطبخ صباح ذلك الاثنين، أشار والدها إلى قطعةٍ نقديةٍ مجعّدةٍ من فئة الدولار، وحفنةٍ من القطع النقدية المعدنية على طاولة المطبخ. قال لها: «ستؤمن هذه لك الطعام لمدة أسبوع». ثم أضاف: «ليس هناك شيء اسمه العطاء. كل شيءٍ له ثمن. سترتبين البيت وتجلبين الحطب للمدفأة وتغسلين الثّياب بهذا المال».

مشت كيا وحيدةً، وللمرة الأولى في حياتها، إلى قرية «باركلي كوف» لتشتري البقالة - ذهبت هذه الخنوصة الصغيرة إلى السوق - خاضت في الرمل العميق والوحل الأسود لأربعة أميال، حتى أضاء الجون أمامها، وربضت القرية على شاطئه.

أحاطت «الأفرغليدز»[3] بالبلدة، خالطة لهيبها الملحي بملح المحيط، الذي ارتفع مع المد العالي على الجانب الآخر من الشارع الرئيس. فصلت

السبّخة والبحر، معًا، تلك القرية عن العالم، فكانت صلتها الوحيدة به طريقٌ رئيسٌ من مسارٍ واحد، عرّج على البلدة فوق الإسمنت المتصدّع والحفر.

كان هناك شارعان: الشارع الرئيس، ويمتد مع واجهة المحيط وخط محلات «ويغلي بيغلي»، من جهة، و«ويسترن أوتو» من جهةٍ أخرى. وقبع المطعم بينهما. تناثرت بينهم محلات «كريسز فايف أند دايم»، وفرعٍ لـ شركة «بيني» يبيع عبر الكاتولوغ فقط، ومخبز «باركر»، ومحل أحذية «باستر براون». قبعت «صالة بيرة دوغ-غان» قرب «بيغلي»، والتي كانت تقدّم النقانق المشوية، والفلفل الأحمر الحار، والقريدس المقلي الملفوف بأوراقٍ على شكل مراكب. لا يدخل النساء والأطفال هذه الصّالة لأن ذلك غير لائق، بل فُتحت نافذةٌ في الحائط ليطلبوا النّقانق والكولا من الشارع. منع السود من استخدام الباب والشّباك.

يمتد الشارع الآخر، الشارع العريض، من الجادة القديمة مباشرةً إلى المحيط والشارع الرئيس، وينتهي هناك، ما يجعله التقاطع الوحيد في البلدة بين الشارع الرئيس، والشارع العريض، والمحيط الأطلسي. لم تكن

المخازن والدّكاكين متصلةً كما في معظم البلدات، بل كانت منفصلةً بأزقّةٍ صغيرةٍ وفارغة، يتخللها نبات الشوفان وأشجار النخيل، وكأن السبّخة قد تسللت هناك بين ليلةٍ وضحاها. أضفت الرياح الملحية القارسة على الأبنية المسقوفة بخشب الأرز لونًا كالصدأ. تقشرت إطارات النوافذ التي كان معظمها مطليًا بالأبيض والأزرق، وتشققت. بدت القرية، بشكلٍ عام، متعبةً من الجدل مع العناصر الطبيعية، فاستسلمت ببساطة.

ارتدى رصيف مرفأ المدينة جبالًا باليةً، وحضن طيور أبي جراب الهرمة، ممتدًّا إلى الجون القديم، والذي تعكس مياهه، حين يكون هادئًا، اللونين الأحمر والأصفر لمراكب صيد الروبيان. تمايلت الطرق الترابية، والمزينة ببيوت خشب الأرز الصغيرة، عبر الأشجار وحول الجون، وعلى امتداد شاطئ المحيط لطرفي الدكاكين.

كانت «باركلي كوف» بلدةً متخلفةً حقًا، توزعت مكوناتها هنا وهناك، حول مصبّات الأنهار والقصب، كعش طائر مالك الحزين رمته الرّياح.

وقفت كيا حيث التقت السبّخة بالطريق، وهي حافية القدمين

ومرتديةً ثوبها القصير. عضت شفتها وأرادت الهرب إلى البيت. لم تكن متأكدةً مما ستقوله للناس، وكيف ستحسب مال البقالة. ولكن الجوع قاهر. عبرت الشارع الرئيس ومشت مطأطأة الرأس نحو متجر «بيغلي ويغلي» على الرصيف الجانبي المحطم، والذي تظهر منه أجزاءٌ بين الفينة والأخرى بين أجمات العشب. سمعت، لدى اقترابها من «فايف ودايم» جلبةً خلفها، فقفزت جانبًا لحظة مرور ثلاثة صبيةٍ، أكبر منها سنًا بقليل، مسرعين على دراجاتهم الهوائية. نظر الولد الذي كان في المقدمة إلى الخلف ضاحكًا على الحادث الذي لم يقع، فاصطدم بسيدةٍ كانت خارجةً من المتجر.

«تشايس أندروز، عد إلى هنا! ثلاثتكم أيها الصبية». تابعوا السير لعدّة ياردات إضافية، ثم رأوا أنه من الأفضل لهم العودة إلى السيدة. الآنسة بيني برايس، سيدة مبيعاتٍ في معملٍ ومعرضٍ لبيع أدوات الخياطة. كانت عائلتها تملك أكبر مزرعةٍ خارج السبّخة. ورغم أنهم اضطروا إلى بيعها منذ زمن، فقد أكملت بيني حياتها كمالكة عقارٍ راقية. لم يكن ذلك سهلاً عليها لسكنها في شقةٍ صغيرةٍ فوق مطعم. كانت الآنسة بيني ترتدي عادةً قبعةً بشكل عمامةٍ من الحرير، وكانت القبعة

زهرية اللون هذا الصباح، وقد وضعت صباغ الشفاه الأحمر وبودرة الخدود الحمراء أيضًا.

أنّبت الصّبيان قائلةً: «أريد أن أخبر أمهاتكم عما فعلتم، أو الأفضل أن أخبر آباءكم. إنكم تركبون الدرّاجات بهذا الشكل على الرّصيف، وكدتم أن توقعوني أرضًا. ماذا تقول دفاعًا عن نفسك يا تشايس؟».

كانت درّاجته الأجمل. مقعدٌ أحمرٌ ومقودان مرتفعان من معدن الكروم. اعتذر قائلاً: «آسفون يا آنسة بيني. لم نركِ لأن تلك الفتاة اعترضت طريقنا». أشار تشايس الأسمر البشرة والأسود الشعر إلى كيا التي تراجعت ووقفت بحيث بانت جزئيًّا خلف شجرة الآس.

«لا تلقوا لها بالاً. لا تستطيعون ملامة الآخرين على خطاياكم حتى وإن كانوا قمامة السبّخة. عليكم الآن أن تقوموا بعملٍ حسنٍ للتعويض عما فعلتم. اذهبوا لمساعدة الآنسة آريال على نقل بقالتها إلى شاحنتها. ضعوا أطراف قمصانكم تحت بنطلوناتكم».

أجاب الصّبيان: «أجل يا سيّدتي». ثم قادوا دراجاتهم إلى الآنسة

آريال والتي كانت مدرستهم في الصّف الثّاني الأساسي.

كانت كيا تعلم أن أهل الصّبي ذو الشعر الأسود يملكون متجر «ويستيرن أوتو»، ولذا يركب الدراجة الأجمل، رأته ينزل صناديق ألواحٍ للتجارة من الشاحنة ويوضبها. لم تكلّمه كيا قط، ولا حتى الآخرين.

انتظرت لعدّة دقائق، ثم طأطأت رأسها وأكملت طريقها نحو المتجر. تمعنت كيا، داخل متجر «بيغلي ويغلي»، في اختيار الذّرة، ثم اختارت كيسًا بسعة رطلٍ واحدٍ يحتوي حبوبًا صفراء خشنة لأن لوحةً حمراء معلقةً من السقف أفادت - منتج الأسبوع - كما علّمتها أمها. تحرّكت ببطءٍ في الممر حتى لم يبقَ أي زبون واقفًا عند المحاسبة، ثم سارت ووقفت أمام موظفة الصّندوق السيدة سينجليتاري، والتي سألتها: «أين أمك؟». كان شعر السيدة سينجليتاري قصيرًا ومجدولاً بقوة، وأرجواني اللونّ كزهرة القزحية في ضوء الشّمس.

«تقوم بعملها المنزلي، سيدتي».

«حسنًا. أتحملين المال للذرة، أم لا؟».

«أجل سيدتي». ولأنها لا تعلم كيفية عد النقود، وضعت الدولار

بأكمله على الطاولة.

تساءلت السيدة سينجليتاري إذا كانت الطفلة تعرف الفرق بين القطع النقدية. فأعادت الباقي إلى كف كيا وببطء: «خمسة وعشرون، خمسون، ستون، سبعون، ثمانون، خمسة وثمانون، وثلاثة سنتات. لأن ثمن الذّرة اثنا عشر سنتًا». شعرت كيا بمغصٍ في معدتها. هل عليها أن تحصي شيئًا بالمقابل؟ حدّقت في متاهة قطع المال المعدنية في راحة يدها.

رقّت السيدة سينجليتاري وقالت: «حسنًا. انتهينا».

خرجت كيا مسرعةً من المتجر وهرعت بأقصى سرعتها نحو سبيل السبّخة. كان لديها متسعٌ من الوقت. نبّهتها أمها سابقًا قائلة لها: «لا تركضي في البلدة، وإلا سيظنّون أنك سرقتِ شيئًا». جرت كيا، لدى بلوغها الطريق الرّملي لنحو نصف ميل. ثم أكملت المسافة المتبقية مشيًا سريعًا.

رمت الذّرة في الماء المغلي كما كانت أمها تفعل، عند عودتها، وهي معتقدةٌ أنها تعرف طبخ الذرة. ولكن الخليط برمّته تحوّل إلى كرةٍ

محترقةٍ من الأسفل وبقيت نيئةً من الوسط. كان الحساء كالمطّاط، فلم تستطع أكل سوى قضمات قليلة، فبحثت مجددًا في الحديقة حتى وجدت بعض الفجل بين نبات العود الذهبي. سلقتهم والتهمتهم، لاعقةً القدر بصوتٍ مرتفع.

حاولت أن تتعلّم كيفية تحضير حساء الذّرة، في الأيام القليلة التالية، ولكن الخليط ظل يتجمد إلى حدٍ ما، رغم جهودها. اشترت، في الأسبوع التالي، عظام ظهرٍ ممهورةٍ ببطاقةٍ حمراء، وسلقتها مع الذرة وأوراق السلق الخضراء في خليط لزجٍ، فكان الطعم جيدًا.

كانت كيا قد غسلت الثّياب مرارًا مع والدتها من قبل، فتعلّمت كيف تفرك الثياب على لوح الحفّ تحت صنبور الباحة مع ألواح صابون الغسيل. كانت ثياب والدها رطبةٍ لدرجة أنها عجزت عن عصرها بيديها الصّغيرتين، ولم تستطع أن تصل إلى حبل الغسيل، فنشرتها، مبتلةً، على سعف النخيل عند حافة الغابة.

قامت هي ووالدها بالخطوتين التاليتين: العيش منفصلين في كوخٍ واحدٍ دون أن يريا بعضهما لأيام. كانا بالكاد يتحادثان. رتّبت شؤونها وشؤونه كامرأةٍ ناضجةٍ صغيرةٍ. لم تكن طبّاخةً ماهرةً لتحضر له الطّعام،

وهو لم يكن هناك على أية حال، ولكنها رتّبت سريره، ولملمت الأغراض المنثورة على الأرض، ومسحت، وغسلت الصّحون أغلب الأوقات. لم يطلب أحدٌ منها ذلك ولكنها كانت الطريقة الوحيدة لإبقاء الكوخ مرتّبًا حتى عودة والدتها.

كانت أمها دائمًا تقول أن قمر الخريف يَظهر لعيد ميلاد كيا. ورغم أنّها لم تستطع تذكّر تاريخ ميلادها، إلّا أنها في إحدى الليالي، وحين ارتفع البدر دائريًّا وذهبيًّا من جهة البُرَكِ، قالت لنفسها: «أعتقد أن عمري أصبح سبع سنوات». لم يذكر والدها أبدًا شيئًا عن الموضوع، وبالتأكيد لم يكن هناك قالب حلوى. لم يذكر شيئًا حول ذهابها إلى المدرسة أيضًا، وخافت - لعلمها بعواقب الحديث معه- من التطرّق إلى الموضوع.

كانت متأكدةً أن أمها قد تأتي لمناسبة عيد ميلادها، فارتدت في الصباح التالي لقمر الحصاد فستانها القطني الأبيض، وجلست محدقةً بالطريق.

أرادت كيا رؤية أمها ماشيةً باتجاه الكوخ، كما غادرته، بحذاء جلد التّمساح وتنورتها الطويلة. وحين لم يأتِ أحد، حملت قِدر حساء الذّرة،

وسارت نحو الغابة إلى شاطئ البحر. وضعت يديها حول فمها ورفعت رأسها للخلف، ثم أخذت تصرخ: «كيييووو كيييووو.. كيييووو». ظهرت بقعٌ فضّيةٌ في السّماء على امتداد الشاطئ وفوق الأمواج المتكسرة. قالت كيا: «ها هي قد أتت. لا أستطيع عدّ هذا الكم الكبير من طيور النّورس». زعقت الطّيور وحامت وانقضت، ودارت حول وجهها، ثم حطّت حين نثرت لها بعض حبوب الذّرة. هدأت الطّيور أخيرًا وأخذت تسوي ريشها. جلست كيا على الرّمل وثنت رجليها جانبًا. هبط نورسٌ على الرّمل بالقرب منها.

قالت له كيا: «اليوم عيد ميلادي».

3
تشايس

1969

كانت الركائز المتعفّنة لبرج النار تمتطي المستنقع الذي خلق مجساته الخاصة من الضّباب. بدت الغابة - باستثناء زعيق الغربان - وكأنها تتوقع شيئًا، حين تسلق الصّبيان بنجي مايسون، وستيف لونغ، وكلاهما في الثانية عشرة، وكلاهما أشقر، الدرج الرطب في صباح 30 تشرين الأول 1969.

قال ستيف لبنجي الذي كان خلفه: «لا يجب أن يكون الخريف حارًّا إلى هذه الدّرجة».

«صحيح. وكلّ شيءٍ هادىءٌ ما خلا الغربان».

نظرا بين الدرجات فصرخ ستيف: «أووووو. ما هذا؟».

«أين؟».

«انظر هناك. يبدو أن أحدًا يرقد في الوحل بثيابٍ زرقاء».

صرخ بنجي: «هاي. أنت. ماذا تفعل؟».

«أرى وجهًا ولكنه لا يتحرّك».

ركضا عائدين إلى الأرض وشقا طريقهما إلى الجانب الآخر من ركيزة البرج. كان الطّين المخضرّ يلتصق بأحذيتهم. كان ثمة رجلٌ مستلقٍ على ظهره وقد التوت ساقه اليسرى بشكلٍ مرعبٍ إلى الأمام من جهة الرّكبة. كانت عيناه وفمه مفتوحتان.

قال بنجي: «يا يسوع المسيح».

«يا إلهي. إنه تشايس أندروز».

«يجب أن نحضر الشريف».

«ولكن يجب ألّا نكون في هذا المكان».

«هذا لا يهم الآن. ستكون الغربان هنا في أية لحظة».

أدارا رأسيهما نحو النعيق، وقال ستيف عندها: «ربما على أحدنا البقاء هنا ليبقي الطيور بعيدًا عنه».

«أنت مجنون لو اعتقدْتَ أني سأبقى هنا بمفردي. وأعتقد أيضًا أنه يجب عليك ألّا تبقى».

أخذا درّاجتيهما وقاداهما نزولاً على الطّريق الرّملي اللزج، عائدين إلى الشارع الرئيس عبر البلدة، ثمّ أسرعا إلى داخل المبنى المنخفض السقف حيث جلس الشريف إد جاكسون على طاولته في مكتبٍ مضاءٍ بمصباحٍ كهربائيٍ وحيدٍ متدلٍ من أشرطة. كان إد ضخم الجثة ومعتدل الطول وشعره مائلٌ للأحمر. كان وجهه ويداه مكسوان بنّمشٍ باهت، وكان يقلّب صفحات مجلّة «سبورتس آفيلد».

دخل الصّبيان من الباب مسرعين ولم يطرقا الباب.

«أيّها الشريف....».

«هاي ستيف وبنجي. هل تسببتما بحريق؟».

«لقد رأينا تشايس أندروز مستلقيًا هناك في المستنقع تحت برج النّار. يبدو ميتًا. لا يتحرّك أبدًا».

لم تتعد السلطة القضائية لرجل قانونٍ حقل العشب المنشاري، ومنذ تأسيس بلدة «باركلي كوف» عام 1751. استخدم بعض الشرفاء، في أربعينات وخمسينات القرن العشرين، الكلاب لملاحقة المدانين من الأرض الرئيسة، والهاربين إلى السبّخة. وما زال المكتب يحتفظ ببعض الكلاب إن دعت الحاجة. ولكن جاكسون كان غالبًا ما يتجاهل الجرائم المرتكبة في المستنقع. لماذا نعترض قتل الجرذان للجرذان؟ولكن هذا تشايس. هب الشريف واقفًا، وأخذ قبعته عن الرّف وقال: «أروني».

خدشت فروع السنديان والبهشيّة البريّة شاحنة الدورية فيما كان الشريف يشق طريقه على الدرب الرّملي ومعه الدكتور فيرن مورفي بجسده الصحّي والرياضي، وشعره المائل للرمادي - طبيب البلدة الوحيد - تمايل الرجلان مع ألحان حفر الطريق لدرجة أن فيرن كاد أن يصدم رأسه بشبّاك السّيارة. كان الشريف والدكتور فيرن أصدقاءً ومتقاربي السن، اصطادا السّمك معًا، وكثيرًا ما تورّطا في المأزق نفسه. جلسا صامتين في وجه معرفة لمن تعود الجثّة القابعة في الوحل.

جلس ستيف وبيني في خلفية الشّاحنة ومعهما درّاجتاهما حتى توقّفت الشّاحنة.

«سيد جاكسون. إنه هناك خلف الشّجيرات».

خرج إد من الشّاحنة وقال للولدين: «اِبقيا هنا». ثمّ خاض في الوحل والدكتور مورفي إلى حيث يقبع تشايس. طارت الغربان بعيدًا لدى وصول الشّاحنة، لكنْ طيورًا أخرى، وحشرات، حامت فوقهم. تستمر الحياة الوقحة على نفس الوتيرة.

«حسنًا. إنه تشايس. لن يتحمل سام وباتي لوف هذه المأساة». كان آل أندروز قد اشتروا كل شمعة احتراق، ونظّموا كل الحسابات، ورتبوا كل بطاقة أسعارٍ داخل متجر «ويسترن أوتو» لأجل ابنهم الوحيد تشايس.

جلس فيرن القرفصاء بجانب الجثّة. أصغى إلى دقات القلب بسمّاعة الطبيب، ثم أعلنه ميتًا.

سأله أد: «كم مر على موته، برأيك؟».

«عشر ساعاتٍ على الأقل. سيعرف الطبيب الشّرعي بالتحديد».

«يبدو أنه تسلّق البرج بالليل، ووقع من القِمّة».

تفحّص فيرن جثة تشايس بسرعةٍ دون أن يحرّكها، ثم وقف

بجانب إد حدّق الاثنان بعيني تشايس اللتين كانتا تنظران إلى السماء من وجهه المنتفخ. ثم نظرا إلى فمه المفتوح. علّق الشريف قائلاً: «لطالما حذرت الناس في هذه البلدة أن شيئًا كهذا سيحدث».

كانا يعرفان تشايس منذ ولادته. وقد راقبا حياته تنتقل بسهولة ورويدًا من الطفولة السّاحرة إلى المراهقة الجذّابة؛ من كونه الظهير الربعي والنجم الساطع لفريق البلدة، إلى العمل مع أهله. أخيرًا يتزوّج أوسم رجلٍ بأجمل امرأةٍ. يستلقي الآن، وحيدًا، أقل احترامًا من المستنقع. لخطفة الموت القاسية، دائمًا، الكلمة الأخيرة.

كسر إد الصمت: «لا أفهم لماذا لم يهرع الآخرون طلبًا للمساعدة؟ عادةً ما يأتون زُرافاتٍ، أو على الأقل أزواجًا للمغازلة». تبادل الشريف والطبيب هز الرأس؛ كانا على ثقةٍ بأن تشايس، ورغم زواجه من امرأةٍ جميلة، قد يأتي بامرأةٍ أخرى إلى البرج. قال إد: «فلنرجع من هنا، وسنكوّن صورة أوضح عمّا حدث». قال ذلك رافعًا قدميه أكثر من اللازم في طريق عودته. «أيها الصّبيّان: ابقيا حيث أنتما. لا تصنعا أثارًا إضافية».

أشار إد إلى بعض آثار الأقدام التي تقود إلى الدرج عابرةً الأرض

الطريّة على بعد ثمان خطواتٍ تقريبًا من جثة تشايس وسأل الصّبِيّان: «هل هذه آثار أقدامكما؟».

أجاب بنجي: «أجل يا سيدي. هذا أقرب ما وصلنا إليه حيث رأينا أنه تشايس. يمكن أن تَرى هناك حيث تراجعنا».

التفت إد وقال: «حسنًا يا فيرن، هناك خطبٌ ما. لا يوجد آثار أقدامٍ بالقرب من الجثّة. لو كان تشايس مع أصدقاء أو مع أحدٍ آخر، لهرعوا إليه بمجرّد سقوطه، وتركوا أثار أقدامهم حوله، أو ركعوا بقربه، على الأقل ليروا إن كان حيًّا. انظر عمق آثار أقدامنا في هذا الوحل. ولكنْ لا آثار حديثة لغيرنا هنا. لا خطوات ذاهبةٌ إلى الدرج أو قادمةٌ منه. ولا خطوات للجثة».

«ربما كان وحيدًا. هذا يشرح كلّ شيء».

«حسنًا سأقول لك ما ليس مُفَسَّرًا. أين آثار أقدامه هو؟ كيف سار أسفل الممر، عبر هذه القذارة وصولاً إلى الدّرج، ثمّ تسلّق إلى القمّة، بدون أن يترك آثارًا لأقدامه؟».

4
المدرسة

1952

جلست كيا، حافيةً ووحيدةً في الوحل، بعد عيد ميلادها بعدة أيام، تشاهد شرغوفًا بدأت قوائمه تتشكل، ثم وقفت فجأةً. هدرت سيارة في الرّمال العميقة بالقرب من نهاية مسارهم. لا يأت أحدٌ بسيارته إلى هنا. ثمّ، سمعت همهمةً لأناسٍ يتحدّثون - رجل وامرأة - عبر الأشجار. ركضت كيا إلى الشجيرات، حيث تستطيع أن ترى القادمين وتكون قادرةً على الهروب في الوقت نفسه. كما علّمها جودي.

خرجت امرأةٌ طويلةٌ من السيارة تمشي متقلقلةً بحذائها ذي الكعب العالي، تمامًا كما فعلت أمها على المسار الرّملي. من المؤكد أنهم من الميتم وقد أتوا لأخذِها.

«أستطيع حتمًا أن أركض أسرع منها. ستقع وستضرب الأرض بأنفها أولاً بهذا الحذاء».

بقيت كيا متأهبةً وراقبت الامرأة وهي تدخل الشرفة إلى الباب الخارجي.

«يووووهوووو، هل من أحدٍ في المنزل؟ موظّفة تعقّب الغائبين هنا. أتيت لآخذ كاثرين كلارك إلى المدرسة».

كان هذا شيئًا جديدًا. حافظت كيا على صمتها. كانت متأكدةً أنه يجب عليها الذهاب إلى المدرسة في عمر الست سنوات. كانوا متأخرين لعامٍ واحد.

لم يكن لديها أية فكرةٍ عن كيفية التحدّث إلى الأطفال الآخرين، ولا إلى المدرّسين حتمًا، ولكنها أرادت أن تتعلم القراءة وما يلي رقم التسعة والعشرين.

«كاثرين يا حبيبتي. إن كنت تسمعينني أرجوك اخرجي. إنه القانون يا عزيزتي، يجب أن تذهبي إلى المدرسة. كما أنك سوف تحبينها

يا حبيبتي. ستحصلين على غداءٍ مجانيٍّ كلّ يوم. أعتقد أنهم يقدمون فطيرة الدجاج مع الخبز اليوم».

هذا أمرٌ آخر. كانت كيا جائعةً جدًّا. كانت قد سلقت بعض الذرة للفطور وخلطت معهم كسرات الصودا لغياب الملح. كانت على يقينٍ من أمرٍ واحدٍ في هذه الحياة: لا تستطيع أكل الذرة بدون ملح. أكلت فطيرة الدجاج مرّاتٍ قليلةٍ في حياتها، ولكنها لا زالت تتذكّر كسرات الخبز الذهبية، مقرمشةٌ من الخارج وطريةٌ من الداخل. لا زالت تحسّ بطعم الصلصة الكاملة وكأنها تحصل الآن. دفعتها معدتها، العاملة مستقلةً، للوقوف من بين أشجار النخيل.

«مرحبًا يا عزيزتي، أنا السيدة كولبيبير. لقد كبرتِ وأصبحتِ جاهزة للذهاب إلى المدرسة. أليس كذلك؟».

قالت كيا مطأطئة الرأس: «أجل سيدتي».

«لا بأس بأن تذهبي حافية القدمين. الأطفال الآخرون يذهبون بهذا الشكل أيضًا، ولكن لأنك فتاة صغيرة، يجب أن ترتدي تنورة. هل لديك فستان أو تنورة يا عزيزتي؟».

«أجل يا سيدتي».

«حسنًا. لنذهب ونلبسك ثيابك».

تبعت السيدة كولبيبير كيا عبر باب الشرفة وتخطتّ صفًا من أعشاش الطيور رتبتها كيا على طول الألواح. ارتدت كيا، فستانها الوحيد الذي يناسب قياسها وسترةً مزركشةً بحزام كتفٍ واحد مثبتٍ بدبوس.

«هذا مناسب يا عزيزتي. تبدين بحال جيد».

مدّت السيدة كولبيبير يدها. حدّقت كيا بيدها. لم تلمس شخصًا آخر منذ أسابيع، ولم تلمس غريبًا في حياتها كلّها. ولكنها وضعت يدها في يد السيدة كولبيبر التي قادتها أسفل الممر إلى سيارة فورد كريستلاينر، يقودها رجلٌ صامتٌ يرتدي قبّعةً رمادية.

جلست كيا في المقعد الخلفي للسيارة. لم تبتسم كيا ولم تشعر بالأمان كصوصٍ مغطىً بجناح أمه.

ثمة مدرسةٌ واحدةٌ للبيض في بلدة «باركلي كوف». ارتاد طلبة الصف الأول وحتى الثاني عشر المبنى ذا الطابقين في آخر الشارع الرئيس مقابل مكتب الشريف. للأطفال السّود مدرستهم الخاصّة وهي منشأةٌ

بطابقٍ واحدٍ من الإسمنت بالقرب من مدينة الملونين.

وجدوا اسمها، عندما أرشدوها إلى مكتب إدارة المدرسة، ولم يجدوا تاريخ الولادة في السجلات الوطنية للمواليد. فوضعوها في الصفّ الثاني بالرغم من أنها لم تدخل المدرسة من قبل. قالوا بأن الصف الأول كان مزدحمًا، على الحالين، وليس الأمر هامًا لأن أهل السبّخة لن يمكثوا في المدرسة أكثر من أشهرٍ معدودة، وقد لا يرونهم أبدًا بعد ذلك. سمعت أصداء أقدامهما عندما قادتها المديرة نزولاً إلى الصالة الواسعة، وأحست بالعرق فوق حاجبها. فتحت باب الصّف ودفعتها بلطفٍ إلى الداخل.

قمصانٌ مزركشة، وتنانيرٌ طويلة، وأحذية، الكثير من الأحذية، وبعض الأقدام الحافية، وعيون كلها شاخصة. لم تكن قد شاهدت هذا الكم من الناس من قبل. ربما دزينة. أرشدت المدرسة، السيدة آريال التي ساعدها الصبيان، كيا إلى طاولةٍ قرب آخر الصف. أخبروها أنها تستطيع وضع أغراضها في صندوقٍ خاصٍ بالصف، ولكنها لم تكن تملك شيئًا لتضعه.

عادت المعلمة إلى الأمام وقالت: «كاثرين، من فضلك قفي

وأخبري الصف ما هو اسمك الكامل».

تشنّجت معدتها.

«هيا يا عزيزتي. لا تستحي».

وقفت كيا وقالت: «الآنسة كاثرين دنيال كلارك». هذا هو اسمها الكامل كما أخبرتها أمها ذات مرة.

«هل تستطيعين تهجئة كلمة كلب».

وقفت كيا صامتةً تنظر إلى الأرض. كان جودي وأمها قد علّماها الأحرف. ولكنها لم تُهجّئ كلمةً لأحدٍ من قبل.

التوتّر يهز معدتها؛ بالرغم من ذلك جربت. «ب- ل - ك».

انفجر الضحك عبر مقاعد الصف.

صرخت السيدة آريال: «اسكتوا. اسكتوا جميعًا. نحن لا نسخر من بعضنا. أنتم أفضل من ذلك».

جلست كيا سريعًا في مقعدها عند مؤخرة الصف، محاولة الاختفاء كخنفساء جذوع الشجر تدخل جذع سنديانةٍ مشقق. انحنت

إلى الأمام، رغم توترها، وتابعت الدرس منتظرةً أن تتعلّم ما الرقم الذي يأتي بعد التاسعة والعشرين. كان كل ما أتت على ذكره الآنسة آريال هو الصوتيات، وردد الطلبة بعدها، بأفواهٍ مفتوحةٍ بشكلٍ دائري، أصوات أه، آآآه، أو، و أووووووو أنّوا جميعًا كاليمام.

ملأت رائحة الزبدة الحارّة للفافات الخميرة وشطائر المعجنات الصالات، حوالي الساعة الحادية عشرة، وتسللت إلى الغرفة. تمددت معدة كيا وتقلّصت بشكل مؤلم، وحين اصطف الطلبة للخروج إلى مقصف المدرسة، كان لعاب كيا يسيل. حملت صينية، مقلدةً الآخرين، وصحنًا بلاستيكيًا أخضر، وطبقًا مسطحًا. كان ثمة نافذةٌ في المقصف، بمنضدةٍ مفتوحةٍ على المطبخ، وأمامها مقلاةٌ كبيرةٌ مليئةٌ بفطائر الدجاج المقطّع بخبزٍ سميكٍ مقرمش، وصلصةٍ حارّةٍ تغلي. كان ثمة امرأةٌ سوداء طويلة، تبتسم وتنادي بعض التلاميذ بأسمائهم، سكبت شطيرةً كبيرةً في صحن كيا، ثم بعض الفاصوليا الصغيرة بالزبدة، ولفافة خميرة. حصلت أيضًا على حلوى الموز وعبوةٍ كرتونيةٍ من الحليب ووضعتهم على صينيتها.

ذهبت إلى منطقة الجلوس حيث كانت معظم الطاولات تعج

بطلبةٍ يتكلمون ويضحكون. تعرّفت على تشايس أندروز وأصدقائه، الذين كادوا أن يسقطوها عن الرصيف بدرّاجاتهم، فاستدارت بعيدًا وجلست إلى طاولةٍ فارغة. خانتها عيناها، لأكثر من مرةٍ خلال الدرس، ونظرتا نحو الصِّبية، لأنهم الوجوه الوحيدة الذين تعرفهم. ولكنهم، كالآخرين، تجاهلوها.

حدّقت كيا في الشّطيرة المليئة بالدجاج، والجزر، والبطاطا، وبعض البازيلاء، والمعجنات الذهبية البنّيّة التي تغطيها. تقدمت بعض البنات، بتنانيرهن الطويلة التي ترفل واسعًا بطبقات من قماش القرينول نحوها. كانت إحداهن طويلةً، ونحيلةً، وشقراء؛ وكانت الأخرى مليئةً بخدودٍ سمينة. تساءلت كيا كيف يستطعن تسلّق شجرةٍ أو حتى يصعدن على متن مركبٍ بهذه التّنانير. من المؤكد أنهن لا يستطعن ملاحقة الضفادع؛ حتى أنهن عاجزاتٌ عن رؤية أقدامهن.

حدّقت كيا، عندما اقتربن، بصحنها. ماذا ستقول لهن لو جلسن بجانبها. ولكنهن مررن بها مغرّداتٍ كالعصافير وانضممن إلى أصدقائهن على طاولة أخرى. جف فمها، رغم الجوع الذي أحسته بمعدتها، ما صعّب عليها بلع الطّعام. شربت الحليب كله، بعد عدة قضمات،

وحشرت كل ما استطاعت من شطائر في عبوة الحليب بحذر حتى لا يراها أحدٌ تفعل ذلك، ولفّتهم مع اللفافات بمنديلها.

لم تفتح فمها لبقية اليوم. حتى عندما سألتها المعلمة سؤالاً بقيت صامتةً. عرفت أنه من الأفضل أن تتعلم منهم، لا أن يتعلّموا منها. فكرت: «لماذا سأجعل من نفسي أضحوكةً؟».

أُخبروها، عندما دق الجرس، أن الحافلة ستنزلها قبل المسار بثلاثة أميال لأن الطريق رملية بكثافة، وأن عليها أن تمشي إلى الحافلة لتركبها في كل صباح. في طريقها إلى البيت، تأرجحت الحافلة في أخاديدٍ عميقة ومرّت على امتدادات من أعشاب الإسبارتينا. ارتفع صوت من الجهة الأمامية مناديًا: «الآنسة كاثرين دانيال كلارك» الفتاة الطويلة الضعيفة الشقراء، والأخرى المدوّرة ذات الخدين السمينين، الفتاتان اللتان رأتهما على الغداء، قالتا لها: «أين كنت يا دجاجة السبّخة؟ أين ستذهبين يا جرذ المستنقع؟».

توقفت الحافلة عند تقاطعٍ بدون لوحاتٍ في عمق الغابة. فتح السائق الباب وانطلقت كيا راكضةً لنصف ميلٍ تقريبًا، تنهدت لتأخذ نفسها، ثم هرولت كل الطريق حتى المسار. لم تتوقف عند الكوخ، بل

ركضت كل المسافة مرورًا بشجرات النخيل إلى البُرك، ثم نزولاً بالسبيل الذي يؤدي تحت ظلال شجرات السنديان الكثيفة إلى المحيط. خرجت إلى الشاطئ القاحل. كان البحر يفتح ذراعيه مرحبًا، والريح تحل جدائلها المجدَّلة حين توقفت عند خط المدّ. كانت على وشك البكاء، كما كان حالها طيلة النهار.

نادت كيا الطيور فوق هدير الأمواج المتلاطمة. غنى المحيط بالطبقة المنخفضة، فيما غنت النوارس بالطبقة العالية. حلقت النوارس دائريًا فوق السبّخة وفوق الرمل، وهي ترمي لهم قطع الشطائر ولفافات الخميرة على الشاطئ. هبطت الطيور وقد تدلت قوائمها وهي تجول بنظرها يمنةً ويسرة.

نقرت بعض الطيور الطعام بلطفٍ من بين أصابع قدميها، فضحكت من الدغدغة إلى أن انهمرت الدموع على خدّيها، ثم انفجرت بالبكاء من ذاك المكان الضيق تحت حنجرتها. لم تعتقد أنها سوف تتحمّل الألم، عندما فرغت العبوة، لخوفها من أن تتركها الطّيور وترحل كالآخرين. لكن النوارس احتلت الشّاطئ حولها وتجولت وهي تتبختر بأجنحتها الرمادية المفرودة. فجلست كيا أيضًا وتمنت لو استطاعت

جمعها وأخذها معها إلى المصطبة لتنام. تخيلتها ملمومة في سريرها، باقةٌ من الأجساد الزغبيّة الدافئة الريشية تحت غطاءٍ واحد.

سمعت كيا، بعدها بيومين، صوت سيارة فورد كريستلاينر تمخر في الرمل، فركضت نحو السبّخة، ماشيةً بقوةٍ عبر الجروف الرملية، تاركةً آثار أقدامٍ مسطحة كالنهار، ثم مشت على رؤوس أصابع قدميها داخل الماء متحاشيةً أن تترك آثار أقدام، نظرت إلى الخلف للتأكد، ثم انطلقت في اتجاه آخر. ركضت، لدى وصولها إلى الوحل، بشكلٍ دائريٍ لتخلق دلائل وهمية لتصعب ملاحقتها. وحين صلت إلى أرضٍ صلبة، عبرتها بصمتٍ وقفزت من فوق العشب إلى الأغصان، دون أن تترك أثرًا.

كانوا يأتون كل يومين أو ثلاثة، ولعدّة أسابيع. كان الرجل ذو القبعة يقوم بالبحث والملاحقة، ولكنه لم يستطع الاقتراب منها أبدًا. مرّ بعد ذلك أسبوع لم يأتِ فيه أحد. كان هناك نعيق الغربان فقط. وضعت يديها على ردفيها وراحت تنظر إلى المسار الخالي.

لم تعد كيا بعد ذلك إلى المدرسة أبدًا. عادت إلى مشاهدة طيور مالك الحزين وتجميع الصدف. حيث تستطيع أن تتعلّم شيئًا. قالت لنفسها «أنا أصلاً أعرف أن أهدل كاليمامة»، ثم أضافت: «هنا أتعلم

أفضل منهم. حتى مع أحذيتهم الجميلة».

بعد عدة أسابيع من ذهابها إلى المدرسة، وذات صباح، كانت الشمس محرقةً حين تسلقت كيا حصن أخيها على الشجرة بالقرب من الشاطئ، وأخذت تبحث عن سفنٍ مبحرةٍ ترفع علم الجمجمة والعظمتين المتعارضتين. صاحت كيا: «هوووووووو أيها القراصنة. هووووو!»، مثبتةً أن المخيلة تنمو في أكثر المناطق عزلةً. قفزت من الشجرة هاجمةً وقد جردت سيفها. شعرت بألمٍ في قدمها اليمنى، امتد كالنار إلى ساقها. ضعفت ركبتاها فوقعت على جانبها وصاحت. رأت مسمارًا صدئًا ملتصقًا عميقًا بباطن قدمها. صاحت: «يا أبي!». حاولت أن تتذكّر إن عاد أبوها إلى البيت في الليلة السّابقة. صاحت «ساعدني يا أبي»، ولكنها لم تسمع جوابًا. مدت يدها إلى الأسفل وسحبت المسمار بسرعة وصرخت لتغطّي الألم.

حرّكت يديها عبر الرمال بحركات سخيفةٍ، متذمّرةً. ثم جلست ونظرت إلى أسفل قدمها. لم يكن هنالك دمٌ، بل فتحة جرحٍ عميقةٍ وصغيرة. تذكرت مرض الكزاز في تلك اللحظة. تقلّصت معدتها وشعرت بالبرد. كان جودي قد أخبرها عن صبيّ داس على مسمار صدئ ولم يأخذ

لقاح الكزاز. أغلق فمه بإحكام، وصكت أسنانه حتى لم يعد يستطيع فتح فمه. ثم التوى عموده الفقري إلى الخلف كالقوس، ولم يتمكن أحد من فعل شيءٍ سوى مشاهدته يموت من التشنجات.

كان جودي واضحًا في نقطة معينة: عليك أن تأخذي اللقاح خلال يومين من وطء المسمار، وإلا فالموت محتوم. لم تكن لكيا فكرةٌ عن كيفية الحصول على أحد اللقاحات.

«يجب أن أفعل شيئًا. سأبقى في البيت منتظرةً أبي». ساح العرق على وجهها كحبات الخرز، فعرجت على الشّاطئ، حتى دخلت بين أشجار السنديان حول الكوخ حيث كان الجو أبرد.

كانت أمها تبلل الجروح بالماء المالح ثم تلفّها بالوحل الممزوج بكل أنواع الأدوية. لم يكن هناك ملحٌ في المطبخ، فعرجت نحو مجمّع مياه مالحة عند المدّ المنخفض. لمعت حفّاته كحبّات البلّور المتلألئة البيضاء. جلست على التراب مبللة قدمها بمحلول السبخة الملحي، محرّكةً فمها باستمرار، فتح، إغلاق، فتح، إغلاق، تثاؤبٌ ساخرٌ، حركة علك، أي حركةٍ تمنع الفم من التجمّد. تراجع المدّ بعد ساعة بما يكفي لحفر حفرةٍ في الوحل الأسود بأناملها ودفن قدمها بلطف داخل الأرض

الحريرية. منحها الهواء البارد وصيحات النسور قوة الاحتمال.

كانت جائعة جدًا عند العصر، فعادت إلى الكوخ. كانت غرفة الوالد لا تزال فارغةً، وقد لا يأتي إلى البيت لساعات. أبقت لعبة البوكر وشرب الويسكي الرّجل مشغولاً أغلب الليل. لم يكن هناك حبوب ذّرةٍ، ولكنها وجدت، بعد البحث، عبوةً صغيرةً قديمةً لسمنة كريسكو، فأخذت قسطًا صغيرًا من السمن ومدّته على بسكوتة الصودا. لم تستسغها في البداية، ولكنها أكلت خمس قطعٍ إضافية.

استلقت على سريرها عند المصطبة مترقبةً سماع مركب أبيها. تمزق الليل القادم ووثب، وأتى النوم بالتدريج، ويبدو أنها غرقت في النوم عند الصباح فاستيقظت والشمس تلفح وجهها.

فتحت فمها سريعًا؛ لا زال يعمل. تجوّلت ذهابًا وإيابًا بين مجمّع المحلول الملحي والكوخ إلى أن مضى يومان وفقًا لحركة الشمس. فتحت فمها وأغلقته. يبدو أنها نجت.

تساءلت ليلتها بعد أن التحفت بالشراشف التي تغطّي فرشة الأرض، وقدمها مغمسة بخلطة الوحل وملفوفة بخرقة، عما إذا كانت

ستفيق ميتةً. لا، تذكّرت، لن يكون الأمر بتلك السهولة، سيتقوس ظهرها وتلتوي أطرافها.

أحست بوخزٍ في أسفل ظهرها بعد دقائق، فجلست. «أووو، لا، أووو، لا. أمي. يا أمي». تكرر الإحساس أسفل ظهرها فأصمتها. تمتمت: «ليست أكثر من حكّة». أحسّت أخيرًا بالإرهاق فنامت، ولم تفتح عينيها إلى أن هدلت اليمامات في السنديانة.

سارت إلى مجمع الماء مرتين كل يومٍ لفترة أسبوع، وعاشت على البسكوت المالح وسمنة كريسكو، ولم يأتِ والدها إلى البيت قط. استطاعت أن تحرّك قدمها دائريًّا بدون تشنّج في اليوم الثامن، وتراجع الألم إلى سطح الجلد. رقصت قليلاً، مفضّلة الرقص على قدمها، فبكت عاليًا وقالت: «لقد نجوت، لقد نجوت!».

توجهت، في الصباح التالي، إلى الشّاطئ لتجد المزيد من القراصنة.

«أوّل ما سأفعله هو قيادة طاقمي لجمع المسامير كلها».

كانت تستيقظ باكرًا كل صباحٍ، مصغيةً لقرقعة طبخ أمها. كان فطور أمها المفضل البيض المخفوق من دجاجاتها، والبندورة الناضجة

المقطّعة، وقطعًا من خبز الذّرة المخبوز بقلي خليط من نشاء الذّرة، والماء، والملح في السّمن الحار، فتتقرمش جوانبه. قالت لها أمها مرّةً أنها لا تقلي شيئًا فعلًا حتى تسمع فرقعته من الغرفة الثانية، وكانت كيا دائمًا ما تسمع فرقعة هذه القطع تُقلى بالسمن حين تستفيق. كانت تشمّ رائحة دخان الذرة الأزرق الحارّ، أما الآن فالمطبخ صامتٌ وبارد. تركت كيا الشرفة وتسللت إلى البركة.

مرّت أشهرٌ، وحل الشتاء في تلك المنطقة بطيئًا كشتاءات الجنوب. كانت الشمس كشرشفٍ حارٍ يلف أكتاف كيا ويغريها بالسبّخة أكثر. كانت تسمع أحيانًا أصواتًا في الليل لا تعرف ماهيتها، أو تقفز خائفةً من رعدٍ قريب، فتتعثر وتتلقاها الأرضية. ثم انساب الألم من فؤادها كما ينساب الماء في الرمل. لا يزال هناك، ولكنه عميق. وضعت كيا يدها على الأرض المتنفسة الرطبة وأصبحت السبخة أمها.

5
تحقيق

1969

ارتفع حفيف زيزان الحصاد تحت الشمس اللئيمة. هربت كل أشكال الحياة الأخرى من الحرّ، مصدرةً همهمةً فارغةً من تحت الأعشاب.

قال الشريف جاكسون وهو يمسح جبينه: «فيرن، ثمة المزيد من العمل هنا، ولكن الأمر لا يبدو صحيحًا. لا تعلم زوجة تشايس ولا الناس أن تشايس مات».

أجاب الدكتور مورفي: «سأذهب وأخبرهم».

«أقدر لك ذلك. خذ شاحنتي. ابعث لنا سيارة الإسعاف لأجل

تشايس، وارسل جوي بشاحنتي. ولكن لا تخبر أحدًا آخر عما حصل. لا أريد لأحدٍ من أهل البلدة أن يتواجد هنا، وهذا ما سيحصل إذا ذكرت ما جرى».

حدق فرن، قبل المغادرة، طويلًا بتشايس، وكأنه نسي شيئًا. عليه، كطبيبٍ، أن يصلح الأمر. وقف هواء المستنقع الثّقيل خلفهم، منتظرًا دوره بصبر.

التفت إد للولدين وقال: «ابقيا هنا. لا أريد لأحد أن يثرثر عن الحادثة في البلدة، ولا تلمسوا أي شيءٍ هنا ولا تتسببوا بأي آثارٍ أخرى في الوحل».

أجاب بنجي: «أجل يا سيدي». ثم أضاف: «أنت تعتقد أن أحدًا قد قتل تشايس، أليس كذلك؟ لأنه لا يوجد آثار أقدامٍ هنا. ربما دفعه أحدهم؟».

«لم أقل شيئًا كهذا. هذا عمل شرطةٍ قياسي. ابقيا بعيدين عن عملنا أيها الصّبيان ولا تخبرا شيئًا مما تسمعونه هنا».

ظهر معاون الشريف جوي بورديو، وهو رجلٌ قصيرٌ بسوالف

سميكة، وهو يقود شاحنة الدورية بعد أقل من خمس عشرة دقيقة.

«لا أصدق ذلك. تشايس مات. لقد كان أفضل ظهير ربعي عرفته البلدة. هذا عبثٌ بعيد عن المنطق».

«معك حق. حسنًا، فلنبدأ العمل».

«ماذا أنجزت حتّى الآن؟».

ابتعد إد عن الأولاد وقال: «حسنًا، من الواضح، أنه في ظاهر الأمر، يبدو الأمر كحادث: وقع من البرج ومات. ولكنني لم أجد أي آثار أقدامٍ باتجاه الدرج أو آثار أقدام أحدٍ آخر. فلنرَ إن كنّا نستطيع أن نجد دلائل محاها أحدهم».

مشّط رجلا القانون المنطقة لعشرة دقائقٍ كاملة. قال جوي: «أنت على حق. لا يوجد أي أثرٍ عدا آثار أقدام الصبيين».

قال إد: «نعم، لا دليل أن أحدهم محى الآثار. ولكنني لا زلت لا أفهم. لنكمل وسأعمل على هذا لاحقًا».

أخذا صورًا للجثّة، ولوضعها، وما يحيط بها من آثار للأقدام،

وصورًا قريبةً للجروح، وللرِّجل المثنية بالشّكل الخطأ. سجّل جوي الملاحظات التي أملاها إد، سمعا صوت سيارة الإسعاف وهي تحكّ بجانبها الشجيرات على طول المسار، وهما يقيسان المسافة بين الجثّة والسبيل، كان السائق رجلًا أسود امتهن نقل الجرحى، والمرضى، والمحتضرين، والموتى، لعقود. أحنى رأسه احترامًا وقال مقترحًا: «حسنًا إذن. يداه لن تتسعان بسهولة، ولا نستطيع دحرجته لإدخاله بكيس الخيش. علينا رفعه وسيكون ثقيلاً، سيدي الشريف، أمسك رأسه، هذا جيّد. أجل، أجل». حملوه إلى سيارة الإسعاف قبيل الظهر، وكانت الجثة ملوثةً بالوحل.

قال إد للصبيّين أنه بإمكانهما الذهاب إلى بيتهما، حيث أن الدكتور مورفي كان قد أخبر أهل تشايس بوفاته، فبدأ هو وجوي بصعود الدرج الذي ضاق أكثر كلما ارتفعا طبقةً. ابتعدت زوايا العالم الدائريّة، كلما صعدا، أكثر فأكثر، واتسعت الأرض الخضراء، والغابات المدوّرة، وسبّخة الماء إلى الحوافِ البعيدة.

رفع جاكسون يداه وفتح بوابةً حديديةً عند وصولهما إلى الدرجة الأخيرة. أنزل البوابة، عندما صعدا إلى المنصّة، لأنها جزءٌ من الأرضية.

شكلت الألواح الخشبية المتشققة والرمادية بمرور الزمن، وسط المنصّة، ولكن المحيط حوى سلسلة من فتحاتٍ مربعةٍ قابلةٍ للفتح والإغلاق. كان السير عليها آمنًا متى أغلقت، أما إذا تركت إحداها مفتوحة، فقد تقع على الأرض من ارتفاع ستّين قدمًا.

أشار إد إلى الجانب البعيد من المنصّة، وقال: «هاي. انظر إلى هناك». كانت إحدى الفتحات مفتوحة.

قال جوي: «ما هذا؟». واتجها نحوها. نظرا عبرها إلى الأسفل، فرأيا الشكل المطابق لوضعية تشايس المشوّه حين غرق في الوحل. وقد تناثرت مواد لزجة مصفرّة ونبات طحلب البط على جوانبها كالرّسم بالبقع.

«هذا لا يُعقل». قال إد، وأضاف: «ينسى الناس أحيانًا إغلاق الفتحة فوق الدرج. كما تعلم، في طريقهم إلى الأسفل. وجدناها مفتوحةً عدة مرات، ولكن الفتحات الأخرى لا تُترك مفتوحةً أبدًا».

«لماذا قد يفتح أحد هذه الفتحة أصلًا؟ لماذا سيفتحها أيّ كان؟».

قال أد: «إلا إذا كان أحدهم يخطط لدفع أحدٍ آخر إلى موته».

«إذًا، لماذا لم يغلقوها بعد ذلك؟».

«لأنه لو وقع تشايس عبرها لوحده، فلن يستطيع إغلاقها. يجب أن تُترك مفتوحةً حتى يبدو الأمر وكأنه حادث».

«انظر إلى لوح عارضة الدعم أسفل الفتحة. إنه محطّم ومشظى كليًا».

«صحيح، أرى ذلك. من المؤكد أن تشايس قد صدم رأسه به عند سقوطه».

«سأصعد خارجًا لأبحث عن دمٍ أو عيّنة شعر. سأجمع بعض الشظايا».

«شكرًا جوي. وخذْ صورًا قريبة. سأجلب حبلاً لتثبيتك. لا نحتاج لجثتين في هذه القذارة في يومٍ واحد. وعلينا أن نأخذ البصمات عن هذه الفتحة، وفتحة الدرج، وحاجز الشرفة، وحاجز الدرج. أي شيء قد يكون لمسه أحد. واجمع أي عينة من الشعر أو الخيطان».

مطا ظهريهما بعد ساعتين من الميلان والانحناء. قال إد: «لا أقول أن هناك خطبًا. من المبكر جدًا الحكم بذلك. وعدا عن ذلك، لا أعرف

أحدًا قد يريد قتل تشايس».

قال النائب: «حسنًا، أقول أنه ثمة لائحةٌ منهم».

«مثل من؟ عمّا تتكلم؟».

«هيّا إد. أنت تعلم كيف كان تشايس. بشبقه ونزواته كثورٍ محبوسٍ أفرج عنه. قبل زواجه وبعد زواجه، مع عازبات ومع متزوجات. رأيت كلابًا شهوانية حول كلبةٍ شبقةٍ يتصرّفون أفضل منه».

«هيا، لم يكن بهذا السّوء. عرف عنه أنه زير نساء. ولكني لم أرَ في هذه البلدة من يرتكب جريمةً لأجل ذلك».

قال جوي: «أنا فقط أقول أن هناك من لم يحبّه. بعض الأزواج الغيورين. قد يكون شخصًا يعرفه. كلنا نعرفه. ليس من المنطق أن يصعد تشايس إلى هنا مع غريب».

«إلا إن كان غارقًا بالدّين لأحدهم من خارج البلدة. أحدٌ لم نعرف عنه. ورجلٌ قويٌّ كفايةً ليدفع تشايس أندريوز. ليست بالعملية السهلة».

قال جوي: «أستطيع أن أفكر ببعض الأشخاص الذين يملكون هذه المقدرة».

6
مركبٌ وصبي

1952

دخل الوالد المطبخ، ذات صباح، حالقًا ذقنه ومرتديًا قميصًا مجعّدًا بياقةٍ مزررة، وقال أنه ذاهبٌ بالقطار إلى «آشفيل» لمناقشة بعض الأمور مع الجيش. اعتقد أنه يستحق مبلغًا أكبر مقابل الإعاقة، وسيذهب لبحث الأمر، ولن يعود قبل ثلاثة أو أربعة أيام. لم يخبر كيا من قبل عما ينوي فعله، أو إلى أين سيذهب، أو متى سيعود، فوقفت هناك بمئزرها البالغ القصر، وحدّقت به صامتةً.

«أعتقد أنك ستغادرين كالآخرين أيتها الصّمّاء البلهاء». قال ذلك وصفق الباب الخارجي خلفه.

راقبته كيا يعرج على طول الممر، وتتأرجح رجله اليسرى إلى

اليسار، ثم إلى الأمام. عقدت أناملها. قد يهجرها الجميع واحدًا تلو الآخر عبر هذا المسار. التفت فجأةً إلى الخلف، حين بلغ الطريق، فرفعت يدها عاليًا ولوحت بقوة. كانت محاولةً لإبقائه مربوطًا. رفع الوالد يده سريعًا بتحيةٍ سريعة. كان ذلك شيئًا. كان أكثر مما فعلته أمها.

اتجهت، من هناك، إلى الهور، حيث انعكس الضّوء الباكر على أجنحة مئات اليعاسيب. أحاطت شجرات السنديان والشجيرات الكثيفة بالماء، مظلّمةً المكان كالكهف، وتوقفت فشاهدت مركب والدها مبحرًا. لو أنها أخذت المركب إلى السبّخة واكتشف أبوها ذلك لكان ضربها بحزامه. أو بالمجداف الذي يتركه عند الشرفة؛ والذي كان جودي يدعوه «مضرب الاستقبال».

قد يكون شوقها للذهاب بعيدًا هو الذي دفعها نحو المركب، قاربٌ تعيسٌ بقعرٍ معدنيٍ مسطّح استخدمه الوالد لصيد السّمك. استخدمته طيلة حياتها، عادةً مع جودي. كان يسمح لها، أحيانًا، بقيادة المركب. حتى أنها كانت تعرف الطريق عبر الأقنية المعقّدة ومصبّات الأنهار التي تجولت بين خليط الماء واليابسة، واليابسة والماء، حتى البحر. ورغم أن المحيط كان خلف الأشجار المحيطة بالكوخ، إلا أن

الطريق الوحيد للوصول إليه بالمركب كان بالاتجاه المعاكس، إلى الداخل، بالإبحار لأميالٍ في متاهةٍ من الطرق المائيّة الموصلة، أخيرًا، إلى البحر.

لكن كونها بسن السابعة، وكونها فتاة، منعها من أخذ المركب خارجًا بمفردها. كان يطفو هناك، مربوطًا بحبلٍ قطنيٍ وحيدٍ إلى جذع شجرة. غطت أرضية القارب أقذارٌ رمادية اللون، وبقايا متعفنة، وعدة صيدٍ باليةٍ، وعلب بيرةٍ فارغة متناثرة ومتهتكة. قالت بصوتٍ عالٍ وهي تصعد إلى القارب: «يجب أن أتفقّد الوقود كما قال جودي حتى لا يعرف والدي أني استعملته». أدخلت قصبةً مكسورةً في الخزان الصدء، وقالت: «أعتقد أنه كافٍ لرحلةٍ قصيرة».

نظرت حولها، كأي سارقٍ محترف، وحررت الحبل القطني من جذع الشّجرة وجدفت إلى الأمام بالمجداف الوحيد. انفرجت غيمة اليعاسيب أمامها.

لم تستطع المقاومة، فسحبت حبل التشغيل قافزةً إلى الخلف عندما انطلق المحرّك، فبصق، وأخرج دخانًا أبيضًا. أمسكت بالدفة وفتحت الصمام إلى أقصى مداه، فقام القارب بانعطافٍ حاد، والمحرّك يزعق. تركت الصمام ورمت يديها عاليًا، فأبحر القارب مخرخرًا.

حين تكون في مأزق، استرخِ. عد إلى الخمول.

زادت السرعة بلطف، ودارت حول شجرة السّرو القديمة الواقعة خلف الأغصان المكومة لجحر السّمّور، بط، بط، بط. ثم حبست أنفاسها، ووجّهت المركب نحو مدخل البركة، المستتر بالعليقة. انحنت تحت الأغصان المعلّقة للأشجار العملاقة، وتحرّكت ببطءٍ عبر الأجمة لأكثر من مئة ياردة، كما تخرج السلاحف من برك الماء. لونت فرشةٌ عائمةٌ من نبات طحلب البط الماء بخضرةٍ كخضرة أوراق الشجر فوقها، فخلقت نفقًا من الزمرّد. تفرّقت الأشجار، أخيرًا، فدخلت مكانًا فيه سماءٌ واسعةٌ وأعشابٌ ممتدة، ونعيق طيور. ترائى لها، ما يراه الصّوص، حين يكسر قشرة البيضة.

أبحرت كيا، فتاةٌ صغيرةٌ كالنقطة، في قارب، تنعطف هنا وهناك وقد امتدت أنهارٌ متداخلةٌ لا حصر لها أمامها. «ابقي على جهة اليسار عند كل المنعطفات لدى الخروج»، كما قال جودي. أبحرت بالقارب عبر التيار، دون لمس الصمام، مبقيةً الصوت منخفضًا. رأت غزلانًا صغيرةً ذات ذيلٍ أبيضٍ، من مواليد الربيع الماضي، تلعق الماء، حين استدارت

حول حقلٍ من القصب. رفعت الغزلان رؤوسها بسرعةٍ فتناثر الماء منها في الهواء. لم تتوقف كيا حتى لا تهرب الغزلان، درسٌ تعلّمته من مراقبة ديوك الرومي البرّية: إن تصرّفت كمفترسٍ، تصرفت كطرائد. تجاهلها وامض الهوينا. مرت بها، فوقفت الغزلان ثابتةً كشجرةٍ صنوبرٍ إلى أن اختفت كيا خلف أعشاب الملح.

دخلت أهوارًا مظلمةً عند ممر أشجار السنديان وتذكّرت قناةً على الجانب البعيد تصب في نهرٍ عظيم. وصلت إلى نهاياتٍ مغلقةٍ عدة مرات، وكان عليها أن تأخذ منعطفًا آخر. أبقت كل علامات المكان الطبيعية في ذهنها حتى تستطيع العودة. أصبح مصبّ النهر أمامها، أخيرًا، وامتد الماء ليلتقط السماء كلها، والسحب من ضمنها. إذا تراجع المدُّ بشكلٍ كافٍ، بأية لحظة، فستصبح بعض الأقنية ضحلةً، وسيعلق مركب كيا بالأرض، وسيجنح المركب.عليها العودة قبل ذلك.

التفّت حول شملةٍ من الأعشاب الطويلة، فعبس المحيط بوجهها فجأةً - رماديٌّ، صارمٌ، ونابضٌ. اصطدمت الأمواج ببعضها البعض، مغتسلةً بلعابها الأبيض، وتناثرت على الشّاطئ بانفجارٍ عالٍ - طاقةٌ تبحث عن موطىء قدمٍ على الشاطئ. ثم تتمدد لتصبح ألسنةً هادئةً من

الرّغوة، تنتظر الجيشان التالي.

سخرت الأمواج منها وتحدتها أن تتجاوزها وتدخل البحر، لكن شجاعتها خانتها من دون جودي. كان وقت العودة قد حان أصلًا. كبرت طلائع الرعد غربي السماء، مكونةً نباتات فطرٍ عظيمةٍ ورمادية، تضغط على حواشيها. لم يكن ثمة آخرون، ولا حتى قوارب في المدى البعيد، ففوجئت، حين دخلت مصب النهر الكبير ثانيةً، بوجود صبيٍ بالقرب من أعشاب السبّخة، يصطاد السّمك من منصّة ضخٍّ ثانيةٍ مهدمة. يأخذها خط سيرها لمسافة عشرين قدمًا فقط منه. كانت تبدو الآن كفتاة مستنقعٍ بحق - شعرٌ متشابكٌ ووجناتٌ مغبرةٌ مخططةٌ بدموع الرّيح.

لم يشعرها الوقود القليل ولا تهديد العاصفة بالتوتر كرؤية شخصٍ آخر، وبالتحديد صبيّ. كانت أمها قد أخبرت أخواتها الكبريات عنهم؛ يتحول الرجال إلى مفترسين إن بدوت مغريةً. زمت شفتيها وفكّرت، «ماذا سأفعل؟ علي المرور به». رأت، من طرف عينها، أنه نحيفٌ وقد حشر خصلات شعره الشقراء تحت قبعة بيسبول حمراء. بدا أكبر منها بكثير، إحدى عشرة سنة، أو ربما اثنتا عشرة. كان وجهها متجهّمًا وهي

تقترب منه، ولكنه ابتسم لها بحرارة وترحيب، ولمس طرف قبعته كرجلٍ راقٍ يحيي سيدةً راقيةً ترتدي فستانًا طويلاً وقبّعة. أومأت برأسها قليلاً، ثم نظرت إلى الأمام، وزادت الضغط على الصمام وهي تمر به.

كان شغلها الشاغل الآن هو العودة إلى طريق معروفة، ولكنها أخذت المنعطف الخطأ في مكان ما، لأنها عجزت عن إيجاد القناة المؤدية إلى المنزل حين وصلت إلى الخط الثاني من البرك. أخذت تدور في مكانها، وبحثت بالقرب من جذوع السنديان وأجمات الآس. ابتدأ الذعر ينتابها ببطء. بدت الضفاف العشبية وجروف الرّمل والمنحنيات متشابهة. أطفأت المحرّك ووقفت مصعوقةً في وسط القارب محاولةً التوازن بساقين منفرجتين، ومحاولة الرؤية فوق حقل القصب، ولكنها لم تستطع. جلست. كانت تائهةً، والوقود قليلٌ، وثمّة عاصفةٌ قادمة.

شتمت أخاها لأنه غادرها، مستعيرةً الألفاظ من أبيها: «تبًّا لك جودي! ليتك تبرِّز النار وتهوي فيها، تبرِّز النار وتهوي فيها».

نشجت مرةً حين انجرف المركب في تيّارٍ لطيف. تجمعت السحب بمواجهة الشمس، تحركت بكثافةٍ ولكن بصمت، مبعدةً السّماء ومشَكِّلةً ظلالاً فوق الماء الصافي. قد تبدأ العاصفة في أية لحظة. أما الأسوأ من

ذلك فهو أنها لو تجوّلت كثيرًا فسيعرف والدها أنها أخذت القارب. تقدمت إلى الأمام علّها تجد ذلك الصّبي.

وجدت منعطفًا بعد بضع دقائق عند جدولٍ وكان مصب النهر الكبير أمامها، وكان الصبي في قاربه على الجانب الآخر. حلّقت طيور المالك الحزين، خطًّا من الأعلام البيضاء في مقابل الغيوم الرمادية المتصاعدة. حدقت فيه وهي خائفةٌ من الاقتراب منه، وخائفةٌ من عدم الاقتراب. انعطفت، أخيرًا، عند مصب النهر.

نظر إليها عندما اقتربت.

قال لها: «هاي».

«هاي». نظرت خلف كتفه باتجاه حقل القصب.

سألها: «إلى أين تذهبين على أية حال؟ أرجو ألا تكوني خارجةً، فالعاصفة قادمة».

أجابته وهي ناظرةٌ إلى الماء: «كلا».

«هل أنتِ بخير؟».

حبست النشيج وأومأت برأسها ولكنها لم تتكلم.

«هل أنتِ تائهة؟».

أومأت برأسها ثانيةً، لم تكن لتبكي كالفتيات.

«حسنًا إذًا. أنا أتوه كل الوقت». قال ذلك وابتسم: «هاي. أنا أعرفكِ. أنت أخت جودي كلارك».

«كنت أخته. لقد رحل».

«حسنًا، لا زلتِ أخته...»، ولم يكمل.

«كيف تعرفني؟». ووجهت نظرةً سريعة ومباشرة إلى عينيه.

«أوه، كنت أصطاد السّمك مع جودي في بعض الأحيان. رأيتك مرّتين. كنتِ فقط طفلةً صغيرةً. أنت كيا، أليس كذلك؟».

صدمت؛ ثمة من يعرف اسمها. تحررت من شيء لترسو في شيء آخر.

«نعم، هل تعرف كيف نصل إلى منزلي من هنا؟».

«أعتقد أني أعرف. وحان الوقت أصلًا». أشار إلى الغيوم. وقال:

«اتبعيني». سحب خيط الصيد ووضع العدة في الصندوق وشغل محرك قاربه. اتجه نحو النهر ولوح لها فتبعته.

أبحر ببطءٍ واتجه إلى القناة الصحيحة مباشرةً. نظر إلى الخلف ليتأكد أنها أخذت المنعطف الصحيح، ثم أكمل سيره. فعل ذلك عند كل منعطفٍ حتى سنديانات الهور. أدركت، حين انعطف نحو الطّريق المائي المظلم باتجاه البيت، أين أخطأت بالطريق، وكانت على يقينٍ أنها لن تكرر الخطأ مرة أخرى.

قادها - حتى بعد أن لوّحت له أنها باتت تعرف الطريق - عبر الهور وحتى الشاطئ حيث قبع كوخها في الغابة. اقتربت من الصّنوبرة الغارقة بالماء وربطت المركب. ابتعد الصّبي عن مركبها، وتراقص المركبان في موجاتهما المتعاكسة.

«هل أنتِ بخير الآن؟».

«أجل».

«حسنًا. العاصفة قادمةٌ، فعليَّ أن أذهب».

أومأت برأسها، ثم تذكرت ما علمتها إياه أمها، وقالت: «شكرًا

لك».

«لا عليكِ إذًا. اسمي تايت في حال رأيتني مستقبلًا».

لم تجِبهُ، فقال لها: «إلى اللقاء».

بدأت حبيبات المطر البطيئة تتراقص على ساحل الهور فيما توجه نحو المخرج، فقالت: «ستمطر كثيراً؛ وسيتبلل هذا الصبيّ تمامًا».

انحنت فوق خزّان الوقود وأدخلت قصبتها للقياس، واضعة يديها عند الفتحة حتى لا يدخل المطر إليه. قد لا تعرف كيف تعد النقود، ولكنها تعرف أنها يجب ألا تسمح للماء بالدخول إلى خزان الوقود.

«الوقود منخفضٌ جدًّا. سيعرف والدي. عليَّ أن أملأ صفيحةً من زيت سينج قبل أن يعود والدي».

كانت تعلم أن المالك، السيد جوني لاين، ينعت عائلتها بزبالة المستنقع، ولكن التعامل معه، ومع العاصفة، ومع حركة المد تستحق العناء، لأن كل ما تستطيع التفكير به الآن هو العودة إلى مساحة العشب والسماء والماء. كانت لتخاف وحدها، ولكن الأمر حمل همهمة

حماسية. كان هناك شيء آخر أيضًا. هدوء الصّبي. لم تلتق من قبل بمن يتكلم أو يبحر بهذا الثبات. كان واثقًا من نفسه وهادئًا. خف توترها لقربها منه، ولم تكن أصلًا قريبةً جدًا منه. تنفست دون ألمٍ، وللمرّة الأولى بعد مغادرة أمها وجودي، شعرت بشيء آخر غير الألم. احتاجت للمركب وللصبي.

تنزه تايت والكر، بعد ظهر ذاك اليوم، في القرية ممسكًا بعمود المقود في دراجته. حيّا الآنسة بانسي في متجر «فايف أند دايم»، مارًا بمتجر «ويسترن أوتو» حتى وصل إلى حافة رصيف ميناء البلدة. تفحّص البحر باحثًا عن مركب أبيه لصيد الروبيان، «فطيرة الكرز» ورأى صباغه الأحمر اللامع بعيدًا، وجوانب الشبكة الواسعة تهتزّ مع الأمواج. لوح للمركب حين اقترب، مشيّعًا بسحابته الخاصة من النوارس، فرفع والده، وهو رجل ضخمٌ بأكتاف كالجبل، وشعر ولحيةٍ أحمرين كثيفين، يده بالهواء تحيةً. رمى سكوبر كما يدعى في البلدة، الحبل إلى تايت فربطه، وقفز على متن القارب ليساعد الطاقم على إفراغ الصيد.

عبث سكوبر بشعر تايت قائلاً: «كيف حالك يا بني؟ شكرًا لمجيئك».

ابتسم تايت وأومأ. «بالتأكيد». انشغلا مع الطاقم في وضع الروبيان في أقفاصٍ، وإنزالها على الرصيف، متواعدين ليأتوا بالبيرة من متجر «دوغ غان»، وسائلين تايت عن المدرسة. كان سكوبر أطول من الآخرين بشبر، فحمل ثلاثة صناديق شبكيةٍ معًا عبر لوح العبور الخشبي، وعاد لأخذ المزيد. كان كفاه بحجم كف الدب، وقد تشققت عقدهما وتجرحت. غسل متن القارب بعد أقل من أربعين دقيقةٍ ووضبت الشباك، وربطت خيوط الصيد.

أخبر الطاقم أنه سيلتقي بهم في يومٍ لاحقٍ ليحتسوا البيرة؛ كان عليه القيام ببعض التعديلات قبل ذهابه إلى البيت. وضع سكوب أسطوانة 78 لميليزا كورجاس على المشغّل الموصول بالمنصّة في حجرة القيادة، ورفع الصوت. نزل وتايت إلى الأسفل وحشرا نفسيهما في غرفة المحرّك، حيث أعطى تايت العدّة لوالده، الذي شحم أجزاءً وشد براغٍ على ضوءٍ المصباح الضعيف. علا صوت الأوبرا السامي الجميل، في هذه الأثناء، عاليًا في السّماء.

هاجر جدّ سكوبر الأكبر من اسكوتلاندا. تحطمت سفينته مقابل شاطئ كارولاينا الشمالية في الستّينات من القرن الثامن عشر وكان هو

الناجي الوحيد. سبح إلى الشّاطئ ووصل إلى منطقة آوتر بانكس حيث وجد لنفسه زوجة وأنجب ثلاثة عشرة طفلاً. يستطيع الكثيرون العودة بجذورهم إلى السّيد ووكر الأكبر، ولكن سكوبر وتايت انعزلا عن الآخرين. كانا نادرًا ما يجتمعا مع أقربائهما في نزهات الأحد حيث يتشارك الجمع السَلطة، والدجاج، والبيض المطهو بالتوابل، كما كانا يفعلان عندما كانت أمه وأخته موجودتين.

ربّت سكوبر على كتف تايت عند الغسق وقال: «لقد انتهينا. فلنذهب إلى البيت ونتناول العشاء».

سارا على رصيف الميناء نحو الشارع الرئيس، ثم إلى طريقٍ متعرّجٍ مؤدٍ إلى بيتهما المؤلف من طابقين، والمكسوة حوائطه بألواح خشب الأرز الباهتة المبنية من القرن التاسع عشر. كان إطار النافذة الأبيض قد صُبِغَ مؤخرًا، وشذب المرج الممتد إلى البحر تقريبًا بشكلٍ مرتّب. ولكن زهور الأزاليس وشجيرات الورد غرقت في الأعشاب.

خلع سكوبر جزمته الصفراء في غرفة الأحذية، وقال: «هل تعبت من البيرغر؟».

«لا أتعب من البيرغر قط».

وقف تايت في المطبخ عند المنضدة وتناول كتلةً من لحم الخنزير المفروم، فجعلها أقراصًا، ووضعها في صحن. ابتسمت له أمه وأخته كاريان، المرتديتان قبعتا بايسبول، من صورةٍ معلّقةٍ على الحائط. أحبت كاريان فريق أتلانتا كراكرز ذاك، فارتدت قبعتهم في كل مكان.

شاح بنظره عنهما، وبدأ بتقطيع البندورة وتحريك الفاصولياء. كانتا لتكونا هنا لولاه. كانت أمه ستطهو دجاجةً وتقطع أخته البسكوت.

طهى سكوبر البيرغر، كعادته، حتى اسود وجهها، ولكنها احتفظت بعصارتها. كانت بثخانة دليل هاتف بلدةٍ صغيرة. كان الاثنان جائعين، فأكلا بصمتٍ لبرهةٍ ثم سأل سكوبر تايت عن المدرسة.

«علم الأحياء جيّد؛ أنا أحبه، ولكننا نأخذ الشعر باللغة الإنكليزية في الصف. لا أستطيع القول أني أحبه كثيرًا. على كلٍّ منا قراءة قصيدةٍ بصوت عالٍ. كنت تقرأ لي بعضًا منها، ولكني لا أتذكّر شيئًا».

قال سكوبر: «سأسمعك القصيدة يا بني». ثم أضاف: «هي المفضّلة لدي، إحراق جثة سام ماكغي لروبرت سيرفيس. كنت أقرأه

بصوت مرتفع لكم جميعًا. كانت قصيدة أمك المفضلة، وكانت تضحك كلما قرأتها، ولم تسأم منها قط».

أطرق تايت لدى ذكر أمه، وتلاعب بحبات الفاصولياء.

أضاف سكوتر: «لا تعتقد أن الشعر للضعاف فقط. هناك قصائد حبٍّ لطيفة، بالتأكيد، ولكن هناك قصائد مضحكة، وقصائد كثيرة عن الطبيعة، وحتى عن الحرب. الهدف هو أنهم يجعلونك تشعر بشيء». أخبره والده مرارًا أن تعريف الرجل الحقيقي: هو ذاك الذي يبكي دون خجل، ويقرأ الشعر بقلبه، ويشعر بالأوبرا في روحه، ويفعل ما يتوجب عليه للدفاع عن امرأة. مشى سكوبر إلى غرفة الجلوس، وقال مبتعدًا: «كنت أحفظ معظم القصيدة غيبًا، لكني نسيتها. هذه هي، سأقرؤها لك». جلس إلى الطاولة وبدأ يقرأ. ضحكا معًا عندما وصل إلى هذا المقطع:

«جلس سام باردًا وهادئًا، في قلب زئير الفرن

كان على وجهه ابتسامةً تراها من مسافة

ميل، وقال:

أغلقوا الباب، رجاءً.

لا بأس بالجو هنا، ولكني أخشى أن تسمحوا بدخول البرد والعاصفة هذه أول مرةٍ أشعر فيها بالدفءِ منذ تركت مدينة بلمتري في تنيسي».

أفلت سكوبر وتايت ضحكة خفيفة. «لطالما ضحكت أمك من هذا المقطع».

ابتسما للذكرى، وجلسا لدقيقةٍ ثم قال سكوبر أنه سيغسل فيما ينجز تايت واجباته المدرسية. قلب تايت كتاب الشعر، في غرفته، باحثًا عن قصيدةٍ يقرأها في الصف، فوجد قصيدةً لتوماس مور:

«...... ذَهَبَتْ إلى البحيرة في مستنقع الكآبة

حيث جدفت قاربها الأبيض طيلة الليل

على ضوء الحباحب

سأرى قنديلها من الحباحب قريبًا

وسأسمع تجديفها قريبًا؛

ستكون حياتنا طويلة ومليئةً بالحب

وسأُخبِّئ الفتاة في شجرة السرو،

حين تقترب خطوات الموت».

جعلته الكلمات يفكّر بـ كيا، أخت جودي الصغرى. كانت تبدو صغيرةً جدًّا ووحيدةً في مدى السبّخة الكبير. تخيّل أخته التي فُقِدتْ هناك. كان والده على حق، تجعلك القصائد تشعر بشيءٍ ما.

7
موسم الصّيد

1952

جلست كيا متربعةً على سريرها في الشرفة، بعد أن أوصلها الولد إلى منزلها في تلك الليلة. تسلل الضباب المصاحب لهطول الأمطار عبر الشبك ولمس وجهها. فكّرت بالصّبي. كان لطيفًا وقويًا في آن، كجودي. كان الناس الوحيدون الذين تكلمت معهم كيا والدها، من وقتٍ لآخر، وبوتيرة أقل، عاملة الصندوق في متجر «بيغلي ويغلي»، والسيدة سينجليتاري، والتي أخذت على عاتقها تعليم كيا الفرق بين الأرباع والعشرات والخمسات، وهي تعرف القروش أصلًا. ولكن السيدة سينجليتاري قد تصبح فضوليةً أيضًا.

«عزيزتي، ما هو اسمك، على أية حال؟ ولماذا لم تعد أمكِ تأتي؟ لم أرها منذ انتهاء موسم الفجل».

«لدى أمي الكثير من الأعمال فأرسلتني أنا إلى المتجر».

«نعم عزيزتي، ولكنك لا تأخذين ما يكفي من المؤن لعائلتك».

«يجب أن أذهب يا سيدتي. تريد أمي هذه الذرة حالاً».

تحاشت كيا السيدة سينجليتاري قدر الإمكان وتعاملت مع عاملة الصّندوق الأخرى التي لم تبدِ اهتمامًا بشيء سوى قولها بأن الأطفال يجب ألّا يأتون إلى السوق بأقدامٍ حافية. فكّرت في إخبار السيدة أنها لا تنوي قطف العنب بأصابع قدميها. من يستطيع شراء العنب أصلًا؟ توقفت كيا عن الكلام مع الآخرين تدريجيًا ما عدا النوارس. تساءلت إن كانت تستطيع أن تعقد اتفاقًا مع والدها لاستخدام قاربه. تستطيع أن تجمع الريش والأصداف في السبخة، وقد ترى الصّبيّ من حينٍ لآخر. لم تصادق أحدًا من قبل، ولكنها تدرك فائدة الأمر وجاذبيته. بإمكانهما التجوال بالمركب معًا في الأنهار، واستكشاف المستنقع. قد يراها طفلةً صغيرة، ولكنه يعرف خفايا السبّخة، وقد يعلّمها.

لم يكن والدها يملك سيارةً، فاستخدم القارب لصيد السّمك، وللذهاب إلى البلدة، وللمناورة عبر المستنقع إلى «مستنقع غينيا» وهو

حانةٌ باليةٌ وموقعٌ للعب البوكر، اتصل باليابسة عبر ممرٍّ متداعٍ من أعشاب ذيل القطة. كانت الحانة مبنيةً من ألواحٍ غير متساويةٍ دعمت سقفًا من الصفيح، وأرضًا ذات مستوياتٍ وفق الدعائم التي حملتها فوق المستنقع. كان الوالد يستخدم القارب للذهاب إلى هناك، أو إلى أي مكانٍ آخر، فلمَ يعيرها إياه؟

ولكنه في المقابل كان يسمح لإخوتها الصّبيان باستخدام القارب عندما لم يكن يستخدمه، لأنهم سيصطادون سمكًا للعشاء، على الأرجح. لم يكن لديها اهتمام بصيد السّمك، ولكنها قد تبادله بشيء آخر. رأت أنها الطريقة الوحيدة للوصول إليه. ربما بالطبخ، أو بالعمل أكثر في البيت، حتى عودة أمها.

خف المطر. هزت نقاطٌ متفرقةٌ، هنا ثم هناك، أوراق الأشجار كقطةٍ تنفض أذنها. قفزت كيا، ونظفت خزانة البرّاد، ومسحت أرض المطبخ الخشبية، أزالت بقايا الذرة المحروقة منذ أشهرٌ على مدفأة الحطب. وغسلت، باكرًا في الصباح، شراشف والدها العابقة بالعرق وبالويسكي، ونشرتها على شجر النخيل. جالت على غرفة أشقّائها، وهي ليست أكبر من خزانة، فنفضت الغبار عنها ومسحتها. كانت الجوارب

المتسخة مكومةً في الخزانة، والكتب المصوّرة الصّفراء مرميةً بالقرب من فرشتين قذرتين على الأرض. حاولت أن ترى أوجه الصّبيان، والأقدام التي تتناسب مع الجوارب، ولكن التفاصيل كانت ضبابيةً. حتى وجه جودي كان يختفي؛ قد ترى عيناه للحظة، ثم تنزلقان بعيدًا وتنغلقان.

سارت في صباح اليوم التالي، حاملة صفيحةً بسعة غالون، على السبيل الرملي إلى متجر «بيغلي» واشترت كبريتًا، وعظام ظهرٍ، وملحًا. وفرت عشرين سنتًا. «لا أستطيع شراء الحليب، يجب أن أشتري الوقود».

توقفت عند محطّة «سينج» للتزوّد بالوقود قريبًا من «باركلي كوف» والتي قبعت في جرف أشجار صنوبرٍ وأحاطت بها شاحناتٌ صدئةٌ وسياراتٌ باليةٌ كُومت على كتلٍ إسمنتية.

رأى السيد لاين كيا قادمةً. «اغربي عني أيتها الدجاجة الشحّادة الصغيرة، قمامة السبّخة».

«لدي نقدٌ يا سيد لاين. أحتاج الوقود والزيت لمحرّك قارب والدي». أخرجت المال: عشرينتان وخمستان وخمسة سنتات.

«حسنًا، هذا بالكاد يستحق إزعاجي بهذا المبلغ البخس، ولكن

تعالي، أعطني المال». اتجه نحو مستوعب الزيت المربع الشكل.

شكرت كيا السيّد لاين الذي قبع ثانيةً. أصبحت البقالة والوقود أكثر ثقلاً مع كل ميلٍ تقطعه، فاستغرق وصولها وقتًا ليس بالقليل. أفرغت صفيحة الوقود في الخزّان تحت ظلال الهور، ومسحت القارب بخرقٍ قماشيّة ورملٍ رطبٍ لصقله، إلى أن ظهرت الجوانب المعدنية عبر الأوساخ المتراكمة.

في اليوم الرابع لذهاب الوالد، بدأت بالمراقبة. شعرت بالخوف عند العصر، وتسارعت أنفاسها. جلست مرةً أخرى تحدق في الطريق. احتاجت لعودته رغم لؤمه. أتى، أخيرًا، مع بداية المساء، ماشيًا على الأخدود الرملي. أسرعت إلى المطبخ وأخرجت يخنةً من خضار الخردل المغلية، وعظام الظهر، والذرة. لم تعرف كيفية طبخ الصلصة، فسكبت ماء عظام الظهر - وقد عامت مع قطعٍ من الدهن الأبيض - داخل مرطبان الجيلو الفارغ. كانت الصّحون مشققةً وغير متناسقة، ولكنها وضعت الشّوكة على اليسار والسكين على اليمين، كما علّمتها أمها. ثم انتظرت، ملتصقةً بالثلاجة كطائر لقلقٍ مات دهسًا على الطريق.

ضرب الباب الأمامي ففتحه ملصقًا إياه بالحائط، وعبر غرفة

الجلوس إلى غرفة نومه بثلاث خطوات، دون أن يناديها أو ينظر إلى المطبخ. كان هذا أمرًا معتادًا. سمِعَتْه يضع حقيبته على الأرض ويفتح بعض الأدراج. سيلفت السرير المرتّب حديثًا انتباهه، ونظافة الأرض، قطعًا. إن لم تلاحظ عيناه الفرق، فسيلاحظه أنفه.

خرج من غرفته، بعد دقائقٍ، مباشرةً إلى المطبخ، ونظر إلى الطاولة المرتّبة، وإلى أوعية الطعام التي يخرج منها البخار. رآها واقفةً بالقرب من البرّاد، ونظرا إلى بعضهما كأنهما لم يريا بعضهما سابقًا أبدًا.

«آآه يا بجعتي يا ابنتي، ما هذا؟ يبدو أنك كبرت». لم يبتسم، ولكن وجهه كان هادئًا. كان ذقنه غير حليقٍ، وقد تدلى شعره غير المغسول على صدغه الأيسر. ولكنه كان صاحيًا، فهي تعرف الدّلائل.

«أجل سيدي. وحضّرت خبز الذرة أيضًا، ولكنه لم يصلح».

«جيد، آآه شكرًا. هذه الفتاة المحترمة. أنا منهكٌ تمامًا وجائعٌ كخنزيرٍ متمرغ». سحب كرسيًّا وجلس، ففعلت مثله. سكبا صحنيهما بصمت، وأخذا خيوطًا من اللحم من عظام الظهر الضئيلة. سحب فقرةً من عظام الظهر وامتصّ النخاع منها، وتلألأت عصارةٌ دسمةٌ على خدّيه

المغطاتان بسوالفه. عضّ على العظام حتى أصبحت رقيقةً كشرائط الحرير.

قال: «هذا أفضل من شطائر اللحم الباردة بالكرنب».

«ليت خبز الذرة نضج جيدًا. ربما يجب أن أزيد الصودا، وأقلل من البيض».

لم تصدّق كيا أنها كانت تتكلّم بهذا الشكل، ولكنها لم تستطع أن تكبح نفسها. «كانت أمي تتقن خبزه، لكن يبدو أني لم أعر اهتمامًا للتفاصيل»... ثم فكّرت أنها يجب ألّا تتكلّم عن أمها، فصمتت.

دفع الوالد بالصحن نحوها: «هل يوجد طعام كافٍ للمزيد؟».

«أجل سيّدي، هناك الكثير».

«أووه، وغمّسي شيئًا من خبز الذرة في اليخنة. وأحضري منديلاً لنمسح البقايا، وأراهن أن الخبز لذيذٌ تمامً، طريٌّ كالخبز الملعقي».

ابتسمت وهي تملأ صحنه. من كان ليظن أنهما سيجدا خبز الذرة أساسًا لطعامهما.

خافت، بعد التفكير مليًا، أنها إن طلبت منه السماح لها باستخدام القارب فسيعتقد أنها طهت ونظفت لأجل ذلك، وهكذا بدأ الأمر، فعلاً، ولكنه اختلف الآن. أحبت فكرة الجلوس وتناول الطعام كعائلة. شعرت بحاجة ملحة للكلام مع أحد.

لم تذكر استخدام القارب بمفردها، بل سألت: «هل أستطيع مرافقتك لصيد السّمك في وقت ما».

ضحك طويلاً، ضحكةً لطيفة. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يضحك فيها منذ أن غادرته الأم والآخرون. «إذًا، تريدين الذهاب لصيد السّمك؟».

«نعم يا سيدي. أود ذلك».

فقال لها ناظرًا إلى صحنه: «ولكنك فتاةٌ». وتشاغل بمضغ عظام الظهر.

«نعم سيدي، أنا فتاتك أنت».

«حسنًا، قد آخذكِ معي في وقتٍ ما».

وفي الصباح التالي، وفيما كانت كيا تمشي على المسار الرملي، مدّت

يديها بشكلٍ مستقيمٍ وبصقت محدثةً ضجةً رطبة، وباصقةً رذاذًا. كانت لتحلق فوق السبّخة باحثةً عن الأعشاش، ثم لترتفع وتطير والجناح يلامس الجناح، مع النسور. أصبحت ريشًا طويلًا، فردتها في السماء، وجمعت الرياح تحتها. أعادها صراخ الوالد من القارب إلى أرض الواقع. انهارت أجنحتها وتقلصت معدتها؛ يبدو أنه اكتشف أنها استخدمت القارب. بدأت تشعر بضربة المجداف على مؤخرتها وساقيها. كانت تعرف كيف تختبئ: تنتظر حتى يسكر فلا يجدها أبدًا. ولكنها كانت قد قطعت شوطًا طويلًا على الطريق، وكانت أمام ناظريه، وقد وقف حاملًا قصبات الصيد ومشيرًا إليها أن تأتي. أكملت مسيرها نحوه، هادئةً وخائفة. كانت خيوط الصيد مبعثرة هنا وهناك، وقد قبعت عبوةٌ من خمر الذرة تحت المقعد.

كان كل ما قاله ليدعوها: «ادخلي». أرادت التعبير عن غبطتها وشكرها، ولكن تعابيره الخالية من الملامح أبقتها هادئة، فصعدت إلى القارب، وجلست على المقعد المعدني مواجهةً الأمام. أدار محرك القارب وانطلقا بالقناة متفادين الأشجار المتشابكة وهما يبحران ذهابًا وإيابًا في الممرات المائية. حفظت كيا الأشجار المتكسّرة واللوحات الإرشادية على

جذوع الأشجار القديمة. أوقف المحرك في المياه الخلفية وأشار إليها أن تجلس في المقعد الأوسط.

قال لها وفي طرف فمه سيجارة ملفوفة يدويًّا: «هيا الآن، أعطني بعض الديدان من علبة الصفيح». علّمها كيف تثبّت الطعم، وترمي، وتسحب. بدا وكأنه يلوي جسده بوضعيةٍ غير مريحةٍ لتحاشي لمسها. تحدّثا عن الصيد فقط ولم يتطرقا إلى مواضيع أخرى. لم يبتسما كثيرًا، ولكنهما ثبتا على أرضية مشتركة. احتسى بعض الشراب، وشغله الصيد فلم يزد. تأوّهت الشمس، في آخر النهار، وبدأت بالغياب ليصبح لونها كالزبدة. تقوست أكتافهما وثقلت رقبتاهما، ولكنهما لم يلحظا ذلك.

تمنت كيا، سرًا، ألّا تصطاد أية سمكة، ولكنها شعرت بجذبٍ فسحبت الخيط ورفعت سمكة أبراميسٍ سمينة، تتلألئ باللونين الفضي والأزرق. اتكأ الوالد على حافة القارب والتقطها بشبكته، ثم جلس إلى الخلف، مصفّقًا على ركبته وصارخًا: «ياهووووووو» كما لم ترهُ من قبل. ابتسمت بسمةً واسعةً ونظرا إلى عينا بعضهما البعض، مغلقين الدائرة.

تقلبت السمكة في أرض القارب قبل أن يعلقها الوالد بالمشبك، فاضطرت كيا إلى مشاهدة خيطٍ بعيدٍ من طيور البجع، وتفحصت

أشكال الغيوم، أي شيء عدا النظر إلى عيني السمكة المحتضرة تنظران إلى عالمٍ خالٍ من الماء، وتسحب هواءً لا جدوى منه بفمها المفتوح. ولكن ما تكبّدته هي، وما تكبّدته السمكة، يستحقان الحصول على هذه اللمحة من العائلة. ربما ليس للسمكة، ولكن...

أبحرا بالقارب في اليوم الثّاني أيضًا، فرأت كيا في الهور المظلم ريشات الصدر الناعمة لبومة قرناء تطفو على سطح الماء. كانت الريشات مكورةً من طرفيها، فطفت وكأنها قوارب برتقاليةً صغيرة. التقطتها كيا ووضعتها في جيبها. عثرت، في وقتٍ لاحقٍ، على عشٍّ مهجورٍ لطائر الطّنّان منسوجٍ على غصنٍ ممتدٍ، فوضعته على القارب.

طبخ الوالد عشاءً من السمك المقلي تلك الليلة، غمسه بنشاء الذّرة والفلفل الأسود وقدمه مع حساء الذّرة والخضار. وفيما اغتسلت كيا بعدها، دخل والدها إلى المطبخ حاملاً حقيبة الظهر القديمة التي أعطاه إياها الجيش في الحرب العالمية الثانية، ورماها على إحدى الكراسي وهو واقفٌ قرب الباب. تزحلقت على الأرض مصدرةً جلبةً جعلت كيا تقفز وتلتفت.

«اعتقدْتُ أنك قد تستخدمين ذلك لريشاتك، أعشاش العصافير،

وكل الأشياء الأخرى التي تجمعينها».

«أووو». قالت كيا. «أوو، شكرًا لك». ولكنّه كان قد خرج من باب الرّواق. رفعت حقيبة الظهر البالية، والمصنوعة من كتّانٍ قاسٍ يخدمك طيلة حياتك، والمغطاة بجيوبٍ صغيرةٍ وتجويفاتٍ سرّيةٍ، وسحاباتٍ متينة. أمعنت النظر خارج النافذة. لم يسبق أن أعطاها شيئًا أبدًا.

في كل يومٍ دافئٍ من فصل الشّتاء، وفي كل يومٍ في فصل الربيع، أبحر الوالد وكيا معًا، وجالا الشاطىء مصطادين بكافة الطرق. كانت كيا تبحث عن الصّبي تايت وقاربه كلما دخلا نخرًا أو خليجًا، متمنّيةً أن تراه ثانيةً. كانت تفكر فيه أحيانًا، وأرادت أن تصادقه، ولكنها لم تكن لديها فكرة عن كيفية التصرّف في هذه الحال، ولا كيف تجده. استدارت، عصر ذات يومٍ، وبالصدفة المحضة، وأبيها حول منعطفٍ فرأته هناك يصطاد السّمك، في نفس البقعة التي رأته فيها سابقًا. ابتسم ولوّح لها فرفعت يديها ولوّحت له دون تفكير، وكادت أن تبتسم.. ثمّ أنزلت يديها بأسرع ما يمكنها عندما نظر إليها والدها متفاجئًا.

قالت: «هذا أحد أصدقاء جودي، قبل أن يغادر».

أجاب والدها: «يجب أن تنتبهي إلى الناس هنا. الغابة تعجّ بالقمامة البيضاء. أغلب الناس هنا لا قيمة لهم».

أومأت برأسها. أرادت أن تنظر إلى الخلف، ولكنها لم تفعل. ثم قلقت لأنها خشيت أن يعتقد أنها غير ودودةٍ.

كان الوالد يعرف السبّخة كما يعرف الصّقر مرجه: كيف يصطاد، وكيف يختبئ، وكيف يرهب المتطفلين. حفزته أسئلة كيا بعيونها الواسعة ليشرح لها عن مواسم الإوز، وعادات السّمك، وكيف تقرأ الطقس في السُّحُب والتيّارات المعاكسة في الأمواج.

كانت تضع عشاء النزهة في حقيبة الظهر في بعض الأيام، ويأكلا كسرات من خبز الذرة، الذي كادت تتقن صنعه، مع البصل المقطّع، فيما تأخذ شمس المغيب موقعها فوق السبّخة. كان ينسى المشروب أحيانًا، فيشربان الشّاي في مرطبانات الجيلو.

باح لها الوالد يومًا وهما جالسان في ظل السنديانة: «لم يكن أهلي فقراء دومًا، كما تعلمين». كانا يرميان خيوط الصّيد في بركةٍ بنيّةٍ غطتها حشراتٌ ملأ أزيزها المكان.

«كانت لهم أرضٌ غنية، وزرعوا التبغ والقطن وأشياء كهذه. كانت تقع بالقرب من «آشفيل». ارتدت جدّتك من جهتي قبّعةً كبيرةً كدواليب العربة وتنانيرًا طويلة. عشنا في منزلٍ من طبقتين أحاطت به الشرفات. كانت الأمور بخير. بخيرٍ جدًّا».

«لي جدة». فتحت كيا فاها، كان لديها جدةٌ في مكانٍ ما.. «أين هي الآن؟» تاقت كيا لتسأل ماذا حصل للجميع. ولكنها تهيبت.

أكمل الوالد كلامه: «ثم تغيرت الأمور إلى الأسوأ. كنت يافعًا في ذلك الوقت، فلم أفهم، ولكن الانكماش الاقتصادي حل، وسوسة القطن، ولم أعلم عن ذلك كله، وانتهى كل شيء. كان كل ما بقي لنا هو الديون، الكثير من الديون».

اجتهدت كيا لتتخيّل ماضيه مع هذه التفاصيل القليلة. لم يكن هناك شيءٌ من تاريخ أمها. كان الوالد يستشيط غضبًا إذا ذكر أحدٌ حياتهم قبل ولادة كيا. كانت تعلم أنهم عاشوا في مكانٍ بعيدٍ عن السبّخة، وبقربها أجدادها الآخرين، في مكانٍ حيث كانت أمها ترتدي فساتين اشترتهم من المتاجر بأزرارٍ لؤلؤية صغيرة، وشرائط الساتان، وحزامٍ مطرّز. وضعت أمها الفساتين في صناديقٍ، بعد انتقالهم إلى

الكوخ، آخذةً أحدهم كل بضع سنوات، ونزعت زينته محولةً إياه إلى ثوب عمل لأنهم لم يملكوا مالاً لشراء شيءٍ جديد. ذهبت هذه الفساتين الجميلة مع قصصها، احترقت في النار التي أوقدها والدها بعد مغادرة جودي.

رمت كيا ووالدها المزيد من خيوط الصّيد، التي تهامست فوق غبار الزهور الصّفراء الطّافية على الماء الرّاكد، وظنّت أن ما قاله كان نهاية قصته، ولكنه أضاف: «سيأخذكِ أحدهم إلى آشفيل ويريك الأرض التي كانت لنا، والتي كان يجب أن تكون أرضك».

اهتز خيط الوالد. «انظري يا حبيبتي. لقد حصلت على واحدة كبيرة، كبيرة كولاية ألاباما».

عادا إلى الكوخ وقليا السمكة وكرات من الذّرة «دسمة كبيض الإوز». ثم عرضت مجموعاتها، مثبتةً الحشرات بعنايةٍ بدبابيس على ألواحٍ من الكرتون، ومثبتةً الريش على حائط غرفة النوم الخلفية. استلقت على سريرها في الشرفة منصتةً للصّنوبرات. أغلقت عينيها، ثم فتحتهما واسعًا. قد ناداها بـ«حبيبتي».

8
بياناتٌ سلبية

1969

رافق الشريف إد جاكسون ونائبه جوي بورديو، وبعد الانتهاء من تحقيقهما الصباحي في برج المراقبة، بيرل أرملة تشايس، وأهله، باتي لوف وسام، ليشاهدوه مستلقيًا على طاولةٍ فولاذيةٍ تحت شرشفٍ في مختبرٍ باردٍ في العيادة التي كانت تستخدم كمشرحة، وليودعوه. ولكن ذلك كان باردًا جدًّا على أية أم؛ ولا يُحتمل من أية زوجة. كانت السيدتان بحاجةٍ للمساعة للخروج من الغرفة.

قال جوي لدى عودتهما إلى مكتب الشريف: «حسنًا، لقد كانت الأمور...».

«أجل. لا أعرف كيف سيتخطّى أيٍ كان ذلك».

«لم ينطق سام بكلمة. لم يكن يومًا مهذارًا ولكن هذا الوضع سيرهقه».

يقول البعض أن المياه المالحة للسبّخة تستطيع أكل كتلةٍ إسمنتيةٍ على الفطور، ويعجز، حتى مكتب الشريف المبني على هيئة قبوٍ عن ردعها. تموجت العلامات المائية، المرسومة بحبات الملح البلّورية، عبر الجدران السّفلية، وانتشر العفن الفطري الأسود كالأوعية الدموية على السقف. جثمت حبات الفطر الصغيرة الداكنة في الزوايا.

أخذ الشريف قارورةً من الدرج السفلي لطاولته وسكب للاثنين شرابًا مزدوجًا في كوبي قهوة. احتسيا الشراب إلى أن غابت الشمس، كشراب البوربون الذهبي، في البحر.

دخل جوي، بعد أربعة أيام، مكتب الشريف ملوحًا بوثائق في الهواء. «حصلت على تقارير المختبر الأولية».

«فنلقِ نظرة».

جلسا إلى جانبين متعاكسين لطاولة الشريف يتفحّصان الوثائق. كان جوي يضرب ذبابةً وحيدةً بمضرب الذباب بين الفينة والأخرى.

قرأ إد بصوتٍ عالٍ: «حدد وقت الوفاة بين منتصف الليل والثانية صباحًا؛ 29 إلى 30 تشرين الأول، 1969. كما توقّعنا».

أضاف، بعد دقيقةٍ من القراءة: «ما لدينا هنا هي بيانات سلبية».

«صدقت. ليس ثمة شيءٌ هنا أيها الشريف».

«ما عدا الصّبيّين وذهابهما إلى التعرّج الثالث، لا يوجد بصمات أصابعٍ حديثةٍ على الحاجز، أو على الفتحات، لا شيء. لا من تشايس ولا من أحد آخر». أضاءت شمس ما بعد الظهر بشرة القائد الحمراء.

«نظف أحدهم البصمات. كل شيء. لو لم يكن قد حصل شيءٌ كهذا، لِمَ بصماته ليست على الحاجز وعلى الفتحات؟».

«بالظبط لم نحصل على آثار أقدام بدايةً، ولا بصمات أصابع الآن. وليس ثمة ما يوحي بأنه سار عبر الوحل، وصعد الدرج، أو فتح الفتحتين في الأعلى، تلك التي تعلو الدرج والأخرى التي وقع منها. ولا أن أحدًا آخر قد فعل ذلك. لكن كل هذه البينات السلبية تبقى افتراضات. كما أنه ثمة احتمالٌ أن أحدهم نظّف الأدلة بشكلٍ جيّد، أو أنه قتله في مكان ما، ونقل جثته إلى البرج».

«ولكن، لو أن جثته سُحِبت إلى البرج، لكانت هناك آثارٌ لإطاراتٍ».

«صحيح، يجب أن نعود إلى هناك، ونبحث عن آثار إطاراتٍ غير إطاراتنا وإطارات سيارة الإسعاف. قد نكون تغاضينا عن شيء».

قال إد بعد دقيقةٍ من القراءة: «على كل حال، أنا واثق الآن، أن ما حصل ليس حادثًا».

قال جوي: «أنا موافق، ولا يستطيع أيٌّ كان أن يمحو الأدلّة بهذه الحرفيّة».

«أنا جائع. فلنمرّ بالمطعم على طريقنا إلى هناك».

«حسنًا، جهّز نفسك لكمين. أهل البلدة جميعًا غاضبون. مقتل تشايس أندريوز هو الحدث الأعظم هنا، ربما على الإطلاق. ترتفع الثرثرة كإشارات الدخان».

«حسنًا، أصغ السمع. قد نلتقط معلومةً صغيرةً أو اثنتين. لا يستطيع البعض إبقاء أفواههم مغلقة».

غطى صفٌّ كاملٌ من النوافذ المؤطّرة بمصدّات الأعاصير الواجهة

الأمامية لمطعم «باركلي كوف» المطل على الميناء. كان ثمة شارعٌ بين البناء، المشاد في عام 1889، والرصيف البحري الرطب. امتدت سلال الروبيان المهجورة، وشباك الصيد المكدّسة على طول الحائط تحت النوافذ، وتناثرت أصداف قواقع البحر هنا وهناك على الرصيف. ساد صراخ طيور البحر، وروث طيور البحر. غلبت رائحة السجق والبسكوت، وخضار الفجل المغلي، والدجاج المقلي، لحسن الحظ، الرائحة القوية لبراميل الأسماك المصطفة على طول ميناء السّمك.

تسرب صوتٌ خفيفٌ حين فتح الشريف الباب. كانت القمرات المغلفة بقماشٍ أحمرٍ مشغولةً، كما معظم الطاولات. أشار جوي إلى مقعدين فارغين عند منصة بيع الصودا، فسار الاثنان باتجاهها.

سمعا، في طريقهما، السيّد لاين من شركة زيوت «سينج» يقول لميكانيكي الديزل العامل عنده: «أنا متأكدٌ أنه لامار ساندس. ضبط زوجته، كما تعلم، مع تشايس على متن قارب التزلج الجميل خاصته. هناك دافعٌ، وسبق وواجه لامار بعض المشاكل مع القانون».

«أية مشاكل؟».

«كان مع المجموعة التي مزقت إطارات سيارة الشريف».

«كانوا مجرّد أطفالٍ حينها».

«وكان هناك شيءٌ آخر، ولكني لا أذكره».

انتقل الطاهي - المالك جيم بو - خلف الكاونتر، من تقليب كعكات السرطان على الصاج إلى تحريك قدرٍ من كريمة الذرة على النار، وتقليب أفخاذ الدجاج في المقلاة العميقة، ثم كرر ذلك. كل هذا وهو يضع أكوامًا عالية من الصحون أمام الزبائن خلال عمله. يقول الناس أنه يستطيع مزج عجينة البسكوت بيدٍ واحدةٍ بينما يسحب لحم سمكة السلور من عظمها باليد الأخرى. كان يقدم طبقه الخاص المشهور، سمكة موسى المشوي والمحشي بالروبيان المنكه بالجبن والفلفل. - كان يقدمه مراتٍ قليلةً في السنة - لا يحتاج لإعلان؛ سرعان ما ينتشر الخبر بالكلام.

سمع الشريف والوكيل، في طريقهما بين الطاولات إلى الكونتر الآنسة بنسي برينس، مالكة «كريسز فايف أند دايم»، تقول لصديقتها: «قد تكون تلك الامرأة التي تعيش في السبّخة. إنها مجنونةٌ لدرجةٍ

تستحق أن توضع في مركزٍ للمعتوهين. أنا أراهن أنها مرتبطة بشيءٍ كهذا..».

«ماذا تعنين؟ ما هي علاقتها بأي شيء؟».

«حسنًا، ورّطت نفسها، لفترةٍ، مع..».

قال إد لدى وصوله والوكيل إلى الكاونتر: «لنطلب طلبنا للخارج ونخرج من هنا. لا نستطيع أن ندخل في كل هذا».

9
القافز

1953

راقبت كيا، وهي جالسةٌ في مقدمة القارب، أصابع الضباب المنخفضة تصل إلى قاربهم. أبحرت قطعٌ ممزّقةٌ من الغيوم فوق رأسيهما، بدايةً، ثم أغرقهم الضباب في بحرٍ رمادي، ولم يبق سوى صوت المحرّك الهادئ تك، تك، تك. تكوّنت، بعد دقائق، لطخاتٌ من ألوانٍ غير متوقّعةٍ حين ظهر رويدًا شكل محطة الوقود البحرية الباهت، والتي بدت وكأنها هي التي تسير وليس هما. زاد الوالد السرعة، فصدم الرصيف بلطف. أتت مرةً واحدةً إلى هذا المكان سابقًا. قفز المالك، وهو عجوزٌ أسودٌ، عن كرسيه ليساعدهم - لذا دعاه الناس «القافز» - أحاطت سوالفه البيضاء وشعره نصف الشائب بوجهٍ واسعٍ كريمٍ وبعينين كعيني البومة. كان طويلًا ونحيفًا، وبدا وكأنه لا يتوقف عن

الكلام، أو الابتسام، أو إرجاع رأسه إلى الوراء، وقد أغلق شفتاه بإحكامٍ في أسلوب ضحكٍ خاصٍ به. لم يرتدِ زي العمل، كما يفعل معظم العمّال في المنطقة، ولكنه ارتدى قميصًا أزرقًا مكويًا بأزرار عادية، وبنطالاً غامقًا قصيرًا جدًا، وجزمة عمل. وكان يعتمر، بين الفينة والأخرى، وفي أحر أيام الصيف، قبعة قشٍّ رثة.

تمايلت محطته، «وقود وطعوم»، على رصيفٍ متأرجح. ثبتها سلكٌ امتدّ من أقرب سنديانة على الشاطئ، لأربعين قدمًا، تقريبًا، عبر الخلفية، وتمسك بقوة. بنى جدّ «القافز» الأكبر، المرسى وكوخًا من ألواح السّرو في ماضٍ بعيدٍ لا يذكره أحد، في وقتٍ ما قبل الحرب الأهلية.

علقت ثلاثة أجيالٍ لوحاتٍ معدنيةً لامعةً - نيهي غرايب صودا، ورويال كراون كولا، وكاميل فيلترز، وما يوازي عشرين سنةً من لوحات السيارات في كارولاينا الشمالية - على حيطان الكوخ، وكان خليط الألوان مرئيًا من البحر عدا أيام الضباب الكثيف.

«مرحبا يا سيّد جايك. كيف حالك؟».

أجاب الوالد: «جيّد، استفقت على الجانب الصحيح من القذارة».

ضحك «القافز» وكأنه لم يسمع هذه العبارة المبتذلة من قبل.

«جلبت معك ابنتك الصّغيرة. هذا عظيم جدًّا».

أومأ الوالد برأسه. ثم قال بعد تفكير: «أجل، هذه ابنتي، الآنسة كيا كلارك».

«حسنًا، أنا فخورٌ جدًّا بمعرفتك يا آنسة كيا».

تأملت كيا أصابع قدميها العارية، ولكنها لم تجد كلمات.

لم يزعج ذلك «القافز» وتحدث عن صيّد السّمك الجيّد مؤخرًا. ثم سأل الوالد: «هل أملؤه للشفة يا سيد جايك؟».

«نعم، املأْه حتى الشفة».

تحدّث الرجلان عن الطقس، وعن صيد السمك، ثم عن الطقس مرةً أخرى حتى امتلأ الخزان.

«أتمنى لكما يومًا سعيدًا». قال ذلك وهو يرمي لهما حبل القارب.

أبحر الوالد ببطءٍ عائدًا إلى البحر المشمس - استغرقت الشمس لالتهام الضباب أقل مما استغرقه «القافز» لملء خزان الوقود - دارا حول شبه جزيرةٍ كستها أشجار صنوبرٍ، وأبحرا لعدة أميالٍ ليصلا إلى «باركلي

كوف» حيث ربط الوالد القارب بأخشاب رصيف مرفأ المدينة. كان صيّادو السّمك مشغولون بتوضيب السّمك وربط خيطان الصيد.

قال الوالد: «أعتقد أننا نستطيع أن نتناول الطعام في المطعم». قادها عبر الرصيف البحري إلى «باركلي كوف داينر». لم يسبق لكيا أن أكلت في المطعم من قبل؛ حتى أنها لم تدخله قط. قفز قلبها وهي تنظّف الوحل الجاف عن ثيابها القصيرة جدًّا وربتت على شعرها المنفوش. توقف العملاء عن الطعام حين فتح والدها الباب. أومأ بعض الرجال للوالد، فيما عبست النساء وأشحن برؤوسهن. تذمّرت إحداهن قائلةً: «أغلب الظن أنهما لا يستطيعان قراءة لوحة أن القميص والحذاء مطلوبان».

أشار لها الوالد أن تجلس إلى طاولةٍ تطل على الرصيف البحري. لم تستطع قراءة لائحة الطعام، ولكنه أخبرها بمعظم ما تحتويه، فطلبت دجاجًا مقليًّا، وبطاطةً مهروسةً، وصلصةً، والفاصولياء البيضاء، وبسكوتًا منفوشًا كالقطن المقطوف حديثًا. طلب الوالد الروبيان، وحساء الذرة بالجبنة، والبامية المقلية، والبندورة الخضراء المقلية. وضعت النادلة صحنًا كاملاً من كرات الزبدة المصفوفةً على مكعبات الثلج، وسلةً من

خبز الذرة والبسكوت على طاولتهما، وإبريقًا كبيرًا من الشاي المثلج. ثم تناولا فطيرة التوت الأسود مع المثلجات كتحلية. أتخمت كيا حتى ظنت أنها ستتوعك، ولكنها رأت أن الأمر يستحق ذلك.

خرجت كيا إلى الرّصيف، حين وقف الوالد عند موظف الصندوق ليدفع فاتورته، حيث ملأت رائحة قوارب صيد السمك الفائحة الخليج. حملت منديلاً مزيتًا لفت به بقايا الدجاج والبسكوت. كانت جيوب ثوبها محشيةً بكمياتٍ من البسكوت المالح التي تركتها النادلة على الطاولة لمن يرغب.

سمعت كيا صوتًا ضئيلاً خلفها يقول «مرحبًا»، فالتفتت لترى فتاةً صغيرةً ذات أربعة أعوامٍ بخصلات شعرٍ شقراء تنظر إليها. كانت ترتدي فستانًا أزرقًا باهتًا، ومدّت لها يدها. حدّقت كيا باليد الصّغيرة؛ كانت سمينةً وناعمةً ومن أنظف ما رأته كيا في حياتها كلّها. لم تغتسل بالصابون الرخيص، ولم يكن ثمة وسخ محارٍ تحت أظافرها. نظرت في عيني الفتاة، فرأت نفسها، في عينيها، كمجرد طفلةٍ أخرى.

نقلت كيا المنديل إلى يدها اليسرى ومدت يدها اليمنى باتجاه البنت.

«هاي.. هناك، اذهبي من هنا!» جرت السيدة تيريزا وايت، زوجة مبشّرٍ في الكنيسة الميثودية من باب متجر «باستر براون» للأحذية.

قدمت «باركلي كوف» الدين مسلوقًا جيدًا ومقليًّا بعمق. كان في القرية، رغم صغرها، أربع كنائسٍ، وهي للبيض فقط؛ أما السّود فكان لديهم ثلاث كنائسٍ إضافية.

تمتع القساوسة والمبشرون، وزوجاتهم حتمًا، بمراكزٍ محترمةٍ في القرية، فارتدوا ثيابهم وتصرفوا وِفقًا لذلك. ارتدت تيريزا وايت، عادةً، تنانيرًا فاتحة اللون وقمصانًا بيضاء، منسّقةً بين الحذاء والحقيبة.

جرت إلى ابنتها ورفعتها بين يديها. ابتعدت عن كيا، ووضعت الطفلة على أرضية الرصيف الجانبي، وجلست إلى جانبها.

«ماريل لين، يا عزيزتي، لا تقتربي من تلك الفتاة، أتسمعينني. فهي قذرة».

راقبت كيا الأم تمرّر أناملها في الخصلات؛ ولم يفتها الزمن الذي استغرقاه وهما تنظران في عيني بعضهما البعض.

خرجت امرأةٌ من متجر «بيغلي ويغلي» واتجهت مسرعةً إليهما:

«هل أنتما بخير؟ ماذا حصل هنا؟ هل كانت تلك الفتاة تزعج ماريل لين؟».

«رأيتها في الوقت المناسب. شكرًا جيني. أتمنى ألّا يأتي هؤلاء الناس إلى البلدة. انظري إليها. قذرةٌ ومقرفة. انتشرت إنفلونزا المعدة مرةً أخرى، وأنا على يقين أنها أتت معهم. تسببوا في العام الماضي بمرض الحصبة، وهذا أمرٌ جدّيّ». ابتعدت تيريزا متشبّثةً بالطفلة.

ناداها ولدها، حينها، حاملاً بعض قوارير البيرة في كيس ورقٍ بنّيٍّ: «ماذا تفعلين؟ هيّا يجب أن نبتعد عن هنا. سيبدأ الجزر». استدارت كيا وتبعته، فرأت، وهما عائدان إلى المنزل عبر السبّخة، خصلات الشعر وعيون الأم والطفلة.

كان الأب لا يزال يختفي أحيانًا، ويغيب لعدّة أيّامٍ، ولكن وتيرة الغياب قلت عن ذي قبل. وكان، عندما يأتي، يتناول وجبة الطعام ويتحدث قليلًا بدلًا من الذهاب في غيبوبة. لعبا «رومي الجن» بالورق ذات ليلة، فانفجر ضاحكًا حين ربحت، فيما قهقهت بصوتٍ منخفضٍ وقد غطت فمها كما تفعل الفتيات.

كانت كيا تنظر ناحية الطريق كلما خرجت إلى الشرفة، ظنّاً منها أنه رغم ذبول زهور الوستارية مع نهاية فصل الربيع - غادرت أمها المنزل في الصيف الماضي - فقد ترى أمها ماشيةً نحو البيت عبر الرمل. كما كانت بحذائها العالي من جلد التمساح المقلد. قد تستطيع العيش، ووالدها، كعائلةٍ بما أنهما كانا يصطادان السّمك ويتحدّثان. كان والدها قد ضربهم جميعًا، عندما كان يسكر، عادةً. كان يعود إلى طبيعته لأيامٍ، فيتناولون حساء الدّجاج معًا؛ حتى أنهم طيروا طيّارةً ورقيةً على الشّاطئ ذات مرة. ثم يأتي الشرب والصراخ والضرب. كانت تفاصيل بعض النوبات واضحةً في ذاكرتها. دفع والدُها أمها، ذات مرةٍ، في المطبخ إلى الحائط، ضاربًا إياها إلى أن انهارت على الأرض. لمست كيا يده، منتحبةً، ورجته أن يتوقف. أمسك بكيا من كتفيها، صاح بها لتخلع بنطال الجينز وسروالها الدّاخلي، وأجبرها على الانحناء على طاولة المطبخ. ثم سحب حزامه، بحركةٍ سريعةٍ، وجَلَدَها. تذكّرت الألم الحارّ يجتاح مؤخرتها العارية، بالطبع، لكن الغريب أنها تذكرت كيف قبع بنطالها حول كاحليها النحيلين بتفصيلٍ أكبر. تكورت أمها على نفسها في الزّاوية بالقرب من مدفأة الطّهو، وهي تبكي بصوتٍ عالٍ. لم تعرف كيا ما

سبب الخلاف.

لو عادت أمها الآن، وقد تحسن تصرف والدها، فقد يعيدون الكرة. لم تعتقد كيا أبدًا أن أمها ستغادر، وأن والدها سيبقى. ولكنها علمت أن أمها ما كانت لتتركها إلى الأبد؛ فإن كانت في مكانٍ ما في هذا العالم، فستعود. لا زالت كيا ترى تلك الشفاه الممتلئة الحمراء حين كانت تغنّي مع المذياع، وتسمع كلماتها: «أصغي بانتباه إلى السيّد أورسن ويلز؛ فهو يتكلم بطريقةٍ صحيحةٍ كرجلٍ مهذب. لاتقولي ليزا، فهي ليست كلمةً أصلًا».

رسمت أمها الأنهار وغياب الشمس بألوانٍ زيتيةٍ ومائيةٍ غنيةٍ لدرجة أنها بدت وكأنها قد سُلِخت عن الأرض. كانت قد أتت ببعض الأدوات معها، واشترت البعض الآخر من «كريسز فايف أند دايم». سمحت الأم لكيا برسم صورها الخاصة، أحيانًا، على أكياسٍ من الورق البنّي من متجر «بيغلي ويغلي».

سارت كيا إلى صندوق البريد في نهاية المسار، في أوائل شهر أيلول في فصل الصيد الصيفي، ذات عصرٍ اشتد حره. جمدت يداها، أثناء تصفّحها لإعلانات البقالة، حين رأت مغلّفًا أزرقًا معنونًا بخط أمها

الجميل. كان بعض أوراق شجر الجمّيز قد بدأ يصفر كما عندما غادرت. غابت طويلاً دون أثر، والآن رسالة. أمعنت كيا النظر في الرسالة، حملتها إلى الضوء، ومرت بأناملها على الخط المائل المتميّز. اصطدم قلبها الخافق بصدرها.

«أمي حيّةٌ وفي مكانٍ آخر. لماذا لم تعد إلى البيت حتى الآن؟». فكّرت في فتح الرّسالة، ولكن الكلمة الوحيدة التي كانت تستطيع قراءتها هي اسمها، ولم يكن مكتوبًا على المغلّف.

هرعت إلى الكوخ، ولكن والدها كان قد انطلق بالقارب إلى مكانٍ ما. فتركت الرسالة على المملحة بحيث يراها. وواصلت مراقبة الرسالة، أثناء سلق الفاصولياء مع البصل، كي لا تختفي.

أحنت رأسها باتجاه نافذة المطبخ، كل بضعة ثوانٍ، لتصغي لهدير القارب. ثم تسلق الوالد الدرج عارجًا، فجأةً. خانتها شجاعتها، فتجاوزته قائلةً أنها ذاهبة إلى المرحاض الخارجي، وأن العشاء سيجهز قريبًا. وقفت داخل المرحاض النتن وقلبها يتراكض إلى معدتها. وقفت على المقعد الخشبي وراقبت المنزل من فتحة الباب الهلالية الشكل جاهلةً بما تتوقعه.

ثم صفق باب المدخل، ورأت والدها مسرعًا نحو البركة. ذهب مباشرةً إلى القارب حاملًا حقيبةً، وأبحر بعيدًا. ركضت عائدةً إلى البيت ودخلت المطبخ، ولكن الرسالة كانت قد اختفت. فتحت أدراج ملابسه بعنفٍ، وبعثرت خزانته باحثةً عن الرسالة. «إنها موجهةٌ لي أيضًا! هي لي كما هي لك، تمامًا»، عادت إلى المطبخ وبحثت في سلّة المهملات فوجدت رماد الرسالة بالحوافي الزرقاء. استخدمت ملعقةً لسحب البقايا ووضعتها على الطاولة، كومةٌ صغيرةٌ من البقايا السوداء والزرقاء. انتشلتها من القمامة قطعةً قطعة؛ قد تكون بعض الكلمات سقطت إلى القعر. ولكنها لم تجد شيئًا سوى آثار الرماد العالق على قشر البصل.

جلست إلى الطاولة، وكانت الفاصولياء لاتزال تغلي في القِدر، وحدّقت في الكومة. «لمست أمي هذه. لربما أخبرني والدي بما كتبت. لا تكوني غبيةً، هذا كهطول الثلج في المستنقع».

حتى علامة البريد اختفت. لن تعرف أبدًا أين كانت أمها. وضعت الرماد في قارورةٍ صغيرة وخبّأتها في صندوق السّيجار قرب سريرها.

لم يعد الوالد إلى البيت في تلك الليلة ولا في اليوم التالي، وحين أتى أخيرًا، كان ذات السِّكّير العجوز الذي يدخل الباب عارجًا. وحين

استجمعت شجاعتها لتسأله عن الرسالة، صاح بها قائلاً: «هذا ليس من شأنِك». ثم أضاف: «وهي ليست عائدةً، فبإمكانك نسيان الموضوع». جرّ قدمه نحو القارب حاملًا حقيبته.

أجابته صارخةً وقد ضمت قبضتيها: «هذا ليس صحيحًا». راقبته مغادرًا وصاحت بالبركة الفارغة: «ليست، ليست كلمةً» تساءلت لاحقًا إن كان من الأفضل لو فتحت الرسالة بنفسها، أو لو أنها لم تدع والدها يرى الرسالة. ربما كانت أنقذت الكلمات لتقرأها في يومٍ ما، وكان من الأفضل له لو لم يدرِ بها.

لم يأخذها والدها إلى صيد السّمك بعد ذلك. كانت هذه الأيام الحارة موسمًا إضافيًا. سُحُبٌ منخفضةٌ متفرّقة، تلفح الشمس عالمها لوقتٍ قصير، ثم يغلق الطقس قبضته فيعود الظلام.

نسيت كيا الصلاة. هل تركز الأمر على كيفية الإمساك باليدين أو إغماض العينين؟ «قد تعود أمي وجودي إلى البيت لو صليت. كانت تلك الحياة أفضل من حساء الذرة المكتّل هذا، رغم الصراخ والجلبة».

غنّت مقاطعًا صغيرةً من الترانيم - «وهو يمشي معي حين يكون

النّدى لا يزال على الورود» - كان ذلك كل ما تذكّرته من كنيسة البيض الصّغيرة التي أخذتها أمها إليها مرّاتٍ قليلةً في السّابق. كانت آخر زيارةٍ لهما يوم أحد الفصح الذي سبق مغادرة أمها، ولكن كل ما تذكّرته كيا عن العطلة هو الصراخ والدم، ووقوع أحدهم، وجريانها وأمها، فسقطت الذكرى كلها.

نظرت كيا من خلال الأشجار إلى حوضي الذرة والفجل الذين زرعتهما أمها وقد غمرتهما الأعشاب. لا ورود هناك، قطعًا.

«إنسِ الموضوع فحسب. لن يأتي إلهٌ إلى هذه الحديقة».

10
مجرد عشبٍ في مهب الريح

1969

يحفظ الرمل الأسرار أفضل من الوحل. رَكَنَ الشريف شاحنته عند أول المسار المؤدي إلى برج النار، حتى لا يطمسا أية أدلةٍ تركها أحدهم هناك في ليلة الجريمة المزعومة. ولكن حبوب الرمل اتخذت أشكالًا غير مفهومةٍ مع كل خطوةٍ اتخذتها.

ثم تكشفت قصصٌ عند حُفر الوحل ومسطحات الماء قرب البرج: دخلت أنثى رّاكون، وأربعةٌ من جرائها، الأرض الطينية وخرجوا منها؛ حاكت حلزونةٌ طريقًا قطعه وصول دب؛ واستلقت سلحفاةٌ في الوحل البارد، فشكّل بطنها وعاءً ناعمًا ضحلاً.

«واضح كصورةٍ، لا شيء من صنع الإنسان عدا آثار شاحنتنا».

قال جو: «لا أعلم، انظر إلى هذه الحافة المستقيمة والمثلّث الصغير. قد يكون هذا أثرًا».

«كلا، أعتقد أنها أثر قدم ديكٍ رومي داس فوقها ظبي، فأعطاها هذا الشكل الهندسي».

قال الشريف بعد ربع ساعةٍ أخرى: «فلننتقل من هنا إلى ذلك الجون الصغير. سنرى إن كان أحدهم قد قدم إلى هنا بالمركب بدلاً من القدوم بشاحنة». سارا إلى المدخل الصغير مبعدين أغصان الآس الفائحة عن وجهيهما. أظهر الرمل الرّطب أثرًا للسرطانات، ولطيور مالك الحزين، ولطيور الطيطوي، ولكن لا أثر لإنسان.

«حسنًا، ولكن انظر إلى هذه». أشار جو إلى نمطٍ كبيرٍ من الرمل غير المستوي، والذي شكل نصف دائرةٍ متقنة الرسم. «قد تكون طبعة قارب مُقوّس سُحِب إلى الشاطئ».

«كلا. انظر حيث دفعت الريح الأعشاب إلى الخلف ثم إلى الأمام على الرمل. هكذا رسمت هذه النصف دائرة. هذا عشبٌ في مهب الريح

فحسب».

وقفا ينظران حولهما. كانت بقيّة هذا الشاطئ نصف القمري مغطاةً بطبقةٍ كثيفةٍ من الأصداف المحطّمة، ومزيجٍ من أجزاء القشريّات، ومخالب السرطان. الأصداف هي أفضل حافظٍ للأسرار على الإطلاق.

11
أكياس خيشٍ ملأى

1956

في شتاء العام 1956، وحين كانت كيا في العاشرة من عمرها، قل مجيء والدها إلى المنزل. مرّت أسابيعٌ دون أية قارورة ويسكي على الأرض، ولا من يتمدد على السّرير، ولا مالٌ يوم الاثنين. بقيت تتوقع أن تراه يعرج مارًّا بين الأشجار، حاملاً حقيبته. مر شهرٌ كاملٌ، ثم مرّ شهرٌ آخر منذ رأته.

مدّت أشجار الجمّيز والجوز أغصانًا عاريةً تحت سماءٍ باهتةٍ، وامتصت الريح القاسية البهجة التي نشرتها شمس الشتاء فوق الكآبة. ريحٌ مجففةٌ عديمة الفائدة في أرضٍ بحريةٍ تعجز عن الجفاف.

فكرت في الموضوع وهي جالسةٌ على الدرجات الأمامية. قد يكون

خلافٌ على لعبة بوكر قد انتهى بضربه ورميه في المستنقع في ليلةٍ باردةٍ ممطرة. أو قد يكون سكر وتاه في الغابة وغرق في مياه المستنقع.

«أعتقد أنه رحل إلى الأبد».

عضت شفتها حتى ابيضت. لم تشعر بنفس الألم الذي شعرت به حين غادرت أمها. بذلت جهدًا لتبكي عليه. كان الشعور بأنها وحيدةً بالكامل واسعًا لدرجة أن له صدى. ستكتشف السلطات أمرها وتأخذها. يجب عليها أن تتظاهر، حتى أمام «القافز»، أنّ والدها لا يزال موجودًا.

لن يكون هناك مالٌ يوم الاثنين. كانت قد اقتصدت في استخدام مالها فخدمها لأسابيع، عاشت خلالها على حساء الذرة، والمحار المسلوق، والبيض في بعض المناسبات إن باضت الدجاجات الهزيلة الطويلة السيقان. كان كل ما تبقى لها هو القليل من الكبريت، ولوح صابون، وحفنةٌ من الذرة. لن تجتاز فصل الشتاء بحفنةٍ من عيدان الكبريت، فهي عاجزةٌ عن سلق الذرة، لنفسها وللنوارس وللدجاجات، بدونها.

«لاأدري كيف أحيا بدون الذرة».

جال في فكرها أنه مهما تكن وجهة والدها هذه المرة، فقد ذهب

راجلًا. كان لديها القارب.

كان عليها أن تجد طريقةً أخرى لتأمين الطعام، ولكنها دفعت الفكرة، مؤقتًا، نحو زاويةٍ بعيدةٍ من عقلها. تصفحت كتب أمها المحببة، بعد عشاءٍ من المحار المسلوق والذي تعلّمت كيف تهرسه وتمسحه على مقرمشات الصودا. متظاهرةً بقراءة القصص الخيالية. كانت لا تزال أمية وهي في العاشرة.

ثم ومض قنديل الكاز، وخفت، وانطفأ. كان ثمة دائرةٌ ناعمةٌ من الضوء شكلت عالمها، ثم سادت العتمة. تأوهت. كان والدها يأتي بالكاز ويملأ القنديل، فلم تعر الأمر انتباهًا، حتى حل الظلام.

جلست لعدّة ثوانٍ، محاولةً أن تحظى بضوءٍ من البقايا، ولكنها لم تحصل على شيء. بدأ ظهر الثلاجة المستدير وإطار النافذة يأخذان أشكالاً في الظلام، فتلمّست بأناملها أسطح الأشكال إلى أن وجدت صحنًا عليه شمعة. سيتطلّب إشعالها عود ثقاب ولا يوجد معها سوى خمسة أعواد. ولكن الظلام بات أمرًا واقعًا الآن.

سويششش. أشعلت عود الثقاب وأضاءت الشمعة، فتراجع

السّواد إلى الزوايا. ولكنها رأت ما يكفي لتدرك أنها تحتاج الضّوء، والكاز مكلف. تأوهت فاتحةً فمها. «قد يكون علي الذهاب إلى البلدة وتسليم نفسي للسلطات سيطعموني، على الأقل، ويرسلوني إلى المدرسة».

ولكنها قالت، بعد التفكير لدقيقةٍ: «كلا، لا أستطيع ترك النوارس، وطيور مالك الحزين، والكوخ. السبّخة هي عائلتي الوحيدة».

خطرت لها فكرة خلال جلوسها في آخر ضوءٍ للشمعة.استفاقت أبكر من عادتها في الصّباح التالي، وحين كان المد منخفضًا، ارتدت ثوبها، وخرجت آخذةً معها دلوًا، ومدية، وأكياس خيشٍ فارغة. جلست القرفصاء في الوحل، وراحت تجمع بلح البحر على طول المستنقع كما علمتها أمها، ملأت، بعد أربع ساعاتٍ من الانحناء والرّكوع، كيسَين من الخيش.

انسحبت الشمس البطيئة من البحر فيما اخترقت الضباب الكثيف متجهةً إلى محطة «القافز»، «وقود وطعوم». وقف لدى اقترابها.

«مرحبا آنسة كيا، هل تريدين بعض الوقود؟».

أومأت برأسها. لم تتحدث مع أحدٍ منذ زيارتها الأخيرة لمتجر

«بيغلي ويغلي»، كانت كلماتها غير واضحةٍ إلى حدٍ ما. «ربما وقود. ذلك يعتمد. سمعت أنك تشتري بلح البحر، ولدي البعض منه هنا. هل تستطيع أن تعطيني المال نقدًا وبعض الوقود معه؟». أشارت إلى الأكياس.

«أجل، لك ذلك. هل هو طازج؟».

«جمعتهم قبل الفجر».

«حسنًا إذًا. أستطيع أن أعطيكِ خمسين سنتًا لأول كيس وصفيحة مليئة للكيس الآخر».

ابتسمت كيا قليلاً. مالٌ حقيقيّ كسبته بنفسها. كان كل ما قالته هو: «شكرًا لك».

دخلت كيا، فيما كان «القافز» يملأ الصفيحة، إلى متجره الصغير على رصيف الميناء. لم تعره انتباهًا من قبل لأنها كانت تتسوق من متجر «بيغلي»، أما الآن فقد رأت أنه يبيع، وبالإضافة إلى طعوم الصّيد والتبغ، الكبريت، وشحم الخنزير، والصابون، وعلب السردين، وسجق فيينا، والذرة، ومقرمشات الصودا، وورق الحمّام، والكاز. كل ماتحتاجه في هذا

العالم موجودٌ هنا. كان ثمة صفٌّ من خمس مرطبانات على المنضدة، احتوت حلوى على شكل النقود المعدنية، فلفلٌ أحمرٌ حار، وسكاكر، وحلويات «شوغار داديز». يبدو أنه يوجد سكاكر هنا أكثر مما هو موجود في العالم.

اشترت بالمال الذي كسبته من المحار كبريتًا، وشمعةً، وذرة. على الكاز والصابون الانتظار لكيسٍ آخر. استهلكت إرادتها لمقاومة شراء قطعةٍ من «شوغار داديز» بدلاً من الشمعة.

سألته: «كم كيسًا تشتري في الأسبوع؟».

«حسنًا، هل نحن نتفاوض الآن؟». سألها، وهو يضحك ضحكته المعهودة بفمه المغلق، ورأسه المرمي إلى الخلف. «أشتري حوالي أربعين رطلًا كل يومين أو ثلاثة. وليكن بعلمِك أن الآخرين يجلبون لي أيضًا. إن جلبتِ وكنت قد اشتريتُ بعضًا منه، فأنتِ خارج الصّفقة. من يأتي أولاً يحصل على الخدمة أولاً. ليس من طريقة أخرى للقيام بالعمل».

«حسنًا. شكرًا لك، هذا يناسبني. إلى اللقاء أيها «القافز». ثم أضافت: «آآه بالمناسبة، والدي يرسل لك تحياته».

«هكذا إذن، جيد. انقلي تحياتي بنفس الطريقة له أيضًا، لو سمحتِ. إلى اللقاء يا آنسة كيا». ابتسم لها بسمةً عريضةً وهي تبحر بعيدًا. كادت تبتسم بنفسها. جعل منها شراء وقودها الخاص وبقالتها، شخصًا بالغًا. رأت لاحقًا، وحين أفرغت كومة الأغراض الصغيرة في الكوخ، مفاجأةً صفراء وحمراء في قعر الكيس. كان القافز قد وضع لها قطعةً من حلوى «شوغر دادي» داخل الكيس، لأنها كبرت على شراء الحلوى.

كانت كيا تتسلل إلى السبخة على ضوء الشمعة أو ضوء القمر، لتبقى متقدّمةً على صيادي بلح البحر الآخرين - كان ظلُّها يقع على الرمل المتلألئ - وجمعت بلح البحر في جوف الليل. أضافت بعض المحار إلى غلّتها ونامت، أحيانًا، بالقرب من النوارس تحت النجوم لتصل إلى محطة القافز مع أول الضوء. اتضح أن مال بلح البحر يُعتمد عليه أكثر من المال الذي كانت تحصل عليه من والدها كل يوم اثنين، وكانت تسبق صيادي بلح البحر الآخرين دائمًا.

لم تعد تذهب إلى متجر «بيغلي» حيث كانت السيدة سينجليتاري لا تفتأ تسألها لماذا هي ليست في المدرسة. كانوا سيلقون القبض عليها، عاجلاً أم آجلاً، ويحتجزونها. اكتفت بأخذ احتياجاتها من متجر القافز،

وحصلت على بلح بحرٍ أكثر مما تستطيع أن تأكله. لم يكن طعمها سيئًا إذا ما غمست بالذرة وهرست حتى لم تعد تعرف. لم يكن لبلح البحر عيونٌ تنظر إليها كالأسماك.

12
قروشٌ وذرة

1956

بقيت كيا، وبعد اختفاء والدها بأسابيع، تنظر إلى الأعلى حين تنعق الغربان؛ علها تراه يعرج عبر الغابة. كانت تميل برأسها مصغيةً لأي صوتٍ غريبٍ تحمله الريح، علّها تسمع أحدًا. أي أحد. حتى مرورٌ مجنونٌ للسيدة المتخلّفة سيكون شيئًا جيّدًا.

كانت تبحث عن الصبيّ، صيّاد السمك. رأته كثيرًا من بعيد لأكثر من مرةٍ في السنة الماضية، ولكنها لم تتحدث إليه مذ كانت في السابعة من عمرها، منذ ثلاث سنوات حين أرشدها إلى طريق البيت عبر السبّخة. كان هو الشخص الوحيد الذي تعرفه في هذا العالم بالإضافة إلى القافز، وبعض البائعات. كانت تبحث عنه في الأرجاء كلما اجتازت

الطرق المائية.

رأت قاربه، ذات صباح، وفيما كانت تبحر داخل النهر حيث الأعشاب الطويلة، مركونًا عند حقل القصب. كان تايت يرتدي قبعة بايسبول مختلفة وقد أصبح أطول، ولكنها تعرفت على الخصلات الشقراء حتى من مسافة خمسين ياردة. اقتربت كيا ببطءٍ شديد، مناورةً بين الأعشاب الطويلة، وأطلّت عليه. فكرت في الإبحار نحوه وسؤاله عما إذا كان قد اصطاد سمكًا. يبدو أن هذا هو ما يقوله والدها أو أي شخص في السبّخة حين يلتقي شخصًا آخر: «هل هناك ما يعض الطعم؟ هل اصطدتَ أي شيء؟».

ولكنها حدقت به ولم تتحرّك. شعرت بانجذابٍ شديدٍ نحوه، وبدفعةٍ شديدةٍ عنه، فعلقت في مكانها. عادت إلى البيت، أخيرًا، وقلبها يضغط على أضلاعها.

كانت تمر بنفس الحالة كلما رأته، تراقبه كما تراقب طيور مالك الحزين.

كانت لا زالت تجمع الريشات والقواقع، ولكنها كانت تبقيها

ملوّثة بالملح والرمل، ومنثورة على درج الإسمنت والألواح. كانت تعبث ببعضها كل يوم فيما تراكمت الصحون عاليًا في حوض المجلى، ولماذا تغسل ثوبها وهو سيتّسخ بالوحل ثانيةً؟ اعتادت، منذ زمن، أن ترتدي ثياب الأخوة والأخوات الراحلين. امتلأت قمصانها بالثقوب. ولم يعد لديها أحذيةٌ على الإطلاق.

وذات ليلة، أنزلت كيا الثوب الصيفي المزين بالزهور الوردية والخضراء، والذي كانت أمها ترتديه إلى الكنيسة، عن العلّاقة المصنوعة من السلك المعدني. تلمست هذا الجمال لسنواتٍ - الثوب الوحيد الذي لم يحرقه أبوها - تلمست الزهور الوردية. كان ثمة بقعةٌ على الجهة الأمامية، لطخةٌ بنّيةٌ باهتةٌ تحت علاقة الكتف، قد تكون دمًا. ولكنها طفيفةٌ الآن، وممسوحةٌ كالذكريات السيّئة الأخرى.

أدخلت كيا الرّداء برأسها وأرخته على جسدها. وصل طرفه تقريبًا إلى أصابع قدميها: هذا لا ينفع. خلعته، وعلّقته لتنتظر سنواتٍ قليلةً بعد. حرامٌ أن تقصّه وترتديه لتجمع بلح البحر.

أخذت كيا القارب إلى «بوينت بيتش»، بعد أيامٍ قليلة، وهي منطقةٌ من الرمل الأبيض تقع على عدة أميالٍ إلى الجنوب من القافز.

صاغها الزمن، والأمواج، والرياح على شكل رأسٍ بحريٍّ ممتدٍّ، يحتوي قواقع أكثر من الشواطئ الأخرى، وجدت أصدافًا نادرة هناك. ربطت قاربها على الجهة الجنوبية، ومشت شمالاً، وهي تبحث. سُمعت، فجأةً، أصواتًا بعيدةً في الهواء، أصواتٌ حادّةٌ ومتحمّسة.

جرت فورًا، عبر الشاطئ، إلى الغابة حيث وقفت شجرة سنديانٍ زاد عرض جذعها عن ثمانية أقدام وقد أحاطت بها نباتات الخنشار بارتفاع الركبة. راقبت من مخبئها خلف الشّجرة مجموعةً من الأطفال يمشون على الرمل ويخوضون الأمواج من حينٍ لآخر مثيرين الرذاذ. جرى أحدهم إلى الأمام فيما رمى آخر الكرة له. بدت سراويلهم القطنية القصيرة على خلفية الرمل الأبيض، وكأنها عصافيرٌ ملوّنةٌ تؤذن بتغيير الفصل. كان الصّيف يسير باتجاهها على الشاطئ.

التصقت بجذع السنديانة عند اقترابهم واختلست النظر إليهم. كانوا خمس بنات وأربعة صبيان، أكبر سنًا منها بقليل، ربما في الثانية عشرة. تعرفت على تشايس أندريوز وهو يرمي الكرة للصبية الذين شكلوا رفاقه الدائمين.

بقيت البنات - الشقراء الطويلة النحيفة، وذات جديلة ذيل

الحصان والتي علا النمش وجهها، وذات الشعر القصير الأسود، ومرتدية اللؤلؤ على الدوام، وذات الخدود السمينة - هكذا كانت تسميهم وفق صفاتهم، متأخرات عن الصبية في سربٍ صغير، مشين ببطء وهن يثرثرن ويضحكن. تعالت الأصوات نحو كيا كقرع الأجراس. كانت أصغر من أن تعير اهتمامًا للصبية فركزت نظرها على مجموعة البنات. جلسن القرفصاء وشاهدن معًا سرطانًا يسعى جانبيًا، على الرمل. اتكأن على أكتاف بعضهن، ضاحكات، إلى أن وقعن على الرمل معًا.

عضّت كيا شفتها السفلى وهي تشاهد المنظر. تساءلت كيف ستشعر لو كانت بينهن. خلقت بهجتهن هالةً تكاد تُرى تحت السماء القاتمة. أخبرتها أمها أن النساء يحتجن لبعضهن البعض أكثر من حاجتهن للرجال، ولكنها لم تعلّمها كيف تنضم للمجموعة. تعمقت في الغابة وراقبت الجمع من خلف نباتات الخنشار الكبيرة إلى أن عاد الأطفال على الشاطئ من حيث أتوا وأصبحوا نقاطًا صغيرةً على الرمل.

علا الفجر تحت سُحُبٍ رماديّةٍ حين وصلت كيا إلى محطة القافز على رصيف الميناء. خرج من متجره الصغير هازًا رأسه.

قال: «آسف جدًا يا آنسة كيا، ولكنهم سبقوك. حصلت على

حاجتي الأسبوعية من بلح البحر ولا أستطيع شراء المزيد».

أطفأت المحرك وارتطم القارب بعمود. كان هذا الأسبوع الثاني الذي يسبقونها فيه. نفذ مالها ولا تستطيع شراء شيء. انحصرت مدخراتها بالقروش والذرة.

«آنسة كيا، يجب أن تجدي طريقةً أخرى لجني المال. لا تستطيعين جني أكوازك كلها من شجرة واحدة».

عادت إلى المنزل، وأطرقت تفكر وهي جالسةٌ على درج الإسمنت وألواح الخشب، فأتت بفكرةٍ أخرى. اصطادت السمك لثمان ساعاتٍ متواصلة، ثم وضعت غلّتها المكونة من عشرين سمكة في محلولٍ من الماء المالح كل الليل. صفت الأسماك، فجرًا، على رفوف كوخ والدها للتدخين، أشعلت نارًا في الكوّة، ودسّت أغصانًا خضراء في اللهب كما كان يفعل. تماوج دخان أزرق-رمادي ونفخ من أعلى المدخنة ومن خلال كل شقٍّ في الجدران. نفخ الكوخ كله الدخان.

أبحرت في اليوم التالي إلى محطّة القافز ورفعت دلوها وهي في القارب. كان الأمر برمّته عرضًا يرثى له لسمك الشعري والشبوط المتآكلة.

«أتشتري السمك المدخن أيها القافز؟ لدي البعض منها هنا».

«أنا متأكد أنه لديك. سأقول لك شيئًا: سوف آخذهم كأمانة. فإن بعتهم حصلتِ على النقود؛ وإلّا أعدتهم لك. أتقبلين بذلك؟».

«أقبل، شكرًا أيها القافز».

سار القافز، ليلتها، إلى بلدة الملونين - مجموعةٌ من الأكواخ وملحقات البيوت، والقليل من البيوت الحقيقية المتربعة على مياه المستنقعات ووحلها - كان المخيّم المتفرّقة منازله في عمق الغابة، بعيدًا عن البحر، ويفتقر لنسيمه، ويحوي بعوضًا أكثر من ولاية جورجيا.

اشتم، بعد أميالٍ ثلاثة، دخان نيران الطهو تنساب عبر أشجار الصنوبر، وسمع ثرثرة بعضٍ من أحفاده. لم يكن هناك طرقٌ في مدينة الملونين، فقط ممر مشاةٍ، عبر الغابة،موصلٌ إلى منازل عائلاتٍ مختلفةٍ هنا وهناك. كان بيته بيتًا حقيقيًّا بناه مع والده بخشب الصنوبر، مع سورٍ من الخشب أحاط بفناءٍ من التراب الصلب، والذي كانت مايبل، زوجته الممتلئة، تمسحه كما تمسح الأرض. لا تستطيع أفعى التسلل ضمن ثلاثين ياردة عن الدرج دون أن تدركها بمجرفتها.

خرجت من البيت لتستقبله بابتسامة، كما فعلت دائمًا، فسلّمها الدلو الحاوي على سمك كيا المدخن.

سألته: «ما هذا؟يبدو أنه شيءٌ ترفضه حتى الكلاب».

«إنها تلك الفتاة ثانيةً. أتت بهم الآنسة كيا. لا تسبق الآخرين أحيانًا ببلح البحر، فتحولت إلى السمك المدخّن. تريدني أن أبيعهم».

«يا إلهي، يجب أن نفعل شيئًا بشأن هذه الطفلة. إن لم يشترِ أحدٌ السمك، فسوف أطهوه في الحساء. وتستطيع كنيستنا تأمين الثياب وأشياء أخرى لها. سنقول لها أن هناك عائلاتٌ تبيع السّتائر مقابل سمك الشّبّوط. ما هو مقاسها؟».

«أتسألينني؟ نحيفة. كل ما أعرفه أنها نحيفة كحشرة القرادة على عصا الراية. أتوقع أن تكون هناك مع أول تباشير الصباح. إنها مفلسة تمامًا».

أبحرت كيا باتجاه محطة القافز، بعد تناول فطورٍ من بلح البحر الساخن في حساء الذرة، لترى إن كانت قد جنت المال من بيع السّمك المدخّن. لطالما وجدته هناك أو وجدت زبائنًا، ولكنها، رأت، حين دنت،

امرأةً سوداء ضخمةً تمسح أرض رصيف الميناء كما تمسح أرض المطبخ. كان القافز جالسًا على كرسيه، متكئًا إلى الخلف على حائط المتجر وهو يكتب في دفتر حساباته. قفز واقفًا، حين رآها، ولوّح لها.

قالت بهدوءٍ: «صباح الخير». وهي تبحر ببراعةٍ باتجاه المرسى.

«أهلًا آنسة كيا. دعيني أعرفك بشخصٍ هنا. هذه هي زوجتي، مايبل». مشت مايبل نحو القافز ووقفت بجانبه، ليكونا قريبين من بعضهما حين تصل كيا إلى الرّصيف.

مدّت مايبل يدها وأخذت بيد كيا، وحضنت اليد بيديها بلطف، وقالت: «من الرائع أن ألتقيكِ يا آنسة كيا. أخبرني القافز أنك فتاةٌ جيدةٌ، ومن أفضل جامعي المحار».

كانت يد مايبل لينةً رغم حراثة الحديقة، وقضاء نصف النهار بالطبخ، والغسيل والترتيب للبيض. أبقت كيا أناملها في ذلك القفاز المخملي ولم تعلم ماذا تقول، فوقفت صامتةً.

«أيها الآنسة كيا، لدينا عائلةٌ تريد بيع ثيابٍ وأشياء أخرى مقابل سمككِ المدخّن».

أومأت كيا. ابتسمت وهي تنظر إلى قدميها. ثم سألت: «ماذا بشأن الوقود لقاربي؟».رمقت مايبل القافز سائلةً.

قال: «حسنًا. سأعطيك بعضًا منه اليوم لأني أعرف أنك بحاجته. داومي على جلب المزيد من بلح البحر وأشياء كهذه عندما تستطيعين».

قالت مايبل بصوتها الضخم: «يا إلهي، أيتها الطفلة، لا تقلقي بشأن التفاصيل. دعيني أنظر إليكِ. يجب أن أقيسك لأخبرهم». أخذتها إلى الدكان الصغير. «فلنجلس هناك، وأخبريني بما تحتاجينه من ثيابٍ وغير ذلك».

ناقشتا اللائحة، ثم رسمت مايبل أقدام كيا على قطعةٍ من كيسٍ ورقيٍّ بنّيّ، وقالت: «حسنًا، عودي غدًا وستجدين كومة لك هنا».

«أنا شاكرة لك يا مايبل». ثم أضافت بصوتٍ خافتٍ: «هناك شيء آخر. وجدت هذه العبوات من البذور، ولكني لا أعرف شيئًا عن زراعة الحدائق».

«حسنًا الآن». اتكأت مايبل إلى الخلف وضحكت عميقًا. «أستطيع أن أزرع حديقة حتمًا». ثم شرحت كل خطوةٍ من خطوات الزرع

بالتفصيل، ومدّت يدها إلى إحدى علب الصفيح على الرف، وأخذت علب بذورٍ للقرع، وللبندورة، ولليقطين. أفرغت عددًا من البذور من كل نوعٍ في ورقة رسمت عليها صورةً لنوع الخضار. لم تعلم كيا إن كانت مايبل قد فعلت ذلك لأن مايبل لا تعرف الكتابة، أم لأن كيا لا تعرف القراءة، ولكنه كان إجراءً مناسبًا لكليهما».

شكرتهما وهي تعود إلى قاربها.

قالت مايبل: «أنا سعيدة بمساعدتك آنسة كيا. عودي غدًا لأغراضك».

بدأت كيا، عصر ذلك اليوم، بحراثة الأرض حيث كانت حديقة أمها. أصدرت المجرفة صوتًا وهي تغوص في الأرض مطلقةً روائح ترابية ومخرجةً ديدانًا مائلة للزهري. ثم سمعت رنةًّ مختلفة، فانحنت كيا لتكتشف مشبك شعر أمها القديم المصنوع من البلاستيك والمعدن. مسحته برفقٍ على ثيابها، إلى أن أزالت التراب والحصى عنه ونظف تمامًا. بدا ثغر والدتها الأحمر وعيناها الداكنتان منعكسين في الممشط، كانا أكثر وضوحًا مما تذكر من سنوات. نظرت كيا حولها؛ لا بد أن أمها كانت قادمةً لمساعدتها في الحراثة. عادت إلى المنزل حين انتهت. كان الهدوء

المخيم نادرًا؛ حتى الغربان كانت هادئةً فاستطاعت أن تسمع صوت نفسها.

علّقت مشبك الشّعر بدبابيسٍ فوق أذنها اليسرى، بعد أن أبعدت بعض الخصلات. قد لا تعود أمها أبدًا إلى البيت. وقد يكون على بعض الأحلام أن تذوي فحسب. رفعت المجرفة وضربت قطعة من الطين القاسي ففتتها.

كان القافز وحيدًا حين أبحرت كيا إلى رصيفه في اليوم التالي. قد يكون حجم زوجته الكبير وأفكارها النيّرة وهمًا. ولكن صندوقان قبعا على الرصيف، وأشار القافز إليهما، وقد غمرت وجهه إبتسامة عريضة.

«صباح الخير آنسة كيا، هذه لكِ».

قفزت كيا إلى الرصيف، وحدقت بالصندوقين الممتلئين.

قال القافز: «تفضلي كل هذا لكِ».

أخرجت كيا الثياب بلطف: بناطيل الجينز، وبلوزاتٍ حقيقية، ليس فقط تي شيرتات، وزوجًا من الأحذية بحزامٍ بحريٍ أزرق من ماركة «كيدس»، وآخر جلديٌ من ماركة «باستر براون»، لُمِّـع باللونين البني

والأبيض مرات كثيرة حتى توهّج. حملت كيا قميصًا أبيضًا بقبةٍ على شكل حزامٍ وعقدةٍ من الساتان الأبيض على الرقبة. فتحت فمها قليلاً.

احتوى الصندوق الآخر على كبريتٍ، وذرةٍ، وقارورة زيتٍ، وفاصولياء مجففة، وربع صفيحةٍ من دهن الخنزير المصنوع منزليًّا. وعلا ذلك كله فجلٌ طازج، وخضارٌ ولفتٌ، وباmياء ملفوفة بجريدة.

قالت بلطفٍ: «أيها القافز، هذا أكثر من سعر هذه السمكات. قد يساوي هذا شهرًا كاملاً من السمك».

«حسنًا، ماذا سيفعل الإنسان بالثياب القديمة الملقاة بالبيت؟ إن فاضت هذه الأشياء عن حاجتهم، واحتجتيها، ولديكِ السمك، واحتاجوه، فهي صفقة. خذيهم الآن لأنه لا متسع عندي لكل هذا».

أدركت كيا أن ذلك صحيح ليس لدى القافز متّسع من المساحة، فهي تخدمه بأخذها الأغراض من مرساه. «سوف آخذهم إذًا. سيكون هذا جيّدًا. اشكرهم بالنيابة عني، هل لك أن تفعل ذلك؟ سأدخّن المزيد من السمك وأجلبه بأسرع ما يمكن».

«حسنًا يا آنسة كيا. أجلبي السمك حين تحصلين عليه».

أبحرت كيا عائدةً إلى البحر. جلست، حين استدارت حول شبه الجزيرة بعيدًا عن أعين القافز، على أرضية القارب، وبحثت في الصندوق، وأخرجت القميص ذو القبّة التي بشكل الحزام. ارتدته مباشرةً فوق ثوبها الخشن بركبتيه المهترئتين، وربطت شريط الساتان الصغير حول رقبتها. ثم أبحرت وإحدى يديها على مقود القارب، والأخرى على الحزام، عبر المحيط والأنهار إلى البيت.

13
ريشٌ

1960

وقفت كيا على الشاطئ عصرًا تنثر كسرات الخبز للنوارس. كانت طويلةً ومتينة البنية نظرًا لسنها. كانت ما تزال عاجزة عن عدّها، وما زالت أميةً. لم تعد تراودها أحلام اليقظة بالطيران مع النسور؛ يتسطح الخيال ليصبح كخيال البالغين، حين تضطر لانتشال عشائك من الوحل. كان فستان أمها الصيفي مناسبًا لها حول الصدر، ووصل إلى تحت ركبتيها بقليل. كبرت عليه. سارت عائدةً إلى الكوخ، حيث أخذت قصبةً وخيطان صيدٍ وذهبت مباشرةً للصيد من أيكةٍ بعيدةٍ عن جهتها من الهور.

سمعت، لحظة طرحت الخيط، صوت تكسر عصًا. استدارت باحثةً. ثمة صوت خطوات في الأجمة. ليس دبًّا، لأن كفوفه الكبيرة

تغوص في الحصى والرمل، ولكنه صوت طرقٌ في شجيرات العلّيق. ثم نعقت الغربان. لا تحتفظ الغربان بالأسرار بأفضل من الوحل؛ فهي تخبر الجميع حين ترى شيئًا غريبًا في الغابة. يكافأ من يصغي: فإما يحذرون من مفترسٍ أو يساقون إلى طعام. أدركت كيا أن أمرًا ما يحدث.

سحبت خيط الصيد، ولفّته حول القصبة وهي تخرج، صامتةً، من الأيكة. توقفت ثانيةً وأنصتت. امتدت الفسحة المظلمة، أحد أماكنها المفضلة على هيئة كهفٍ تحت خمس شجرات سنديانٍ كثيفةٍ لدرجة أن أشعة قليلة من ضوء الشمس اخترقتها، منيرةً بقعًا غنيةً من الليلك والأبيض البنفسجي. تفحصت عيناها الفسحة ولكنها لم ترَ أحدًا.

ثم انسلّ شكلٌ من أيكة خلفها، فاتجهت عيناها نحوه. توقفت الحركة. ارتفعت دقات قلبها. احتمت للحظة، ثم جرت بسرعةٍ وهي منحنيةً، حتى استقرّت بين الأشجار المتشابكة على حافة الفسحة. نظرت خلفها عبر الأشجار، فرأت صبيًّا أكبر منها يسير مسرعًا عبر الغابة، ورأسه يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف. توقف الصبي حين رآها.

اختبأت كيا خلف شجيرة شوكٍ، ثم جرت كالأرنب عبر شجيرات العلّيق الكثيفة كجدران الحصن. جرت وهي لا تزال منحنيةً، فخدشت

ذراعها بشجيرة شوك. توقفت مرةً أخرى وأصغت. اختبأت مكانها في الحر الشديد وقد آلم حنجرتها العطش. انتظرت لعشر دقائقٍ فلم يأتِ أحد، فزحفت إلى نبعٍ بين الطحالب، وشربت كالظبي. تساءلت من هو ذلك الصبي ولماذا أتى. كان هذا هو الخطب بذهابها إلى محطة القافز، يراها الناس هناك. كانت مكشوفةً كبطن النيص.

سارت عائدةً إلى الكوخ، بين المغرب والليل، حين تصبح الظلال غير واضحةٍ، عبر فسحة السنديان.

«لم أصطد سمكًا لتدخينه بسببه، لتسلله إلى المنطقة».

ثمة جذع شجرةٍ متعفنٍ، في منتصف الفسحة، افترشته الطحالب فبدا كعجوزٍ يختبئ تحت رداء. اتجهت كيا صوبه، ثم توقفت. كان ثمة ريشةٌ سوداء نحيلةٌ بطول خمسة بوصاتٍ أو ستة. كانت لتبدو عاديةً لأغلب الناس، ريشة جانح غرابٍ على الأغلب. لكنها أدركت أنها ريشةٌ غير عاديةٍ لأنها كانت ريشة «حاجب» مالك الحزين الأزرق الكبير. كانت الريشة التي تنحني برشاقةٍ فوق العين، ممتدةً إلى الخلف وراء رأسه الأنيق. كانت من أروع قطع السبّخة الساحلية، هنا بالضبط. لم يسبق لها أن وجدت واحدةً منها ولكنها عرفتها على الفور، فلطالما

جالست طيور مالك الحزين وجهًا لوجه.

يشبه لون مالك الحزين الأزرق الكبير لون الضباب الرمادي العاكس للماء الأزرق. وكما الضباب، يستطيع الطير الاندماج بالخلفية، فلا يرى منه سوى الدوائر المركزية لعينيه الثاقبتين. مالك الحزين صيادٌ وحيدٌ وصبور. يقف وحيدًا، وبصبرٍ، منتظرًا فريسته. أو يمشي، حين يرى فريسته، خطوةً بطيئةً تلو الأخرى، كإشبينة عروسٍ مفترسة. وقد يصطاد، أحيانًا، وهو طائرٌ، يغطس بحدّةٍ، يسبقه منقارٌ حادٌ كالسيف.

همست «كيف التصقت بالجذع؟». وتلفتت كيا حولها. «يبدو أن الصبي وضعها هنا. قد يكون يراقبني الآن». وقفت بلا حراك، وقلبها يدق بقوة. تراجعت، تاركةً الريشة في مكانها، وجرت إلى الكوخ وأقفلت الباب الخارجي، وهو أمرٌ نادرًا ما تفعله بما أنه يؤمن حمايةً ضئيلة.

شعرت، حين زحف الفجر بين الأشجار، بجاذبٍ قويٍ إلى الريش، ولو لإلقاء نظرةٍ ثانية. جرت إلى الفسحة عند الشروق، ونظرت حولها جيدًا، ثمّ سارت إلى الجذع وأمسكت بالريشة. كانت ناعمةً وتكاد تكون مخملية. عادت إلى الكوخ ووجدت مكانًا مناسبًا للريشة وسط مجموعتها - من ريش الطائر الطنّان، وريش ذيل النسرِ الكبير - الملصقة

على الجدار. تساءلت لماذا قد يجلب صبيٌّ الريش لها.

أرادت كيا، في الصباح التالي، أن تهرع إلى الجذع لترى إن كان ثمة ريشة أخرى هناك، ولكنها أجبرت نفسها على الانتظار. يجب ألّا تلتقي بالصبي. ذهبت إلى الفسحة قبيل الظهر، اقتربت ببطءٍ وأصاغت السمع. لم تسمع أحدًا ولم ترى أحدًا، فخطت إلى الأمام ورأت ريشةً بيضاء ملتصقةً بالجذع. أضاءت وجهها ابتسامةٌ قصيرةٌ ونادرة. كانت الريشة بطول ذراعها تقريبًا ومحنيةً بشكلٍ لطيف. رفعتها بيدها وقهقهت عاليًا. ذيل رائع لطائر استوائي. لم ترَ هذه الطيور البحرية من قبل لأنها لا تعيش في هذا الإقليم، ولكنها كانت تُقذفُ إلى اليابسة محمولةً على أجنحة الأعاصير.

امتلأ قلب كيا بالعجب عن المجموعة التي يمتلكها أحدهم، والتي تجعله يستغني عن هذه.

لم تكن تعرف أسماء معظم الطيور والحشرات لعدم استطاعتها قراءة دليل أمها، فأنشأت دليلها الخاص. ورغم جهلها الكتابة، فقد وجدت طريقةً لتصنيف عيّناتها. نمت موهبتها وكانت قادرة على الرّسم، والتلوين، وتخطيط أي شيء. استخدمت الطباشير والألوان المائية من

«فايف أند دايم»، لرسم مخططاتٍ للطيور، والحشرات، والأصداف على أكياس البقالة، وألصقتها بنماذجها.

أضاءت شمعتين ليلتها، وركزتهما في صحنين على طاولة المطبخ لترى كل ألوان الأبيض؛ ولترسم ريش الطائر الاستوائي.

لم يظهر ريشٌ جديدٌ على الجذع لأكثر من أسبوع. ذهبت كيا عدة مراتٍ في اليوم، ناظرةً بحذرٍ عبر نبات الخنشار، ولكنها لم تر شيئًا. جلست في الكوخ وسط النهار، وهو أمرٌ نادرًا ما تفعله.

«كان علي أن أنقع الفاصولياء للعشاء. تأخرت الآن كثيرًا». سارت عبر المطبخ وبحثت في خزانة الصحون، ثم طرقت بأناملها على الطّاولة، فكرت بالرسم ولكنها لم تفعل، وعادت إلى الجذع مرةً أخرى.

رأت ريشة الديك الرومي البرّي الطويلة والمخططة من بعيد. أسرتها. كانت طيور الديك الرومي من المفضلات لديها. شاهدت مرةً اثنا عشر فرخًا تجمعت تحت جناحي أمها وهي ماشية. سقط بعضهم فتزاحموا للحاق بها.

فيما كانت كيا تتنزه في حقلٍ من أشجار الصّنوبر، منذ سنةٍ تقريبًا،

سمعت صراخًا حادًا. كان سرب من خمس عشرة ديكًا روميًا معظمهم من الإناث، والقليل من الذكور والديكة - تجمعت تنقد ما بدا وكأنه خرقةٌ مشبعةٌ بالزيت ومكومةٌ على التراب. ثار الغبار من تحت أرجلهم وغطّى الغابة منتشرًا عبر الأغصان ومعشّشًا فيها. رأت كيا، لدى اقترابها منهم، أنثى ديكٍ رومي ملقيةً على الأرض، والطيور الأخرى من سربها ينقدونها ويخدشون رقبتها ورأسها بمخالبهم. كان جناحاها قد علقا بالأشواك، فعجزت عن الطيران. أخبرها جودي يومًا أنه إذا أصبح الطائر مختلفًا عن الآخرين - مشوّهًا أو مجروحًا - فإنه يصبح عرضةً لجذب المفترسين فيقتله باقي السرب بدلاً من جذب نسرٍ قد يصطاد أحدهم في المعمعة.

نهشت أنثى ضخمة الدجاجة المصابة بمخالبها الكبيرة الشبيه بالأشواك، وثبّتتها إلى الأرض بينما وجهت أنثى أخرى الطعنات إلى عنقها العارية ورأسها. انتحبت الدجاجة، ونظرت حولها بعينين متوّحشتين إلى سربها وهم يهاجمونها.

أسرعت كيا إلى الفسحة ملوّحةً بيديها وصارخة: «هاي، ماذا تفعلون؟ ارحلوا من هنا. توقفوا»! سببت الأجنحة المضطربة المزيد من

الغبار، فيما انتشرت الديوك الرومية في الأجمة، وطار اثنان منهما متثاقلين إلى سنديانة. ولكن كيا وصلت متأخرةً. رقدت الدجاجة بعينيها المفتوحتين بلا حراك. جرى الدم من رقبتها الملتوية الممدة على التراب.

«شوو، اذهبي»! لاحقت كيا آخر الطيور الكبيرة إلى أن اختفت بعد أن أتمت مهمتها. انحنت قرب الدجاجة الميتة وغطّت عينيها بورقة من شجرة الجمّيز.

تناولت ليلتها، وبعد مراقبة الديوك الرومية، عشاءً من بقايا خبز الذرة والفاصولياء، ثم استلقت على سرير الشرفة، تشاهد القمر يلامس الهور. سمعت فجأة أصواتًا قادمةً من الغابة باتجاه الكوخ. بدت الأصوات عصبيةً وحادة. كانت لصبيانٍ، وليست لرجالٍ. استقامت جالسةً. لم يكن هناك من بابٍ خارجي. كان عليها أن تهرب الآن أو تبقى في السّرير إلى أن يصلوا. تسللت نحو الباب، بسرعة الفأرة، فظهرت الشموع في تلك اللحظة متحركة إلى الأعلى والأسفل، ويتحرك نورها في دوائر. تأخر الهرب كثيرًا.

علت الأصوات. «نحن قادمون، يا فتاة السبّخة! هاي، هل أنت هناك؟ يا آنسة الحلقة المفقودة! أرينا أسنانكِ! أرينا أعشابك

المستنقعية!»، سادت جلجلة من الضّحك.

انخفضت أكثر خلف الجدار النصفي للشرفة فيما اقتربت الخطوات. لمعت ألسنة اللهب بجنون، ثم انطفأت حين جرى خمسة صبيانٍ معًا، ربما بعمر الثالثة عشر أو الرابعة عشر، عبر الباحة. توقف الكلام فيما جروا كالأحصنة بأقصى سرعةٍ نحو الشرفة وأشبعوا الباب ضربًا براحات أيديهم، محدثين أصواتًا كالصّفع.

كانت كلُّ ضربةٍ بمثابة طعنةٍ في قلب دجاجة الديك الرومي.

أرادت كيا أن تبكي خلف الجدار ولكنها حبست أنفاسها. كان باستطاعتهم كسر الباب والدخول منه بسهولة. ضربةٌ واحدة ويدخلون.

لكنهم عادوا أدراجهم على الدرج، وجروا ثانية نحو الأشجار، وهم يصيحون ويصرخون بنشوة لأنهم سلموا من أذية فتاة السبّخة، الفتاة الذئب، الفتاة التي لم تستطع أن تقرأ كلمة «كلب». وصلتها كلماتهم وضحكاتهم عبر الغابة فيما غابوا في جوف الليل، عائدين لبر الأمان. شاهدت الشمعات وقد أُضيئت ثانية، تتمايل بين الأشجار، ثم جلست تحدّق بالظلام الهادئ كالصخرة، شاعرة بالإذلال..

تذكرت كيا ذلك النهار والليلة في كل مرة رأت فيها طيور الديك الرومي البرية، ولكنها شعرت بسعادةٍ غامرةٍ حين رأت ريشة الذيل على جذع الشجرة. يكفي أن تعلم أن اللعبة ما زالت مستمرّة.

14
أليافٌ حمراء

1969

حولت الحرارة المشبّعة بالرطوبة الصباح إلى ضبابٍ من لا بحر ولا جو. خرج جو من مبنى الشريف، فالتقى بإد بينما كان يترجّل من شاحنة الشرطة. «تفضّل إلى هنا أيها الشريف. حصلنا على معلوماتٍ إضافيةٍ في قضية تشايس أندريو، وهي حارةٌ كنفس الدب في الداخل». قاد الطريق إلى سنديانةٍ تضرب جذورها العتيقة في التراب العاري كالقبضات. تبعه الشريف وهو يمضغ بلوطةً ووقفا في الظل، ووجهاهما لنسيم البحر.

قرأ بصوت عالٍ: «ندباتٌ على الجسد، وجروحٌ داخليةٌ متزامنةٌ مع سقوط طويل. لقد صدم مؤخرة رأسه بتلك العارضة - تطابق الدم

وعيّنات الشعر مع دمه وعينات شعره - ما سبب ندباتٍ وضررٍ في الفص الخلفي ولكنه لم يقتله».

«هنا بيت القصيد؛ مات حيث وجدناه، لم يحركه أحد. يثبت الدم والشعر على العارضة الأفقية ذلك. سبب الموت: صدمة على الجزئين الخلفي والأوسط من القشرة المخية، وعمودٌ فقريٌ مكسور بسبب السقوط من البرج».

«فإذًا، مسح أحدهم فعلًا أثر الأقدام وبصمات الأصابع. هل من شيء آخر؟».

«استمع لهذا. وجدوا الكثير من الأياف الغريبة على سترته. ألياف صوفٍ حمراء لم تأتِ من أيٍ من ملابسه. هناك عينة مرفقة». لوح الشريف بكيسٍ بلاستيكيٍ صغير.

حدق الاثنان بخيوطٍ حمراء مجعدةٍ التصقت بالبلاستيك كشبكة عنكبوت.

قال جو: «يقول التقرير إنها من الصوف. قد يكون من سترة، أو وشاحٍ، أو قبعة».

«أو قميصٍ، أو تنورةٍ، أو شرابٍ، أو معطفٍ. اللعنة. قد تكون أي شيءٍ، وعلينا إيجاده».

15
اللعبة

1960

اقتربت كيا، ظهر اليوم التالي، من الجذع ويداها على خديها. اقتربت ببطءٍ وكأنها تصلي. لم يكن ثمة ريشٌ على الجذع، فزمت شفتيها.

«عليَّ أن أترك له شيئًا، بالطبع».

أخرجت من جيبها ريشة ذيلٍ لعقابٍ أغرّ فتي، وجدتها ذلك الصّباح. وحده من يعرف الطيور عن كثب سيعرف أن تلك الريشة المخرمة تعود لعقابٍ أغرّ. عقابٌ يبلغ الثالثة من العمر، ولم يتوج بعد. لم تكن قيّمة كريشة ذيل الطائر الاستوائي، ولكنها كانت عزيزةً. وضعتها برفقٍ على الجذع وثبتتها من الريح بحجرٍ صغير.

رقدت تلك الليلة، وقد شبكت يديها تحت رأسها على سرير الشرفة، وقد علت وجهها ابتسامة صغيرة. هجرتها عائلتها لتناضل في المستنقع، وأتاها غريبٌ من تلقاء نفسه، تاركًا لها هدايا في الغابة. تسلل القلق، ولكنها كلما فكّرت بالموضوع أكثر، كلما بدا لها أن الصبي لا ينوي سوءًا. لا يكون من يحب الطيور وضيعًا.

قفزت من السرير، صباح اليوم التالي، ومارست ما كانت أمها تدعوه «تنظيفًا عميقًا». جلست إلى طاولة الزينة لأمها، قصدت كيا أن تختار بقايا الأدراج، ولكنها حين أمسكت بمقص أمها المصنوع من النحاس والفولاذ - كانت قبضة المقص محنيةً ومزينةً برسومٍ من الليلك - أمسكت بشعرها فجأةً، وهو الذي لم يعرف المقص منذ مغادرة أمها لسبع سنواتٍ خلت، وشدته إلى الخلف، فقصت منه ثمانية بوصات. أصبح الآن يصل إلى ما تحت كتفيها بقليل. نظرت إلى نفسها في المرآة، وهزت رأسها قليلاً، ثم ابتسمت. حفت أظافرها وسرحت شعرها إلى أن لمع.

أعادت الفرشاة والمقص إلى مكانيهما، وبحثت عن بعض أدوات تجميل والدتها. جفّ أساس التجميل وأحمر الشفاه وتكسّرا، ولكن

صلاحية أحمر الشفاه، على ما يبدو، كانت عقودًا لأنها حين فتحته، كان لا يزال جيّدًا. كانت هذه المرة الأولى التي تضع فيها أحمر الشفاه غير لاعبةٍ كطفلةٍ صغيرة. ضمت شفتيها، ثم ابتسمت مرةً ثانيةً للمرآة. تعتقد أنها تبدو جميلةً. ليست بجمال أمها، ولكن لا بأس بها. ضحكت، ثم أزالته كله. رأت، قبل أن تغلق الدُّرج، قارورةً من طلاء الأظافر الجاف من ماركة «ريفلون» بالكاد كان لونه زهريًا.

رفعت كيا القارورة الصغيرة، مستعيدةً ذكرى عودة أمها من البلدة يومها ومعها هذه القارورة من طلاء الأظافر من بين مشترياتها. قالت أمها أنه سيبدو جميلًا على بشرتهم الحنطية. أجلست كيا وأختيها الكبيرتين على الأريكة المهترئة، وطلبت منهن أن يقدمن أقدامهن، ثم طلت أظافر أقدامهن، ثم أناملهن. ثم طلت أظافر قدميها ويديها، وضحكن واستمتعن بوقتهن وهن يركضن ويمرحن في الباحة، وأظافرهن الزهرية تلمع. لم يكن الوالد موجودًا، ولكن القارب كان مركونًا عند البركة. اقترحت الأم أن تخرج البنات جميعًا بالقارب، وهو ما لم يفعلنه من قبل.

صعدن إلى القارب القديم، وهن يتمايلن كالسكارى. تطلّب الأمر

عدّة محاولات لتشغيل المحرك، فعمل أخيرًا، وانطلقن بقيادة الأم عبر الهور ومنه إلى القناة الضيقة المؤدية إلى السبّخة. انطلقن سريعًا في الطرق المائية، ولكن الأم لم تعرف الكثير عن الإبحار، فعلقن في الوحل اللزج الأسود والسميك كالقطران. دفعن القارب يمينًا ويسارًا ولكن ذلك لم يحرره. لم يبق لهن سوى القفز في المياه بتنانيرهن فغرقن في الوحل حتى ركبهن.

كانت الوالدة تصرخ: «لا تقلبن القارب، لا تقلبن القارب». حررن القارب أخيرًا وضحكن من وجوه بعضهن البعض الموحلة. تطلبت العودة إلى القارب جهدًا، فاستلقين على أرضه كالأسماك المصادة حديثًا. وبدلاً من الجلوس على مقاعد القارب، استلقين على أرض القارب، رافعاتٍ أقدامهن في الهواء، ومحركاتٍ أصابع أقدامهن، وأظافرهن الزهرية تلمع عبر الوحل.

قالت أمهن وهي مستلقية: «استمعن، هذا درسٌ حقيقيٌّ في الحياة. نعم، علقنا، ولكن ماذا تفعل الفتيات؟ يحولنّ الوضع إلى وضعٍ مرحٍ، ويضحكن. هذه ماهية الأخوات والصديقات. التعاضد معًا، ولو في الوحل، وخاصةً في الوحل».

لم تشترِ الأم أي مزيلٍ لطلاء الأظافر، فحين بدأ الطلاء بالتقشير والتشقق، بدأت قطع من الأظافر الزهرية في الأيدي والأقدام تذبل، ما ذكّرهن بالوقت الممتع الذي قضيناه، وبالدرس الحقيقي في الحياة.

حاولت كيا أن ترى أوجه أخواتها وهي تنظر إلى القارورة القديمة. فقالت بصوتٍ عالٍ: «أين أنت الآن يا أمي؟ لماذا لم تبقِ؟». رأت كيا، عصر اليوم التالي، ولدى وصولها إلى فسحة السنديان، ألوانًا غير طبيعيةٍ على خلفية ألوان الغابة الخضراء والبنيّة. قبعت علبة حليبٍ صغيرة باللونين الأحمر والأبيض، على الجذع، وبجانبها ريشةٌ أخرى. يبدو أن الصبيّ قد رفع من المستوى. مشت إلى الجذع وأمسكت بالريشة أولاً.

كانت فضيّةً وناعمةً ومن عرف طائر مالك الحزين، وهي من الأجمل في السبّخة. ثم نظرت في علبة الحليب فوجدت عبواتٍ من البذور ملفوفةً بإحكام: فجلٌ، وجزرٌ، ولوبياء خضراء. ووجدت شمعة احتراق، في قعر الصندوق، ملفوفةٌ بورقةٍ بنية. ابتسمت ثانيةً والتفت حول نفسها في دائرة صغيرة. اعتادت أن تعيش مستغنيةً عن أكثر الأشياء، ولكنها كانت تحتاج إلى شمعةٍ احتراقٍ من حينٍ لآخر. كان القافز قد علّمها بعض التصليحات البسيطة في محرك القارب، ولكن كل عملية

تصليح كانت تعني رحلةً إلى البلدة ونقدًا.

هذه شمعة احتراقٍ إضافيةٍ لوقت الحاجة. امتلأ قلبها. كما لو كان خزانها مليئًا بالوقود، أو كرؤية غروب الشمس تحت سماءٍ مطليّةٍ بفرشاة. وقفت جامدةً تمامًا، محاولةً استيعاب الأمر، وما يعنيه. راقبت، قبلًا، ذكور الطيور تتودد لإناثها بالهدايا. ولكنها كانت صغيرة جدًّا لبناء العش.

رأت ملاحظةً في قعر الصندوق. فتحت الورقة ونظرت إلى الكلمات المكتوبةً بعنايةٍ وبخط بسيطٍ يفهمه حتى الطفل. كانت كيا تحفظ وقت المد عن ظهر قلب، وتستطيع العودة إلى البيت بقراءة النجوم، وتعرف كل ريشةٍ في نسر، ولكنها لم تستطع قراءة الكلمات حتى بعمر الرابعة عشر.

كانت قد نسيت أن تحضر له شيئًا. وحوت جيوبها ريشاتٍ عاديةٍ فحسب، وصدفاتٍ، وبذور الثمار. أسرعت عائدةً إلى الكوخ ووقفت أمام حائط ريشاتها، تتسوّق منها. كان أجمل الريشات يعود لذيل بجعة سهل التوندرا. أخذت إحداها عن الحائط لتتركها له على الجذع لاحقًا.

أخذت غطاءها ونامت في السبّخة عندما هبط الليل، قريبًا من الأخدود المغمور بنور البدر وبالمحارات، وملأت، عند الفجر، كيسين من الخيش. هذا لمال الوقود. كان الكيسان أثقل من أن تحملهما، فجرّت الأول عائدة إلى الهور. أخذت طريق فسحة السنديان، رغم كونها ليست الطريق الأقصر، لتترك ريشة البجع هناك. سارت باتجاه الشجر دون أن تنظر، فوجدت صبي الريش مستندًا إلى الجذع. عرفته على أنه تايت، الصبي الذي أرشدها إلى طريق بيتها عبر السبّخة حين كانت فتاةً صغيرةً. كان تايت هو الصبي الذي راقبته لسنوات من بعدٍ ولم تمتلك الجرأة لتقترب منه. كان أطول منها وأكبر سنًا، ربما في الثامنة عشرة. برز شعره من فتحات قبعته خصلاً وشعراتٍ حرةً، وكان وجهه ملفوحًا بالشمس ومريحًا للنظر. كان هادئًا، وابتسم ابتسامةً عريضةً، فأشرق وجهه كله. لكن عيناه كانتا أكثر ما جذبها. كانتا بنيتين مائلتين إلى الذهبي بمشحاتٍ من الأخضر، وثابتتين على عينيها كما تثبت عينا طائر مالك الحزين على سمكةٍ صغيرة.

توقفت وقد أربكها التجاوز المفاجئ للقوانين غير المكتوبة. تكمن المتعة في لعبةٍ لم يكن عليهما فيها الكلام مع بعضهما البعض، أو رؤية

بعضهما البعض. احمرَّ وجهها.

قال لها: «مرحبًا كيا. أرجوك...... لا...... تركضي. هذا أنا....... أنا..... تايت». قال ذلك بهدوءٍ تام، وبروية، وكأنها غبيةٌ أو ما شابه ذلك. ربما هذا ما قاله له أهل البلدة، لأنها بالكاد تتكلّم كالبشر.

لم يتمالك تايت نفسه عن التحديق. كانت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. ورغم سنها، كان وجهها أجمل ما رآه في حياته. كانت عيناها الكبيرتان قريبتان جدًّا من السواد، ولها أنفٌ نحيفٌ فوق شفتيها المكتنزتين، جعلها تبدو مميزةً. كانت طويلةً، ونحيفةً، ما أعطاها مظهرًا واهنًا وليِّنًا، وكأن الريح شكّلتها كمخلوقٍ وحشي. بدت عضلاتها القوية رغم صغر سنها، معبرةً عن قوّةٍ هادئة.

كانت ردة فعلها، كالعادة، الهرب. ولكن إحساسًا آخر قفز إلى الواجهة. شعورٌ بالامتلاء لم تعهده منذ سنوات. وكأن شيئًا دافئًا يسكب في قلبها. فكّرت في الرّيشات، وشمعة الاحتراق، والبذور. قد ينتهي كل شيءٍ إن هربت. رفعت يدها، بصمت، وحملت رّيشة البجعة - إليه. تقدم منها ببطءٍ، وكأنها ستهرب فجأةً كالظبي الجفل، وتفحص الريشة في يدها. راقبت بصمت، ناظرةً إلى الريشة فحسب، لا إلى وجهه، ولا إلى

أي مكانٍ قرب عينيه.

قال: «هذه لبجعة - سهول التوندر، أليست كذلك؟ هذا رائعٌ يا كيا. شكرًا لك». كان أطول منها فانحنى قليلاً ليأخذها منها. كانت هذه فرصتها لتشكره على هداياه، ولكنها وقفت صامتةً، متمنيةً أن يذهب، متمنيةً أن يكملا لعبتهما.

حاول أن يملأ الصمت، فأكمل: «علمني والدي عن الطيور».

نظرت إليه أخيرًا وقالت: «لا أستطيع قراءة ملاحظتك».

«طبعًا، بما أنك لا تذهبين إلى المدرسة. نسيت ذلك. كل ما ورد فيها هو أني رأيتك مرتين بينما كنت أصطاد السمك، وخطر لي أنك ربما تستطيعين استخدام البذور وشمعة الاحتراق. لدي فائضٌ منها وأعتقد أن هذا يوفّر عليك رحلةً إلى البلدة. ظننت أنك تحبين الريش».

رفعت كيا رأسها وقالت: «شكرًا لك على هذه الأشياء؛ كان هذا لطيفًا جدًّا منك».

لاحظ تايت أنه فيما عكس وجهها وجسدها بداية أنوثةٍ، إلا أن تصرفها وكلامها شابتهما الطفولة، على عكس فتيات القرية اللواتي غلب

تصرفهن - إفراطٌ في استخدام مواد التجميل، والشتائم، والتدخين - تطورهن الجسدي.

«أهلاً وسهلاً بكِ. حسنًا، يجب أن أذهب فقد تأخر الوقت. سوف أمر بك بين الفينة والفينة، إن لم يكن لديك مانع».

لم تقل كيا شيئًا تعليقًا على ذلك. يبدو أن اللعبة انتهت. لاحظ أنها لن تقول كلمة أخرى، فأومأ لها، ولمس قبعته، واستدار ليذهب. ولكنه، وفي اللحظة التي أحنى فيها رأسه ليدخل عبر عليقة التوت، التفت إلى الوراء ناظرًا إليها وقال:

«أستطيع تعليمك القراءة».

16
القراءة

1960

لم يعد تايت لأيامٍ لدروس القراءة. كانت الوحدة قد أصبحت بالنسبة لكيا، قبل لعبة الرّيش، عضوًا طبيعيًّا، كاليد تمامًا. أنبتت الآن جذورًا داخلها، وضغطت على صدرها.

خرجت كيا، ذات عصرٍ، بقاربها. «لا أستطيع الجلوس والانتظار».

وبدلاً من الرسو عند محطة القافز، خبأت قاربها في كهفٍ صغير إلى الجنوب، وسارت على المسار الظلّيل المؤدي إلى مدينة الملوّنين، حاملة كيسًا من الخيش. هطل مطرٌ لطيفٌ معظم ذلك اليوم، وحين اقتربت الشمس من الأفق، كونت الغابة ضبابها الخاص الذي تسلل عبر

أعشاب العصارى الشوكية. لم يسبق لها الذهاب إلى قرية الملونين من قبل، ولكنها عرفت موقعها، وظنت أنها ستجد منزل القافز ومايبل لحظة وصولها إلى هناك.

ارتدت بنطال جينزٍ وبلوزةً زهرية اللون ممّا أعطتها مايبل. حملت في كيس الخيش مرطباناان من مربى التوت الأسود السائل اللذيذ، الذي صنعته للقافز ومايبل لترد لهما جميلهما. دفعتها الحاجة للاجتماع بأحدٍ ما، والفرصة لتتكلم مع صديقةٍ باتجاههما. قد تستطيع الجلوس مع مايبل والكلام معها، إذا كان القافز لم يأت إلى المنزل بعد.

سمعت كيا أصواتًا قادمةً باتجاهها، قبل منعطفٍ على الطريق. توقفت وأصغت بانتباه. ابتعدت بسرعةٍ عن المسار فدخلت الغابة واختبأت خلف أجمة الآس. ظهر ولدان أبيضان، بعد دقيقةٍ، يرتديان بنطالين ممزقين، ويحملان عدّة صيد السمك وخيطٍ، بطول ذراعها، امتلأ بالسمك. سكنت خلف الأجمة وانتظرت.

أشار أحد الصبيين باتجاه الممر. «انظر إلى هناك».

«ألسنا محظوظين. عبدٌ سائرٌ نحو بلدة العبيد». نظرت كيا إلى

الطريق، فرأت القافز متجهًا إلى منزله. كان قريبًا بما يكفي ليسمع كلام الصبيين، ولكنه أطرق ببساطة، ودخل الغابة مفسحًا لهما الطريق، ثم أكمل سيره.

غضبت كيا وقالت: «ما باله، لماذا لا يفعل شيئًا؟». كانت تعلم أن كلمة عبد كلمة بذيئة - أدركت ذلك لأن والدها كان يستخدمها كشتيمة - كان القافز قادرًا أن يضرب رأسي الصبيين ببعضهما، ويعلّمهما درسًا. لكنه أسرع الخطى.

سخرا من القافز قائلين: «ليس أكثر من عبدٍ عجوزٍ يسير إلى البلدة. انتبه لنفسك أيها الصبي العبد، ولا تقع على الأرض». ولكنه بقي ينظر إلى أصابع قدميه. انحنى أحد الصبيين والتقط حجرًا، ورمى به ظهر القافز. أصاب الحجر القافز أسفل لوح الكتف محدثًا صوتًا. ترنّح قليلاً، وأكمل طريقه. ضحك الصبيان وهما يشاهدانه يختفي عند المنحنى ثم تناولا أحجارًا أخرى ولحقا به.

لاحقتهما كيا عبر الشجيرات إلى أن سبقتهما، وعيناها مسمرتان على قبعتيهما القافزتين بين الأغصان. ربضت عند نقطةٍ حيث نمت الشجيرات الكثيفة بجانب المسار، حيث سيمرّان ضمن قدمٍ منها. كان

القافز قد تقدمهم، بعيدًا عن النظر. ثنت الحقيبة المليئة بالمربى حاشرةً المرطبانين فيها كالعقدة. لوحت بالحقيبة الثقيلة، مع اقتراب الصبيين، وضربت الأقرب منهما إليها بقوةٍ على مؤخرة رأسه. ترنّح إلى الأمام ووقع على وجهه. ركضت باتجاه الصبي الآخر، صارخةً وجاهزةً لضرب رأسه أيضًا، ولكنه هرب. تسللت، بعد حوالي خمسين ياردةً، بين الشجرات وانتظرت إلى أن وقف الصبي الأول، ماسكًا رأسه وشاتمًا.

استدارت عائدةً إلى القارب، حاملةً المربى، وأبحرت إلى البيت. قد لا تعود للزيارة ثانيةً.

جرت كيا في اليوم الثاني، عندما سمعت صوت قارب تايت عبر القناة، إلى الهور وتوقفت عند الشجيرات، فشاهدته يخرج من القارب، حاملاً حقيبة الظهر. نظر حوله وناداها فخرجت تمشي الهوينى وهي مرتدية بنطال جينزٍ على مقاسها، وبلوزةً بيضاء بأزرارٍ غير متناسقة.

«مرحبًا، كيا. آسف لأني لم أستطع القدوم أبكر. كان عليَّ أن أساعد أبي، ولكننا سنتمكن من القراءة في وقت قصير».

«مرحبًا تايت».

أشار إلى جذع شجرة سنديان في الظل العميق عند البركة وقال لها: «فلنجلس هنا». سحب من حقيبة الظهر كتيبًا رقيقًا باليًا للأحرف الأبجدية، ودفترًا مسطرًا. رسم الأحرف الأبجدية ببطءٍ وثباتٍ بين الأسطر، أ، ب، وطلب منها أن تفعل نفس الشيء صابرًا على بطئها. كتبت الأحرف وقرأتها، وهي تكتبها، ببطءٍ وبنعومة.

تذكّرت بعض الأحرف من جودي ومن أمها، ولكنها لم تعرف كيف تضعها في كلمات كاملة.

قال لها، بعد دقائق: «أترين، تستطيعين الآن كتابة كلمة».

«ماذا تعني؟».

«ع - ر - ب - ة تستطيعين الآن كتابة كلمة عربة».

سألته: «ما معنى كلمة عربة؟». أدرك أن عليه ألا يضحك.

«لا تقلقي إن لم تعرفيها. فلنستمر. ستكتبين كلمة تعرفينها قريبًا».

قال لها فيما بعد: «عليك بذل جهدٍ أكثر على أحرف الأبجدية. يستغرق الأمر بعض الوقت لإتقانها، لكنك تستطيعين القراءة قليلًا الآن.

سأريك كيف». لم يكن لديه كتابٌ لقواعد اللغة، فكان كتابها الأول نسخةً من كتاب أبيه لألدو ليبولدز: «تقويم مقاطعة الرمل». أشار إلى الجملة الافتتاحية وطلب منها قراءتها. كانت الكلمة الأولى «هناك» وكان عليها أن تعود إلى الأحرف الأبجدية وتتمرن على صوت كل حرف، ولكنه كان صبورًا، فشرح الصوت الخاص لـ «ك»، رفعت يديها إلى السماء وضحكت حين لفظتها، بعد حين. راقبها مبتسمًا.

فككت كل كلمة في الجملة، ببطء: «هناك الذين يستطيعون العيش بدون الحياة البرية، وهناك الذين لا يستطيعون».

قالت: «أووووه، أووووه».

«تستطيعين القراءة يا كيا. لن تعجزك القراءة بعد اليوم أبدًا».

قالت هامسةً: «هذا ليس كل شيء، لم أكن أعلم أن الكلمات تحمل هذا الكم. لم أعلم أن جملةً قد تكون ملأى بهذا الشكل».

ابتسم: «هذه جملةٌ جيدةٌ جدًا. لا تحمل كل الكلمات الكثير».

جلسا إلى جذع شجرة السنديان في الظل أو على الشاطئ في الشمس، خلال الأيام التالية، فعلمها تايت كيف تقرأ الكلمات، التي

تغنت بالإوز وبالغرنوق، المتواجدين حولهما. «ماذا لو اختفت موسيقى الأوز؟».

زار تايت منزل كيا عدة مراتٍ أسبوعيًا، ما بين مساعدته لوالده ولعب البايسبول مع أصدقائه. كانت تنصت، لصوت قاربه يهدر قادمًا عبر القناة، مهما كان الذي تفعله، إزالة العشب من الحديقة، أو إطعام الدجاجات، أو البحث عن الصدف.

سألته ذات يومٍ، وفيما كانا يقرآن عمّا تأكل طيور القرقف للغداء: «هل تعيش مع عائلتك في باركلي كوف؟».

«أعيش مع والدي. نعم، في باركلي كوف».

لم تسأله كيا إن كان لديه أفراد آخرون في عائلته وقد رحلوا. لا بد أن والدته تركتهم أيضًا. تاق جزءٌ منها للمس يده. رغبةٌ غريبة، ولكن أناملها ما كانت لتفعل ذلك. حفظت شكل العروق الزرقاء داخل مرفقه، بدلًا من ذلك. كانت معقدةً كالموجودة على جوانح الدبابير.

جلست إلى طاولة المطبخ، ليلاً، وراجعت الدروس على ضوء قنديل الكاز، الذي انساب نوره من نوافذ الكوخ لامسًا الأغصان

المنخفضة لأشجار السنديان. كان هذا هو الضوء الوحيد المتواجد في أميالٍ وأميالٍ من السواد، عدا البريق الرقيق للحباحب.

كتبت كل كلمةٍ وقرأتها مرارًا. قال تايت أن الكلمات الطويلة ليست سوى كلماتٍ صغيرةٍ موصولةٍ ببعضها، فلم تخيفها، وتعلمت كلمة القسطنطينية كما تعلمت كلمة يد. تعلّم القراءة متعةٌ لم تعهدها من قبل. ولكنها لم تستوعب لماذا قد يعلم تايت قمامةً بيضاء فقيرةً مثلها، أو لمَ أتى أصلًا، ولماذا جلب الريشات النادرة. ولكنها لم تسأل، خوفًا من أنه قد يرحل إذا فكر في الموضوع.

كانت كيا الآن قادرةً على كتابة أسماء عيناتها القيّمة. أخذت كل ريشةٍ، وحشرةٍ، وصدفةٍ، وزهرةٍ، وبحثت عن كيفية قراءة اسمها في كتاب أمها، وكتبته بعنايةٍ على رسمة كيس الورق البني.

سألت تايت يومًا: «ماذا يأتي بعد التاسعة والعشرين؟».نظر إليها. كانت تعرف أكثر مما يعرفه معظم الناس عن أحوال المد، وإوز الثلج، والنسور والنجوم، ولكنها لا تعرف العد حتى الثلاثين. لم يشأ أن يشعرها بالخجل، فلم يظهر أنه تفاجأ. كانت جيدةً جدًا في قراءة العيون.

قال ببساطة: «ثلاثون. سأريك الأرقام وسنقوم ببعض العمليات الحسابية البسيطة، وهي سهلة. سأجلب لك بعض الكتب عن الحساب».

راحت تقرأ كل شيء، الإرشادات على كيس الذرة، وملاحظات تايت، والقصص في كتابها الذي كانت تتظاهر بقراءته لسنوات. تأوهت، ذات ليلةٍ، وأخذت كتاب الإنجيل المقدس القديم عن الرف. جلست إلى الطاولة، وقلبت الصفحات الرقيقة بعناية إلى الصفحة التي تحمل أسماءالعائلة. وجدت اسمها في أسفل القائمة وتاريخ ميلادها: الآنسة كاثرين دانيل كلارك، 10 تشرين الأول، 1945. عادت إلى أعلى القائمة، وقرأت الأسماء الحقيقية لإخوتها وأخواتها.

السيد جيرمي أندرو كلارك، 10 كانون الثاني، 1939. «جيرمي» قالتها بصوت عالٍ. «جودي، لم أعتقد، قطعًا، أن اسمك هو السيد جيرمي».

الآنسة أماندا مارغريت كلارك، 17 أيار، 1937. لمست كيا الاسم بأناملها. رددته عدة مرات.

أكملت القراءة. السيد نابيير مورفي كلارك، 4 نيسان، 1936. قالت كيا بلطف: «مورفي، كان اسمك نابيير».

تصدر اسم كبيرتهم، الآنسة ماري هيلين كلارك، 19، 1934 القائمة. مررت أناملها فوق الأسماء ثانيةً، ما أعاد صور وجوههم أمام عينيها. كانت وجوههم غير واضحة، ولكنها كانت تستطيع رؤيتهم مجتمعين حول الطاولة يتناولون الحساء، ويضحكون أحيانًا. شعرت بالخجل لأنها كانت قد نسيت أسماءهم، ولكنها لن تنساهم أبدًا، بعد أن وجدتهم.

قرأت فوق القائمة: السيد جاكسون هنري كلارك تزوج من الآنسة ماريا جاك، 12 حزيران، 1933 لم تكن تعرف أسماء أهلها الكاملة حتى لحظتها.

جلست لعدة دقائقٍ والإنجيل مفتوحٌ على الطاولة، وعائلتها أمامها.

يضمن الوقت ألّا يعرف الأطفال أهلهم وهم صغار. قد لا ترى جايك الوسيم أبدًا داخلًا إلى محل بيع المشروبات الغازية في «آشفيل» في أوائل عام 1930، حيث رأى ماريا جاك الجميلة بغدائرها السوداء

وشفتيها الحمراوان، زائرةً من «نيو أورلينز». أخبرها، أثناء احتسائهم لمخفوق الحليب، أن عائلته تمتلك أرضًا زراعيةً وأنه سوف يتخصص، بعد الثانوية العامة، كمحامٍ ويسكن في البيت القائم على الأعمدة.

طرح المصرف أرضهم في المزاد العلني، مع ازدياد حدة الركود، فأخرجه والده من المدرسة. انتقلت العائلة إلى كوخٍ صغيرٍ من خشب الصنوبر، والتي سكنها العبيد منذ وقت ليس بالبعيد. عمل جايك في حقول التبغ، وفي تستيف أوراق التبغ مع الرجال والنساء السود، وقد ربطن أطفالهن إلى ظهورهن بوشاحات ملونة.

غادر جايك المنزل فجرًا ذات ليلة، حاملًا ما استطاع حمله من كنوز العائلة - بما فيها الساعة الذهبية لجده الأكبر، وخاتم جدته الماسي - تنقّل حتى وصل إلى «نيو أورلينز» ووجد ماريا تعيش مع عائلتها في بيتٍ أنيقٍ بالقرب من الواجهة البحرية. تحدرت عائلتها من تاجرٍ فرنسيٍ يملك معملاً للأحذية.

رهن جايك كنوزه ومتّعها في مطاعم فاخرة بستائرٍ حمراءٍ مخملية، وأخبرها أنه سوف يشتري لها ذلك البيت القائم على الأعمدة. وحين ركع على ركبته عند شجرة المانوليا وافقت على عرضه للزواج،

فتزوجا عام 1933 في احتفالٍ في كنيسةٍ صغيرة، وقد وقفت عائلتها صامتةً هناك.

كان ماله قد نفذ، فاضطر لقبول وظيفةٍ من والد زوجته في معمل الأحذية. ظن جايك أنه سيكون المدير، ولكن السيد جاك، وهو رجلٌ لا ينخدع بسهولة، أصر على أنَّ على جايك تعلم المهنة من الأُسس، والارتقاء كأي موظفٍ آخر، فعمل جايك في تفصيل النعال.

عاش وماريا في شقةٍ صغيرةٍ فوق مرآبٍ مفروشةٍ بقطعٍ قليلةٍ من جهاز عرسها، وطاولاتٍ وكراسي من السوق الشعبي. التحق بمدرسةٍ ليليةٍ لينهي المرحلة الثانوية، ولكنه كان يهرب من الصفوف ليلعب البوكر ويعود، ثملًا في أواخر الليل إلى البيت لزوجته الجديدة. طرده الأستاذ من المدرسة بعد ثلاثة أسابيع.

رجته ماريا أن يتوقف عن الشرب، وأن يظهر الحماس في عمله ليرقّيه والدها. ولكن الأطفال بدأوا بالتوافد ولم يتوقف السكر أبدًا. أنجبا أربعة أطفالٍ بين عامي 1934 و1940 فيما تلقى جايك ترقيةً واحدة.

كانت الحرب مع ألمانيا عنصر مساواة بين الناس. أخفى خزيه

خلف الزي الموحد وحاول التظاهر بالفخر مرة أخرى. وفيما كان قابعًا في حفرة موحلة في فرنسا، صرخ أحدهم بأن الرقيب قد أصيب وهو ممدّدٌ على الأرض ينزف بعيدًا عنهم بحوالي عشرين ياردة. كانوا مجرّد صِبيةٍ، متربصين ليطلقوا النار، ومتوترين من قنبلةٍ ما. جروا جميعًا، متسارعين لإنقاذ الرجل الجريح، كلهم ما عدا واحد.

تقوقع جايك في الزاوية، وقد شله الخوف، حتى انفجرت قذيفة هاونٍ بضوءٍ أصفر وأبيض خلف الحفرة، فحطمت عظام رجله اليسرى تمامًا. أسرع الجنود إلى الساتر وهم يجرون الرقيب، معتقدين أن جايك أصيب خلال محاولتهم إنقاذ آمر المجموعة. اعتبر بطلاً. لم يعرف الحقيقة أحد، باستثناء جايك.

عاد إلى البيت مع ميداليةٍ وتسريح مرضي. صمم على عدم العودة إلى معمل الأحذية، فبقي ليالٍ قليلةٍ في «نيو أورلينز». باع أثاثها الفاخر والفضّيات جميعها، فيما راقبته ماريا بصمت، ثم جمع عائلته في القطار وانتقل إلى كارولاينا الشمالية. عرف من صديقٍ قديمٍ أن أمه وأباه قد توفّيا، فاتحين له الطريق لتنفيذ خطته.

أقنع ماريا أن الحياة في الكوخ الذي كان والده قد بناه لصيد

السمك قرب شاطئ كارولاينا الشمالية، سيكون بدايةً جديدة. لن يكون هناك إيجارٌ للدفع، وقد يستطيع جايك أن ينهي الثانوية العامة. اشترى قاربًا صغيرًا لصيد السمك في «باركلي كوف» وأبحر في السبّخة مع عائلته آخذين معهم أغراضهم كافةً، بعض صناديق القبعات فوق الأغراض. دخلوا الهور أخيرًا، والكوخ المليء بالفئران، بنوافذه الصدئة القابعة تحت أشجار السّنديان، تشبثت ماريا بأطفالها، وكان جودي يقاوم الدموع.

قال لها الوالد مطمئنًا: «لا تقلقي البتة. سأصلح كل هذا بسرعة».

ولكن جايك لم يصلح الكوخ، ولم ينه الثانوية العامة أبدًا. عاد إلى الشرب، بعيد وصولهم، وإلى لعب البوكر في حانة «سوامب غينيا»، محاولاً إغراق ما حصل عند الحفرة في كأس المشروب.

حاولت ماريا جهدها أن تبني عائلة. اشترت الملاءات من سوق السلع المستعملة لفرشات الأرض ولستر مغطس الاستحمام؛ غسلت الثياب تحت صنبور الباحة، وتعلمت كيف تعتني بالحديقة وتربي الدجاج.

لبسوا أفضل ثيابهم، بعيد وصولهم، وأخذتهم أمهم إلى «باركلي

كوف» لتسجيلهم في المدرسة. سخر جايك من موضوع التعليم، وكان كثيرًا ما يطلب من مورفي وجودي الغياب عن المدرسة وصيد السناجب أو الأسماك للعشاء.

أخذ جايك ماري في نزهة في ضوء القمر ذات ليلة، ما نتج عنه آخر أطفالهم، فتاةٌ أسمياها كاثرين دانيال ولقبوها لاحقًا بكيا لأنها، حين سألت ذات مرة، قالت أن هذا هو اسمها.

حلم جايك من وقتٍ لآخر، وعندما كان صاحيًا، بإنهاء دراسة الثانوية العامة، وتأمين حياةٍ أفضل لهم كلهم، ولكن ظلال ما حصل معه عند الحفرة بقي يعاوده. لم يعد يستطيع تحمّل الرجل الذي أصبح عليه، بعد أن كان الشاب الوسيم واللائق والواثق من نفسه، فانغمس في المشروب. كان الانغماس في المشاجرات، والسّكر، وكيل الشتائم في السبّخة من أسهل ما فعله جايك يومًا.

17
اجتياز العتبة

1960

قال لها القافز ذات يوم، خلال صيف تعلمها القراءة: «أيتها الآنسة كيا كان بعض الرجال يجوبون المنطقة ويسألون عنكِ».

نظرت إليه مباشرةً، بدلاً من النظر جانبًا، وسألته: «مَن هم وماذا يريدون؟».

«أعتقد أنهم من الخدمة الاجتماعية. إنهم يكثرون من الأسئلة. سألوا إن كان والدك لا يزال هنا، وأين أمك، وهل ستذهبين إلى المدرسة في هذا الخريف. ومتى تأتين إلى هنا، أرادوا أن يعرفوا في أية أوقات تأتين».

«ماذا قلت لهم أيها القافز؟».

«حاولت قصارى جهدي أن أبقيهم بعيدين عنك. قلت لهم أن أباك بخير وهو يقضي وقته بصيد السمك وهذا كل شيء». ضحك، معيدًا رأسه إلى الوراء. «ثم قلت لهم أني لا أعرف متى يصل قاربك إلى هنا. لا تقلقي أبدًا يا آنسة كيا. سيرسلهم القافز للبحث بعيدًا إن أتوا مرة أخرى».

«شكرًا لك». ملأت كيا خزان وقودها وتوجهت إلى منزلها مباشرةً. يجب أن تكون أكثر حرصًا الآن، ربما عليها أن تجد مكانًا في السبّخة تختبئ فيه إلى أن ييأسوا ويوقفوا البحث عنها.

فيما كان تايت يسحب قاربه نحو الشاطئ ويحتك قعره بالرمال، قالت له كيا: «هل نستطيع أن نلتقي في مكان آخر، بغير هذا؟».حياها تايت قائلاً: «أهلاً كيا، تسرني رؤيتك». وهو لا زال جالسًا خلف مقود القارب.

«ماذا تعتقد؟».

«يقال غير وليس بغير. ومن التهذيب تحية الناس قبل طلب

خدمة ما».

«أنت تقول بغير أحيانًا». قالت ذلك وهي تكاد تبتسم.

«أجل، كلنا نقول أشياء بالطريقة الخطأ لأننا من أعواد كارولاينا الشمالية، وعلينا أن نحاول».

«مساء الخير يا سيد تايت». قالت ذلك وهي تنحني قليلاً. لمح مزيجًا من الإقدام والوقاحة في داخلها. «هل نستطيع اللقاء في مكان آخر غير هذا. من فضلك؟».

«بالتأكيد، ولكن لماذا؟».

«يقول القافز أن هيئة الخدمة الاجتماعية يبحثون عني. أخشى أنهم سوف يسحبونني كالسمكة، ويضعونني في بيت رعاية أو ما شابه ذلك».

«حسنًا، من الأفضل أن نختبئ بعيدًا حيث يغني جراد الماء. أنا أشفق على من قد يتبناكِ». ابتسم وجهه كله.

«ماذا تعني بحيث يغني جراد الماء؟ كانت أمي تقول ذلك».

تذكّرت كيا أن أمها كانت تشجعها دائمًا على اكتشاف السبّخة: «ابتعدي قدر المستطاع، اذهبي إلى حيث يغني جراد الماء».

«تقصد بعيدًا في الشجيرات حيث المخلوقات برّيةٌ، أو تتصرّف على أنها برّية. الآن، هل لديك أية فكرةٍ عن المكان الذي نستطيع اللقاء فيه؟».

«ثمة مكان وجدته مرةً، كوخٌ متهالك. تستطيع الوصول إلى هناك بالقارب، إذا عرفت وقت الجزر؛ أستطيع السير إلى هناك من هنا».

«حسنًا إذًا، تعالي إلى القارب. أريني الموقع، وسنلتقي هناك من الآن فصاعدًا».

«إن كنتُ قد خرجت إلى هناك، سأترك كومة من الحجارة هنا بالقرب من جذع الشجرة التي نربط القارب بها». أشارت كيا إلى بقعةٍ على شاطئ الهور. «وإلّا سوف أكون هنا في مكان ما وسأخرج حين أسمع صوت محرك قاربك».

تسكّعا ببطءٍ عبر السبّخة، ثم أبحرا جنوبًا عبر البحر المفتوح، بعيدًا عن البلدة. جلست في مقدمة القارب، ودموع الريح تجري على

خدّيها وتستقر باردةً في أذنيها. أرشدته، لدى وصولهما قرب كهفٍ صغير، إلى جدول ماءٍ عذبٍ غطته عليّقات توتٍ منخفضة. بدا الجدول وكأنه ينتهي، في أكثر من موضع، ولكن كيا أشارت بأنه لا بأس بالاستمرار، فانطلقا عبر الدغل.

وصلا إلى مرجٍ واسعٍ، أخيرًا، حيث جرى الجدول بالقرب من كوخٍ خشبيٍ قديم من غرفةٍ واحدة، وقد تهدمت أحدى زواياه. كانت الجذوع محطمةً وقد تمدد بعضها على الأرض كالعيدان. اتكأ السقف على نصف حائطٍ، منحدرًا من الأعلى إلى الأسفل كقبعةٍ منخفضةٍ غير متّزنة. سحب تايت القارب إلى الوحل وسارا بصمت نحو الباب المفتوح.

كان الكوخ مظلمًا وفاحت منه رائحة بول الجرذان. «أرجو ألا تكوني تخططين للعيش هنا، قد ينهار المكان على رأسك». دفع تايت الجدار. بدا صلبًا بما فيه الكفاية.

«إنه مخبأٌ فحسب. بإمكاني تخزين الطعام هنا في حال اضطررت للاختباء لفترة».

التفت تايت ونظر إليها وقد ألفت عيونهما الظلام.

«كيا، هل فكّرتِ يومًا بالعودة إلى المدرسة؟ لن تقتلك، وقد يتركونك وشأنك إن فعلتِ».

«يبدو أنهم اكتشفوا أني وحيدة، فإن ذهبت سيعتقلونني ويضعونني في بيت الرعاية. كبرت على المدرسة الآن، على أي حال. أين سيضعونني، في الصف الأول؟». اتّسعت عيناها لفكرة الجلوس على كرسيٍ صغير، محاطةً بأطفالٍ صغارٍ يتهجأون كلماتٍ ويعدّون حتى الخمسين.

«أتنوين، إذًا الحياة بمفردك في السبّخة إلى الأبد؟».

«هذا أفضل من الذهاب إلى بيت الرعاية. كان والدي يقول أنه سيرمينا هناك إذا تصرفنا بشكل سيّء. قال أنهم لئام».

قال لها: «كلا، إنهم ليسوا كذلك. ليس دائمًا. أغلبهم أناسٌ لطفاء ويحبون الأطفال».

«أتقول أن الذهاب إلى المدرسة أفضل من الحياة في السبّخة؟». قالت ذلك وقد برز فكها ويداها على ردفيها.

بقي صامتًا لدقيقةٍ ثم قال: «حسنًا، اجلبي بعض الأغطية،

والكبريت في حال كان الجو باردًا. ربما بعض معلبات السردين فهي تبقى لوقتٍ طويلٍ جدًا. ولكن لا تحتفظي بالطعام الطازج؛ فهو يجذب الدببة».

«لستُ خوافةً من الدببة».

«لستُ خائفةً من الدببة».

تابعت كيا وتايت دروس القراءة في الكوخ المهدم لما تبقى من الصيف. كانا قد أنهيا قراءة «تقويم مقاطعة الرمل» في منتصف آب. ورغم أنها لم تستطع قراءة الكلمات جميعها، إلا أنها قرأت معظمها. علمها ألدو ليوبولد أن السهول الفيضية هي امتداداتٌ حيةٌ للأنهار، تستعيدها الأنهار متى شاءت. تعلمت أين تذهب الإوزات في الشتاء، وما معنى موسيقاها. بدت كلماته اللطيفة كقصيدةٍ علمتها أن التراب مشحونٌ بالحياة وهو من أهم ثروات الأرض؛ وأن تجفيف الأراضي الرطبة يجفف الأراضي خلفها لأميال عديدة، قاتلًا النباتات والحيوانات عطشًا. تبقى بعض البذور نائمةً داخل الأرض وجافةً لعقود، منتظرةً الماء، لتشق التراب، حين يعود، كاشفةً عن وجوهها. لم تكن لتتعلم عن هذه العجائب وعن حقائق الحياة في المدرسة. حقائق يجب على

الجميع معرفتها، ولكنها، وبطريقةٍ ما، تبقى سرًّا مخفيًا كالبذور، رغم أنها موجودةٌ على مرأى من الجميع.

التقيا في كابينة الحطب عدّة مرات في الأسبوع، ولكنها نامت معظم لياليها في كوخها أو على الشاطئ مع النوارس. كان عليها أن تجمع حطبًا للموقدة قبل حلول الشتاء، فجعلت من ذلك شغلها الشاغل: جلبت أكوامًا من هنا وهناك ورصفتها بين شجرتي صنوبر. كانت نباتات الفجل المزوعة بين الشعير تطل برؤوسها فوق القضبان الذهبية؛ كان لديها من الخضروات أكثر مما تستطيع هي والغزلان أكله. حصدت آخر ماتبقى من محصول آخر الصيف وخزّنت القرع والشمندر في الظلال الباردة للدرج المصنوع من ألواح الخشب والإسمنت.

أصاغت السمع، بشكل دائمٍ، لصوت وصول سيارةٍ، مليئة بالرجال الذين سيأخذونها بعيدًا. كان الإصغاء مُنهِكًا أحيانًا ومخيفًا، فكانت تمشي إلى كوخ الحطب وتنام على الأرض الوسخة، ملتحفة بملاءتها الإضافية. نظّمت توقيت جمع بلح البحر وتدخين السمك بحيث يستطيع تايت أن يأخذهم معه إلى القافز ويأتيها بحاجياتها. ما يقلل من ظهورها.

سألها تايت وهما جالسان قرب الجدول: «أتذكرين، حين قرأتِ

جملتك الأولى، أنك قلتِ أن بعض الكلمات تحمل الكثير؟».

«نعم، أذكّر ذلك، لماذا؟».

«حسنًا. خاصّةً القصائد. الكلمات في القصائد لا تكتفي بقول الأشياء. فهي تحرك المشاعر. حتى أنها قد تضحكك».

«كانت أمي تقرأ القصائد، ولكني لا أذكر أيًّا منها».

«استمعي لهذه القصيدة لإدوارد لير». فتح مغلّفًا مقفلاً وقرأ:

«ثمّ جرى السيّد والدي ذو الأرجل الطويلة

والسيد فلوبي فلاي

نحو البحر المزبد

بصرخة فلوبي-اسفنجية

حيث وجدا قاربًا صغيرًا،

بأشرعة زهرية ورمادية؛

فأبحرا بين الأمواج،

بعيدًا، بعيدًا جدًّا».

قالت مبتسمةً: «لها إيقاع كأمواجٍ تلطم الشاطئ».

انتقلت، بعدها، إلى مرحلة كتابة الشعر، فكتبته خلال إبحارها بالقارب عبر السبّخة أو خلال البحث عن الصدفات، أبياتٌ بسيطةٌ، ملحنةٌ، وسخيفة.

«ثمة عصفورةٌ زرقاء تقلع عن الغصن

أنا كنت لأطير، لو كان عندي حصن».

أضحكتها الأبيات، فقهقهت ضاحكةً ومالئةً دقائق قليلةٍ وحيدةٍ ليومٍ طويلٍ وحيدٍ.

تذكرت ذات يوم، وهي تقرأ إلى طاولة المطبخ، كتاب الشعر الذي كان لأمها، فبحثت عنه حتى وجدته. كان الكتاب باليًا، وكان غلافاه قد اختفيا منذ مدة، أما الصفحات، فكانت مجموعةً بربطتين من المطاط المهترئ. أزالتهما كيا بعناية وراحت تتصفح الأوراق، وتقرأ ملاحظات أمها على الهوامش. كان ثمة لائحةٌ من أرقام الصفحات للقصائد المفضّلة لدى أمها، في آخر الكتاب.

فتحت كيا الكتاب على إحدى قصائد جايمس رايت:

«ضائع فجأةً، وأشعر بالبرد،

علمت أن الباحة ملقاة مجدبةً،

تشوّقت لألمس طفلي وأحمله

طفلي الثّرثار،

ضاحكًا أو أليفًا أو متوحشًا...

كانت الأشجار والشمس قد اختفت

كل شيء اختفى ما عدانا.

غنّت أمه في البيت،

وأبقت عشاءنا ساخنًا،

وأحبّتنا، الله يعلم كيف،

فالأرض الواسعة أظلمت جدًا».

وهذه القصيدة لغالواي كينل:

«أنا اهتممت.....

قلت كل شيءٍ مرّ ببالي

بألطف الكلمات التي أعرفها والآن.....

عليّ أن أقول أني سعيدٌ لأن الأمور انتهت

في النهاية لم أشعر سوى بالشفقة

للحاجة للمزيد من الحياة

.... إلى اللقاء».

لمست كيا الكلمات وكأنها رسالة، وكأن أمها قد وضعت أسطرًا تحتها خصوصًا لأن ابنتها قد تقرأها يومًا ما على شعلة قنديل الكاز الخافت، وتفهمها. لم يكن ذلك كثيرًا، ولا ملاحظةً مكتوبةً بخط اليد في خلفية دُرج جوارب، ولكنه كان شيئًا. أحسّت أن الكلمات تحمل معانٍ قويةٍ، ولكنها لم تستطع تحريرها. ستجعل الرسالة أوضح إن أصبحت شاعرة يومًا ما.

لم يعد تايت يزور كيا بنفس الوتيرة بعد بدء سنته الأخيرة في

الثانوية العامة في أيلول ولكنه كان، حين يأتيها، يجلب لها الكتب القديمة من مدرسته. لم يذكر كتب علم الأحياء لأنها أعلى من مستواها في القراءة، فجهدت في دروسٍ لم تكن لتواجهها في أربع سنوات في المدرسة. قال لها: «لا تقلقي، ستستفيدين أكثر في كل مرة تقرأينه». وهكذا كان.

التقيا من جديد بالقرب من كوخها، مع قصر النهار، لأن أوقات ضوء النهار لم تكن كافيةً للذهاب إلى كوخ القراءة. كانا يدرسان خارجًا، في الغالب، إلى أن أزعجهما هبوب الريح ذات صباح، فأشعلت كيا النار في مدفأة الحطب. لم يكن قد عبر أحدٌ عتبة الباب، منذ أن غادر والدها قبل أربع سنوات، ولأن تدعو أحدًا إلى منزلها كان أمرًا لا يخطر لها على بال، باستثناء تايت.

قالت له، بعد أن سحب قاربه إلى شاطئ الهور: «هل تريد الجلوس في المطبخ بالقرب من المدفأة؟». فأجاب بالإيجاب وهو مدركٌ أن لا أهمية للدعوة بحد ذاتها.

قضى، بعد دخوله البهو، نحوًا من عشرين دقيقةٍ وهو يدرس أسماء ريشاتها، وأصدافها، وعظامها، وأعشاشها، ويقرأها. قرّبت كرسيها

من كرسيه فكاد ذراعاهما يتلامسان، لتشعر بقربه فحسب.

كان تايت مشغولاً بمساعدة والده، فمرّت الأيام بطيئةً من أوّلها إلى آخرها. أخذت روايتها الأولى «ريبيكا» لدافن دي مورييز، ذات ليلة، من رف كتب أمها وقرأت عن الحب. ثم أغلقت الكتاب واتجهت نحو الخزانة. لبست فستان أمها الصيفي وتأنقت في مشيتها حول الغرفة، نافضةً التنورة، ودائرة حول نفسها أمام المرآة. لوحت بشعرها وهزت ردفيها، متخيلة تايت يدعوها للرقص، وقد وضع يده حول خصرها وكأنها السيدة دي وينتر في الرواية.

توقفت فجأةً وانحنت تقهقه. ثم وقفت جامدةً.

قالت لها مايبل وكأنها تغنّي: «اصعدي إلى هنا أيتها الطفلة. لدي شيء لك». كان القافز كثيراً ما يجلب صناديق المشتريات لكيا، ولكن ظهور مايبل بشرها بشيءٍ مميز.

قال القافز «تفضلي واستلمي أغراضك. سأملأ لك خزان وقودك». فقفزت كيا إلى الرصيف.

قالت مايبل: «انظري يا آنسة كيا، وهي ترفع فستانًا بلون الدرّاق

مع طبقة من الشيفون فوق تنورةٍ بزهورٍ مطبوعة؛ أجمل قطعة ملابسٍ رأتها كيا في حياتها، أجمل من فستان أمها الصيفي. «هذا الفستان مناسب لأميرة مثلك». حملته أمام كيا التي لمسته وابتسمت. ثم، أشاحت بوجهها عن القافز ورفعت حمالة صدرٍ من الصندوق.

شعرت كيا بالحرارة تجتاح جسمها.

«لا تخجلي يا آنسة كيا، لا تخجلي يا عزيزتي. ستحتاجين هذه في سنك هذا. ويا صغيرتي، إن كان هناك أي شيء تحتاجين أن تكلّميني به، أي شيء، فأخبري مايبل. أتسمعين؟».

«نعم سيدتي، شكرًا لك مايبل». حشرت كيا حمالة الصدر في الصندوق تحت بعض بناطيل الجينز والتيشيرتات، وكيسٍ من الفاصولياء، ومرطبانٍ من الدرّاق المطبوخ.

تشنجت معدتها فجأة، بعد عدة أسابيع، وهي تراقب طيور اللقلق تطفو وتأكل من البحر، وكان قاربها يرتفع وينخفض مع الأمواج. لم تشعر قبلاً بدوار البحر، واختلف هذا الألم عن أي ألمٍ أحست به من قبل. سحبت قاربها إلى الشاطئ عند «بوينت بيتش» وجلست على

الرمل، وطوت رجلاها إلى جهةٍ واحدةٍ كالجناح. اشتد الألم فكشّرت، وأنّت قليلاً. قد يكون إسهالاً.

سمعت هدير محركٍ فجأة، ورأت قارب تايت يبحر عبر الأمواج المكللة بالزبد الأبيض. حوّل وجهته نحو الشاطئ حين رآها، ووصل إلى الشاطئ. شتمت كما كان يفعل أبوها. لطالما أحبّت رؤية تايت، ولكن ليس حين كان عليها الهروب إلى غابة السنديان وهي تعاني من الإسهال. هبطِ إلى الرمل، بعد سحب قاربه إلى الشاطئ، ووقف بالقرب منها.

«مرحبًا يا كيا. ماذا تفعلين؟ كنت ذاهبًا إلى بيتك».

«مرحبًا تايت. من الجيد رؤيتك». حاولت أن تبدو طبيعية، ولكن معدتها تقلصت بشدّة.

سألها: «ما خطبك؟».

«ماذا تعني؟».

«لا تبدين بحالة جيدة. ما خطبك؟».

«أعتقد أني مريضة. معدتي متقلّصة بشكل مؤلم».

«أووه». نظر تايت بعيدًا نحو البحر. حفر بأصابع قدمه في الرمل.

قالت ورأسها منخفض: «ربما من الأجدى بك أن تذهب».

«ربما من الأجدى أن أبقى حتى تتحسنين. افترضي أنك لا تستطيعين أن تذهبي بنفسك إلى البيت؟».

«قد أضطر للذهاب إلى الغابة. قد أكون مريضة».

قال بهدوء: «ربما. ولكن لا أعتقد أن ذلك سوف يساعد».

«ماذا تعني؟ أنت لا تعرف ما هي مشكلتي».

«هل هذا يختلف عن آلام المعدة الآخرى؟».

«أجل».

«أنت الآن في الخامسة عشرة من العمر، أليس كذلك؟».

«نعم. ما شأن ذلك بهذا؟».

بقي صامتًا لدقيقة. حرك رجليه وغرس أصابع قدميه في الرمل. قال لها، وهو ينظر بعيدًا عنها: «قد يكون، كما تعلمين، ما يحصل للبنات في عمرك. تذكّري، منذ عدّة أشهر جلبت لك كُتَيِّب عن هذا

الموضوع. كان مع كتب علم الأحياء». رمقها تايت بنظرة سريعة، ثم أشاح بنظره بعيدًا.

أرخت كيا عينيها إلى الأسفل وتورّد جسدها كله. طبعًا، لم يكن لديها أمٌّ لتخبرها عن الموضوع، ولكن كراسة المدرسة التي جلبها تايت بينت لها شيئًا مما يحصل معها. آن أوانها، وها هي على الشاطئ تتحول إلى امرأةٍ مباشرة أمام صبيّ. سيطر عليها الخجل والذعر. ماذا كان عليها أن تفعل؟ ماذا سيحصل معها بالضبط؟ كم ستكون كمية الدم؟ تخيّلت الدم يتسرّب إلى الرمل حولها. جلست صامتة وقد هدَّ وسطها الألم.

سألها دون أن ينظر إليها: «هل تستطيعين أن تصلي بنفسك إلى البيت؟».

«أعتقد ذلك».

«سيكون ذلك جيّدًا، كيا. كل فتاةٍ تمر بهذه المرحلة بسلامٍ. اذهبي إلى البيت. سأتبعك إلى هناك لأتأكد من وصولك».

«لستَ مضطرًّا لذلك».

«لا تقلقي بشأني. إذهبي الآن». وقف وسار إلى قاربه، دون أن

ينظر إليها. أبحر وانتظر هادئًا، بعيدًا عن الشاطئ إلى أن توجهت إلى قناتها. ظهر بعيدًا وكأنه نقطةٌ سوداء، وتبعها إلى أن وصلت إلى هورها. وقفت على الضّفة، ولوحت له قليلاً، وقد أحنت رأسها كي لا تلتقي عيناها بعينيه.

تعلّمت كيف تصبح امرأةً لوحدها، كما تعلمت الأشياء الأخرى. أخذت القارب، في الصباح التالي، وذهبت إلى محطة القافز. بدت الشمس الذابلة وكأنها معلّقةٌ بالضباب الكثيف حين اتجهت إلى الرصيف وبحثت عن مايبل، مدركةً بأن إمكانية تواجدها ضعيفة. خرج القافز وحيّاها.

«مرحبًا آنسة كيا. هل تحتاجين وقودًا؟». بقيت جالسة في القارب وأجابته بهدوء: «يجب أن أرى مايبل».

«آسف جدًّا يا ابنتي لأن مايبل ليست هنا اليوم. هل أستطيع مساعدتك؟».أحنت رأسها وقالت: «أحتاج أن أرى مايبل بشكل طارئ وبأقرب وقت».

«حسنًا إذًا». نظر القافز عبر الجون الصغير ورأى أن لا قوارب

قادمةٌ باتجاهه. كان كل من يحتاج للوقود في أي ساعةٍ من ساعات النهار، وفي أي يومٍ بما فيها يوم الميلاد، متأكدًا أن القافز سوف يكون هنا - لم يغب في خمسين سنة، إلا حين توفي ملاكه الصغير، دايزي - لم يستطع أن يترك مكانه. «قفي مكانك يا آنسة كيا، سأجري إلى المنزل وآتي بمايبل. إن أتى قارب إلى هنا، قولي لهم أني سأعود فورًا».

«سأفعل ذلك، شكرًا لك».

جرى القافز على الرصيف واختفى فيما انتظرت كيا، كانت تنظر إلى الجون كل عدة ثوانٍ، خوفًا من أن يأتي قاربٌ آخر. ولكن القافز عاد سريعًا وقال أن بعض الأولاد قد ذهبوا لإحضار مايبل؛ كان على كيا أن «تنتظر لحظة».

شغل القافز نفسه في فتح علب تبغ المضغ على الرفوف وبعمله بشكل عام. بقيت كيا في القارب. هرعت مايبل، أخيرًا، عبر الألواح التي اهتزت لمشيتها وكأن بيانو صغير كان يُدفع نزولاً عبر الرّصيف. كانت مايبل تحمل كيسًا ورقيًا، لم تسلّم عليها كما كانت تفعل عادةً، ولكنها وقفت على الرصيف مشرفةً على كيا وقالت بهدوء: «صباح الخير يا آنسة كيا، علامَ كل هذا يا بنيتي؟ ما خطبك يا عزيزتي؟». أحنت كيا

رأسها وتمتمت شيئًا لم تستطع مايبل سماعه. «هل تستطيعين الخروج من القارب، أم هل عليّ أن أصعد معك إلى القارب؟».لم تجب كيا، فتقدّمت مايبل، بوزنها الذي يقارب المئتي رطل، وخطت بقدمٍ واحدةٍ، ثم بالقدم الأخرى، ووقفت في القارب الصغير، والذي اعترض بارتطامه بالأكوام. جلست على المقعد الأوسط، مواجهةً كيا مباشرةً.

«الآن يا ابنتي، قولي لي ما خطبك».

أحنيا رأسيهما سويًّا، همست كيا، ثم ضمت مايبل كيا إليها بقوةٍ، معانقةً إياها. جمدت كيا في أول الأمر، فهي لم تكن معتادةً على الاستسلام للعناق، ولكن ذلك لم يردع مايبل، وفي الأخير انهارت كيا وركدت على صدر مايبل. انحنت مايبل إلى الوراء بعد قليل وفتحت كيس الورق البني.

«حسنًا، توقعت هذا الأمر، فجلبت معي شيئًا». ثم شرحت الأمر لكيا وهما جالستان على رصيف القافز.

«يا آنسة كيا، هذا ليس شيئًا تخجلين منه. وهو ليس بلعنةٍ، كما يقول الناس، هنا تبدأ الحياة كلها، وحدها المرأة تفعل ذلك. أنت امرأة

الآن يا طفلتي».

اختبأت في علّيقة التوت، بعد ظهر اليوم التالي، عندما سمعت صوت قارب تايت، وراقبته من هناك. كان غريبًا أن يعرفها أحدٌ أصلًا، لكنه بات يعرف الآن أكثر الأحداث خصوصية في حياتها الشخصية والخاصة. تورّدت وجنتاها لمجرد التفكير في ذلك. ستبقى مختبئة حتى يغادر.

خرج من قاربه وسحبه إلى شاطئ الهور. كان يحمل صندوقًا أبيض مربوطًا بخيط. ناداها: «يوووو! كيا، أين أنتِ؟ جلبت كعكاتٍ صغيرةً من متجر باركر».

لم تذق كيا الحلوى لسنوات. رفع تايت بعض الكتب من القارب، فخرجت على مهلها من الشّجيرات خلفه.

«أه. ها أنتِ هناك. انظري إلى هذا». فتح الصندوق، حيث قبعت كعكاتٌ صغيرةٌ مرتبةٌ بعناية، كل واحدةٍ منها بقياس بوصةٍ مربّعةٍ، ومغطّاةٍ بطبقةٍ من الفانيليا المثلجة مع وردةٍ زهريةٍ فوقها. «هيا، تفضلي».

رفعت كيا واحدة وقضمتها، غير ناظرةٍ إلى تايت. ثم حشرت الباقي منها في فمها ولعقت أناملها.

وضع تايت الصندوق بالقرب من السنديانة. «كلي بقدر ما تريدينه. فلنبدأ. جلبت لكِ كتابًا جديدًا». وهكذا كان. اشتغلا بالدروس ولم ينطقا بكلمةٍ عن الموضوع الآخر.

كان الخريف قادمًا؛ قد لا تلاحظ الأشجار دائمة الخضرة ذلك، ولكن أشجار الدلب لاحظت. لمعت آلاف الأوراق الذهبية على خلفية السماء الرمادية. تباطأ كايت بعد الدرس، في وقتٍ متأخرٍ من بعد ظهر أحد الأيام. جلس وكيا على جذع شجرةٍ في الغابة. سألت السؤال الذي أرادت أن تسأله منذ أشهر، أخيرًا. «تايت، أنا أقدّر لك تعليمك لي القراءة وكل هذه الأشياء التي وعدتني بها. ولكن لماذا تفعل ذلك؟ أليس لديك صديقةٌ حميمةٌ أو شخصٌ مثل ذلك؟».

«كلا - حسنًا، نعم، أحيانًا. كان لي واحدةٌ، أما الآن فلا. أحب أن أكون هنا في الهدوء ويعجبني اهتمامك بالسبّخة، كيا. لم يعد معظم الناس يهتمّون بها إلّا لصيد السّمك. يعتقدون أنها أرضٌ مهدورةٌ وعليهم أن يجففوها ويطوروها. لا يستوعب الناس أن معظم المخلوقات

البحرية - ومن ضمنها تلك التي يأكلونها - تحتاج إلى السبّخة».

لم يذكر كيف أنه شعر بالشفقة عليها لأنها تعيش وحدها، وأنه عرف كيف عاملها الأطفال لسنوات، وكيف أسماها القرويّون بنت السبّخة واختلقوا قصصًا عنها. كان التسلل إلى كوخها في الظلام، ووضع إشارةٍ عليه، قد أصبح طقسًا تقليديًا، طقسٌ للأطفال كي يصبحوا رجالاً. ماذا يظهر ذلك عن الرجال؟ كان بعضهم قد راهن عمّن سيكون أول من يفض بكارتها! أغضبته هذه الأمور، وأقلقته.

ولكن ذلك لم يكن السبب الرئيس لتركه الرّيش لكيا في الغابة، أو لمجيئه باستمرار لرؤيتها. ما لم يقله تايت هو أن مشاعره تجاهها تراوحت بين الحب اللطيف لأخته الميتة، والحب الناري لفتاة. لم يستطع فهم الأمر جيدًا، ولكنه لم يُضرب بموجةٍ أقوى منها. كانت المشاعر مؤلمةً بقدر ما هي ممتعة.

حشرت ساق عشبٍ في جحر نملة، وقالت: «أين أمك؟». تجوّل نسيمٌ عبر الأشجار وهز الأغصان بلطف. لم يجبها تايت.

قالت له: «لست مضطرًّا لقول شيء».

«ماتت أمي وأختي الصغيرة في حادث سيّارةٍ في آشفيل. كان اسم أختي كاريان».

«أوه. أنا آسفة تايت. أراهن أن أمك كانت لطيفةً وجميلة».

«أجل. كلاهما كانتا كذلك». قال ذلك ووجهه إلى الأرض، بين ركبتيه. «لم أتكلم عن ذلك من قبل لأي أحد».

«و أنا كذلك»، فكّرت كيا. قالت بصوت عالٍ: «غادرت أمي المنزل في أحد الأيام ولم تعد. أم الظبيان تعود دائمًا».

«حسنًا، تستطيعين أن تأملي أن تعود على الأقل. لكن أمي لن تعود أبدًا».

بقيا صامتين للحظات، ثم أكمل تايت. «أعتقد أنه.....». ولكنه توقّف، ونظر بعيدًا.

نظرت كيا إليه ولكنه حدّق بالأرض. هادئًا.

قالت له: «ماذا؟ ماذا تعتقد؟ يمكنك إخباري أي شيء».

بقي صامتًا. انتظرت بصبرٍ نابعٍ من المعرفة.

أخيرًا، قال بلطفٍ عظيم: «أظنهما ذهبتا إلى آشفيل لشراء هديةٍ لعيد ميلادي. كان ثمة دراجةٌ أردتها ورغبت بها بشدّة. لم يبيعوا من نوعها في ويسترن أوتو، فأعتقد أنهما ذهبتا إلى آشفيل لشراء تلك الدراجة لي».

قالت له: «هذا لا يجعله خطؤك».

«أعلم ذلك، ولكني أشعر أنه خطأي». أضاف: «حتى أني لا أذكّر ما كان نوع تلك الدّراجة».

اقتربت كيا منه لكنها لم تلامسه. شعرت بإحساسٍ غريب - كأن المسافة بين كتفيهما قد تغيّرت - تساءلت إن كان تايت قد أحس به. أرادت أن تقترب أكثر، بما يكفي لتتلامس ذراعاهما بلطف. لتلمسه. وتساءلت إن كان تايت سيلاحظ ذلك.

هبت ريحٌ، في تلك اللحظة، فانفصلت آلافٌ وآلافٌ من أوراق شجر الدلب الصفراء عن مصدر حياتها، وطارت في السّماء. لا تتساقط أوراق الخريف بل تطير. تأخذ وقتها مستمتعةً بالأمر، بفرصتها الوحيدة للتحليق. تعكس ضوء الشمس، فتغزل وتبحر وترفرف على أجنحة

الريح.

وقف تايت فجاة عند جذع الشجرة وناداها: «انظري كم ورقةٍ تستطيعين أن تلتقطي قبل وقوعها على الأرض!». قفزت كيا، واخترق الاثنان ستارةً من أوراق الشجر المتساقطة، فاتحين أيديهما، وخاطفين الأوراق قبل وقوعها على الأرض غاص تايت، ضاحكًا، نحو ورقةٍ بعيدةٍ مسافة بوصاتٍ قليلةٍ عن الأرض، فالتقطها، وتقلب حاملاً جائزته في الهواء. رمت كيا يديها إلى الأعلى محررةً الأوراق التي كانت قد التقطتها في الريح من جديد. وحين عادت للجري من خلالها، تعلقت الأوراق بشعرها كالذهب.

اصطدمت، فيما كانت تدور حول نفسها بتايت الذي كان قد وقف، وتجمّدا محدقين بعيني بعضهما. توقفا عن الضحك. أمسكها من كتفيها، تردد للحظة، ثم قبلها على شفتيها، فيما انهمرت الأوراق حولهما راقصةً بصمت كالثلج.

لم تكن تعرف شيئًا عن التقبيل فأبقت رأسها وشفتيها جامدين. تباعدا ونظرا إلى بعضهما، متسائلين من أين أتى ما فعلاه وماذا عليهما أن يفعلا بعد ذلك. رفع ورقة عن شعرها بلطف ورماها على الأرض. دقّ

قلبها بعنف. لم تشعر بشيء كهذا من قبل، من كل أنواع الحب الممزقة والتي عرفتها من أفراد العائلة.

سألته: «هل أنا صديقتك الحميمة الآن؟».

ابتسم: «هل تريدين ذلك؟».

«أجل».

قال لها: «قد تكونين صغيرة على ذلك».

«ولكني أعرف الريشات. أراهن أن البنات الأخريات لا يعرفن الريشات».

«حسنًا، إذًا». قبلها مرةٍ ثانيةٍ. مالت برأسها، هذه المرة، إلى الجانب ونعمت شفتاها. شعرت للمرة الأولى في حياتها أن قلبها مليء.

18
زورقٌ أبيض

1960

كانت كل كلمةٍ جديدةٍ تبدأ بصرخة، وكل جملةٍ جديدةٍ بسباق. تايت يمسك بكيا فيقعان معًا، كالأطفال حينًا، وكالبالغين أحيانًا، عبر الأعشاب المحمرة خريفًا.

قال لها: «كوني جديةٍ لثانية. الطريقة الوحيدة لتعلم جدول الضرب هي بحفظه غيبًا». كتب 12x12=144 على الرمل، ولكنها جرت متجاوزةً إياه، وغطست في الموجة المتكسّرة، وسبحت إلى أن لحق بها إلى حيث تسللت أنوارٌ رمادية وزرقاء عبر الهدوء وأضاءت شكليهما. كانا رشيقين كالدلافين، ثم غمرهما الرمل والملح حين تقلبا على الشاطئ وقد غمرا بعضهما البعض بأيديهما فأصبحا واحدًا.

أبحر، بعد ظهر اليوم التالي إلى هورها، ولكنه بقي بالقارب بعد أن سحبه إلى الشاطئ. قبعت عند قدميه سلةً كبيرةً مغطّاةً بشرشفٍ بمربعاتٍ حمراء.

سألته: «ما هذا؟ ماذا جلبت معك؟».

«مفاجأة. هيا اصعدي إلى القارب».

أبحرا عبر الأقنية المنسابة ببطء، ثم اتجها جنوبًا إلى جونٍ صغير شكله كنصف القمر. نفض الشرشف وفرشه على الرمل، ووضع السلة المغطّاة عليه، فجلسا عليه، ورفع الغطاء.

«عيد ميلاد سعيد يا كيا». ثم قال: «أنت الآن في الخامسة عشرة». كان في السلة قالب حلوى من طبقتين، طويلٌ كصندوق القبعة، ومزيّنٌ بأصدافٍ زهريةٍ مثلجة. كان اسمها مخطوطًا على وجه القالب الذي أحاطت به هدايا ملفوفةٌ بأوراقٍ ملوّنةٍ ومربوطةٍ بأشرطةٍ معقودة.

حدّقت، مدهوشةً وقد فغرت فاها. لم يتمنَ لها أحد ميلادًا سعيدًا منذ مغادرة أمها. لم يجلب لها أحدٌ قالب حلوى من المتجر كتب اسمها عليه. لم تحصل من قبل على هدايا ملفوفة بالشرائط بشكلٍ صحيح.

«كيف تعرف تاريخ ميلادي؟». لم يكن لديها فكرة أن عيد ميلادها كان في ذلك اليوم، ولم تكن تملك تقويمًا.

«قرأته في إنجيلك».

رجته ألا يقطع الكعكة حيث كان أسمها، قطع قطعًا كبيرة من الكعكة ووضعهم على صحون ورقية. حدقا ببعضهما البعض، وقضما قطعًا من الكعكة، وقد التقت عيناهما، وحشراهما في فاهيهما وتلمظا. لعقا أناملهما. ضحكا بشفاهٍ ملطخةٍ بزينة الحلوى المثلجة. أكلا الحلوى بالطريقة التي يجب أن تأكل بها، الطريقة التي يود الجميع الأكل بها.

ابتسم: «ألا تريدين أن تفتحي هداياك؟ الأولى: عدسةٌ مكبّرةٌ صغيرة، كي تستطيعين رؤية التفاصيل الدقيقة لأجنحة الحشرات. الثانية: مشبك شعرٍ بلاستيكيٍ مطليٍ بالفضة ومزينٍ بنورسٍ من حجر الراين لشعركِ». سحب بعض خصلات الشعر خلف أذنيها، مرتبكًا، ووضع مشبك الشعر في مكانه. لمسته. كان أجمل من مشبك أمها.

كانت الهدية الأخيرة في صندوقٍ أكبر حجمًا، وفتحته كيا لتجد عشرة قواريرٍ من الألوان الزيتية، وعلب صفيحٍ من الألوان المائية،

وفراشي من أحجام مختلفة: «لرسوماتك».

أمسكت كيا بكل لونٍ، وبكل فرشاة: «أستطيع أن أجلب لك المزيد إن لزم الأمر. حتى اللوحات من متجر سي أوكس».

أحنت رأسها وقالت: «شكرًا لك تايت».

صاح سكوبر: «بهدوءٍ. ببطء». حين شغل تايت الرافعة، محاطًا بشباك صيد السمك، والخرق المشبعة بالزيت، وطيور مالك الحزين المشغولة بتنظيف ريشها. تمايل أسفل سفينة «فطيرة الكرز» على الحامل وارتج، ثم انزلق على السكة المغمورة بالماء في باحة بيتر للقوارب، الرصيف المائل ومرسى القوارب الصدء، لورشة القوارب الوحيدة في «باركلي كوف».

«جيد، ثبتت. اسحبها». رفع تايت من قوة الونش، فزحف القارب على المسار إلى الحوض الجاف. أوثقوها بالحبال المعدنية وكشطوا العوالق الملتصقة بهيكل السفينة، على وقع أغاني ميليزا كورجيس الصادحة من المسجّل. كان عليهم أن يطلوا الأساس أولًا، ثم الطبقة الحمراء السنوية. اختارت أم تايت اللون، ولم يكن سكوبر ليغيّره أبدًا.

كان سكوبر يتوقف عن الكشط من حينٍ لآخر، ملوحًا بيديه مع الموسيقى.

كان فصل الشّتاء قد ابتدأ، وكان سكوبر يدفع أجرًا لتايت، كأجر البالغين، لمساعدته له بعد المدرسة وفي عطل نهاية الأسبوع، ولم يستطع تايت زيارة كيا بالقدر الذي يريده. لم يذكر ذلك لوالده؛ لم يذكر شيئًا عن كيا لوالده. عملا على كشط العوالق الملتصقة حتى خيّم الظلام، وإلى أن احترقت ذراعا سكوبر. «أشعر بتعبٍ شديدٍ لدرجة أني لا أستطيع أن أطبخ، ومتأكد أنك كذلك. فلنتناول الطعام في المطعم في طريقنا إلى البيت».

ألقيا التحية على الجميع، لأنه لا يوجد من لا يعرفانه، وجلسا إلى طاولةٍ في الزاوية. طلب الاثنان الطلب نفسه: شرائح الدجاج المقلي، وهريسة البطاطا مع الصلصة، والفجل، وسلطة الملفوف بالمايونيز، والبسكوت وفطيرة الجوز مع المثلجات. أمسكت عائلةٌ من أربعة أشخاص، على الطاولة المجاورة، بأيدي بعضهم البعض، وأحنوا رؤوسهم فيما تلا الوالد دعاءً. قبلوا الهواء بعد كلمة «آمين»، وضغطوا على أيدي بعضهم البعض، ووزعوا خبز الذرة.

قال سكوبر: «يا بني، أنا أعلم أن هذه الوظيفة تبعدك عن أشياءٍ أخرى. هكذا تعمل الأمور، ولكنك لم تذهب إلى حفل استقبالٍ راقصٍ أو إلى أي نشاطٍ آخر في الخريف الماضي، ولا أريدك أن تفوّت كل ذلك، فهذه سنتك الأخيرة في الثانوية. هناك حفلٌ راقصٌ كبير في الخيمة العامة. هل تريد دعوة فتاة؟».

«كلا. قد أذهب، لست متأكّدًا. ولكني لا أريد دعوة أحد».

«أليس هناك من فتاةٍ واحدةٍ في المدرسة ترغب بدعوتها؟».

«كلا».

«حسنًا إذًا». رجع سكوبر إلى الخلف حتى تضع النادلة صحن الطعام أمامه. «شكرًا لك، بيتي لقد ملأته جيدًا». استدارت بيتي ووضعت صحن تايت أمامه، وقد فاق صحن أبيه امتلاءً.

قالت: «كلوا هذا. ثمة المزيد من حيث أتى هذا الطعام. طلبتم كل ما يمكنك تناوله». ابتسمت لتايت قبل أن تقفل عائدة إلى المطبخ مبالغِةً بهز ردفيها.

قال تايت: «الفتيات في المدرسة سخيفات. كل ما يتحدثن عنه هو

تصفيف الشّعر والكعوب العالية».

«حسنًا، هذا ما تفعله الفتيات. عليك تقبل الأمور كما هي أحيانًا».

«ربما».

«يا بني، أنا لا أبالي كثيرًا بالدردشة، ولم أفعل ذلك قط. ولكن ثمة فيضانٌ من الثرثرة عن وجود شيءٍ ما خلف ذهابك مع تلك الفتاة من السبّخة». رفع تايت يديه. فأكمل سكوبر: «تريّث قليلاً، تريّث قليلاً. أنا لا أصدق كل تلك القصص حولها؛ قد تكون جيدةً. ولكن انتبه يا بني. أنت لا تريد أن تؤسس عائلةً بوقتٍ مبكرٍ من حياتك. أنت تفهم قصدي، أليس كذلك؟».أبقى تايت صوته منخفضًا وقال مستهجنًا: «تقول، بدايةً، أنك لا تصدّق تلك القصص حولها، ثم تقول أني يجب ألّا أبدأ عائلةً، ما يشير إلى أنك تصدق أنها من ذلك النوع من الفتيات. حسنًا، دعني أقول لك شيئًا، هي ليست كذلك. هي أصفى من أيٍ من تلك الفتيات اللواتي تدعوني لأذهب للرقص معهم، وأكثر براءةً. يا رجل، بعض أولئك الفتيات يصطدن جماعةً ولا يأخذن رهائن. نعم، أنا أذهب لرؤية كيا أحيانًا. أتعلم لماذا؟ أنا أعلّمها القراءة لأن الناس في هذه البلدة

وضيعون جدًّا في معاملتها، لدرجة أنها لا تستطيع الذهاب إلى المدرسة».

«لا بأس بذلك تايت. هذا كرمٌ منك. ولكن اعلمْ أنه من واجبي أن أتحدث كما قلت. قد لا يكون الحديث مستحبًّا، ولكن على الأهل تنبيه أولادهم لبعض الأمور. هذا واجبي، فلا تغضب من ذلك».

تمتم تايت غاضبًا وهو يقضم بسكوتة: «أعلم ذلك».

«هيا الآن. فلنطلب المزيد، ونأخذ بعضًا من فطيرة الجوز تلك».

قال سكوبر بعد وصول الفطيرة: «حسنًا بما أننا تحدّثنا عن أمورٍ لم نقلها من قبل، دعني أقول لك شيئًا آخر خطر ببالي».

حوّل تايت عينيه إلى الفطيرة.

أكمل سكوبر: «أريدك أن تعلم يا بني كم أنا فخورٌ بك. أنت درست حياة السبّخة وحدك، وأبليت بلاءً حسنًا في المدرسة، وقدّمت طلبًا إلى الجامعة للحصول على شهادةٍ في العلوم. وقبلت. أنا لست من الأشخاص الذين يتحدثون بهذه الأمور. ولكني فخور بك جدًا يا بني. هل نحن على وفاق؟».

«نعم. نحن على وفاق».

قرأ تايت، لاحقًا في غرفته، من قصيدته المفضلة:

«أوه متى سأرى البحيرة الداكنة،

و زورق حبيبتي الأبيض؟».

ذهب تايت لرؤية كيا ما أمكنه أثناء عمله، ولكنه لم يستطع البقاء معها طويلاً. كان يبحر لأربعين دقيقة أحيانًا، ولعشرة دقائقٍ من المشي على الشاطئ، وإمساك اليدين والكثير من التقبيل ثم يبحر عائدًا دون إضاعة الوقت. أراد أن يلمس نهديها؛ قد يقتل أحدًا لرؤيتهما. فكّر بفخذيها، وهو ساهدٌ ليلًا، كم هما ناعمان وملفوفان، كان واثقًا أنهما كذلك. أرّقه التفكير فيما يتعدّى فخذيها. لكنها كانت صغيرةً وخجولةً. وقد يؤثر أي عملٍ سيءٍ عليها بطريقةٍ ما، وسيكون هو أسوأ من الصبيان الذين لا يتحدّثون إلا عن مجامعتها. كانت رغبته بحمايتها، بقوة رغبته فيها في بعض الأحيان.

أخذ تايت معه كتبًا مدرسيةً أو مكتبيةً، في كل رحلةٍ إلى كوخ كيا، وخاصةً تلك التي تتحدث عن مخلوقات السبّخة وإحيائها. كان تقدمها

مفاجئًا. أصبحت تستطيع قراءة كل شيءٍ الآن، كما قال، وحين تستطيع قراءة كل شيء، تستطيع أن تتعلم كل شيء. يعود ذلك كله إليها. قال لها: «لا أحد اقترب من تعبئة دماغه. نحن جميعًا كالزرافات التي لا تستعمل رقابها للوصول إلى أوراق الشجر الأعلى».

قرأت كيا وحدها، وعلى ضوء القنديل، كيف تتغيّر النباتات والحيوانات مع الوقت للتأقلم مع الأرض المتغيرة أبدًا؛ كيف تنقسم بعض الخلايا فتتخصص بالرئات أو بالقلوب، فيما تبقى خلايا أخرى غير متخصصةٍ كخلايا جذعية إلى أن تبرز الحاجة إليها لاحقًا. تغنّي الطيور فجرًا، عادة، لأن هواء الصباح البارد والرطب يحمل أغانيها ومعانيها إلى مسافات أبعد. رأت هذه العجائب أمامها، طيلة حياتها، فكان فهم طرق الطبيعة يسيرًا عليها.

بحثت عن تفسيرٍ يشرح لها لماذا قد تترك الأم أطفالها، ضمن كل عوالم علم الأحياء.

خرج تايت من قاربه في يومٍ باردٍ، وبعد تساقط أوراق الدلب، حاملًا هديةً ملفوفةً بورقٍ أحمر وأخضر.

قالت له: «ليس لدي شيء لك». حين قدم الهدية لها. «لم أعلم أنه عيد الميلاد».

فتحت الورق بعنايةٍ لتجد قاموسًا مستعملاً لويبستر: «أوه تايت، شكرًا لك».

قال لها: «انظري بداخله». وجدت في خانة حرف الميم ريشة لطائر مالك الحزين، وبراعم لا تنسني محشورةً بين صفحتين في خانة حرف اللام، وحبة فطرٍ مجففةٍ في خانة الفاء. كان الكثير من الكنوز مخبّأً بين الصفحات لدرجة أن الكتاب لم يكن يغلق بشكلٍ تام.

«سأحاول القدوم في اليوم التالي لعيد الميلاد. قد أستطيع أن أجلب معي ديك رومي للغداء». قبّلها مودّعًا. شتمت، بعد مغادرته، بصوتٍ عالٍ. كانت فرصتها الأولى منذ مغادرة أمها لتعطي هدية لأحدٍ تحبه، وقد فوّتت ذلك.

وقفت ترتجف من البرد، بعد عدة أيام، وقد ارتدت فستانًا من الشيفون بلون الخوخ بدون أكمام. انتظرت تايت على شاطئ الهور. تأبطت هديته وهي تذرع الشاطئ ذهابًا وإيابًا - ريش رأسٍ لطائر

الكاردينال - ملفوفةٌ بورقٍ استخدمه هو من قبل. وضعت الهدية بين يديه لحظة خروجه من القارب، مصممةً أن يفتح الهدية هناك، ففعل ذلك. «شكرًا لك كيا. ليس لدي واحدة».

اكتمل عيد الميلاد الآن.

«حسنًا فلندخلك إلى المنزل. من المؤكد أنك تتجمدين في ذلك الفستان». كان المطبخ دافئًا بسبب مدفأة الحطب، ولكنه أصرّ أن تغيّر ملابسها وترتدي سترةً صوفيةً وبنطال جينز.

سخّنا، معًا، الطعام الذي أتى به: ديكٌ رومي، وتتبيلة خبز الذرة، وصلصة التوت البري، وطبقٌ من البطاطا الحلوة، وفطيرة اليقطين - كل بقايا غداء عيد الميلاد مع والده - كانت كيا قد خبزت البسكوت، فأكلا إلى مائدة المطبخ التي زينتها بنبات الإيلكس وصدفات البحر.

«سأغسل الأواني». قالت ذلك وهي تسكب الماء الحار من على مدفأة الحطب في حوض المجلى.

«سأساعدكِ». أتى من خلفها وأحاط خصرها بذراعيه. أرجعت رأسها إلى الخلف ووضعته على صدره، وقد أغمضت عيناها. تحركت

أنامله ببطءٍ تحت سترتها وعبر معدتها الملساء، إلى نهديها. لم تكن مرتديةً حمالة صدرٍ، كعادتها، فدارت أنامله حول حلمتيها، طال مكوث أنامله هناك، ولكن شعورًا انتشر عبر جسدها وكأن يديه تحركتا بين رجليها. اجتاح نبض فراغٍ احتاج التعبئة بسرعة جسدها كله. لكنها لم تعرف ماذا تفعل ولا ماذا تقول، فدفعته إلى الوراء.

قال لها: «لا بأس بذلك». وبقي حاضنًا إياها وهما يتنفسان بعمق.

اختلست الشمس، الخجولة والخاضعة للشتاء، النظر بين الفينة والأخرى بين أيامٍ من الريح اللئيمة والمطر المُرّ. ثم شق الربيع طريقه، بعد ظهر أحد الأيام، وبطريقةٍ تلقائيةٍ، أخيرًا. أصبح النهار دافئًا وضاءت السماء وكأنها لُمِعت. تكلمت كيا بهدوء وهي تمشي وتايت على الضفّة العشبية لجدولٍ عميق، غطته أشجار الصمغ الحلو. أمسك بيدها فجأة وأسكتها. تبعت عيناها عينيه إلى حافة المياه، حيث قبع ضفدعٌ ضخمٌ، بعرض ستة بوصات تقريبًا، مختبئًا تحت أوراق الشجر. مشهدٌ عاديٌ جدًا، عدا أن هذا الضفدع كان أبيضًا بشكلٍ كاملٍ.

ابتسمت كيا وتايت لبعضهما البعض وراقبا الضفدع إلى أن اختفى

بقفزةٍ صامتةٍ من رجليه الطويلتين. بقيا صامتين وهما عائدان إلى تحت الأشجار على بعد خمسة ياردات. وضعت كيا يديها على فمها وقهقهت. ابتعدت عنه وسارت بدلال طفلةٍ في جسدٍ ليس لطفلة.

راقبها تايت لثانية، وقد نسي الضفدع. تقدّم منها عازمًا. أوقفتها تعابير وجهه أمام سنديانة كبيرة. أمسكها من كتفيها ودفعها بحزمٍ إلى الشجرة. قبلها، مثبتًا ذراعيها إلى جانبها، وبطنه يضغط على بطنها. كانا يتبادلان القبل منذ عيد الميلاد مستكشفين الأمر ببطءٍ؛ ليس هكذا. كان يأخذ المبادرة دائمًا، ويراقبها باحثًا عن علامات للتوقف؛ لا كما يحصل الآن.

ابتعد عنها، والطبقات العميقة، البنية-الذهبية، لعينيه تغوص في عينيها. فك أزرار قميصها ببطء وأنزله مظهرًا نهديها تفحّصهما بعينيه ببطء، وثم دارت أنامله حول حلمتيها. فتح سحّاب سروالها القصير وأنزله الأرض. كانت عارية تقريبًا، ولأول مرّة أمامه، لهثت وحرّكت يديها لتستر نفسها. أبعد يديها بلطفٍ وتأمل جسدها متمهلًا. نبض وسطها وكأن كل دمها تجمع هناك. خلع سرواله القصير، محدقًا بها، ودفع انتصابه نحوها.

أشاحت بوجهها حياءً، فرفع ذقنها وقال: «انظري إليّ، انظري في عيني يا كيا».

«تايت، تايت». رفعت نفسها صوبه محاولة تقبيله، ولكنه أبعدها، سامحًا لعينيها فقط أن تتملّكاه. لم تكن تدري أن التعرّي الصريح قد يجلب تلك الرغبة. حشر يديه بصمت بين فخذيها، فباعدت ما بين ساقيها بشكلٍ غريزي. تحرّكت أنامله ببطء بين ساقيهاٍ ودلّكت أجزاءً في جسدها لم تدر بوجودها. رمت رأسها إلى الخلف وأنّت.

دفعها بعيدًا عنه، فجأة وتراجع: «يا إلهي، كيا، أنا آسف. أنا آسف».

«تايت، أرجوك، أنا أريد ذلك».

«ليس بهذه الطريقة، كيا».

«لم لا؟ لم ليس بهذه الطريقة؟».مدت يديها إلى كتفيه وحاولت أن تشدّه إليها ثانية. ثم قالت مرةً أخرى: «لم لا؟».لم ثيابها وألبسها. لم يلمسها حيث رغبت، حيث كانت أجزاء من جسدها لا تزال تنبض. ثم رفعها وحملها إلى ضفة الجدول حيث أنزلها وجلس بجانبها.

«كيا، أرغب بك أكثر من أي شيء في الوجود. أريدك إلى الأبد. ولكنك صغيرة جدًّا. لا زلتِ في الخامسة عشرة».

«إن يكن؟ أنت أكبر مني بأربع سنواتٍ فقط. ليس كأنك فجأة أخبر بالغٍ على الإطلاق».

«نعم، ولكني لا أحتمل الحبل. ولا أن أدمر بهذه السهولة. لن أفعلها، كيا، لأني أحبك». الحب. لم تفهم هذه الكلمة.

قالت، منتحبةً: «لا زلت تعتقد أني فتاةٌ صغيرة».

«كيا، أنتِ تبدين كطفلةٍ صغيرةٍ أكثر وأكثر في كل ثانية». ولكنه ابتسم عند قوله ذلك وجذبها إليه.

«متى إذًا، إن لم يكن الآن؟ متى نستطيع؟».

«ليس بعد».

بقيا صامتين للحظة ثم سألته: «كيف تعلمت القيام بما تفعله؟». وقد حنت رأسها، خجولة مرة أخرى.

«بنفس الطريقة التي تعلّمتِ أنت فيها».

قال لها، بعد ظهر أحد الأيام في شهر أيار، وفيما كانا يسيران مبتعدين عن البركة: «أنا مغادرٌ قريبًا، كما تعلمين. إلى الجامعة».

تكلّم عن الذهاب إلى «تشابل هيل». ولكن كيا كانت قد أبعدت الموضوع عن فكرها، لعلمها على الأقل أن الصّيف لهما.

«متى؟ ليس الآن».

«بعد وقت قصير. خلال أسابيعٍ قليلة».

«ولكن لماذا؟ اعتقدت أن الجامعة تبدأ في الخريف».

«قبلت في وظيفةٍ في مختبر علم الأحياء في حرم الجامعة. لا أستطيع أن أخسر ذلك. ولذا سأبدأ بفصلٍ صيفي».

وحده جودي ودّعها، بين كل من غادرها. غادرها الجميع للأبد، ولكن هذا لم يشعرها بإحساسٍ أفضل. شعرت كأن صدرها يحترق.

«سوف أعود بقدر المستطاع. لست بعيدًا جدًّا. أقل من سفر يومٍ بالحافلة».

جلست هادئةً. ثم قالت أخيرًا: «لماذا عليك الذهاب، تايت؟ لماذا

لا تستطيع البقاء هنا وصيد الروبيان كأبيك؟».

«كيا، أنت تعرفين السّبب. أريد أن أدرس السبّخة وأصبح باحثًا في علم الأحياء». وصلا إلى الشاطئ وجلسا على الرمل.

«ماذا إذًا؟ لا يوجد وظائف كهذه هنا. لن تعود إلى هنا أبدًا».

«بلى، سوف أعود. لن أتركك، كيا. أعدك. سوف أعود إليك».

قفزت واقفةً فأخافت طيور الزقزاق، فطارت زاعقةً. ركضت من الشاطئ إلى الغابة. ركض تايت خلفها، ولكنه توقف لدى وصوله إلى الأشجار، ونظر حوله. كانت قد أضاعته.

قال بصوت عالٍ، تحسبًا لسماعها له: «كيا، لا تستطيعين الهرب من كل حدث. يجب أن تناقشي بعض الأمور أحيانًا. واجهي الأمور». ثمّ قال، بصبرٍ أقل: «تبًّا، كيا. تبًّا تبًا».

سمعت كيا قارب تايت، بعد أسبوع، يهدر عبر الهور فاختبأت خلف شجيرة. ارتفعت طيور مالك الحزين على أجنحتها الفضّية، لدى اقترابه. أراد جزءٌ منها الهروب، ولكنها سارت نحو الشاطئ وانتظرت.

قال لها: «مرحبًا». لم يكن يعتمر قبعته لأول مرة، وتراقصت خصل شعره الشقراء الوحشية حول وجهه الملوح بالشمس. عرض كتفاه، في الأشهر الأخيرة، ليصبحا كتفي رجلٍ.

«مرحبًا».

خرج من القارب، وأمسك بيدها، وقادها إلى جذع شجرة القراءة، حيث جلسا.

«يبدو أني سأغادر أقرب مما ظننت. سأفوّت احتفالات التخرّج كي أستطيع البدء بالعمل. كيا، أتيت لأودعكِ». حتى صوته بدا كصوت رّجل، رجلٌ مستعدٌ لعالم أكثر جدّية.

لم تجبهُ، ولكنها أشاحت بنظرها بعيدًا عنه. تجمدت حنجرتها بشدّة. وضع أمام قدميها حقيبتين حوتا كتبًا من المدرسة ومن المكتبة، وأغلبها كتب علوم.

لم تكن متأكدة أنها تستطيع الكلام. أرادته أن يأخذها من جديد إلى مكان الضفدع الأبيض. في حال لم يعد، أرادته أن يأخذها إلى هناك حالاً.

«سوف أفتقدك يا كيا. كل يوم وطيلة اليوم».

«قد تنساني. عندما تنشغل بشؤون الجامعة تلك وترى الفتيات الجميلات هناك».

«لن أنساكِ أبدًا. أبدًا. انتبهي للسبّخة إلى أن أعود، أتسمعين؟ وكوني حذرة».

«سأفعل».

«أعني ذلك الآن، كيا. انتبهي للناس؛ لا تدعي الغرباء يقتربون منك».

«أعتقد أني أستطيع الاختباء أو الهرب من أيّ كان».

«أجل، أعرف أنك تستطيعين ذلك. سأعود إلى البيت بعد ما يقارب الشهر، أعدك. لمناسبة الرابع من تموز. سأعود قبل أن تشعري بغيابي».

لم تجبْهُ، فوقف وحشر يديه في جيبتي بنطاله الجينز. ووقفت بالقرب منه، ولكنهما نظرا بعيدًا، إلى الأشجار.

أمسكها من كتفيها وقبّلها طويلاً.

«إلى اللقاء كيا».

نظرت، للحظة، فوق كتفه ثم نظرت إلى عينيه. هوةٌ عرفتها حتى أعمق أعماقها.

«إلى اللقاء، تايت».

صعد إلى قاربه بصمتٍ وأبحر عبر الهور. التفت ولوح لها، قبل دخوله شجيرات توت العلّيق عند القناة. رفعت يدها عاليًا فوق رأسها، ثم لمست بها قلبها.

19
شيءٌ ما يجري

1969

دفع المعاون بوردو، باب مكتب الشريف بقدمه ودخل في الصباح التالي لقراءة تقرير المختبر الثاني، وفي اليوم الثامن التالي لإيجاد جثة تشايس أندريوز في المستنقع، حاملًا بيديه فنجاني قهوةٍ من الورق وكيسًا من الكعك المحلى، أخذهم للتو من المقهى.

«أوه يا رجل، رائحة منتجات متجر باركر». قال إد ذلك عندما وضع جو الأغراض على الطاولة. سحب كل رجلٍ كعكةً محلاةً كبيرةً من كيس الورق البني الملطخ ببقع الزيت. أكلا وتلمظا بصوت عالٍ، ولعقا أناملهما الملساء.

قالا معًا: «حسنًا، لدي ما أقوله».

قال إد: «تفضّل».

«ورد إلي من عدة مصادر أن تشايس كان لديه ما يجري في السبّخة».

«ما يجري؟ ماذا تعني؟».

«لست متأكدًا، يقول بعض الشّبّان في متجر دوغ-غان أنه، ومنذ أربع سنوات، بدأ يذهب كثيرًا إلى السبّخة بمفرده، وكان متكتّمًا جدًّا على الموضوع. كان لا يزال يذهب إلى صيد السمك والإبحار بالقارب مع أصدقائه، ولكنه قام بالكثير من الرحلات لوحده. كنت أظن أنه تعامل مع بعض متعاطي المخدرات أو أسوأ. قد يكون تعامل مع أحد سفّاحي المخدّرات السّيئين. تنام مع الكلاب فتصحو مع البراغيث. أو في هذه الحالة لا تصحو أبدًا».

قال الشريف: «لا أدري. لقد كان رياضيًا؛ من الصعب تصوّره متعاطيًا للمخدّرات».

«رياضيٌّ سابق. وعلى كل حال، يعلق الكثيرون منهم بالمخدّرات.

عندما تجفّ الأيام الكبيرة لبطلٍ، فعليه الذهاب إلى أماكن أخرى. أو لربما كان له امرأةٌ هناك».

«لا أعرف أية فتاةٍ هناك من النوع الذي يفضّله. فهو يرافق علية القوم فحسب في باركلي.لا الناس القمامة».

«حسنًا، إن كان يظن أنه يهين نفسه بذلك، فسيتكتم عليه».

قال الشريف: «صدقت، على كل حال، مهما كان يشغله هناك، فهذا يفتح جانبًا جديدًا في حياته لم نكن نعلم عنه. فلنبحث عمّا كان يفعله».

«قلت أنك لديك شيء أيضًا؟».

«لست متأكّدًا ما هو. اتصلت أم تشايس وقالت أن لديها شيءٌ مهم تقوله عن القضية. شيءٌ عن عقد الصدف الذي كان يرتديه دائمًا، وهي متأكدةٌ أنه دليلٌ وتريد أن تأتي إلى هنا لتخبرنا عنه».

«متى ستأتي؟».

«بعد ظهر اليوم. قريبًا جدًّا».

«من اللطيف أن يكون لدينا دليلٌ حقيقي. أفضل من البحث عن شخصٍ ما يرتدي كنزةً صوفيةً حمراء ولديه دافعٌ للقتل. يجب أن نعترف، إن كانت هذه جريمة، فهي جريمةٌ ذكيةٌ جدًّا. مضغت السبّخة الأدلة كلها وابتلعتها، إن كان هناك أدلّةً أصلاً. هل لدينا وقتٌ للعشاء قبل أن تأتي باتي لوف إلى هنا؟».

«بالتأكيد. والصحن الخاص اليوم هو قطع لحم الخنزير المقلية، وفطيرة التوت الأسود».

20
الرابع من تموز

1961

سارت كيا حافيةً إلى الهور في الرابع من تموز، وهي ترتدي فستان الشيفون بلون الدرّاق والذي أصبح الآن قصيرًا عليها، وجلست على جذع شجرة القراءة. محى حرٌّ لاهبٌ آخر خيوط الضباب، وملأت الهواء رطوبةٌ سميكةٌ بالكاد تستطيع تنفّسها. جثت عند البركة، من وقتٍ لآخر، ورشّت رقبتها بالماء البارد، مصغيةً لهدير قارب تايت. لم يزعجها الانتظار؛ فقد قرأت الكتب التي أعطاها إياها.

تحرك النهار ببطء، الثانية تلو الأخرى وقد وقفت الشمس في منتصفه. أصبح جذع الشجرة قاسيًا، فجلست على الأرض وظهرها إلى شجرة. عادت إلى الكوخ، يدفعها الجوع، لتأكل بقايا السجق والبسكوت.

أكلت بسرعة خوفًا من أن يأتي وهي ليست في موقعها.

حشد بعد ظهر ذلك اليوم الحار-الرطب البعوض. لا قارب؛ لا تايت. وقفت، عند المغيب، ثابتةً وصامتةً كطائر اللقلق، ومحدّقةً إلى القناة الفارغة-الهادئة. التنفس يؤلمها. خلعت ثيابها وخاضت الماء وسبحت في البرودة المظلمة، والماء يتزحلق على جلدها، محررًا الحرارة من أعماقها. خرجت من البركة وجلست على بقعة مليئة بالطحالب عند الضّفة، عارية إلى أن جفّت، حتى سقط القمر خلف الأرض. ثم حملت ملابسها ودخلت الكوخ.

انتظرت في اليوم التالي. وقد ارتفعت الحرارة تدريجيًا حتى الظهر، وتقرّحت بعد منتصف النهار، ونبضت بعد مغيب الشمس. رمى القمر، لاحقًا، الأمل على سطح الماء، ولكن ذلك الأمل مات أيضًا. شروقٌ آخر، وظُهرٌ أبيضٌ-حارٌ آخر. مغيبٌ آخر. أصبح الأمل عاديًا. جالت عيناها بقلق، ورغم أنها أصاغت السمع لقارب تايت، إلّا أنها لم تعد مضطربة.

فاحت رائحة الحياة والموت معًا من الهور، فوضى عضوية من الوعد والتحلل. نقت الضفادع. راقبت الحباحب تطير خلال الليل دون كثير تركيز. لم يسبق لها جمع الحباحب في قارورة؛ تتعلم الكثير عن

الشيء حين لا يكون في القارورة. كان جودي قد أخبرها أن الحباحب الأنثى تطلق الضوء لإعلام الذكر باستعدادها للتزاوج. لكل فصيلةٍ من الحباحب لغتها الضوئية الخاصة. راقبت كيا أنثى أشارت بنقطة، نقطة، نقطة خط، وهي تتراقص، طائرةً، فيما أومضت الأخريات خط، خط، نقطة في أنماط رقصٍ مختلفة. عرف الذكور، بالطبع، إشارات فصيلتها فقصدت تلك الإناث فحسب. ثم، وكما شرح لها جودي، حكّت أسفالها ببعضها البعض كما تفعل معظم المخلوقات، لإنتاج الصغار.

جلست كيا فجأة منتبهةً، غيرت إحدى الإناث إشارتها. ومضت بالترتيب المناسب من الخطوط والنقاط في المرة الأولى، لتجذب ذكرًا من فصيلتها، وتزاوجا. ثم أرسلت إشارة أخرى، وطار ذكرٌ من فصيلة أخرى إليها، معتقدًا، بعد قراءة رسالتها أنه وجد أنثىً متجاوبةً من نوعه، فعلاها للتزاوج. ولكن الحبحبة الأنثى مطت جسمها إلى الأعلى، والتقطته بفمها وأكلته، قاضمة الأرجل الستة والجناحين..

راقبت كيا الأخريات. حصلت الإناث على مرادها، التزاوج أولًا، ثم الوجبة بتغيير الإشارة فحسب.

عرفت كيا أن هذا ليس موضع الحكم. لم يكن الشّر عاملًا هنا،

وحدها الحياة تنبض، حتى على حساب بعض اللاعبين. يرى علم الأحياء الصح والخطأ كاللون ذاته تحت أضواءٍ مختلفة.

انتظرت تايت لساعةٍ أخرى، ثم عادت إلى الكوخ.

شتمت، في الصباح التالي، أسمال الأمل القاسي، وعادت إلى الهور. جلست على حافة الماء وأصغت لصوت هدير القارب يمخر القناة أو يعبر الأنهار البعيدة.

وقفت، ظهرًا، وصاحت: «تايت، كلا، كلا». ثم جثت على ركبتيها ووجهها في الوحل. شعرت بجاذبٍ يشدها إلى الأسفل. موجةٌ تعرفها جيدًا.

21
كووب

1961

هزّ الريح الحار سعف النخيل وكأنها عظامٌ صغيرةٌ جافة. لم تغادر كيا فراشها لثلاثة أيام تلت يأسها من عودة تايت. خدرها اليأس والحرّ، فالتفّت بثيابٍ وملاءاتٍ تفوح منها رائحة العرق، كان جلدها دَبِقًا. أرسلت أصابع قدميها في مهمة البحث عن البقع الباردة بين الشراشف، ولكنها لم تجدها.

لم تلحظ طلوع القمر أو هجوم البوم القرني الليلي على طائر القيق الأزرق. سمعت السبّخة من سريرها. عبر خفق أجنحة الطيور السوداء، ولكنها لم تذهب إليها. آلمتها أغاني النوارس الباكية فوق الشاطئ، وهي تناديها. ولكنها، للمرة الأولى في حياتها، لم تذهب إلى

الطيور. تمنّت لو أن ألم تجاهلهم يأخذ مكان الدموع في قلبها. لكنه لم يفعل.

تساءلت، قلقةً، عما ارتكبته لإبعاد الجميع عنها. أمها وأختاها وعائلتها كلها. وجودي. والآن تايت. كانت أكثر ذكرياتها ألمًا تواريخًا مجهولةً لمغادرة أفراد عائلتها عبر الممر. آخر أثرٍ لوشاحٍ أبيض خلال أوراق الأشجار. كومةٌ من الجوارب المتروكة على الفراش الأرضي.

كان تايت والحياة، والحب شيئًا واحدًا. ثم لم يعد ثمة تايت.

تمتمت وهي ملتفةٌ بالملاءة: «لماذا تايت، لماذا؟ كان يجب أن تكون مختلفًا. أن تبقى. قلت أنك أحببتني، ولكن لا وجود لمثل هذا الشيء. لا يوجد أحد على هذه الأرض أستطيع الاعتماد عليه». عاهدت نفسها، في مكانٍ ما في أعماقها، ألا تثق بأحدٍ، أو تحبه، ثانية.

لطالما وجدت القوة والجرأة لسحب نفسها من الوحل، ولتأخذ الخطوة التالية، بغض النظر عن سوء حالها. ولكن ما فائدة كل هذه القوة؟ تأرجحت بين النوم الخفيف والصحو لفترة.

ضربت الشمس وجهها فجأة. كاملةٌ ومشرقةٌ. لم تنم يومًا حتى

منتصف النهار. سمعت صوت حشرجةٍ ناعمة، استقامت على مرفقيها فرأت صقر كووبر بحجم الغراب على الجهة المقابلة لباب الشبك الخارجي، يسترق النظر إلى الداخل. تحرّكت متعةٌ في داخلها، للمرة الأولى منذ أيام. نهضت من السرير حين أسلم الصقر جناحه للريح.

أعدّت عصيدةً من الماء الساخن والذرة وتوجهت إلى الشاطئ لتطعم النوارس. طارت الطيور في دوامة، لدى وصولها، وهبطت في مجموعات، فجثت على ركبتيها ونثرت الطعام على الرمل. تجمعت الطيور حولها، وأحست بريشاتها تحتكّ بذراعيها وفخذيها، فأرجعت رأسها إلى الوراء وابتسمت معها والدموع تجري على وجنتيها.

لم تترك كيا مكانها، لشهرٍ تلا الرابع من تموز. لم تذهب إلى السبّخة ولا إلى محطة القافز للتزوّد بالوقود. عاشت على السمك المجفف، وبلح البحر، والمحار، والذرة والخضار.

أبحرت أخيرًا إلى متجر القافز، بعد نفاذ مخزونها من الطعام، للتزوّد بالمؤن، ولكنها لم تتحدّث معه كالعادة. أنهت مهمتها وغادرته محدّقًا بها وهي تبتعد. الحاجة إلى الناس تنتهي بالألم.

عاد صقر الكووبر إلى درجها بعد صباحاتٍ معدودة، مسترقًا النظر عبر بابها الخارجي. فكرت: «هذا غريب» التفتت نحوه نادت: «مرحبًا كووب».

طار وحَوَّم قليلاً، ثم انطلق عاليًا في الغيوم. قالت كيا لنفسها وهي تراقبه: «عليّ العودة إلى السبّخة». ثم خرجت بالقارب، وأبحرت عبر القنوات والجداول المنحدرة، باحثةً عن أعشاش الطيور، والريش، والأصداف، ولأول مرة منذ أن غادرها تايت. لم تستطع ألا تفكر فيه، رغم ما حصل. منغمسًا في الروائع العقلية والفتيات الجميلات في «تشابل هيل». لم تستطع أن تتخيّل نساء الجامعة، وأي شكلٍ سيتخذن. سيبدين أفضل من صيادة المحار الحافية بشعرها المنكوش، وكوخها.

استقرت حياتها مرةً أخرى بنهاية شهر آب: قاربٌ، وتجميعٌ، ورسم. مرّت شهورٌ. ذهبت إلى متجر القافز فقط حين شحت المؤن، ولكنها لم تتحدث معه كثيراً.

نضجت مجموعتها، فصنّفتها بمنهجيةٍ وفق الترتيب، والنوع، والفصيلة، والعمر بالاعتماد على تحلل العظم، وفق حجم الريشة بالميليميتر، أو وفق ضعف درجة اللون للأوراق الخضراء. تضافرت العلوم

والفنون في قوّتهما: اللون، والضوء، والفصيلة، والحياة؛ نسجت رائعةً من روائع المعرفة والجمال ملأ كل زاويةٍ من كوخها. عالمها. نمت معهم - جذع داليةٍ وحيدٍ - ولكنه يحمل العجائب كلها معًا.

نمت عزلتها بنمو مجموعتها. عاش ألمٌ بحجم قلبها في صدرها. لم يخففه شيء. لا النوارس، ولا المغيب الجميل، ولا أندر الأصداف.

نمت الأشهر لتصبح سنة.

فاقت العزلة قدرتها على تحملها. تاقت لصوت أحدهم، لحضوره، للمسته، ولكنها تمنت أكثر أن تحمي قلبها.

امتدت الشهور إلى سنة أخرى. ثم إلى أخرى.

الجزء الثاني
المستنقع



22
المدّ ذاته

1965

بلغت كيا التاسعة عشرة. طالت ساقاها، وكبرت عيناها وازدادتا سوادًا، واسمرّت بشرتها. جلست على «بوينت بيتش» تراقب السرطانات تدفن أنفسها في الرمل عند مكسر الموج. سمعت أصواتًا قادمةً من الجنوب، فقفزت على رجليها. كانت مجموعةً من الأولاد - وقد أصبحوا شبابًا - اعتادت مشاهدتهم في السنوات الماضية يسيرون الهوينى باتجاهها. كانوا يتقاذفون كرة قدم، ويركضون ويركلون الأمواج. نظروا إليها، متوجسين، فجرت إلى الأشجار، والرمل يتطاير تحت قدميها، واختبأت خلف جذعٍ عريضٍ لشجرة سنديان. كانت مدركةً أن ذاك يجعلها تبدو غريبة.

لم يتغير الكثير: ضحكهم، وهروبي كالسرطانات، كمخلوقٍ متوحشٍ

يخجل من توحشه.

مشت الشقراء الطويلة النحيفة، وذات جديلة ذيل الحصان، والتي علا النمش وجهها، ومرتدية اللؤلؤ على الدوام، وذات الخدود السمينة، بمرحٍ على الشاطئ، ضاحكات متعانقات. سمعت اغتيابهن لها. خلال رحلاتها النادرة إلى القرية، «نعم، تشتري فتاة السبّخة ثيابها من الملونين وعليها المتاجرة ببلح البحر لتشتري الذرة».

لا زلن مجموعةً من الصديقات، رغم مرور سنواتٍ ثلاث. كان هذا أمرًا يستحق الذكر. كان الأمر سخيفًا في ظاهره، ولكنهن، كما قالت مايبل، لا زلن مجموعة متحدة. «يجب أن تحظي ببعض الصديقات يا عزيزتي لأنهن يبقين للأبد. ولا يحتجن لعهود. إن حفنةً من النساء هي أكثر الأمكنة رقةً ونضارةً وجبروتًا على سطح الأرض».

وجدت كيا نفسها تضحك معهن بنعومة فيما كن يركلن الماء المالح على بعضهن البعض. ثم جرين هاتفاتٍ، وكأنهن شخصٌ واحد، نحو الماء الأعمق. ذبلت بسمة كيا حين خرجن من الماء وعدن إلى العناق.

جعل صياحهن صمت كيا أعلى. ضغط اجتماعهن على وحدتها، ولكنها تدرك أن وسمها بفتاة السبّخة هو ما يبقيها خلف شجرة السنديان.

التفتت عيناها إلى أطول شاب. رمى الكرة وهو يرتدي سروالاً قصيرًا باللون الكاكي دون قميص. رأت كيا تقاسيم عضلاته المنقوشة على ظهره، وكتفاه الملوحتان بالشمس. علمت أنه تشايس أندريوز، وشاهدته لسنوات، منذ أن كاد يدهسها بالدراجة، مع هؤلاء الأصدقاء على الشاطئ، يدخلون المطعم لتناول مخفوق الحليب، أو يقصدون القافز للتزود بالوقود.

اقتربت المجموعة منها، ولكنها نظرت إليه فقط. رمى أحدهم الكرة فجرى خلفها ليلتقطها مقتربًا من شجرتها، وقدماه تحفران في الرمل الحار. التفت إلى الخلف، حين رفع ذراعه ليرمي الكرة، فوقعت عيناه على عيني كيا. التفت إليها بعد رمي الكرة، ودون أن يعلم رفاقه بما رأى، وثبت نظره بنظرها. كان شعره أسود، كشعرها، وكانت زرقاوان فاتحتان، ووجهه قويٌّ وجذاب. ارتسم ظلّ ابتسامةٍ على شفتيه. ثم جرى عائدًا إلى الآخرين، واثق الخطى، مرتاحًا.

ولكنه لاحظها. ثبت عيناه بعينيها. توقف تنفسها وسرت حرارةٌ في جسدها.

تابعتهم، وبالأخص هو عبر الشاطئ. راقب جسدها تشايس أندريوز، لا قلبها.

عادت في اليوم الثاني، نفس المدّ، بوقتٍ مختلف، ولم يكن ثمة أحدٌ هناك، فقط طيور زمّار الرمل وسرطانات تركب الأمواج.

حاولت جهدها أن تتجنب ذلك الشاطئ وتبقى في السبّخة باحثةً عن أعشاش الطيور والريشات. فتطعم الذرة للنوارس وهي آمنة. جعلتها الحياة خبيرةً في هرس المشاعر لأحجامٍ قابلة للتخزين.

للعزلة بوصلتها الخاصة، فعادت إلى الشاطئ لتبحث عنه في اليوم التالي، ثم التالي.

خرجت كيا من كوخها، في وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام، وبعد البحث عن تشايس أندريوز، استلقت على شاطئ فضّي، مبتلةً من آخر موجة. مدت يديها فوق رأسها، تمشّط بهما الرمل الرطب، ومدت ساقيها، وقد امتدت أصابع قدميها. تمرغت على الرمل بهدوءٍ وعيناها

مغلقتان، باتجاه البحر. تركت اردافها وذراعاها علاماتٍ طفيفةً على الرمل المتلألئ، الذي أضاء وانطفأ مع حركتها. سألت نفسها وهي تقترب من الماء، وتشعر بهدير البحر عبر جسمها: «متى سيلمسني البحر؟ أين سيلمسني أولاً؟».هجم الموج المزبد متجهًا نحوها. تنفّست بعمق وقد دغدغها التوقع. خففت من سرعة دورانها. كانت ترفع رأسها مع كل دورة، وقبل أن يلمس وجهها الرمل، وتتنشق رائحة الملح المشمس. «أنا قريبةٌ، قريبةٌ جدًّا. ها هو قادمٌ. متى سأشعر به؟».

نمت الحمّى. أصبح الرمل تحتها أرطب، وهدير الموج أعلى. تحركت ببطءٍ، بوصةً بوصة، منتظرة اللمسة. قريبًا، قريبًا. تكاد تشعر به قبل أن يأتي.

أرادت فتح عينيها لترى كم تبقى لها من الوقت. ولكنها قاومت، مغلقةً عيناها بشدة، والسماء تشع خلفهما، دون إعطائها تلميحًا.

صرخت فجأة حين تدفق الماء تحتها، ملاطفًا فخذيها، وبين رجليها، ومتدفقًا على ظهرها، ودائرًا تحت رأسها، وساحبًا شعرها خصلةً سوداء تلو الخصلة. تقلبت أسرع في حضن الموج العميق، بعكس الصدفات الجارية وقطع المحيط، وعانقها الماء. أشعرها الدفع ضد جسم البحر

القوي بأنها مقبوضٌ عليها، ومحضونةٌ وليست لوحدها.

جلست وفتحت عينيها على زبد المحيط يحيط بها في نمطٍ أبيضٍ ناعمٍ متغيرٍ أبدًا.

زارت رصيف القافز مرتين في أسبوعٍ واحد منذ نظر تشايس ناحيتها على الشاطئ. أضاءت ملاحظتها من قِبل أحدهم رباطًا اجتماعيًا. سألت القافز: «كيف حال مايبل؟ هل في البيت، من أحفادك، أحد؟». كما في الأيام الخالية. لاحظ القافز التغيير، لكنه لم يعلق: «نعم آنستي، لدينا أربعةٌ في البيت الآن. البيت مليءٌ بالقهقهات ولا أعرف ماذا بعد».

لم يكن القافز ظاهرًا، عندما أبحرت كيا إلى الرصيف، بعد صباحاتٍ عدة. راقبتها طيور اللقلق البنية الواقفة على الأعمدة وكأنها تدير المكان.جعلتها اللمسة على كتفها تقفز.

«مرحبًا». التفتت لترى تشايس واقفًا وراءها. أسقطت ابتسامتها.

«أنا تشايس أندريوز». اخترقت عيناه، ككتلة جليدٍ أزرق، عينيها. كان مرتاحًا كلّيًّا للتحديق بها.

لم تقل شيئًا، ولكنها نقلت وزنها.

«أراك في الأرجاء أحيانًا. كما تعلمين، في السبّخة. ما اسمكِ؟». ظن، للحظةٍ، أنها لن تتكلّم؛ ربما كانت خرساء أو تتكلم لغةً بدائيةً، كما يقول البعض. لو واجهها من هو أقل ثقةٍ بنفسه لابتعد.

«كيا». من الواضح أنه لا يذكّر حادثة الدراجة على الرصيف ولم يعرف سوى أنها فتاة السبّخة.

«كيا، اسم مختلفٌ. ولكنه جميل. أتودين الذهاب في نزهة؟ بقاربي هذا الأحد؟». نظرت إلى ما ورائه، آخذةً بعض الوقت لتقييم كلامه، ولكنها لم تفهم قصده. وجدت فرصةً لتكون مع أحد ما.

قالت: «أقبل». طلب منها أن تلتقيه ظهرًا عند شبه جزيرة السنديان شمال «بوينت بيتش». ثم صعد إلى مركب التزلج المائي الأبيض والأزرق، وقد غطت القطع المعدنية اللامعة أكثر سطحه، وأسرع بعيدًا.

التفتت لدى سماعها خطوات أخرى، هرول القافز إلى المرسى. «مرحبًا يا آنسة كيا. آسف، كنت أحمل الأقفاص الفارغة إلى هناك. أتريدين أن أملأ لك الوقود؟». أومأت كيا.

أوقفت المحرك في طريقها إلى البيت، وتركت الأمواج تحملها.

استندت إلى حقيبة الظهر مراقبةً السّماء، قرأت قصيدةً غيبًا، كما كانت تفعل في بعض الأحيان. كانت قصيدةٌ لجون مايسفيلد، «حُمّى البحر»، من قصائدها المفضلة.

«... كل الذي أطلبه هو يومٌ مليءٌ بالريح مع غيومٍ بيضاء طائرة

ورذاذٌ يتطاير ورغوةٌ منفوخة، وصيحات نوارس البحر».

استعادت كيا قصيدةً لشاعرةٍ أقل شهرةً، أماندا هاملتون، منشورةً حديثًا في جريدةٍ محلية اشترتها من متجر «بيغلي ويغلي»:

«الحب وحشٌ مقفوصٌ،

مسجونٌ في الداخل

يأكل من لحمه الحي.

يجب أن يكون الحب حرًّا ليتجوّل،

ليرسو على الشاطئ الذي يختاره

ويتنفّس».

جعلتها الكلمات تفكّر بتايت، فتوقف نفسها. كل ما احتاج إليه كان أن يجد شيئًا أفضل ولكنه رحل. لم يأتِ حتى ليودعها.

لم تدرِ كيا، ولكن تايت كان قد أتى لرؤيتها.

في اليوم الذي كان فيه تايت مستقلًا الحافلة إلى منزله بمناسبة الرابع من تموز، دخل موظِفه، الدكتور بلوم، مختبر الأوليات، وسأله إن كان يود أن ينضم إلى مجموعة من البئيين المشهورين في حملة دراسية عن الطيور خلال عطلة نهاية الأسبوع.

«لاحظت اهتمامك بعلم الطيور وتساءلت إن كنت تود القدوم. عندي مكان لطالب واحد فقط، وفكرت بك».

«بالتأكيد. سأكون هناك». وقف تايت وحيدًا بين طاولات المختبر والمجاهر وهمهمة المعقام، بعد مغادرة الدكتور بلوم، فتساءل كيف جرت الأمور بهذه السرعة. كيف بهر أستاذه بهذه السرعة. فخر لكونه الوحيد الذي اختير، الطالب الوحيد المدعو للانضمام إلى الحملة.

كانت فرصته الثانية للذهاب إلى البيت - ولليلةٍ واحدةٍ فقط -

بعد خمسة عشر يومًا. كان متلهفًا للاعتذار من كيا، والتي كانت ستتفهم حين تعلم بدعوة الدكتور بلوم.

أطلق العنان لقاربه بعد دخول القناة حيث اصطفت جذوع الأشجار ولمعت ظهر السلاحف المتشمسة. لمح قاربها في منتصف الطريق تقريبًا، مخبأً بعناية بين أعشاب الحبل الطويلة. خفف السرعة، في تلك اللحظة، ورآها أمامه، راكعة على جرف الرمل، مأخوذةً، كما يبدو، ببعض القشريّات الصغيرة.

كان رأسها منحنيًا، وبدا أنها لم تره أو تسمع صوت قاربه المتحرك ببطء. وجه قاربه بصمتٍ داخل القصب، بعيدًا عن الأنظار. عرف لسنواتٍ أنها كانت تتجسس عليه أحيانًا، متلصصةً بين الشجيرات الإبرية. قرر، فجأةً، وقلبة ينبض بقوة، أن يفعل الشيء نفسه.

وقفت حافيةً، وقد ارتدت سروال جينزٍ مقطعٍ وتيشيرت أبيض، ومدت يديها عاليًا. بان خصرها النحيف كخصر الدبور. ركعت ثانيةً وغرفت بيديها رملاً، وتركته ينساب من بين أناملها، متمعّنة بالمخلوقات المتلوّية في قبضتها. ابتسم لعالمة الأحياء الصغيرة، المركزة والغافلة عما حولها. تخيلها واقفةً خلف مجموعة حملة دراسة الطيور، محاولةً ألا

تُرى، وسباقةً إلى رؤية كل طيرٍ وإلى تعريفه. كانت لتحدد، بحياءٍ ونعومة، فصيلة كل عشبةٍ منسوجةٍ في كل عش، أو عمر كل فرخةً بالأيام وفقًا للألوان الظاهرة على رؤوس أجنحتها. تفصيلاتٌ دقيقةٌ تتجاوز أي دليلٍ أو معرفة للمجموعات البيئية المعتبرة. التفصيلات الصغرى التي تدور حولها كل فصيلة. الزبدة.

جفل تايت فجأة حين نهضت كيا والرمل ينساب من بين أناملها، فنظرت أعلى الجدول، بعيدًا عن تايت. بالكاد سمع صوت هديرٍ منخفضٍ لمحرك قاربٍ آتيًا باتجاههم، قد يكون لصيادٍ، أو لأحد سكان السبّخة، متوجهٍ إلى البلدة. صوت خرخرة، عاديٌ وهادئٌ كاليمامات. ولكن كيا تناولت حقيبة الظهر، وهربت عبر جرف الرمل وتقوقعت بين الأعشاب الطويلة. جلست منخفضةً على الأرض، ونظرت لترى إن كان القارب قد ظهر للعيان، مشت منحنيةً باتجاه القارب. وقد رفعت ركبتيها إلى ذقنها. كانت أقرب إلى تايت الآن، فرأى عينيها، داكنتين ومجنونتين. ربضت، منخفضةً، حين بلغت قاربها ممسكةً بحافته وقد خفضت رأسها.

ظهر الصياد - وجهٌ مرحٌ لرجلٍ عجوزٍ يعتمر قبعة - للعيان، لم يرَ

كيا ولا تايت، واختفى خلف الناصية. ولكنها بقيت جامدةً ومصغيةً إلى أن اختفى صوت المحرك، ثم وقفت، ومسحت جبينها. استمرّت بالنظر نحو القارب كغزالٍ يعاين الشجيرات الفارغة لنمرٍ مغادر.

علم، بطريقةٍ ما، أنها ستتصرف على هذا النحو، ولكنه لم يشاهد الحقيقة العارية، كما الآن، منذ لعبة الريش. لم ير كم هي معذبةٌ، ومعزولةٌ، وغريبة.

كان قد أمضى أقل من شهرين في الجامعة ولكنه كان قد ولج العالم الذي أراده، محلّلاً التناظر في جزئيات الجينات الوراثية وكأنه قد زحف داخل كاتدرائية تتلألأ بذرّاتٍ ملتفّةٍ ومتصاعدةٍ على السلالم اللولبية الحمضية للمحارة. رأى أن كل الحياة تعتمد على هذه الشيفرة الدقيقة المعقدة والمنقوشة على شرائح عضويةٍ ضعيفة، والتي قد تهلك بلمحة بصر في عالم أكثر حرارة أو برودة بقليل. كان محاطًا بأسئلةٍ كبيرةٍ وأناسٍ لديهم نفس فضوله لإيجاد الأجوبة، ما يجذبه نحو هدفه من البحث في علم الأحياء في مختبره، متعاونًا مع علماء آخرين.

يستطيع عقل كيا العيش هناك بسهولة، أما هي فلا. تأمل في قراره وهو مختبئ بين أعشاب الحبل، وقد ضاق تنفسه: كيا أو كل شيءٍ

آخر.

همس: «كيا، كيا، لا أستطيع أن أفعل ذلك. أنا آسف».

صعد إلى قاربه، بعد مغادرتها، وأبحر عائدًا إلى المحيط. شتم الجبان الذي بداخله، والذي لم يستطع أن يودعها.

23
القوقعة

1965

جلست كيا، في الليلة التالية لرؤية تشايس أندريوز، على رصيف القافز، إلى طاولة المطبخ على ضوء القنديل الخافت. كانت قد عادت إلى الطهو مرة أخرى، وقضمت عشاءً من بسكوت زبدة الحليب، والفجل، والفاصولياء، وهي تقرأ أثناء تناول الطعام. ولكن فكرة الموعد-النزهة مع تشايس في اليوم التالي فككت كل جملة.

وقفت كيا ومشت نحو الليل، عبر الضوء الحريري لثلاثة أرباع القمر. وقع هواء السبّخة الناعم على كتفيها كالحرير. اختار ضوء القمر ممرًّا غير متوقع عبر أشجار الصنوبر، ملقيًا الظلال بنفس الاتجاه والطول. مشت متعبةً كمن يمشي في نومه فيما سَحبَ القمر جسده

العاري من المياه وتسلّق أشجار السنديان غصنًا بعد غصن. توهج الوحل اللزج لشاطئ الهور في الضوء الساطع، بدت مئات الحباحب حب كالنقط في الغابة. ارتدت فستانًا أبيض مستعملاً مع تنورة متماوجة ولوحت بيديها بهدوء، راقصة على موسيقى الجنادب والضفادع المرقطة. أنزلت يديها إلى جانبيها ورفعتهما إلى رقبتها. ثم حرّكتهما بجانب فخذيها واضعةً وجه تشايس أندروز نصب عينيها. أرادته أن يلمسها بهذه الطريقة. تعمق تنفسها. لم ينظر إليها أحدٌ من قبل كما نظر هو إليها. ولا حتى تايت.

رقصت بين الأجنحة الباهتة لذباب الربيع المرفرفة فوق الوحل اللامع في ضوء القمر.

استدارت، في الصباح التالي، حول شبه الجزيرة ورأت تشايس في قاربه، قريبًا من الشاطئ. ها هي الحقيقة تظهر هنا في ضوء النهار، انتظرت وقد جفت حنجرتها. قادت القارب إلى الشاطئ، وخرجت منه وسحبته، فصدم هيكله الرمل.

مشى تشايس بمحاذاتها. «مرحبًا».

نظرت فوق كتفها وأومأت. خرج من قاربه ومد يده نحوها، كانت أنامله طويلة وملوحة بالشمس، كفٌّ مفتوحة. تردّدت؛ يعني لمْس أحدهم تخليها عن جزء منها، جزء لن تستعيده يومًا.

وضعت، رغم ذلك، يدها بلطفٍ شديدٍ في يده. سدد خطاها حين خطت نحو الجهة الخلفية للقارب وجلست على المقعد الوثير. ابتسم لهما يومٌ مشرقٌ جميل. بدت كيا، وقد ارتدت سروال جينز وبلوزة قطن بيضاء - زيّ اقتبسته من الآخرين - طبيعيةً. جلس بقربها، وشعرت بكمّه ينزلق بلطفٍ على ذراعها.

توجه تشايس بالقارب نحو المحيط. تلاعبت المياه المفتوحة بالقارب أكثر من مياه السبّخة الهادئة، وأدركت أن تلاطم الأمواج سيحك ذراعها بذراعه. أبقى توقع الملامسة عيناها محدقتين إلى الأمام، ولكنها لم تبتعد.

رفعتهم موجة، أخيرًا، وخفضتهم، فلامست يده، الصلبة والدافئة يدها. تنافرا، ثم تلامسا ثانيةً مع كل صعود وهبوط. احتكّ فخذه بفخذها حين جرت موجة كبيرة من تحتهما، فانقطع نفسها.

زاد من سرعة القارب متجهًا جنوبًا بمحاذاة الشاطئ، كان قاربهما هو الوحيد في تلك الأرجاء البعيدة. كانا يبعدان مسافة عشر دقائقٍ من الإبحار، وقد امتدّت أميالٌ من الشاطئ الأبيض على طول خط المدّ، فحمت الموقع عن العالم بغابة دائرية كثيفة. قبعت «بوينت بيتش» أمامهم مباشرة وقد انفتحت على الماء كمروحةٍ ناصعةٍ بيضاء.

لم يكن تشايس قد فاه بكلمةٍ منذ حياها؛ وهي لم تتكلم على الإطلاق. سحب القارب إلى الشاطئ ووضع سلة النزهة على الرمل في ظله.

قال لها: «أتودين المشي؟».

«نعم».

مشيا بموازاة الماء، فهاجمت الموجات الصغيرة كاحليهما واردةً، ومصت قدميهما، كأنها تسحبهما إلى البحر، وهي عائدة.

لم يمسك بيدها، ولكن أناملهما تلامست، بين الفينة والأخرى، بحركةٍ طبيعية. انحنيا، مرارًا، لتفحّص صدفةٍ أو قطعةٍ شفافة من الطحلب البحري الملفوف وكأنه قطعةٌ فنية. كانت عينا تشايس

الزرقاوان لعوبتين؛ ابتسم بسهولة. كانت بشرته ملوحة بالشمس كبشرتها. كانا طويلين، وأنيقين، ومتشابهين.

علمت كيا أن تشايس اختار ألّا يذهب إلى الجامعة ليساعد والده. كان بارزًا في البلدة. كان فحلها. شابها قلق في أعماقها، أن يراها هي أيضًا قطعةً من قطع الشاطئ الفنيّة، فيقلّبها فضولاً بيديه، ثم يرميها ثانيةً على الرمل. ولكنها أكملت المسير. أعطت الحب فرصة، كل ما أرادته الآن هو ملء الفراغ. تقليل العزلة ببناء جدارٍ حول قلبها.

واجهها، بعد نصف ميل، ثم انحنى محركًا ذراعه بطريقةٍ مبالغٍ فيها، مشيرًا لهما ليجلسا على الرمل على جذعٍ لفظته الأمواج. أدخلا أقدامهما في البلور الأبيض واستلقيا إلى الخلف.

سحب من جيبه آلة هارمونيكا.

«أوه». قالت له: «أنت تعزف». أحست بالكلمات خشنة على لسانها.

«ليس جيدًا. ولكن حين يكون لدي جمهورٌ مستندٌ إلى جذع شجرة شجرة جرفتها الأمواج إلى الشاطئ»... أغلق عينيه، وعزف لحن

«شيناندواه» وكفّه يرفرف على الآلة كعصفورٍ محجوزٍ في زجاجة. كان صوتًا لطيفًا وحزينًا، كرسالةٍ من وطنٍ بعيد. ثم توقف فجأةً في منتصف الأغنية والتقط صدفةً أكبر من العملة المعدنية بقليل عن الأرض. كانت بيضاء كالكريمة مع مشحاتٍ لامعةٍ من الأحمر والليلكي.

قال: «انظري إلى هذه».

قالت كيا: «أوه، إنه محارٌ مزخرف، بيكتين أورناتوس. قليلًا ما أراها. ثمة الكثير من هذا الجنس هنا، لكن هذه الفصيلة بالتحديد تستوطن مناطق الجنوب من هذا الخط المناخي لأن هذه المياه باردة جدًّا بالنسبة لها».

حدّق بها. لم يذكر أحدٌ، مع كل الإشاعات التي حيكت حولها، أن فتاة السبّخة، الفتاة التي لم تستطع أن تقرأ كلمة «كلب»، تعرف الأسماء اللاتينية للأصداف، وأين تتواجد، ولأي سبب، بحق المسيح.

«لا أعرف عن ذلك». قال لها: «ولكن انظري هنا، إنها مثنية». كانت الأجنحة الصغيرة اللامعة من كل جهة من المفصل ملتوية، وكان هناك فتحة صغيرة كاملة عند قاعدتها. قلبها في كفّه. «خذي، احتفظي

بها. أنتِ فتاة الصدف».

«شكرًا». وضعتها في جيبها.

عزف المزيد من الأغاني، خاتمًا بهجمةٍ فوضويةٍ لأغنية «ديكسي»، ثم عادا إلى سلة القش المجدولة، وجلسا على الملاءة المكسوة بالمربعات يأكلان الدجاج المقلي البارد، ولحم الخنزير المقدد بالملح مع البسكوت، وسلطة البطاطا، ومخلل الشمّر الحلو، وشرائح من الحلوى بأربع طبقاتٍ مع طبقةٍ من الكريمة بسماكة نصف بوصة. كان الطعام كله مطهوًا في المنزل، وملفوفًا بورق الزبدة. فتح قارورتين من رويال كراون كولا وسكبهما في كأسي ديكسي - أول مشروبٍ غازيٍ لها في حياتها - كان الكرم في العرض غير معقولٍ بالنسبة لها، مع مناديل القماش المرتبة بشكلٍ منظّم، وصحون البلاستيك والشُوَك. حتى مرشّات الملح والبهار الصغيرة. جال في خاطرها أن أمه جهزتها، جاهلةً أنه يقابل فتاة السبّخة.

تكلما بلطفٍ عن شؤون البحر - طيور اللقلق المنزلقة وطيور زمار الرمل القافزة- دون تلامس، ومع القليل من الضحك. أحنى رأسه واقترب منها، حين أشارت كيا إلى خط منعرج من طيور اللقلق، فاحتكّ كتفيهما قليلاً. نظرت إليه، فرفع ذقنها بيده وقبّلها. لمس رقبتها بخفة، ثم زحفت

أنامله إلى قميصها نحو ثدييها. قبلها وهو يحضنها، بثباتٍ أكثر، استلقى إلى الخلف إلى أن أصبحا متمددين على الملاءة. تحرّك ببطءٍ حتى علاها، دافعًا وسطه بين ساقيها، ورفع قميصها بحركةٍ سريعة. دفعت برأسها بعيدًا عنه، وتملصت من تحته، وقد توهجت عيناها الأكثر سوادًا من الليل، وأنزلت قميصها.

«اهدئي، اهدئي. لا بأس».

استلقت هناك - بشعرها المنثور على الرمل، ووجهها المتورد، وفمُها الأحمر المفتوح - مذهلةً. مد يده، بعنايةٍ، ليلمس وجهها، قفزت بعيدًا كالقطة ووقفت.

تسارع نفس كيا. اعتقدت، في الليلة الماضية، وحين رقصت وحيدةً على شاطئ البركة، وتأرجحت مع القمر وذبابات الربيع، أنها جاهزةٌ. اعتقدت أنها تعرف كل شيء عن المعاشرة من مراقبة اليمامات. لم يخبرها أحدٌ قبلاً عن الجنس، وكانت خبرتها الوحيدة في هذا الأمر مع تايت. ولكنها كانت تعرف التفاصيل من كتابها عن علم الأحياء، ورأت الكثير من المخلوقات تتعاشر، ولم يقتصر الأمر على «حك البطون ببعضها» كما قال جودي.

و لكن هذا كان مفاجئًا جدًّا، نزهةٌ، ثم تعاشر فتاة السبّخة. حتى الطيور الذكور تتودّد للإناث لفترة، فتعرض ريشات لامعة، وتبني أعشاشًا، وتؤدي رقصاتٍ رائعةً وأغاني حب. نعم، قدم تشايس وليمةً، ولكنها كانت تستحق أكثر من الدجاج المقلي. ولا تحتسب «ديكسي» كأغنية حب. كان عليها أن تدرك أن الأمور ستجري على هذا النحو. لا يحوم الذكور حولها إلا حين تكون في فترة التزاوج.

كبر الصمت وهما يحدقان ببعضهما البعض، ولم يقطعه سوى صوت أنفاسهما والأمواج في الخلف. استقام تشايس في جلسته ومد يده ليلمس ذراعها، ولكنها أبعدتها.

قال وهو يقف: «أنا آسف. لا بأس». كان قد أتى بنية معاشرتها، في الواقع، ليكون الأول، لكن رؤية هاتين العينين الناريتين أسرته.

حاول ثانيةً. «هيا كيا. قلت أني آسف. فلننسَ الموضوع. سأعيدك إلى قاربك».

استدارت، حينها، وسارت عبر الرمل باتجاه الغابة. وجسدها الطويل يتمايل.

«ماذا تفعلين؟ لا تستطيعين العودة من هنا. تبعدين أميالاً».

ولكنها كانت قد وصلت إلى الأشجار، واتبعت خطًا مستقيمًا كتحليق الغراب، المنطقة الداخلية أولًا، ثم عبر شبه الجزيرة، باتجاه القارب. كانت المنطقة جديدةً بالنسبة لها، ولكن الطيور السوداء أرشدتها عبر سبّخة الأرض الداخلية. لم تبطئها البقع المائية ولا الأخاديد، خاضت الجداول، وقفزت فوق جذوع الأشجار.

جثت على ركبتيها أخيرًا. شتمت بكلماتٍ بالية. لا تذرف الدمع حين تشتم. لكن الخجل الملتهب، والحزن الحاد، كانا عصيين على العلاج. جذبتها إليه أمنيةٌ بسيطة أن تكون مع أحدٍ ما، وأن تكون مرغوبةً بحق، وأن تُلْمس. لكن هتان اليدان المتلمستان جسدتا «الأخذ، لا المشاركة ولا العطاء».

أنصتت لتسمع إن كان قادمًا خلفها، لم تكن متأكدة ما إذا كانت تريده أن يخترق الشجيرات ويمسكها، ويرجوها أن تسامحه، أم لا. غضبت ثانيةً لذلك. ثم وقفت وسارت، مرهقةً، إلى قاربها.

24
برج النار

1965

تراكمت السّحب الرعدية في الأفق حين أبحرت كيا في البحر بعد ظهر ذلك اليوم. لم ترَ تشايس منذ نزهة الشاطئ، أي منذ عشرة أيام، ولكنها شعرت بجسده العضلي يمسمر جسدها فوق الرمل.

لم يكن ثمة قواربٌ غير قاربها حين اتجهت نحو مدخلٍ صغيرٍ إلى الجنوب من «بوينت بيتش»، رأت مرّةً فراشاتٍ غير عادية، بيضاء قوية وكأنها برصاء. خففت السرعة، على بعد أربعين ياردة، حين رأت أصدقاء تشايس يرفعون سلّال النزهة والمناشف الفاقعة الألوان إلى قواربهم. حولت كيا اتجاهها لتسرع بعيدًا ولكنها، تحت جذبٍ شديد، عكست اتجاهها وبحثت عنه. كانت تدرك لاعقلانية هذا التوق. لن ينجز

التصرّف غير المنطقي في ملء الفراغ شيئًا. بكم تبادل لتهزم العزلة؟

رأته، حيث قبلها، يمشي حاملاً قصبات الصيد إلى قاربه. سارت خلفه فتاة اللؤلؤ حاملة صندوق التبريد. أدار تشايس رأسه فجأة، ونظر إليها مباشرةً وهي تستدير بقاربها. لم تبتعد بل حدّقت به. انتصر الخجل كالمعتاد، فكسرت الاتصال البصري، وأبحرت بعيدًا، متوجهة إلى جونٍ صغير ضحل المياه. كانت ستنتظر إلى أن تغادر فرقتهم البحرية الصغيرة قبل العودة إلى الشاطئ.

أبحرت عائدةً إلى البحر، بعد عشر دقائق، فرأت تشايس وحده في القارب، يصارع الأمواج منتظرًا.

نما التوق القديم. كان لا يزال مهتمًّا بها. أساء التصرف في النزهة، فعلًا، ولكنه توقف حين أبعدته عنها. اعتذر. قد تمنحه فرصة أخرى.

لوح لها ونادى: «مرحبًا كيا».

لم تقترب منه ولكنها لم تبتعد أيضًا. أبحر قريبًا منها.

«كيا أنا آسف بشأن ذلك اليوم. أتسمعين؟ هيا، أريد أن أريك برج النار».

لم تقل شيئًا، وهي تنساب باتجاهه عرفت أن ذلك ضعف.

«ما لم تكوني قد تسلقتِ البرج من قبل، فهي طريقةٌ رائعةٌ لرؤية السبّخة. اتبعيني».

زادت من سرعتها متجهةً إلى قاربه. تفحصت البحر لتتأكد أن أصدقاءه كلهم بعيدون عن النظر.

وجهها إلى الشمال متجاوزًا «باركلي كوف» - القرية هادئةٌ وملوّنةٌ من بعيد - ووصلا إلى شاطئ خليج صغيرٍ مدفونٍ في غابةٍ عميقة. ربطا القوارب، وقادها عبر مسارٍ مزروعٍ بكثافة بالآس العطري، وشجيرات الفلفل. لم تأتِ إلى هذه الغابة المائية المليئة بالجذور من قبل، لأنها تقع في الجهة الثانية من القرية، وهي قريبةٌ من الناس. جرت قنواتٌ صغيرةٌ جدًا من الماء الراكد تحت الأشجار وهما يمشيان، تذكيرٌ خفيٌ بأن البحر يملك هذه الأرض.

ثم وصلا إلى مستنقعٍ حقيقيٍ استقر عميقًا برائحة أرضه المنخفضة، ورائحة هوائه النتنة. كان فجائيًا، وذكيًا، وصامتًا أبدًا، وامتد إلى داخل الغابة المتراجعة المظلمة.

رأت كيا منصة برج النار المهجور الخشبية، بلونها المتآكل، فوق القبة. وصلا، بعد دقائقٍ، إلى قاعدته بأعمدتها المتباعدة، والمصنوعة من أوتادٍ مقطعةٍ بطريقةٍ بدائية. رشح الوحل الأسود حول القواعد وتحت البرج، وشق العفن الرطب طريقه إلى العوارض. انحنت الدرجات في الأعلى، وضاق المبنى مع كل طبقة.

بدآ الصعود بعد عبور البقعة الطينية، وتقدمها تشايس. شاهدا غابات السنديان المستديرة المنخفضة لجهة الغرب، عند اللفة الخامسة، تقبع على مد النظر. أحاطت الأقنية، والبرك، والجداول، والأنهار الجارية عبر الأعشاب الخضراء اللامعة وصولًا إلى البحر، بالجهات الأخرى. لم تصل كيا إلى هذا الارتقاع فوق السبّخة من قبل. كانت كل قطع المشهد تقبع تحتها، ورأت وجه صديقها كله، للمرة الأولى.

دفع تشايس البوابة الحديدية التي تغطي بيت الدرج لدى وصولهما إلى آخر درجة. ثم أغلق البوابة ثانية بعد صعودهما إلى المنصة. اختبرت كيا صلابة المنصة قبل الصعود عليها، فطرقتها بقدمها. ضحك تشايس قائلًا: «لا بأس. لا تقلقي». قادها إلى الحاجز ونظرا إلى أرض السبّخة. مر صقران بذيلين أحمرين، تصفّر الريح عبر أجنحتهما،

على مستوى نظرهما، فرفعا رأسيهما متفاجئين لرؤيتهما شابًّا وشابةً يقفان في مجالهما الجوي.

التفت تشايس إليها وقال: «شكرًا لمجيئك كيا. شكرًا لإعطائي فرصة ثانية لأقول فيها أني آسف لما حصل في ذلك اليوم. خرجت كثيرًا عن حدود الأدب ولن يحصل ذلك ثانيةً».

لم تقل شيئًا. أراد جزءٌ منها تقبيله الآن، لتشعر بقوّته عبر جسدها.

مدّت يدها إلى جيبها وقالت: «صنعت عقدًا من الصدفة التي وجدتها. لستَ مضطرًّا لارتدائه إن لم ترغب بذلك». علّقت الصدفة على قطعةٍ من الجلد الطبيعي في الليلة السابقة، قائلة أنها ستلبسها، ولكنها كانت على علمٍ أنها، ومع الوقت، سترى تشايس وتعطيه إياها، إن حالفها الحظ. رغم أن حلم اليقظة لم يصوّرهما واقفين معًا أعلى برج النار وهما ينظران إلى العالم. قمة.

قال لها: «شكرًا لكِ كيا». نظر إلى القلادة، ثم وضعها حول عنقه ممررًا إياها حول رأسه، لمس الصدفة حين استقرّت عند حنجرته.

«بالطبع سوف ألبسها».

لم يقل شيئًا تافهًا مثل «سوف ألبسها للأبد، إلى يوم مماتي».

قال: «خذيني إلى بيتك». تخيّلت كيا الكوخ القابع تحت أشجار السّنديان، بألواحه الرمادية الملوثة بدماء السطح الصدئ، والجدران المثقوبة أكثر من سور الزريبة. مكانٌ مليءٌ بالرقع.كان كل ما قالته: «إنه بعيد».

«كيا، لا يهمني بعده ولا كيفيته. فلنذهب».

قد تضيع هذه الفرصة للقبول، إن رفضت.

«حسنًا».

نزلا من البرج، وقادها عائدين إلى الجون، وأشار لها أن تقود المسير إلى قاربها. أبحرت جنوبًا إلى متاهةٍ من الأنهار وأحنت رأسها حين دخلت قناتها، المغطاة بالخضرة. كان قاربه أكبر من أن يبحر داخل الأدغال، وأكثر زرقةً وبياضًا مما يحتمل الممر الضيق، لكنه عبر وقد احتكت الأشجار بهيكل قاربه.

انعكست التفاصيل الدقيقة للأغصان المغطاة بالطحالب والأوراق اللامعة في الماء الصافي الداكن، حين بدا هورها أمامهما. ارتفعت حشرات اليعسوب وطيور البلشون الثلجي قليلاً لدى مرور قاربه الغريب عليها، ثم عادت إلى مواقعها بأجنحةٍ صامتة. ربطت كيا قاربها فيما توجه تشايس بقاربه نحو الشاطئ. وقف طائر مالك الحزين الأزرق العظيم وقد تقبل الحياة الأقل توحّشًا، ثابتًا على بعد أقدامٍ عنهما.

تدلى غسيلها من الأثواب الباهتة والتيشرتات من الحبل، كان الفجل قد انتشر في الأرض حتى لم يعد من السهل معرفة أين تنتهي الحديقة وأين تبدأ الغابة.

نظر إلى باب الشبك المرقع وسألها: «لكم من الوقت عشتِ هنا لوحدك؟».

«لا أعرف بالتحديد متى غادر والدي. ولكن منذ حوالي العشر سنوات كما أعتقد».

«شيء جميل. العيش هنا دون أهلٍ يملون عليك ماذا تفعلين».

اقتصرت ردة فعل كيا على القول: «ليس هناك ما تراه في

الداخل». ولكنه كان قد بدأ بالصعود على الدرج المصنوع من ألواح الخشب والإسمنت. كان أول ما رآه مجموعتها المصفوفة على الرفوف المصنوعة يدويًّا. مجموعةٌ منسقةٌ للحياة المتلألئة خلف الشبك.

سألها: «هل صنعت هذا كله؟».

«نعم».

نظر إلى بعض الفراشات ولكنه سرعان ما تجاهلها. فكّر، «لماذا تحتفظ بأشياء تستطيع رؤيتها خارج بابها مباشرةً؟».

كان فراشها على أرض الشرفة مغطىً بمفرشٍ بالٍ كمنشفة استحمامٍ قديمة. ولكنه كان مرتبًا. خطوات قليلة وكانا في غرفة الجلوس الصغيرة، بأريكتها المتهدلة، ثم استرق النظر إلى الخلف إلى غرفة النوم، حيث تدلت ريشاتٌ من كل لونٍ، وشكلٍ، وحجمٍ، من الجدران.

أشارت له أن يدخل إلى المطبخ، فتساءل ماذا قد تقدم له. من المؤكد أنها لا تملك كوكا كولا أو شايًا مثلجًا، أو كعكًا أو بسكوتًا. قبعت بقايا خبز الذرة على سطح المدفأة بالقرب من مقلاةٍ حَوت الفاصولياء، مقشرةً وجاهزةً لتسلق للعشاء. لا شيء مناسب للضيف.

حشرت بعض قطع الحطب في بيت النار، بحكم العادة. حركتها بقضيب النار؛ فقفز اللهيب سريعًا.

«انتهينا». قالت ذلك وهي مولية ظهرها له، شغلت المضخة اليدوية وملأت الدلة المبعوجة - صورةٌ من عشرينات القرن الماضي تظهر في الستينات منه - لا ماء عبر الأنابيب، لا كهرباء، لا حمام. قبع مغطس الاستحمام المصنوع من الصفيح، بحافته الملتوية الصدئة، في زاوية المطبخ، فيما حوت خزانةٌ بقايا مغطاةً بعنايةٍ بمنشفة الشاي، وفغرت الثلاجة المحدودبة فاها الذي برز منه مضرب الذباب. لم يرَ تشايس شيئًا كهذا من قبل.

شغل المضخة، وراقب الماء يخرج إلى حوض البورسلين المستخدم كمجلى. لمّس الحطب الموضّب بعناية قرب المدفأة. أتت الأنوار الوحيدة من مصابيح الكاز، التي تصاعد دخانها الرمادي.

كان تشايس أول ضيفٌ منذ تايت، والذي بدا طبيعيًّا متقبلًا كمخلوقات السبّخة الأخرى. شعرت بأنها مكشوفةٌ مع تشايس، وكأن أحدهم كان يشرّحها كما تشرّح السمكة. فار العار في أعماقها. أولته ظهرها، ولكنها شعرت به يتجول في أرجاء الغرفة، يتبعه صرير الأرضية

المألوف. ثم وقف خلفها، وأدارها نحوه بلطف، وغمرها بضمة خفيفة. وضع شفتيه على شعرها فشعرت بنفسه بالقرب من أذنها.

«كيا، لا أعرف أحدًا يستطيع الحياة هنا بهذه الطريقة. كان معظم الأطفال، حتى الشبّان ليخافون من ذلك».

ظنت أنه سيقبلها، ولكنه أنزل ذراعيه وسار إلى الطاولة.

سألته: «ماذا تريد مني؟ قل لي الحقيقة».

«حسنًا، لن أكذب. أنتِ مثيرةٌ، وحرةٌ، ومتوحشةٌ كريحٍ خطرة. أردت التقرب منك، ذلك اليوم، قدر المستطاع. من قد لا يفعل؟ ولكنه لم يكن تصرفًا صحيحًا. لم يكن عليَّ أن أفرض نفسي عليك بهذه الطريقة. أريد أن أكون معك فحسب، أيناسبك ذلك؟ أن نتعرف على بعضنا البعض».

«ثم ماذا؟».

«سنكتشف كيف نشعر فحسب. لن أقوم بشيءٍ إلّا إذا أردتِ أن أقوم به. أيناسبكِ ذلك؟».

«هذا جيد».

«قلتِ أنه لديك شاطئ. فلنذهب إلى الشاطئ».

فرمت قطعًا من بقايا خبز الذرة للنوارس وسارت أمامه على المسار حتى أشرفا على الرمل اللامع والبحر. أطلقت صرختها الناعمة، فظهرت النوارس وحلقت فوقها وحول كتفيها. هبط الذكر الكبير، «الأحمر الكبير» على الأرض وسار جيئةً وذهابًا عند قدميها.

وقف تشايس، بعيدًا بعض الشيء، وراقبها تغيب داخل الطيور المحومة. لم يكن قد خطط للشعور بشيءٍ نحو هذه الفتاة الغريبة المتوحشة الحافية، ولكن رؤيتها تدور على الرمل، والطيور بمتناول يدها، سحره. سحره جمالها كما سحره اعتمادها على ذاتها. لم يعرف قط أحدًا مثل كيا؛ تحرك الفضول، والرغبة، بداخله. سألها، حين عادت إليه إن كان يستطيع القدوم في اليوم التالي، ووعدها أنه حتى لن يمسك بيدها، وأنه يريد أن يكون بقربها فحسب. أومأت ببساطة. أول أملٍ في قلبها منذ مغادرة تايت.

25
زيارة من باتي لوف

1969

سُمعت نقرةٌ خفيفةٌ على باب مكتب الشريف. رفع جو وإد رأسيهما فرأيا باتي لوف أندريوز، والدة تشايس، غير واضحة المعالم خلف زجاج الباب المبرغل، لكنهما عرفاها رغم ذلك، بفستانها وقبعتها السوداوين. كان شعرها البني، الذي بدأ الشيب يخط فيه، مربوطًا في عقدةٍ خلف رأسها. وضعت أحمر شفاهٍ باللون المناسب.

وقف الرجلان، وفتح إد الباب: «مرحبًا باتي لوف، تفضلي بالدخول. أجلسي. هل أقدم لك بعض القهوة؟».نظرت إلى الأكواب نصف الممتلئة، وقد ساحت قطراتٌ منها عند الحافة. «كلا، شكرًا، أد». جلست على كرسيّ سحبها لها جو. «هل لديك أية أخبارٍ حتى الآن؟ أية

معلوماتٍ منذ تقرير المختبر؟». «كلا، كلا، ليس لدينا. نحن نراجع كل شيءٍ بفرشاة أسنانٍ ناعمة، ستكونين، أنت وسام، أول من يعرف إن حصلنا على أي شيء جديد».

«ولكنه لم يكن حادثًا، إد، أليس كذلك؟ أعلم أنه ليس حادثًا. لم يكن تشايس ليقع من البرج لوحده. أنت تعرف أنه كان رياضيًا، وذكيًا».

«اتفقنا على أن هناك دليلٌ كافٍ للشك في أن شيئًا ما ليس على ما يرام. ولكنه تحقيقٌ مستمرٌّ ولا شيء محدد بعد. قلتِ أنه لديك ما تدلين به لنا؟».

«نعم، وأعتقد انه مهم». حوّلت باتي لوف نظرها من إد إلى جو ثم عادت إلى إد. «كان هناك عقدٌ من الصدف يرتديه تشايس دائمًا. امتلكه لسنوات. أعلم أنه كان يرتديه في الليلة التي ذهب فيها إلى البرج. استضفناه، أنا وسام على الغداء، وأذكر أني أخبرتك بذلك - لم تستطع بيرل أن تأتي؛ كانت تلعب البريدج ليلتها - وكان يرتدي العقد مباشرةً قبل ذهابه إلى البرج. وثم بعد أن... حسنًا، حين رأيناه في العيادة، لم يكن يرتدي العقد. اعتقدت أن الطبيب الشرعي قد انتزعه عنه، فلم أذكره في ذلك الوقت، ونسيت أمره خلال الجنازة، وما تلاها. قدت

سيارتي، في اليوم التالي، إلى سي أوكس وسألت الطبيب الشرعي إن كنت أستطيع رؤية أغراض تشايس، أشياءه الخاصة، كما تعلم، والتي احتفظوا بها لأغراض المختبر، لأني أردت الإمساك بها، لأشعر به وبما ارتدى في ليلته الأخيرة. سمحوا لي بالجلوس إلى طاولةٍ والبحث في أشيائه، ولم يكن عقد الصدف بينها أيها الشريف. سألت الطبيب الشرعي إذا كان قد انتزعه، وقال أنه لم يفعل. قال أنه لم يرَ عقدًا على الإطلاق».

قال إد: «هذا غريبٌ جدًّا. بماذا كان معلّقًا؟ قد يكون سقط حين وقع».

«كان صدفةً واحدةً معلقةً على قطعة جلدٍ طبيعيٍ طويلاً بما فيه الكفاية ليدخل من فوق رأسه. لم يكن مرخيًا وكان مربوطًا بعقدة. لا أفهم كيف يمكن أن يسقط».

«أوافقك. الجلد الطبيعي متين وعقده تدوم». قال إد: «لماذا كان يرتديه كل الوقت؟ هل صنعه له شخصٌ مميزٌ وأعطاه إياه؟».جلست باتي لوف صامتةً، تنظر إلى طرف طاولة الشريف. خشيت البوح بالمزيد لأنها لم تكن لتعترف بأن ابنها تورّط مع قمامة السبّخة. كانت هناك شائعاتٌ، بالطبع، أن شيئًا ما يجري بين تشايس وفتاة السبّخة قبل

زواجه بأكثر من سنة. ولكن باتي لوف ارتابت بالأمر فيما بعد، لكنها لطالما نفت الأمر حين سألها أصدقاؤها عنه. ولكن الوضع مختلفٌ الآن. عليها أن تبوح بكل شيءٍ لأنها علمت للتو أن لهذه الساقطة علاقة بموته.

«نعم أعرف من صنع العقد لتشايس. إنها تلك المرأة التي تبحر في الأرجاء في ذلك القارب الخردة القديم. صنعته وأعطته إياه حين كانا يريان بعضهما لفترة من الوقت».

سأل الشريف: «أتقصدين فتاة السبّخة؟».

قال جو: «هل رأيتها مؤخرًا؟ لم تعد فتاةً صغيرةً، فهي في منتصف العشرينات من عمرها وامرأةٌ جذابة».

سأل إد: «هل الفتاة من آل كلارك؟ أحاول أن أكون واضحًا فحسب». قطب حاجبيه.

قالت باتي لوف: «لا أعرف اسمها، أو حتى إن كان لها اسم. يدعوها الناس فتاة السبخة كما تعلم. وهي باعت المحار، كما تعلم، للقافز لسنوات».

«صحيح. إننا نتحدث عن نفس الشخص. أكملي».

«حسنًا، صدمت حين قال الطبيب الشرعي أن تشايس لم يكن يضع العقد. ومن ثم خطر لي أنها الشخص الوحيد الذي قد يكون مهتمًّا بأخذه. أنهى تشايس العلاقة بينهما وتزوج بيرل. لم تكن لتحصل عليه، فقتلته وأخذت العقد من رقبته».

ارتعدت باتي لوف قليلاً ثم التقطت أنفاسها.

«أرى ذلك. حسنًا، هذا مهمٌ للغاية، باتي لوف، ويستحق الملاحقة. ولكن علينا ألّا نستبق الأمور». قال إد ذلك وأضاف: «هل أنت متأكدة أنها من أعطاه إياه؟».

«أجل، أنا متأكدة لأن تشايس لم يشأ إخباري أولًا، ولكنه فعل أخيرًا».

«هل تعلمين أي شيءٍ آخر عن العقد أو عن علاقتهما؟».

«ليس الكثير. لا أعرف على وجه التحديد كم بقيا مع بعضهما البعض. قد لا يعلم أحد. كان متسترًّا جدًّا على هذا الموضوع. كما قلت لك، لم يخبرني لشهور. ولم أعلم أبدًا، لم أعد أميز، بعد أن أخبرني، إن كان يخرج بالقارب مع أصدقائه أم معها».

«حسنًا، سوف ننظر في الموضوع. أعدك بذلك».

«شكرًا لك. أنا متأكدةٌ أنه دليل». وقفت لتغادر، ففتح إد الباب لها.

«عودي إلى هنا في أي وقت أردتِ الحديث، باتي لوف».

«إلى اللقاء، إد، جو».

جلس إد ثانية، بعد إغلاق الباب، وسأل جو: «حسنًا، ماذا تعتقد؟».

«إن كان هناك من انتزع العقد من تشايس عند البرج، فذلك يضعهم في مسرح الجريمة على أقل تقدير، أعتقد أن أحدًا ما من السبّخة متورّطٌ في هذه القضية. لديهم قوانينهم الخاصة. ولكنني لا أعرف إن كان باستطاعة امرأةٍ أن تدفع شابًّا ضخمًا مثل تشايس عبر تلك الفتحة».

قال جو: «قد تكون أغرته بالصعود إلى هناك، وفتحت الفتحة قبل أن يصلا هناك، ودفعته، حين تقدم نحوها في الظلام، عبر الفتحة حتى قبل أن يراها».

قال الشريف: «يبدو التحليل معقولاً. ليس سهلاً بل معقولاً. ليس خيطًا مهما. فقدان عقد من الصدف».

«إنه دليلنا الوحيد حاليًا. ما عدا غياب البصمات وبعض الألياف الحمراء الغامضة».

«هذا صحيح».

قال جو: «ولكن ما لا أستطيع فهمه هو لماذا تتعب نفسها بأخذ العقد منه؟ حسنًا، قد تكون مصممةً على قتله لإساءته إليها، هذا دافعٌ ولكن لماذا تأخذ العقد وقد يربطها ذلك بشكل مؤكد بالجريمة؟». «أنت تعلم كيف هي الأمور. يبدو أن هناك شيئًا غير منطقيٍ في كل قضية جريمة. يخطئ الناس. وقد تكون تفاجأت بأنه لا يزال يرتدي العقد، واستشاطت غضبًا، وبدا لها، بعد ارتكاب الجريمة، أن نزع العقد من عنقه ليس بالأمر المهم. ما كانت لتعلم أن أحدًا قد يربط العقد بها. قال لك مصدرك أنه كان لتشايس أمرٌ ما هناك. ربما، كما قلتَ قبلاً، لم يكن الموضوع مرتبطًا بالمخدرات، بل بالمرأة. بهذه المرأة».

قال جو: «نوع آخر من المخدرات».

«كما أن أهل السبّخة يتقنون إخفاء الآثار لأنهم يصطادون، ويتتبعون، وينصبون الأفخاخ، وأشياء من هذا القبيل. حسنًا، لن يضرنا إن ذهبنا إلى هناك وتحدثنا معها قليلًا. نسألها أين كانت في تلك الليلة. نسألها عن العقد ونرى إن كان السؤال سيهزها قليلاً».

سأل جو: «هل تعرف كيف تصل إلى مكانها؟».

«لست متأكدًا إن ذهبت بالقارب، ولكني أعتقد أني أستطيع إيجادها بالشاحنة. في آخر الطريق المفتوح على الريح والذي يؤدي إلى سلسلةٍ من البرك. كان علي أن أصل لبيتهم، في ما مضى، لأرى والدها عدة مرات. مثال سيء عن الناس، ذاك الرجل».

«متى سنذهب؟».

«عند أول خيطٍ للصباح، سنرى إن كنا نستطيع الوصول إلى هناك قبل مغادرتها. غدًا. ولكن من الأفضل أولًا، أن نذهب إلى البرج ونبحث بتمعّنٍ عن ذلك العقد. ربما كان لا يزال هناك».

«لا أعلم كيف. مشّطنا المكان كله بحثًا عن آثارٍ، وخطواتٍ، وأدلة».

«علينا أن نفعل هذا رغم ذلك. فلنذهب».

أعلنا لاحقًا، وبعد أن مشّطا المنطقة في المياه الآسنة تحت البرج بالمجارف والأنامل، أنه لا يوجد عقد صدفٍ في المكان.

انساب ضوءٌ باهتٌ تحت فجرٍ منخفضٍ وثقيلٍ فيما قاد إد وجو السيارة باتجاه السبّخة، آملين أن يصلا إلى مكان فتاة السبّخة قبل أن تبحر بالقارب إلى مكان ما. أخذا العديد من المنعطفات الخاطئة وانتهى بهما المطاف إلى نهايات طرقٍ مغلقةٍ أو سقطا ببعض الحفر العميقة. صرخ أحدهم، عند إحدى الحفر، «الشريف». وجرت أجسادٌ شبه عاريةٍ في كل الاتجاهات، منسابةٌ عبر شجيرات توت العلّيق. قال الشريف: «تبًّا للأغبياء على الأقل أبقى بائعو الخمر ثيابهم على أجسادهم».

وصلا، أخيرًا، إلى المسار المؤدي إلى كوخ كيا. قال إد: «هذا هو».

استدار بشاحنته الكبيرة إلى الطريق وقاد بهدوءٍ نحو المسكن، متوقفًا على مسافة خمسين قدمًا من الباب. خرج الاثنان بصمت. طرق إد على الإطار الخشبي للباب الخارجي. «مرحبًا! هل من أحد في البيت؟». تبعه الصمت، فحاول ثانيةً. انتظرا من دقيقتين إلى ثلاث.

«فلنلقي نظرةً في الخلف لنرى إن كان قاربها هناك».

«كلا. يبدو أن ذاك الجذع هو حيث تربط قاربها. لقد ذهبت. تبًّا لذلك».

«نعم. سمعتنا قادمين. أغلب الظن أنها تستطيع سماع غطيط أرنب نائم».

ذهبا، لاحقًا، قبل الفجر، وأوقفا السيارة بعيدًا عن المنزل، فوجدا قاربها مربوطًا إلى الجذع لكن أحدًا لم يجب على طرق الباب.

همس جو: «لدي إحساسٌ أنها هنا وتراقبنا. ألا تشعر بذلك؟ إنها رابضةٌ هنا بين أشجار النخيل اللعينة تلك. وهي قريبةٌ جدًا. أعلم ذلك». أدار رأسه وعيناه تتفحّصان شجيرات العلّيق.

«حسنًا، هذا لن ينفع. إن وجدنا شيئًا آخر فبإمكاننا الحصول على مذكرة تفتيش. فلنغادر هذا المكان».

26
القارب على الشاطئ

1965

كان تشايس يأتي لزيارة كيا، في الأسبوع الأول لارتباطهما، يوميًا بعد الانتهاء من عمله في «ويسترن أوتو»، واستكشفا أقنيةً بعيدةً اصطفّت أشجار السنديان على ضفافها. أخذها في رحلة استكشافية، صباح يوم السّبت، بعيدًا إلى الشاطئ، إلى مكان لم تره من قبل لأنه بعيدٌ جدًّا بالنسبة لقاربها الصغير. تدفق هناك - بدلاً من الأنهار والمسطحات العشبية الكبيرة في سبختها - الماء الصافي إلى أبعد ما يمكنها رؤيته عبر غابة سروٍ مفتوحة. وقفت طيور مالك الحزين البيضاء الناصعة، وطيور اللقلق بين زهور ليلك الماء والنباتات العائمة التي بدت كأنها تتوهج بخضارها الكثيف. جلسا على جذوع أشجار كأنهما على مقاعد، وتناولا شطائر جبنة البيمنتو وشرائح البطاطس، وابتسما كلما مرّت الأوزات

تحت أقدامهما.

اعتبر تشايس السبّخة، كمعظم الناس، كشيءٍ للاستغلال، وللإبحار بالقارب ولصيد السمك، أو لتجفيف الأرض لغرض الزراعة، فأدهشته معرفة كيا بمخلوقاتها، وتياراتها، وأعشابها المائية. ولكنه سخر من لمستها الناعمة، وإبحارها بسرعةٍ منخفضة، والإبحار بصمتٍ بالقرب من الغزلان، والهمس بالقرب من أعشاش الطيور. لم يكن لديه أي اهتمام بمعرفة الأصداف والريشات، وكان ينظر إليها بتساؤل حين كانت تدوّن ملاحظات في مذكراتها اليومية أو تجمع عيّنات.

سألها مرة حين كانا في مطبخها: «لماذا ترسمين الأعشاب؟».

«أنا أرسم أزهارها».

ضحك: «ليس للعشب أزهار».

«بالطبع لها أزهار. انظر إلى هذه البراعم. إنها صغيرةٌ، ولكنها جميلة. كل فصيلةٍ من العشب لها أزهارٌ مختلفةٌ وإزهرار مختلف».

«ماذا ستفعلين بكل هذه الأشياء على أية حال؟».

«أنا أحفظ مدوّناتٍ لأتعلم عن السبّخة».

قال لها: «كل ما تحتاجين إلى معرفته هو متى موسم صيد السمك وأين، وأستطيع أن أخبرك بذلك».

ضحكت لأجله، وهو شيء لم تفعله لأحدٍ من قبل. ضحّت بقطعة أخرى من ذاتها لتحصل على أحدٍ آخر.

أبحرت كيا، بعد ظهر ذلك اليوم، وبعد مغادرة تشايس، إلى السبّخة بمفردها. ولكنها لم تشعر أنها وحيدة. رفعت سرعتها أكثر من المعتاد بقليل، وشعرها يتطاير مع الريح، وقد ارتسمت بسمةٌ صغيرةٌ على ثغرها. رفعها مجرد معرفة أنها قد تراه ثانيةً قريبًا، وأنها متواجدةٌ مع أحدٍ، إلى مكانٍ جديد.

ثم رأت تايت أمامها مباشرة، بعد الالتفاف حول بقعة من الأعشاب الطويلة. كان بعيدًا عنها، ربما أربعين ياردة، وما كان ليسمع قاربها. أوقفت الخناق، في تلك اللحظة، وأطفأت المحرّك. جذّفت بالمجذاف عائدةً إلى الأعشاب.

همست لنفسها: «أعتقد أنه قادم من الجامعة إلى البيت». كانت قد رأته عدة مراتٍ على مر السنوات، ولكن ليس من هذه المسافة

القريبة. وها هو أمامها، يتطاير شعره غير المرتب مع قبعةٍ حمراء أخرى. وجه ملوحٌّ بالشمس.

انتعل تايت جزمةً عالية السّاق ومشى بصعوبةٍ عبر بركةٍ، جامعًا عيّناتٍ من الماء في عبواتٍ صغيرة. ليست مرطبانات جيلي قديمة كما حين كانا طفلين حافيين، ولكنها أنابيبٌ صغيرةٌ معلقةٌ بأدوات حملٍ خاصة. احترافية. خارج نطاقها.

لم تجذّف مبتعدةً، ولكنها راقبته لفترةٍ، معتقدةً أن كل فتاةٍ قد تتذكر حبّها الأول. زفرت طويلاً، ثم جذّفت عائدة من حيث أتت.

وفي اليوم التالي، وفيما كان تشايس وكيا يبحران شمالاً على طول الشاطئ، تحركت أربعة دلافين باتجاههما ولحقت بهما. كانت السماء رمادية، وقد عبثت أنامل الضباب بالأمواج. أطفأ تشايس المحرك، وحين انحرف القارب، أخرج آلة الهارمونيكا خاصته وعزف الأغنية القديمة «أبحر مايكل بالقارب إلى الشاطئ». لحنٌ حزينٌ غناه العبيد في ستينات القرن الثامن عشر حين كانوا يجذفون بقواربهم إلى البر من «سي آيلاندز» إلى جنوب كارولاينا. كانت أمها تغنّيها وهي تحفّ الغسيل، وتذكرت كيا معظم الكلمات. اقتربت الدلافين، وكأنها ملهمةٌ بالموسيقى،

ودارت حول القارب، وكانت عيونها الثاقبة مثبّتةً على عيني كيا. ثم، أسرع اثنان منهما إلى هيكل القارب، فانحنت حتى أصبح وجهها على بعد بوصاتٍ فقط من وجهيهما، وغنت بنعومة:

«أختي، ساعديني لأوجه ذلك القارب، فليتمجد الله

أخي، مدّ يد المساعدة، فليتمجد الله.

والدي ذهب إلى أرضٍ مجهولة، فليتمجد الله.

مايكل، جذّف بالقارب إلى الشاطئ، فليتمجد الله.

نهر الأردن عميق وواسع،

لاقِ أمي على الجانب الآخر، فليتمجد الله.

نهر الأردن قارس وبارد،

يقرس الجسد لا الروح، فليتمجد الله».

حدّقت الدلافين في كيا لثوانٍ إضافيةٍ، ثم سبحت عائدة إلى البحر.

أمضى تشايس وكيا، في الأسابيع القليلة اللاحقة، الأمسيات متسكعين مع النوارس على شاطئها، ومستلقين على الرمل الذي كان لا يزال دافئًا من الشمس. لم يأخذها تشايس إلى البلدة لحضور معرض الصور، ولا إلى حفلة الرقص بالجوارب؛ كانا وحدهما، والسبّخة، والبحر، والسماء. لم يقبلها، أمسك بيدها فحسب أو وضع ذراعه بلطف حول كتفيها في الطقس البارد.

بقي، ذات ليلةٍ، لوقتٍ متأخر في الليل، فجلسا على الشاطئ تحت النجوم بالقرب من نارٍ صغيرة، وقد تلاصق كتفاهما، ولفتهما بطانيةٌ من الصوف. رمى اللهيب ضوءًا على وجهيهما وعتمًا على الشاطئ خلفهما، كما تفعل نار المخيم. نظر إلى عينيها وسألها: «أتسمحين لي أن أقبلكِ الآن؟». أومأت، فانحنى وقبّلها بلطفٍ أولاً، ثمّ كرجل.

استلقيا على البطانية والتصقت به قدر المستطاع. أحست بجسده القوي. أمسكها بإحكام بذراعيه الاثنتين، ولكنه لمس كتفيها فحسب بيديه. لا أكثر. تنفست بعمق، تنفست الدفء، ورائحته ورائحة البحر، والترابط.

بعد بضعة أيامٍ فحسب، وكان تايت لا زال في البيت قادمًا من

مدرسة التخرّج، أسرع بقاربه نحو قناة كيا في السبخة، لأول مرةٍ منذ خمس سنوات. كان لا يزال عاجزًا عن فهم لماذا لم يعد إليها قبل الآن. كان ذلك بسبب جبنه، على الأغلب، وكان يشعر بالعار. قرر أخيرًا، الذهاب إليها، وإخبارها أنه لم يتوقف يومًا عن حبها، والتوسل إليها كي تسامحه.

أقنع نفسه، خلال السنوات الأربع التي قضاها في الجامعة، أن كيا لن تستطيع أن تتكيّف مع العالم الأكاديمي الذي يتطلع إليه. حاول نسيانها؛ خلال فترة ما قبل التخرّج، عبر الجميلات في «تشابل هيل». حتى أنه حصل على القليل من العلاقات طويلة الأمد، ولكن لا شيء يستحق المقارنة. كان ما تعلّمه مباشرة بعد الجينات الوراثية، وعلم النظائر، وعلم الكائنات الأولية، هو أنه لا يستطيع التنفس بدونها. قد لا تستطيع كيا أن تعيش في عالم الجامعة الذي سعى إليه، ولكنه يستطيع أن يعيش في عالمها.

استوعب كل شيء الآن. قال أستاذه أنه يستطيع إنهاء دراسته في السنوات الثلاث القادمة لأنه أجرى أبحاثه لأطروحة الدكتوراه خلال سنوات ما قبل التخرج، وكانت قد قاربت على الانتهاء. ثم نما إلى علمه،

مؤخرًا، أن مختبر أبحاثٍ فيدراليٍ كان قيد الإنشاء بالقرب من «سي أوكس»، وأنه سيكون بمقدوره الحصول على وظيفةٍ بدوامٍ كاملٍ كعالِم أبحاث. لم يكن على الأرض من هو مؤهلٌ أكثر منه لهذه الوظيفة: فقد درس السبخة المحلية لمعظم حياته، وسيحصل على درجة الدكتوراه في سنوات قليلة. قد يستطيع العيش هنا في السبّخة، بعد سنواتٍ قليلة، والعمل في المختبر. والزواج من كيا، إن قبلت به.

اتجه قارب تايت مسرعًا، فيما كانت الأمواج تتقاذفه، باتجاه القناة. رأى قارب كيا متجهًا بسرعةٍ إلى الجنوب، متعامدًا مع قاربه. ترك مقود القارب ولوح بيديه فوق رأسه محاولًا جذب انتباهها. صرخ مناديًا باسمها. ولكنها كانت تنظر باتجاه الشرق. نظر تايت في ذلك الاتجاه فرأى قارب تشايس المكشوف مسرعًا نحوها. تراجع تايت، وشاهد كيا وتشايس وهما يدوران حول بعضهما في موجة زرقاء -رمادية، في دوائر أصغر فأصغر كنسور تتجمع في السماء. جُنّت الأمواج خلفهما ودارت في دوامة.

حدّق تايت حين اجتمعا وتلامست أناملهما فوق الماء الهائج. كان قد سمع الشائعات من بعض أصدقائه القدامى في «باركلي كوف» ولكنه

تمنى ألّا تكون صحيحة. أدرك لماذا قد تقع كيا في حب شخصٍ مثل هذا، وسيمٌ، ورومنسيٌّ بلا شك، وينزهها بقاربه الجميل. كانت لا تعرف شيئًا عن حياته في البلدة، فهو يواعد نساءً أخرياتٍ في «باركلي»، وحتى في «سي أوكس».

ثم فكر تايت، «من أنا لأقول أي شيء؟ لم أعاملها بشكل أفضل. أخلفت بوعدي لها، ولم أملك ما يكفي من الجرأة لأنهي العلاقة بها».

طأطأ رأسه، ثم استرق نظرةً ثانيةً في نفس اللحظة التي كان فيها تشايس ينحني فوقها ليقبلها. فكر: «كيا، كيا، كيف استطعت أن أتركَكِ؟». أطلق العنان لمحركه ببطءٍ وعاد إلى مرفأ البلدة ليساعد والده في توضيب الأقفاص وحمل غلة الصيد.

وجدت كيا نفسها، بعد أيام قليلة، ولجهلها بموعد وصول تشايس، تصغي لصوت محرّك قاربه مرة أخرى. تمامًا كما كانت تفعل مع تايت. وسواء أكانت تقتلع الطحالب، أو تقطع الحطب للمدفأة، أو تجمع ثمار البحر، فهي تلتفت برأسها لتتأكد من وجود الصوت فحسب. كان جودي يقول لها: «شنّفي آذانكِ».

تعبت من أوزار الأمل، وضعت مؤنة ثلاثة أيامٍ من البسكوت، ولحم الظهر البارد، والسردين في حقيبة الظهر، وذهبت إلى كوخ جذوع الشجر المتساقطة؛ «كوخ القراءة» كما كانت تشير إليها. كانت حرةً هنا، في هذا البعيد الحقيقي، أن تتجوّل كما يحلو لها، وتجمع ما تريد، وتقرأ الكلمات، وتقرأ الطبيعة. كان عدم انتظار صوت أحدٍ انعتاقًا. وقوة.

وجدت ريشاتٍ صغيرةً من عنق طائر البط ذو الحنجرة الحمراء في أجمة شجيرات السنديان، خلف الكوخ، وقهقهت عاليًا. تمنت لوقتٍ طويلٍ، كما تذكر، الحصول على هذا الريش، وها هو في متناولها.

كانت كثيرًا ما تقصد المكان للقراءة. لكنها، وبعد مغادرة تايت منذ سنوات، لم يكن لها سبيل للكتب، فأبحرت في أحد الصباحات إلى ما بعد «بوينت بيتش» وقطعت عشرة أميال أخرى إلى «سي أوكس»، وهي بلدةٌ أكبر وأفخم من «باركلي كوف» بقليل. كان القافز قد قال أن أي شخصٍ يستطيع أن يستعير الكتب من هناك. شكت في صحة هذا لسكان المستنقع، ولكنها كانت مصممةً أن تكتشف.

أرست قاربها عند رصيف البلدة وعبرت الساحة المطلة على البحر بمساراتها الثلاثة. لم ينظر إليها أحد وهي تسير باتجاه المكتبة، ولم يهمس

خلف ظهرها أحد، ولم تطرد من أمام واجهة معروضات. لم تكن هنا، فتاة السبّخة.

سلّمت السيدة هانز، أمينة المكتبة، لائحةً من الكتب الجامعية. «هل تستطيعين أن تساعدينني في إيجاد كتاب مبادئ العضوية لجليسمان، وعلم حيوانات اللا فقريات لشاطئ السبّخة لجونز، وأسس البيئة لأودوم». كانت قد رأت هذه الكتب كمراجعٍ في أواخر الكتب التي كان تايت قد أعطاها إياها قبل ذهابه إلى الجامعة.

«أوه، يا إلهي. دعيني أرى. سيتوجب علينا أن نستعير هذه الكتب من المكتبة في جامعة كارولاينا الشمالية في تشابل هيل».

جلست خارج الكوخ القديم، وأمسكت بكتاب دليل للعلوم. كان عنوان إحدى المقالات عن استراتيجيات الإنجاب «الناكحون المتسللون». ضحكت كيا.

بدأت المقالة، كما هو معروفٌ، في الطبيعة، كانت الذكور المتمتعة بخصائصٍ جنسيةٍ ثانويةٍ بارزة، كأكبر القرون، أو أعمق الأصوات، أو أعرض الصدور، أو أعلى درجات المعرفة، تسيطر على أفضل الأراضي بعد

طرد الذكور الأضعف. تختار الإناث التزاوج مع هذه الفحول المسيطرة فتضمن التلقيح بأفضل جيناتٍ وراثيةٍ تنقلها لمواليدها. كما أن الإناث تضمن الحصول على أفضل الأراضي لصغارها.

غير أن بعض الذكور القزمة لم تكن قويةً، ولا مزخرفةً، ولا ذكيةً بما فيه الكفاية لتختار أرضًا جيدة، بل كانت تمتلك مجموعةً من الحيل لتغشّ الإناث. كانت تستعرض أجسادها الأصغر في الأرجاء بحركاتٍ ساحرةٍ أو تصيح بشكلٍ متكرر، حتى بأصواتٍ صاخبة. كانت تنجح بالتزاوج من وقتٍ لآخر، بالتظاهر وإرسال الإشارات الكاذبة. كانت ذكور الضفادع الصغيرة، كما قال الكاتب، تربض مختبئةً في الأعشاب قرب ذكرٍ كبيرٍ ينق بحماسٍ عظيمٍ ليجذب الإناث للتزاوج. وحين تنجذب عدة إناثٍ معًا بفضل قدراته الصوتية العظيمة، وينشغل بنكح إحداها، يقفز الذكر الأضعف وينكح واحدة من الأخريات. كان الذكور المحتالون يدعون «الناكحون المتسللون».

تذكّرت كيا، منذ سنواتٍ مضت، حين كانت أمها تحذر أختيها الكبيرتين من الشبّان الذين كانوا يفحّطون بشاحناتهم الصدئة أو يقودون سياراتهم المهترئة في المنطقة وقد علت أصوات المذياع فيها.

كانت أمها تقول: «الشبّان العديمو الفائدة يصدرون الكثير من الضجيج».

قرأت مواساة للإناث. الطبيعة جريئةً كفايةً لتتأكد أن الذكور الذين يرسلون إشاراتٍ غير شريفةٍ، أو يتنقلون من أنثى إلى غيرها، غالبًا ما ينتهون لوحدهم.

تعمّقت مقالةٌ أخرى في المنافسات المتوحشة بين الحيوانات المنوية. يتنافس الذكور لتلقيح الإناث، في أغلب أشكال الحياة. يتقاتل الأسود الذكور في بعض الأحيان حتى الموت؛ تشبك فحول الفيلة المتنافسة أنيابها ببعضها البعض وتدمّر الأرض تحت أقدامها فيما تمزق لحم بعضها البعض. ورغم كون ذلك من الطقوس، فقد ينتهي الخلاف ببتر الأعضاء أحيانًا.

يتنافس الملقحون من بعض الفصائل، لتجنّب هذه الجراحات، بعنفٍ أقل، وبطرق خلاقةٍ أكثر. والحشرات، هي الأكثر إبداعًا. إحليل ذكر ذبابة الفتاة مجهز بمغرفةٍ لإزالة السائل المنوي للذكور المنافسة السابقة قبل التلقيح بسائله.وضعت كيا المجلة على حضنها، وقد سرح عقلها مع الغيوم. بعض إناث الحشرات تأكل أزواجها، أمهات الثديات

المتوترات تهجر صغارها، الكثير من الذكور تصمّم طرقًا خطيرةً أو مراوغة للتفوّق بسائلها المنوي على سائل منافسيها. لا شيء يبدو غير محتشمٍ ما دامت الحياة مستمرة. كانت تعلم أن هذا ليس الجانب المظلم من الطبيعة، بل طرقٌ مبدعةٌ لتحمّل الصّعاب فحسب. كان هناك المزيد في حال البشر بكل تأكيد.

بدأ تشايس يسأل إن كان يستطيع القدوم في يومٍ معيّن، وبوقتٍ محدد ليراها في كوخها أو على هذا الشاطئ أو ذاك، بعد أن غابت كيا لثلاثة أيام على التوالي، وكان يصل دائمًا على الوقت. رأت كيا قاربه، بألوانه اللمّاعة، من بعيد، يطفو على الأمواج - كالريشات الواضحة لذكور الطيور وهي تتزاوج مع جنسها - وعلمت أنه آت لأجلها فقط.

بدأت كيا تتخيله وهو يأخذها في نزهةٍ مع أصدقائه. كلهم يضحكون، ويخوضون الأمواج، ويركلون رذاذ الماء. تخيلته يحملها، ويدور بها. ثم يجلسان مع الآخرين يأكلان الشّطائر ويشربان من مبرّد الماء. بدأت صور الزواج والأطفال تتكون رويدًا رويدًا، رغم مقاومتها للفكرة. قالت لنفسها «قد تكون هذه بعض الضرورات البيولوجية التي تدفعني إلى التكاثر ولكن لِمَ لا تستطيع الحصول على من تحبهم كباقي

البشر؟ لم لا؟».

كانت الكلمات تتجمد على لسانها كلما حاولت أن تسأله متى سيعرفها على أصدقائه وأهله.

ابتعدا عن الشاطئ في يومٍ حارٍ بعد بضعة أشهر من لقائهما، فقال أنه اليوم الأفضل للسباحة قال لها: «لن أنظر، انزعي ثيابك واقفزي في الماء، ثم سأفعل أنا ذلك». وقفت أمامه، متوازنة في القارب، ولكنها حين تعرّت وانتزعت التيشيرت من فوق رأسها، لم يُشِح بنظره. مد يديه ومرّر أنامله بلطفٍ على نهديها الصلبين. لم تمنعه. قرّبها منه أكثر، وفك سحاب سروالها القصير وأسقطه بسهولة من ردفيها النحيفين. ثم تعرّى من قميصه وسرواله القصير ودفعها بلطفٍ لتستلقي على المنشفة.

ركع عند قدميها، بصمتٍ، ومرر أنامله كالهمسة على طول كاحلها الأيسر إلى داخل ركبتها، ببطءٍ وصولاً إلى داخل فخذها. رفعت جسدها باتجاه يده. كانت لمسات أنامله بطيئة عند أعلى فخذها، لمسها من فوق سروالها الداخلي، ثم تحرك باتجاه بطنها، بلطفٍ كالفكرة. أحست بأنامله تنتقل صعودًا من معدتها باتجاه نهديها ولوت جسمها بعيدًا عنه. ثبتها بالأرض وزحف بأنامله إلى نهدها ببطء، راسمًا حلقة حول

حلمتها بإصبع واحد. نظر إليها، دون أن يبتسم، ونقل يده نزولاً وسحب إلى أعلى، وشد سروالها. أرادته، كله، وجسدها ضاغط على جسده. ولكنها أمسكت بيده بعد ثوانٍ.قال لها: «هيا كيا أرجوك. لقد انتظرنا للأبد. لقد كنت صبورًا جدًا، ألا تعتقدين ذلك؟».

«تشايس، لقد وعدتني».

«تبًّا، كيا. ماذا ننتظر؟». استقام بجلسته. «من المؤكد أني أظهرت لكِ الاهتمام. لم لا؟». جلست ولبست التيشيرت. «ماذا سيحصل بعد هذا؟ كيف أعرف أنك لن تتركني؟».

«كيف لأحدٍ أن يعلم؟ ولكن، كيا، لست ذاهبًا إلى أي مكان. أنا أقع في حبك. أريد أن أكون معك كل الوقت. ماذا تريدين أكثر كي أثبت لك؟».لم يذكر الحب قط. بحثت كيا في عينيه عن الحقيقة ولكنها لم تجد سوى نظرةٍ قاسية. مبهمٌ. لم تعلم بالضبط طبيعة شعورها نحو تشايس، ولكنها لم تعد وحيدةً. هذا كافٍ بالنسبة لها.

«قريبًا، أيناسبك ذلك؟».

سحبها قريبًا إليه. «لا بأس بذلك. تعالي هنا». أمسكها واستلقيا

تحت الشمس، يطفوان فوق البحر، وصوت الأمواج «سلوش - سلوش - سلوش» تحتهما.

انتهى النهار، ونشر الليل ظلامًا حالكًا. أضواء القرية تتراقص هنا وهناك على الشاطئ البعيد. تتلألأ النجوم فوق عالمهم من البحر والسماء.

قال تشايس: «أتساءل ما الذي يجعل النجوم تتلألأ».

«اضطراب في الغلاف الجوي. كما تعلم، كرياح الغلاف الجوي العليا».

«هكذا إذًا؟».

«أنا متأكدة أنك تعلم أن النجوم بعيدةٌ جدًّا عن مدى رؤيتنا. نحن نرى أنوارها فحسب، والتي قد تتشوّه بالغلاف الجوي. ولكن النجوم ليست ثابتةً فعلًا، بل تتحرّك بسرعة فائقة».

علمت كيا من قراءة كتب ألبرت أينشتاين أن الزمن لم يعد أكثر ثباتًا من النجوم. يتسارع الزمن وينحني حول الكواكب والشموس، وهو مختلفٌ في الجبال عنه في الأودية، وهو جزءٌ من نفس المادة التي صُنع

منها الفضاء، والتي تنحني وتتماوج كما يفعل البحر. تسقط الأجسام، سواء أكانت كواكب أو تفاحات، تسقط وتدور، لا بسبب قوة الجاذبية، بل لأنها تسقط في طيات الزمكان الحريرية - كما التموّجات على البركة - مخلوقةً من الأجرام الأثقل وزنًا.

ولكن كيا لم تقل شيئًا من ذلك ليس للجاذبية، لسوء الحظ، سلطةٌ على الفكر البشري، وكانت المدرسة الثانوية لا زالت تعلّم أن التفاحات تسقط على الأرض بسبب قوة قوية من الأرض.

قال تشايس: «هل تعلمين، طلبوا مني أن أساعد في تدريب فريق كرة القدم المدرسي».

ابتسمت له.

جال بخاطرها أننا نقع باتجاه الأجسام الأكبر منا - ككل شيء آخر في العالم - خرجت كيا، في الصباح التالي، وفي رحلة نادرة إلى «بيغلي ويغلي» لتشتري أشياءً شخصيةً لا توجد عند القافز، فكادت تصطدم بأهل تشايس، سام وباتي لوف، وهي خارجةٌ من المتجر. كانا يعلمان من تكون، كل الناس تعرفها.

كانت قد رأتهما في البلدة عدة مراتٍ على مر السنوات، وأغلبها من بعيد. كان سام يقف خلف منصة البيع في «وسترن أوتو»، فيتعامل مع الزبائن، ويفتح صندوق المحاسبة. تذكّرت كيا كيف كان يطردها، في صغرها، من أمام الواجهة كما ولو أنها سترهب الزبائن الحقيقيين. لم تعمل باتي لوف بدوامٍ كاملٍ في المتجر، ليتسنى لها الجري على طول الشارع، موزعةً منشوراتٍ عن مسابقة حياكة أغطية الأسرّة أو مسابقة ملكة جمال السرطان الأزرق. كانت دائمًا ما ترتدي ثيابًا أنيقةً مع حذاءٍ نسائيٍ بكعبٍ عالٍ، ومفكّرة جيبٍ، وقبعةً، وبألوانٍ متناسقةٍ كما يتستلزم موسم الجنوب. ومهما كان موضوع الحديث، فقد كانت دائمًا تذكر أن تشايس هو أفضل ظهيرٍ ربعيٍ عرفته البلدة على الإطلاق.

ابتسمت كيا بخجل ونظرت إلى عيني باتي لوف مباشرة، تمنت لو تتكلّمان معها بطريقةٍ شخصية، ويعرفان عن نفسيهما. قد يعرفانها على أنها فتاة تشايس. لكنهما توقّفا فجأةً، ولم يقولا شيئًا، ودارا من حولها، مبتعدين أكثر من اللازم. أكملا طريقهما.

خرجت كيا وتشايس، في الليلة التالية للاصطدام بهما، بقاربها تحت شجرة سنديانٍ كبيرةٍ جدًّا لدرجة أن أغصانها امتدت فوق الماء،

خالقةً مغاراتٍ صغيرةً لحيوانات القندس وطيور البط. أبقت صوتها منخفضًا، جزئيًّا حتى لا تزعج طيور البط البري، وجزئيًّا بسبب الخوف، أخبرت كيا تشايس عن رؤيتها لأهله وسألته إن كانت ستقابلهم قريبًا.

جلس تشايس صامتًا، ما جعل معدتها تتشنّج.

قال أخيرًا: «بالطبع سوف تقابلينهما. قريبًا. أعدك». ولكنه لم ينظر إليها حين قال ذلك.

سألته: «هما يعلمان بشأني، أليس كذلك؟ بشأننا؟».

«بالطبع».

يبدو أن القارب انجرف قريبًا من شجرة السنديان، لمحا ذكَر بومةٍ قرناء ضخمٌ، وسمينٌ ومليءٌ كالوسادة، طار من الشجرة وقد فرد جناحيه، ثم انساب بهدوءٍ وسهولةٍ عبر الهور، وقد عكس ريش صدره أنماطًا ناعمةً على وجه الماء.

خرج تشايس من القارب وأخذ بيد كيا، فأخرج الشك من أناملها.

تبعت أوقات غروب الشمس وطلوع القمر تحركات تشايس وكيا

السهلة عبر السبّخة، لأسابيع. ولكنه توقف في كل مرّةٍ قاومت فيها اندفاعه. أرخت صورٌ لإناث الحيوانات أو دجاجات الديك الرومي لوحدها مع صغارها المتطلبين، فيما غادرت الذكور منذ زمن طويل، ساعيةً خلف أناث أخريات، بثقلها الصلب على عقلها.

كان الاستلقاء شبه عاريين في القارب هو أقصى ما وصلا إليه، مهما قال سكان البلدة. ورغم أن تشايس وكيا أبقيا الموضوع سرًّا بينهما، إلا أن البلدة صغيرةٌ، وقد رآهما الناس معًا في قاربه أو على الشّواطئ. لم يفت صيادي الروبيان الكثير من أخبار البحر. كانت هناك أحاديثٌ. ودردشات.

27
خارج طريق جبل الخنزير

1966

وقف الكوخ صامتًا أمام الرفيف المبكر لأجنحة الطيور السوداء، في حين تشكّل ضباب الشتاء الكثيف على امتداد الأرض، متكوّمًا على الحيطان كقطع القطن. استخدمت كيا مردود عدة أسابيع من بيع الأصداف، لشراء قطعٍ مقليةٍ من لحم الخنزير بالدبس، وصلصة الفاصوليا، وقدمتهم مع بسكوت الكريمة الحامضة ومربى التوت الأسود. شرب تشايس قهوة ماكسيل هاوس؛ فيما احتست شاي تايتلي الحار. كان قد مضى على بقائهما معًا سنةً، لكنهما تجاهلا الموضوع. تحدث تشايس عن كونه محظوظًا لأن والده امتلك «ويسترن أوتو»: «لهذا، سيكون لنا بيتٌ جميلٌ حين نتزوج. سوف أبني لك منزلاً بطابقين على الشاطئ مع شرفةٍ تحيط به. أو بيت بأي شكل تريدينه يا كيا».

بالكاد استطاعت كيا التنفس.. أرادها في حياته. ليس تلميحًا فقط، ولكن بما يشبه طلب اليد. ستنتمي لأحد. ستكون جزءًا من عائلة. جلست مستقيمةً في كرسيها.

أكمل: «لا أعتقد أننا سنعيش مباشرةً في البلدة. ستكون هذه قفزةٌ أكبر من قدرتك على الاحتمال. ولكننا قد نبني منزلاً في الضواحي قريبًا من السبّخة، كما تعلمين».

كانت بعض أفكار الزواج من تشايس قد راودتها، ولكنها لم تجرؤ على التعامل معها. وها هو الآن يعلنها. أصبح تنفس كيا سطحيًا. رفض عقلها التصديق، من جهة، فيما عمل على التفاصيل من جهة أخرى. فكرت، «يمكنني القيام بهذا. إن كنا سنسكن بعيدًا عن الناس، فقد ينجح الأمر».

سألته، ورأسها منخفض: «ماذا عن أهلك؟ هل أخبرتهم؟».

«كيا، عليك أن تفهمي شيئًا عن أهلي. إنهم يحبونني. إن قلت لهم أنك خياري، فهذا ما سيكون. سيحبونك حينما يتعرفون عليك».

عضّت على شفتيها. وأرادت أن تصدق.

«سوف أبني معرضًا لكل أشيائك». وأضاف. «مع نوافذ كبيرة لرؤية تفاصيل تلك الريشات الملعونة كلها».

لم تعلم إن كانت تشعر تجاه تشايس بما يجب على الزوجة أن تشعر به، لكن قلبها، في تلك اللحظة، فاض بما يشبه الحب. لم يكن عليها تجميع بلح البحر بعد ذلك.

مدت يدها ولمست عقد الصدف تحت حنجرته.

قال تشايس: «أووه، على فكرة. عليّ الذهاب لآشفيل بعد بضعة أيامٍ لشراء بضائع للمتجر. وفكرت، لِمَ لا تأتين معي؟».أبقت نظرها للأسفل وقالت: «ولكنها بلدةٌ كبيرة. سيكون هناك الكثير من الناس. وليس لدي الثياب المناسبة، أو أني لا أعرف ما هي الثياب المناسبة، و..».

«كيا، كيا. اسمعي. سوف تكونين معي. أنا أعرف كل شيء. ليس علينا أن نذهب إلى مكانٍ مترف. سترين الكثير من معالم كارولاينا الشمالية بالقيادة عبرها، هضبة بيدمونت، وجبال سموكي العظيمة، بحق المسيح. ثم، حين نصل إلى هناك، نستطيع أن نطلب البيرغر من السيارة. وتستطيعين أن ترتدي الثياب التي عليك. ليس مطلوبًا منك أن تتكلمي

مع أي شخصٍ ما لم ترغبين بذلك. أنا سأهتم بكل شيء. لقد ذهبت إلى هناك مرارًا. بل أني وصلت إلى أتلانتا. أشفيل ليست بشيء. انظري، إن كنا سنتزوج، فعليك البدء بالخروج إلى العالم قليلاً. أفردي جناحيك الطويلين».

أومأت برأسها. إن لم يكن بسبب شيء آخر، فلترى الجبال.

أكمل: «إنه عملٌ ليومين، فسيكون علينا تمضية ليلةٍ هناك. في مكان عادي. كما تعلمين، نُزُلٌ صغير. لا بأس بذلك، لأننا بالغين».

لم تزد على قولها: «آه». ثم همست: «فهمت».

لم تكن كيا قد ركبت سيارةً على الطريق قط، ولذا، وبعد أيامٍ قليلة، وفيما كانت وتشايس، يقودان شاحنته غربًا خارج «باركلي»، حدّقت خارج النافذة، متشبثةً بالمقعد بكلتا يديها. امتدت الطريق على مدى أميالٍ من العشب المنشاري وأشجار النخيل، تاركةً البحر في النافذة الخلفية.

تسارعت مروج الأعشاب المألوفة والطرق المائية أمام نافذة الشاحنة، لأكثر من ساعة. تعرفت كيا على طيور النمنمة ومالك الحزين،

وارتاحت لرؤيتها وكأنها لم تترك منزلها بل جلبته معها.

ثم انتهت مروج السبّخة فجأة، عند خطٍّ مرسومٍ عبر الأرض، وانتشرت أمامهم أرضٌ غبراءٌ - مفلوحةٌ، ومسوّرةٌ بمربعاتٍ، ومثلّمةٌ في خطوط. ثم حقولٌ من جذوع الأشجار الميتة في الغابات الجرداء. امتدت أعمدةٌ، تحمل أسلاكًا، نحو الأفق. كانت تدرك أن السبّخة لا تغطي الكرة الأرضية، ولكنها لم تغادرها من قبل. ماذا فعل الناس بالأرض؟ كانت البيوت متشابهةً كعلب الأحذية، ومتربعةً على حديقة عشبٍ مقصوص. كان سربٌ من طيور الفلامينغو الزهرية يأكل في الفناء، ولكن حين دارت كيا متفاجئة، رأت بأنها من البلاستيك. الغزلان من الإسمنت. كانت طيور البط الوحيدة الطائرة مرسومةً على علب البريد.

قال تشايس: «إنها رائعة، أليس كذلك؟».

«ماذا؟».

«البيوت. لم تري شيئًا يشبهها، أليس كذلك؟».

«كلا، لم أر».

رأت جبال «الأبالاش»، بعد ساعات، بنهاية سهول «بيدمونت»،

مرسومةً في خطوطٍ زرقاءٍ لطيفةٍ على امتداد الأفق. ارتفعت القمم حولهما، حين اقتربا، وامتدت الجبال المكسوة بالغابات على مدى نظر كيا.

استقلت الغيوم بين أذرع التلال المفتوحة، ثم ارتفعت وانسابت بعيدًا. التفّت الجذور بشكل حلزوني وهبطت باتجاه الأودية الأدفأ، وكأنها ضبابٌ يغمر أراضي السبخة المظلمة. لعبة للفيزياء ذاتها على حقل علم الأحياء.

كانت كيا من المناطق المنخفضة، أرض الآفاق، حيث تغرب الشمس ويطلع القمر، كلٌّ في وقته. ولكن الشمس هنا، حيث علم المساحة فوضوي، استوت على القمم، لتختفي خلف قمةٍ للحظة وتعود للظهور حين تتسلق شاحنة تشايس المرتفع التالي. لاحظت أن وقت الغروب، في الجبال، يعتمد على مكان وقوفك على التلّة.

تساءلت أين تقع أرض جدها. قد يكون أقرباؤها ربوا الخنازير في زرائبٍ رماديةٍ كالتي تمر بها الآن في السهل الذي يرافقه نهر صغير. قد تكون عائلتها كدحت، وضحكت، وبكت في هذه الأرض. قد يكون بعضهم لا زال هنا، منتشرين عبر البلد. غير معروفين.

أصبحت الطريق جادةً بأربعة مسارات، وتمسكت كيا بإحكامٍ فيما أسرع تشايس وبين شاحنته والسيارات المسرعة الأخرى أقدامٌ قليلة. انعطف في طريقٍ متعرّجةٍ ترتفع بشكلٍ ساحرٍ في الهواء وتقودهم نحو البلدة. قال بفخر: «منعطف بجسور دائرية كورقة البرسيم».

ارتفعت أبنيةٌ ضخمةٌ، بارتفاع ثمانية طوابق وعشرة، على خلفية الجبال. سارعت العديد من السيارات كأنها سرطانات الرمل، وكان هناك الكثير من الناس على الأرصفة، ألصقت كيا وجهها بالنافذة، باحثة في وجوههم، وهي متأكدة بأن والدها ووالدتها يجبٍ أن يكونا بينهم. جرى صبيٌّ، لوحت وجهه الشمس واغمق شعره، على الرصيف. شبهته بجودي، فاستدارت وراقبته يجري. لا بد أن أخوها أصبح بالغًا الآن، ولكنها أبقت نظرها على الصبي إلى أن انعطفا عند ناصية.

حجز تشايس غرفة لهما في نزلٍ بجانب طريق جبل الخنازير، في الجهة الأخرى من البلدة. صفٌّ من غرفٍ بنّية بطابقٍ واحد، مضاءةٍ بأنوار نيون كأشجار النخيل.

دخلت إلى غرفةٍ بدت نظيفةً كفاية، بعد أن فتح تشايس الباب، وقد فاحت منها رائحة معقمٍ بشذا الصنوبر، وكانت مفروشة بأثاثٍ

أميركيٍ رخيص. جدرانٌ خشبيةٌ مقلدة، وسريرٌ متهالكٌ مع آلة اهتزاز تعمل بالعملات المعدنية، و تلفازٌ بالأبيض والأسود مربوطٌ بالطاولة بسلسلةٍ كبيرةٍ وقفل، كانت الملاءات باللون الأخضر كالليمون، والسجادة برتقالية. عادت كيا بذاكرتها إلى الأماكن التي استلقيا فيها معًا - في الرمل البلوري بالقرب من حوض الأمواج، في القوارب العائمة تحت ضوء القمر - هنا، ظهر السرير كأنه نقطة الوسط في الغرفة، ولكن الغرفة لم توحِ بالحب.

وقفت بالقرب من الباب وهي مدركةٌ لما يجري. قال لها: «ليس شيئًا عظيمًا». ووضع حقيبته القماشية على الكرسي.

سار باتجاهها. «لقد حان الوقت، ألا توافقين، كيا؟ لقد حان الوقت».

كانت هذه خطته قطعًا. ولكنها كانت جاهزة. كان جسدها تائقًا لشهورٍ واستلسم عقلها بعد الحديث عن الزواج، أومأت له.

اقترب منها ببطءٍ وفك أزرار بلوزتها، ثم استدار بلطف وفك حمّالة نهديها. مرّر أنامله على نهديها. تدفّقت حرارةٌ حماسيةٌ من

نهديها إلى فخذيها. أغمضت عينيها حين سحبها إلى السرير وأضواء النيون الخضراء والحمراء تتلألأ من خلف السّتائر الرقيقة. كانت أنامله، وحين منعته من الاستمرار خلال تلك الأوقات التي كادت أن تسلمه جسدها فيها، تتخذ ملمسًا سحريًّا، محييةً أجزاءً منها، ودافعةً بجسدها نحوه شوقًا ورغبةً. أما الآن، وبعد أن أعطي الإذن، فقد تملّكه الاستعجال وبدا وكأنه يتجنّب حاجاتها ويقدم رغباته. صرخت عاليًا حين شعرت بتمزقٍ حاد، ظنًّا منها أن خطبًا ما قد وقع.

«لا بأس. سيكون هذا أفضل الآن». قالها واثقًا من نفسه. ولكن الأمور لم تصبح أفضل، واستلقى، بعدها بقليل، بقربها، مبتسمًا.

راحت تشاهد الضوء الوامض من لوحة متجر «فايكنسي»، بعد أن غلبه النوم.

جلست وتشايس في كوخها، بعد عدة أسابيع، وبعد الانتهاء من الفطور المكون من البيض المقلي وحساء لحم الخنزير إلى طاولة المطبخ. لفّت نفسها بملاءة، بعد أن مارسا الحب، والذي لم يعطها سوى القليل منذ المحاولة الأولى في النُّزل. كان يتركها، في كل مرة، وهي في عز رغبتها، ولكنها لم تدرِ كيف تتطرق إلى الموضوع. لم تكن تعرف أصلًا كيف كان

عليها أن تشعر. ربما كان هذا طبيعيًّا.

قام تشايس عن الطاولة، رفع ذقنها إلى الأعلى بأنامله، قبّلها، وقال: «حسنًا، لن أخرج كثيرًا في الأيام المقبلة القليلة مع عيد الميلاد القادم وما يرتبط به. هناك الكثير من المناسبات والأمور، وبعض الأقارب الذين سيزوروننا».

نظرت كيا إليه وقالت: «كنت أتمنى... ربما لو أستطيع... كما تعلم، أن أذهب معك إلى الحفلات ونقوم بأشياء. على الأقل ربما غداء عيد الميلاد مع عائلتك».

عاد تشايس إلى كرسيه. «كيا، انظري، كنت أنوي الكلام معك بهذا الشأن. أريد أن أدعوك إلى نادي إلك كلوب للرقص، وأشياء كهذا، ولكني أعرف كم تخجلين، وكيف أنك لا تقومين بالأشياء في البلدة. أعرف أن وضعك سيكون مريعًا. لن تعرفي أحدًا، وليس عندك الثياب المناسبة. هل تعلّمتِ يومًا الرقص؟ لا تفعلين أي شيء من ذلك. تفهمين هذا، أليس كذلك؟». نظرت إلى الأرض وقالت: «نعم، كل هذا صحيح. ولكني يجب أن أبدأ بالتأقلم مع بعض شؤون حياتك. أفرد جناحَي، كما قُلْتَ أنت. أعتقد أنه يجب عليّ أن أُحضّر ثيابي المناسبة، وألتقي بالبعض من

أصدقائك». رفعت رأسها: «هل ستعلمني الرقص؟».

«سأفعل، قطعًا. ولكنني أفكر بكِ وبي وبما لدينا هنا. أحبُّ طريقتنا في قضاء الوقت هنا معًا، فقط أنتِ وأنا. لأكون صادقًا معكِ، بدأت أحسّ بالملل من تلك الحفلات الراقصة الغبيّة. هي نفسها لسنوات. النادي الرياضي للمدرسة الثانوية. زملاء قدامى، زملاء شباب كلهم مع بعض. الموسيقى السخيفة ذاتها. أنا مستعدٌ للاستمرار بالحياة. كما تعلمين، حين نتزوج، لن نقوم بهذه الأشياء على أية حال، فلماذا علينا إقحامك في هذا الآن؟ هذا ليس منطقيًا. أليس كذلك؟».نظرت إلى الأرض مجدّدًا، فرفع ذقنها ثانيةً وثبّت عينيها بعينيه. ثم، ابتسم ابتسامة كبيرة وقال: «أما بالنسبة لقضاء عيد الميلاد مع عائلتي. تأتي عمّات أمي العجوزات من فلوريدا. لا يتوقفن عن الثرثرة. لا أتمنى لقاءهن لأحدٍ. خاصة أنتِ. صدقيني، لن يفوتك شيء».

صمتت.

«حقيقةً، كيا، أريدك أن تكوني مرتاحة مع هذا الوضع. ما نحن فيه هو أقصى ما قد يتمناه المرء. كل الأشياء الأخرى». - حرّك يديه في الهواء - «غبيةٌ تمامًا».

أمسكها وسحبها إلى حضنه، فأراحت رأسها على كتفه.

«هذا هو الأمر، كيا. لا الأشياء الأخرى». قبلها، بحرارةٍ ورقة. ثم وقف. «حسنًا. عليَّ المغادرة».

أمضت كيا عيد الميلاد لوحدها مع النوارس، كما كانت تفعل منذ أن غادرتها والدتها.

كان تشايس لم يأت بعد، رغم مرور يومين على عيد الميلاد. كسرت وعدها لنفسها بأنها لن تنتظر أحدًا مرة ثانية، وسارت على شاطئ البركة، مصففةً شعرها بالضفيرة الفرنسية، ملوّنة فمها بأحمر الشفاه القديم الذي كان لأمها.

امتدت السبّخة خلف الكوخ بمعطفها الشّتوي باللونين البني والرمادي. أميالٌ من الأعشاب الجافة، نثرت بذورها، وأحنت رأسها نحو الماء مستسلمة. ضربت الريح الجذوع الخشنة بسوطها ومزقتها، محدثة جلبةً كجوقةٍ مزعجة. أسدلت كيا شعرها ومسحت شفتيها بظاهر يدها.

جلست في مطبخها وحيدةً، في صباح اليوم الرابع، وهي تلعب بالبسكوت والبيض في صحنها. «بالنسبة لكلامه عن هذا هو الأمر، أين

هو الآن؟». بصقت. رأت تشايس، بعين عقلها، وهو يلعب كرة القدم مع أصدقائه أو يرقص في الحفلات. «هذه الأشياء السخيفة التي ملّ منها».

سمعت صوت قاربه أخيرًا. قفزت عن الطاولة، وأغلقت الباب بعنف، وجرت من الكوخ إلى الهور، وظهر القارب للعيان. ولكنه لم يكن قارب تشايس المكشوف ولا تشايس، كان شابًا بشعرٍ أصفرٍ ذهبي، قصير، وبالكاد يُرى تحت قبعته. كان قارب صيد السمك القديم، كان تايت واقفًا في القارب. كبر وأصبح رجلاً. لم يعد وجهه صبيانيًّا، ولكنه وسيمٌ، وناضج. رسمت عيناها سؤالاً، ورسمت شفتاه ابتسامةً خجولة.

كانت أول فكرة جالت بخاطرها هي الهرب. ولكن عقلها صاح: «كلا! هذه بركتي؛ أنا دائمًا أهرب. ليس هذه المرة». كانت الفكرة الثانية أن تحمل حجرًا، وترميه به من مسافة عشرين قدمًا. وهو ما فعلته. خفض رأسه بسرعة، فأزّ الحجر قريبًا من جبينه.

«تبًّا، كيا! بحق الجحيم؟ انتظري». قال ذلك فيما حملت حجرًا آخر واتخذت وضعية الرمي. وضع يديه على وجهه. «كيا، بحق الله، توقفي. أرجوكِ. هل نستطيع أن نتحدّث؟».أصابه الحجر بقوّة في كتفه.

«اخرج من هوري! أيها اللص المنحط القذر. كيف ترى هذا الحديث؟». صراخ زوجة صياد السمك تبحث باهتياجٍ عن حجر آخر.

«كيا، أصغي إلي. أعلم أنك مع تشايس الآن. أحترم ذلك. أنا أريد الحديث معكِ فحسب. أرجوكِ، كيا».

«لماذا عليّ أن أتكلم معك؟ لا أريد أن أراك مرّة ثانية أبدًا!»، قبضت على حفنة من الأحجار الصغيرة ورمتهم في وجهه.

حاد جانبًا، ثم انحنى إلى الأمام، وتمسّك بحافة القارب حين صدم القارب الأرض.

«قلت لك أغرب عن هنا!»، كانت لا زالت تصرخ ولكن بحدةٍ أقل. «نعم، أنا مع أحدٍ آخر الآن».

ثبّت تايت نفسه بعد الاهتزاز الناتج عن الارتطام بالشاطئ، ثم جلس على المقعد في قاربه. «كيا، أرجوك، هناك أشياء يجب أن تعلميها عنه». لم يكن تايت قد خطط للحوار معها عن تشايس. لم يحدث شيءٌ في هذه الزيارة لرؤية كيا كما تخيّله.

«ما الذي تتحدث عنه؟ لا يحق لك أن تحدثني عن حياتي

الخاصة». اقتربت منه لمسافة خمسة أقدامٍ وبصقت كلماتها.

قال بحزمٍ: «أعرف أنه لا يحق لي، ولكنّي أفعل ذلك على أية حال».

استدارت كيا، عند هذه النقطة، مغادرةً، ولكن تايت رفع صوته مكلمًا ظهرها. «أنت لا تعيشين في البلدة. أنت لا تعلمين أن تشايس يخرج مع نساءٍ أخريات. رأيته في الأمس يقود شاحنته بعد الحفلة ومعه فتاةٌ شقراء. هو ليس جيدًا بالقدر الكافي ليحظى بكِ».

استدارت بسرعة. «أووه، حقًّا! أنت من تركني، ولم تعد بعد أن قطعت لي وعدًا، ولم تعد أبدًا. أنت الذي لم تراسلني لتشرح لي السبب أو حتى إن كنت حيًا أو ميتًا. لم تكن لك الجرأة لتنفصل عني. لم تكن رجلاً بالقدر الكافي لتواجهني. اختفيت فقط. وسخ قذارة الدجاج. ها أنت تأتي إلى هنا عائمًا بعد تلك السنوات... أنت أسوأ منه. قد لا يكون مثاليًا، ولكنك أسوأ منه بأشواط». توقفت فجأة، وحدّقت به.

تضرّع إليها بكفين مفتوحين: «أنتِ محقةٌ بشأني، كيا. كل ما قلتيه عني صحيح. أنا كنت قذارة الدجاج. ولم يكن لي الحق في الكلام عن

تشايس. ذلك ليس من شأني. ولن أزعجكِ ثانية. أنا فقط بحاجةٍ للاعتذار منكِ وتفسير الأمور. كنت نادمًا لسنوات، كيا، أرجوكِ».

وقفت كشراعٍ فرغ من الهواء. كان تايت أكثر من مجرد حبها الأول: فقد شاركها إخلاصها للسبّخة، وعلمها القراءة، وكان صلتها الوحيدة، مهما كانت صغيرةً، بعائلتها المختفية. كان صفحةً من الزمن، قصاصة ورقٍ ملتصقةٍ بسجل صورٍ، وهو كل ما امتلكته. دق قلبها بقوة وقد تلاشى غضبها.

«انظري إلى نفسكِ، أنت امرأة جميلة جدًّا، أتبلين حسنًا؟ ألا زلتِ تبيعين بلح البحر؟». كان مأخوذا بالتغيير الذي طرأ عليها. أصبحت ملامحها أجمل، ولكنها أكثر حزنًا، عظام وجنتيها حادتان، شفتاها ممتلئتان.

«أجل، أجل».

«هنا، جلبت لكِ شيئًا». أعطاها من مغلّفٍ ريشة وجنةٍ حمراءٍ لطائر نقار الخشب الشمالي. لما ليس عليها الاحتفاظ بها؟ وضعتها في جيبها ولم تشكره.

تحدث سريعًا وقال: «كيا، لم يكن هجرانك مجرّد خطأٍ، كان أسوأ شيءٍ فعلته أو سأفعله في حياتي. ندمت على ذلك لسنواتٍ وسأبقى نادمًا عليه دائمًا. أنا أفكر بك كل يوم. وسأفعل لما تبقى من حياتي، سأكون آسفًا لأني تركتكِ. في الحقيقة اعتقدت أنك لن تستطيعين أن تتركي السبّخة وتعيشي في عالمٍ آخر، فلم أعرف طريقة نستطيع فيها أن نكون معًا. ولكن هذا كان خطأً، وكان هراء أنّي لم أعد وأتكلم معكِ عن الموضوع. أعرف كم من مرةٍ تعرّضتِ للهجران من قبل. لم أُرِد أن أعرف مدى السوء الذي سببته بجرحي لكِ. لم أكن رجلاً بما فيه الكفاية. كما قلتِ أنت». أنهى كلامه وراقبها.

قالت أخيرًا: «ماذا تريد الآن، تايت؟».

«فقط لو كنتِ تستطيعين، بطريقة ما، مسامحتي». أخذ نفسًا وانتظر.

نظرت كيا إلى أصابع قدميها. لماذا على الجريح الذي ما زال ينزف، أن يتحمل عبء المسامحة؟ لم تجبهُ.

«كان علي أن أخبركِ فحسب، كيا».

أكمل، حين لم تحر جوابًا: «أنا الآن في مرحلة التخرّج الدراسية، علم الحيوان. غالبًا علم أسس تطور الحيوان. ستحبينه».

لم تستطع تصوّر ذلك، فنظرت خلفها نحو البركة لترى إن كان تشايس قادمًا. لم تفت النظرة تايت؛ وعلم أنها هناك بانتظار تشايس.

كان تايت قد رأى تشايس في الأسبوع السابق مرتديًا سترة الغداء البيضاء، خلال احتفالية عيد الميلاد، وهو يراقص نساءً أخريات. كانت حفلة الرقص، كما معظم مناسبات «باركلي كوف»، تقام في صالة الرياضة في المدرسة الثانوية. راقص تشايس فتاةً سمراء فيما انطلقت أغنية «وولي بولي» من جهاز الصوت الصغير الموضوع تحت سلة ملعب السلة. ترك باحة الرقص والفتاة السمراء، حين بدأت أغنية «مستر تامبورين مان»، وشارك أصدقاءه السابقين من لاعبي الفريق، في جرعاتٍ من مشروب «وايلد تيركي» من قارورة جيبٍ كان يحملها معه. كان تايت قريبًا يتجاذب أطراف الحديث مع اثنين من أساتذته من الثانوية العامة، وسمع تشايس يقول: «أجل، إنها متوحشة كأنثى الثعلب العالقة في الفخ. تمامًا كما تتوقع من فتاة السبّخة الوقحة. تستحق كل جزء من مال الوقود».

أرغم تايت نفسه على الابتعاد.

هبت ريحٌ باردةٌ وتموّجت عبر البركة. كانت كيا، متوقعةً وصول تشايس، قد جرت خارجًا وهي مرتديةٌ بنطال جينز وكنزةً خفيفة. لفّت ذراعيها بإحكام حول نفسها.

«أنتِ تتجمدين من البرد؛ فلنذهب إلى الداخل». أشار تايت إلى الكوخ، حيث يخرج الدخان من الأنابيب الصدئة للمدفأة.

«تايت، أعتقد أنه عليك المغادرة الآن». رمقت القناة بنظراتٍ متلاحقة. ماذا لو وصل تشايس ووجد تايت هنا؟

«كيا، أرجوك، دقائقُ قليلةٌ بعد. أريد أن أرى مجموعتك ثانيةً».

استدارت وجرت نحو الكوخ، من باب الإجابة، فتبعها تايت. توقف قليلًا في داخل البهو. كانت مجموعاتها قد كبرت من هواية طفولية إلى متحفٍ تاريخيٍ لطبيعة المستنقع. رفع صدفةً لسرطان البحر، معرّفَةً بألوانٍ مائيةٍ تخبر عن الشاطئ حيث وُجِدت، بالإضافة إلى معلوماتٍ مُدرجةٍ عن المخلوق الذي يأكل مخلوقاتٍ أصغر في البحر.

تكرر الأمر لكل عيّنة، مئات، بل آلاف منها. كان قد رأى بعضها من قبل، حين كان صبيًّا، ولكنه رآها، وهو الآن دكتور مستقبلي في علم الحيوان، كعالمٍ.

التفت إليها، وكان لا يزال واقفًا في المدخل: «كيا، هذه رائعةٌ، ومفصّلةٌ بشكلٍ جميل. تستطيعين نشر هذه. هذا يمكنه أن يكون كتابًا - الكثير من الكتب».

«لا، لا. هذه فقط لي. تساعدني على التعلّم، هذا كل شيء».

«كيا، أصغي إلي. أنت تعلمين أكثر مني، إن كتب المراجع عن هذه المنطقة تكاد تكون معدومة. هذه هي الكتب التي طال انتظارها، بهذه الملاحظات، والمعلومات التقنية، والرسومات الجيدة». كان هذا الكلام صحيحًا. كانت كتب المراجع القديمة لأمها عن الأصداف، والنباتات، والطيور، والثديات الموجودة في المنطقة هي الكتب الوحيدة المطبوعة، وكانت غير دقيقةٍ بشكل مزرٍ، مع صورٍ بسيطةٍ بالأبيض والأسود ومعلوماتٍ أوليةٍ عن كل موضوع.

«إن كنت أستطيع أن آخذ بعض العيّنات، فسأبحث عن بعض

الناشرين، وأرى ماذا سيقولون».

حدّقت، لا تعلم كيف تنظر إلى هذا العرض. هل عليها الذهاب إلى مكان ما ولقاء الناس؟ لم يغفل تايت عن الأسئلة في عينيها.

«ليس عليك ترك المنزل. تستطيعين أن ترسلي عيّناتك بالبريد إلى الناشر. قد تدرّ عليك ببعض المال. ربما ليس الكثير، ولكنك لن تضطرين لجمع بلح البحر لبقية حياتك».

بقيت كيا صامتةً. كان تايت يدفعها للاهتمام بنفسها مرةً أخرى، ولا يهتم بها فحسب. يبدو وكأنه كان هناك في كل لحظات حياتها. ثم رحل.

«حاولي ذلك، كيا. أتضرك المحاولة؟».وافقت أخيرًا أن يأخذ بعض العيّنات، فاختار نخبةً من الصدفات بالألوان المائية الناعمة ولوحة مالك الحزين الأزرق الكبير بسبب الرسوم التوضيحية المفصّلة للطير في كل فصل، والملمس الزيتي الناعم لريش الحواجب المعقوف.

حمل تايت لوحة الريش - مجموعةٌ وافرةٌ من ضربات ريشة الرسم الدقيقة بألوانٍ غنيةٍ بلغت ذروتها في الأسود العميق بانعكاس

الألوان، فبدا كأن ضوء الشمس كان يلمس قماشة اللوحة - كان كل تفصيلٍ في فتقٍ صغير في الفتحة مميزًا لدرجة أن تايت وكيا أدركا في تلك اللحظة، أن هذه رسمةٌ لنفس الريشة الأولى التي كان قد أهداها إياها في الغابة. حوّلا نظرهما من اللوحة إلى عيني بعضهما. استدارت بعيدًا عنه. أجبرت نفسها ألّا تشعر بشيء. لن تنجذب لأحدٍ لا تثق به.

خطا باتجاهها ولمس كتفها. حاول أن يديرها بلطفٍ. «كيا، آسف لأني هجرتك. أرجوكِ، ألا تستطيعين مسامحتي؟».التفتت أخيرًا ونظرت إليه. «لا أعرف كيف أسامحك تايت. لا أستطيع أن أصدقك ثانية. أرجوك، تايت يجب أن تغادر الآن».

«أعلم. أشكرك للإصغاء إلي، لإعطائي هذه الفرصة للاعتذار». انتظر ليسمع ردًّا، ولكنها لم تضف شيئًا. كان يغادر ومعه شيءٌ، على الأقل. كان الأمل بإيجاد ناشرٍ سببًا للاتصال بها مرّة ثانية.

«إلى اللقاء، كيا». لم تجبه. حدّق بها، ونظرت مباشرة في عينيه ثم التفتت إلى البعيد. سار خارجًا من الباب متجهًا إلى قاربه.

انتظرت إلى أن غادر، ثم جلست على الرمل الرطب البارد للبركة

منتظرةً تشايس. تكلمت بصوتٍ عالٍ ورددت الكلمات التي قالتها لتايت. «قد لا يكون تشايس كاملاً، ولكنك أسوأ منه». ولكنها ذهبت تحدق عميقًا في المياه العميقة؛ ولم تفارق عقلها كلمات تايت عن تشايس، «يقود مبتعدًا بعد الحفلة بشاحنته ومعه فتاة شقراء».

لم يأتِ تشايس إلّا بعد أسبوعٍ على عيد الميلاد. سحب قاربه نحو البركة وقال أنه يستطيع البقاء كل الليل، ويدقان جرس رأس السنة الجديدة معًا. سارا إلى الكوخ، وقد تأبط ذراعها، وقد كسا الضباب نفسه المنطقة حتى السقف. مارسا الحب، ثم تدثّرا بالملاءات وجلسا قرب المدفأة. لم يستطع الهواء الكثيف حمل ذرّةٍ إضافيةٍ واحدةٍ من الرطوبة، فحين غلت الماء بالدلّة، تكوّنت نقاطٌ ثقيلةٌ على زجاج النافذة.

سحب تشايس آلة الهارمونيكا من جيبه وأطبق عليها بشفتيه، وأخذ يعزف اللحن الحزين لأغنية مولي مالون. «الآن يجرّ شبحها عربتها عبر الشوارع الواسعة والضيقة، وهو يغنّي الأصداف والمحار، حيةً، حيةً- أوو».بدا لكيا أنه حين عزف تشايس هذه الألحان الحزينة كان أقرب ما يكون لحيازة روح.

28
صائد الروبيان

1969

تقدم حانة دوغ غان الشائعات أكثر من الطعام، وقت احتساء البيرة. دخل الشريف وجو إلى الحانة المكتظة وتوجها إلى البار المصنوع من جذع صنوبرةٍ واحدة طويلة امتدت من الجهة اليُسرى للغرفة وغابت في العتمة. اجتمع الرجال المحلّيون - بما أن النساء كن ممنوعات من الدخول - في الحانة، وجلسوا إلى طاولات متفرّقة. شوى الساقيان النقانق، وقليا الروبيان، والمحار، وكرات الذرة؛ وقلبا حساء الذرة؛ وسكبا البيرة والبوربون. كان الضوء الوحيد هو الصادر عن مجموعةٍ من لوحات البيرة الوامضة، المتوهجة كالكهرمان، كنار مخيمٍ تلعق الوجوه المشوربة. تعالت أصوات اصطدام كرات البيلياردو ببعضها من الخلف.

دخل إد وجو إلى تجمّع لصيادي السّمك في وسط الحانة، فبدأت

الأسئلة لحظة طلبهما لبيرة ميلرز والمحار المقلي: هل من جديدٍ؟ ما هو تفسير عدم وجود بصماتٍ؛ هل هذا صحيح؟ هل فكرتم يا شباب بذاك الرجل هانسون؟ إنه مجنونٌ كطائر البط، يبدو أنه شيء يستطيع القيام به، يتسلق البرج، يدفع من فوقه كل من يقع في طريقه. لن يعجزكم هذا، أليس كذلك؟

نظر جو إلى جهةٍ ونظر إد إلى الجهة الأخرى، واشتركا بالحديث. إجابة وإصغاءً وإيماءً. ثم التقطت أذن الشريف، من خلال الجلبة، صوتًا مألوفًا، نغمةً متوازنةً، واستدار ليواجه هال ميلر، صياد القريدس في مركب تيم أونيل.

«هل أستطيع التحدّث إليك لدقيقةٍ أيها الشريف؟ على انفراد؟».ابتعد إد عن البار. «بالطبع تستطيع، هال، تعال معي». قاده إلى طاولةٍ صغيرةٍ بالقرب من الحائط حيث جلسا. «أتحتاج المزيد من البيرة؟». «كلا. يكفي للآن. شكرًا لك».

«هل هناك ما يجول في فكرك، هال؟».

«نعم، هناك شيءٌ بالتأكيد. يجب أن أخرجه من رأسي أيضًا. لأنه

يشغلني بشكل مزعج».

«أخبرني عنه».

«أووه يا رجل». هز هال رأسه. «لا أعلم. قد لا يكون مهمًا، إما ذلك وإما أنه كان عليَّ أن أخبرك سابقًا. يعذبني ما رأيته».

«أخبرني فحسب، هال. ولنقرر، معًا، إن ما كان مهمًّا أم لا».

«حسنًا، إنه بشأن تشايس أندريوز. كنا في الليلة التي مات فيها، حسنًا، كنت أبحث عن تيم، وكنا عائدين متأخرين إلى الجون، بعد منتصف الليل بفترة، رأيت، وآلان هانت، تلك التي يدعوها الناس فتاة السبّخة، تبحر خارج الجون».

«هكذا إذًا؟ لكم من الوقت بعد منتصف الليل؟».

«من المؤكد أنها كانت حوالي الساعة الواحدة وخمس وأربعون دقيقة صباحًا».

«إلى أين كانت متجهةً؟».

«حسنًا، هذا هو لبّ الموضوع، أيها الشريف. كانت متجهةً

مباشرةً إلى برج النار. كانت لتصل، لو حافظت على مسارها، إلى اليابسة عند الجون الصغير بالقرب من البرج».

تنهد إد. «نعم هال هذه معلوماتٌ مهمة. مهمةٌ جدًّا. أمتأكد أنت أنها هي؟».

«حسنًا، تكلمنا، آلان وأنا في وقتها وكنا متأكدين أنها هي. أعني، أننا فكّرنا، معًا، في الشيء نفسه. تساءلنا ماذا كانت تفعل هناك بحق الجحيم، تبحر دون أنوار. لحسن الحظ رأيناها، وكنا على وشك الاصطدام بها. ثم نسينا موضوعها. ربطتُ، مؤخرًا، الحادثين ببعضهما البعض وأيقنت أنها نفس الليلة التي مات تشايس فيها، عند البرج. حسنًا، ثم أدركت أنه يجب أن أتكلّم».

«هل رآها أحد آخر في المركب؟».

«لا أدري. كان هناك آخرون بالتأكيد، وكنا مبحرين. كان الصيادون جميعًا على سطح القارب. ولكني لم أتكلم مع الآخرين عن الموضوع. لم يكن ثمة داعٍ حينها، كما تعلم، ولم أسألهم منذ ذلك الحين».

«أفهمك. هال، لقد فعلت الصواب بإخباري. واجبنا أن نتحدّث

بهذه الطريقة. لا تقلق بشأن أي شيء. كل ما تستطيع فعله هو أن تخبرني بما رأيت. سأطلب منك ومن الآن أن تدليا بإفادتكما. هل أستطيع أن أشتري لك البيرة الآن؟».

«كلا، أعتقد أني سأذهب إلى البيت، تصبح على خير».

«تصبح على خير. شكرًا مرّة أخرى». لوّح إد لجو، بعد وقوف هال، والذي كان يتابعهم لحظة بلحظة، قارئًا تعابير وجه الشريف. أعطيا هال دقيقةً ليودع الجميع، ثم خرجا إلى الشارع.

أخبر إد جو عمّا شاهده هال.

«يا رجل». قال جو «هذا يثبت كل شيء. ألا تعتقد ذلك؟».

«أعتقد أن القاضي قد يصدر مذكرة توقيفٍ في هذا الأمر. لست متأكدًا، ويجب أن أكون متأكدًا قبل أن أطلب. نستطيع، بالمذكرة، أن نفتّش بيتها عن خيوطٍ حمراء تطابق تلك التي وُجدت على ثياب تشايس. يجب أن نعرف قصتها في تلك الليلة».

29
طحالب

1967

زار تشايس كوخ كيا مرارًا خلال فصل الشتاء، ولليلةٍ واحدةٍ كل عطلة نهاية أسبوع. خرجا معًا عبر الأجمات الضبابية، حتى في الأيام الباردة الرطبة، هي لتجمع عيّناتها والمحار، وهو ليعزف ألحانه الغريبة على آلة الهارمونيكا. تدفقت المدونات مع الضباب، تبددت في الأرجاء الأعتم للأرض المنخفضة للغابات، وبدا، إلى حدٍّ ما، أن السبّخة امتصتها وحفظتها، لأن كيا كانت تسمع موسيقاه كلما مرّت بهذه الأقنية ثانيةً.

ذهبت كيا وحدها، ذات صباحٍ في أوائل شهر آذار، إلى القرية بحرًا. كانت السماء مرتديةً سترةً من الغيم الرمادي. كان عيد مولد تشايس بعد يومين، وكانت متّجهة إلى متجر «بيغلي» لتشتري مكونات

عشاءٍ خاص، لصناعة أول قالب حلوى من الكاراميل. كانت قد تخيّلت وضع قالب الحلوى المضاء بالشموع أمامه على الطاولة - هذه المناسبة لم تحصل في المطبخ منذ أن غادرت أمها - ردد مؤخرًا، أنه يدّخر المال لمنزلهما. فهمت أنه عليها أن تتعلم كيف تخبز.

رأت تشايس، بعد ربط قاربها، وفيما هي سائرة على الرصيف باتجاه صفّ المتاجر، واقفًا عند نهاية المتاجر يتحدّث مع أصدقائه. أحاطت يداه بكتفي فتاةٍ نحيفةٍ شقراء. جاهد عقل كيا ليستوعب هذا، فيما تحركت رجلاها لوحدهما. لم تقترب منه أبدًا حين كان مع الآخرين في البلدة، ولكنها لم تستطع تتجنبهم ما لم تقفز في الماء.

استدار تشايس وأصدقاؤه، معًا، محدقين بها، وأنزل ذراعيه عن الفتاة، في نفس اللحظة. كانت كيا ترتدي سروالاً قصيرًا من الجينز الأبيض، مطلقة العنان لساقيها الطويلتين. تدلت ضفيرةٌ سوداء من شعرها على كل نهدٍ من نهديها. توقفت المجموعة عن الكلام وحدقت. احترق قلبها لعجزها على الذهاب إليه، احترق من سوء الأمور.

حياها لدى وصولها إلى نهاية الرصيف، حيث وقفوا.

نظرت إليه ثم إليهم، قالت: «مرحبًا، تشايس». سمعته يقول: «كيا، تذكرين براين، وتيم، وبيرل، وتينا». ردد بعض الأسماء الإضافية إلى أن غاب صوته. التفت نحو كيا وقال: «هذه كيا كلاركس».

لم تتذكرهم حتمًا؛ لم يقدمها أحدٌ إليهم. فقط عرفتهم بأسماء كالطويلة النحيفة الشقراء والبقية. شعرت كطحلبٍ يسحب على خط الصيد، ولكنها استطاعت أن تبتسم وتقول: «مرحبًا». هذه كانت الفرصة التي لطالما انتظرتها. ها هي واقفةٌ هنا بين الأصدقاء الذين أرادت الانضمام إليهم. ناضل عقلها ليجد الكلمات، شيء رائعٌ تقوله قد يلفت انتباههم. رحب بها اثنان منهم بلطفٍ، أخيرًا، وابتعدا فجأةً، فتبعهما الآخرون سريعًا كسرب سمكٍ صغيرٍ سابحٍ في الشارع.

قال تشايس «حسنًا، ها نحن هنا».

«لا أريد أن أقاطع شيئًا. أتيت للتزود بالمؤن فقط، وسأعود إلى البيت».

«أنت لا تقاطعين شيئًا. التقيتهم للتو. سأخرج يوم الأحد، كما قلت».

نقل تشايس قدميه، ولمس عقد الصدف بأنامله.

قالت: «أراك لاحقًا». ولكنه كان قد استدار للحاق بالآخرين. وجرت إلى السّوق، ودارت حول طيور بطٍ بريةٍ تتهادى بمشيتها في الشارع الرئيس، فبدت قوائمها ليمونية اللون بشكل مفاجئ في مقابل الرصيف الباهت. أبعدت مشهد تشايس والفتاة عن ذهنها حين دخلت متجر «بيغلي ويإلي»، واستدارت عند نهاية الممر لتجد السيدة المسؤولة عن غياب التلاميذ، السيدة كولبيبير، على بعد أربعة أقدامٍ فحسب منها. وقفتا هناك وكأنهما أرنبٌ وذئبٌ محجوزان معًا في باحة مسورة. كانت كيا الآن أطول من الامرأة وأغزر ثقافةً، رغم أن الفرار لم يدر بباليهما. أرادت الفرار، بعد كل ذلك الهروب، ولكنها وقفت ثابتةً وردّت على تحديق السيدة كولبيبير بتحديقٍ مثله. أومأت المرأة برأسها قليلاً، ثم تابعت سيرها.

وجدت كيا أغراض النزهة - جبنةٌ، خبزٌ فرنسي، ومكونات قالب الحلوى - ما كلفها كل المال الذي وفرته لهذه المناسبة. بدا وكأن يدًا أخرى أخذت الأغراض ووضعتها في عربة التسوّق. كل ما استطاعت رؤيته هو ذراع تشايس وهي تحيط بكتفي الفتاة. جلبت صحيفةً

محليةً، لأن العناوين ذكرت مختبرًا بحريًا كان من المقرر افتتاحه في المنطقة الساحلية القريبة.

هرولت كلصٍّ إلى الرصيف، لدى خروجها من المتجر، متجهةً جنوبًا.. جلست إلى طاولة المطبخ، بعد عودتها إلى الكوخ، لتقرأ المقال عن المختبر. كانت منشأةً علميةً فاخرةً بالتأكيد، قيد التطوير على بعد حوالي عشرين ميلاً جنوب «باركلي كوف» بالقرب من «سي أوكس». سيدرس العلماء الحياة البرية للسبّخة، والتي تساهم في استمرارية نصف الحياة البحرية تقريبًا، بطريقةٍ أو بأخرى، و...

قلبت كيا الصفحة لتكمل القراءة، فرأت صورةً كبيرةً لتشايس وفتاةٍ فوق إعلان خطوبة: «أندريوز- ستون». خرجت حفنات من الكلمات من فمها، ثم انفجرت بالبكاء، وأخيرًا تنهّدت تنهيداتٍ ممزقة. وقفت تنظر إلى الصحيفة عن بعد. حملتها ثانيةً لتراها، تخيّلت أن ذلك سيحصل قطعًا. ها هما هناك، وجهاهما قريبان، يبتسمان. الفتاة، بيرل ستون، جميلةٌ، وتبدو غنيّةً، وترتدي عقد لؤلؤ وقميصًا مزنرًا. نفس الفتاة التي كان يضمها بذراعيه. الفتاة التي ترتدي اللؤلؤ دائمًا.

تلمّست الحائط إلى الباحة ورمت نفسها على السرير، وقد غطت

فمها المفتوح بيديها. ثم سمعت صوت محرّكٍ. جلست فجأة، ونظرت باتجاه البركة، فرأت تشايس يسحب قاربه إلى الشاطئ.

انسلّت، قبل أن يراها، من باب الباحة بسرعةٍ كفأرةٍ هاربةٍ من علبةٍ مفتوحةٍ وجرت باتجاه الغابة، بعيدًا عن الهور. ربضت خلف أشجار النخيل وشاهدته يدخل الكوخ ويناديها. سيرى المقالة ملقاةً على الطاولة. خرج ثانيةً، بعد دقائق قليلة، وسار باتجاه الشاطئ، متوقّعًا أن يراها هناك.

لم تتزحزح، حتى حين عاد مناديًا باسمها. لم تخرج من الأجمات حتى أخذ قاربه وأبحر بعيدًا. تحركت ببطءٍ، جلبت الطعام للنوارس، وتبعت الشمس إلى الشاطئ. دفعها نسيمٌ قويٌّ من المحيط إلى أعلى المسار، وحين خرجت إلى الشاطئ، كان لديها الريح، على الأقل، لتستند عليها. نادت النوارس ونثرت قطعًا كبيرةً من الخبز الفرنسي في الهواء. ثم شتمت بصوتٍ أعلى وأكثر خبثًا من الريح.

30
الجيَشان

1967

جرت كيا من الشاطئ إلى قاربها وأطلقت عنانه بأقصى سرعةٍ نحو البحر، توجهت مباشرةً إلى الجيشان. أحنت رأسها إلى الوراء وصرخت: «أيها المنحط الوسخ..... يا ابن الكلبة»! هزّت أمواجٌ قذرةٌ ومرتبكةٌ قاربها دافعةً إياه جانبًا، ما ضغط على ذراع الدفة. بدا المحيط غاضبًا، كعادته، أكثر من السبّخة. كان لديه، في أعماقه، الكثير مما يقوله.

تعلّمت كيا، منذ زمنٍ بعيد، كيف تقرأ التيّارات العادية والجيشانات؛ وكيف تعتليها أو تتجنبها بالتعامد معها. ولكنها لم تتجه مباشرة قبل اليوم إلى التيارات الأعمق. كان تيار الخليج يحرّك بعضها وهو الذي يدفع أربعة بلايين قدمٍ مكعبٍ من الماء في الثانية، وهو أكثر

قوةً من أنهار الأرض جميعها، كان يتدفق خلف الأذرع الممتدة لكارولاينا الشمالية. ينتج الموج تياراتٍ ارتدادية متوحشة، ودواماتٍ منقبضة، ودوراتٍ عكسيةً تغزل مع مد الجيشان الساحلي، مولدةً واحدةً من أخبث حفر الأفاعي في بحار الكوكب. كانت كيا قد تجنبت هذه المساحات طيلة حياتها، ولكن ليس الآن. استهدفت اليوم حناجرها مباشرةً، أي شيء لتنتصر على الألم، والغضب.

اندفع الماء الهائج نحوها، مرتفعًا تحت بطن القارب وراميًا إياه إلى الميمنة. مال بقوةٍ ثم توازن. سحبها جيشانٌ ثائرٌ، فزاد من سرعتها بنسبة الربع. بدا الخروج من الجيشان خطرًا، فناضلت للإبحار مع التيّار، باحثةً عن الجروف الرملية، التي تشكل عوائقًا متغيرةً أبدًا تحت سطح الماء. لمسةٌ واحدةٌ قد تقلبها.

تكسّرت الأمواج على ظهرها مبللة شعرها. جرت الغيوم القاتمة السريعة فوق رأسها، فحجبت ضوء الشمس، وأخفت علامات الموج والاضطرابات المائية. وامتصت حرارة النهار.

جافاها الخوف رغم أنها تاقت لتشعر بالهلع، أي شيء لتتخلص من السكين العالق في قلبها.

تغيّر اتجاه المياه المظلمة المتقلبة للتيار فجأةً، ودار القارب إلى الميمنة، مائلًا على جانبه. رمتها قوة الحركة على أرض القارب، وغسلتها مياه البحر. جلست، مصدومةً، في الماء، متأهبةً للموجة القادمة.

لم تكن قريبةً من تيار الخليج أصلًا. كان هذا هو المخيم التدريبي، مجرد حقل لعبٍ للبحر الجدّي. ولكنها غامرت بالقدوم إلى الموج الأكثر خبثًا وقصدت أن تنتصر عليها. أن تكسب شيئًا. أن تقتل الألم.

كانت قد فقدت كل الشعور بالاتزان والنمط، تكسرت الأمواج بألوانها الباهتة من كل زاوية. حشرت نفسها ثانيةً في مقعدها وأمسكت بموجه الدفة ولكنها لم تعرف إلى أين توجهه. امتد البر كخطٍّ بعيدٍ، ظاهرًا بين الفينة والأخرى بين القمم البيضاء. غزل القارب ومال وفقدت الرؤية في اللحظة التي لمحت فيها الأرض الصلبة. كانت واثقةً من قدرتها على ركوب التيار، ولكنه كان قد أصبح قويًّا جدًا، ساحبًا إياها إلى البحر الغاضب المظلم. تجمعت السّحب واستقرّت على ارتفاعٍ منخفضٍ، حاجبةً الشمس. ارتجفت وقد خارت قواها بسبب البلل، ما جعل توجيه القارب صعبًا عليها. لم تجلب معها عدّة الطقس السيء، ولا طعامًا، ولا ماءً.

أتى الخوف أخيرًا. من مكانٍ أعمق من البحر. الخوف من إدراكها أنها ستعود وحيدةً من جديد. ربما دائمًا. حكمٌ مؤبد.

خرجت أصوات حشرجة بشعة من حنجرتها فيما مال القارب واستدار جانبيًا، مائلًا بشكلٍ خطرٍ مع كل موجة.

كانت أرض القارب مغمورةً بطبقةٍ من الماء المزبد بعمق ستة بوصات، تحرق ببرودتها قدميها الحافيتين. ما أسرع ما استطاع البحر والغيوم الانتصار على حرارة الربيع. وضعت ذراعًا فوق صدرها محاولة تدفئة نفسها فيما وجّهت القارب بضعفٍ بيدها الأخرى، دون أن تحارب الماء، بل متحركةً معه.

هدأت المياه، أخيرًا، ورغم أن التيار ما زال يسحبها إلى حيث يريد، فقد توقف المحيط عن الضرب والفوران. رأت كيا، أمامها مباشرةً، جرفًا رمليًّا بطول مئة قدم تقريبًا يتلألأ مع البحر والأصداف المبلولة. ناضلت كيا ضد التيار السفلي القوي، وأدارت موجه الدفة، في اللحظة المناسبة، وأفلتت من التيار. وجهت القارب باتجاه الريح، فرست على الشاطئ في مياهٍ هادئةٍ كأوّل قبلة. خطت نحو المنحدر الضّيّق وغرقت في الرمل. استلقت على ظهرها وتحسست الأرض الصلبة تحتها.

أدركت أنها لا تندب رحيل تشايس، بل حياةً محددةً بالرفض.

قالت بصوتٍ عالٍ، فيما تصارعت السماء والسّحب في الأعلى: «عليَّ أن أمضي في الحياة وحيدةً. ولكني أدرك هذا. أدركت، منذ زمنٍ بعيد، أن الناس لا يبقون».

لم يكن ذكر تشايس للزواج بخبثٍ صدفةً، ولا مضاجعتها، ثم هجرها لامرأة أخرى. علمت مما درسته أن الذكور ينتقلون من أنثى لأخرى، فلماذا كان عليها أن تقع في حب هذا الشخص؟ قاربه المكشوف كان بجمال الرقبة المكتنزة والقرون الضخمة لفحل الأيل في موسم التزاوج: أدوات لطرد الذكور الآخرين وجذب الإناث واحدةً تلو الأخرى. انطلت عليها الخدعة التي انطلت على أمها، ناكحون متسللون مخادعون. ما هي الكذبات التي قالها والدها لأمها؛ لأية مطاعمٍ راقيةٍ أخذها قبل أن ينفد ماله ويشتري لها بيتًا لمستعمرته الحقيقية، كوخٌ في مستنقع؟ ربما من الأفضل ترك الحب كالحقل غير المزروع.

تلت قصيدة لأماندا هاملتون، بصوتٍ عالٍ:

«يجب أن أطلقك الآن.

أدعك ترحل.

يكون الحب، أكثر الأحيان

الجواب للبقاء.

نادرًا جدًا ما يكون سببًا

للرحيل.

أنا أفلت الخيط

وأشاهدك ترحل بعيدًا.

لطالما اعتقدت أن

التيار الناري

لصدر محبّيك

سحبك إلى الأعماق.

و لكنه كان موج قلبي

الذي تركك ترحل بدون هدف

مع طحالب البحر».

وجدت الشمس الضعيفة مساحةً بين السحب الثقيلة القعر، ولمست جرف الرّمل. نظرت كيا حولها. تآمر التيار، ماسح البحر العظيم، وهذا الرمل، كشبكة صيدٍ معقّدة، فقد تناثرت حولها أجمل مجموعة أصدافٍ رأتها في حياتها. جمعت زاوية الجرف وتدفّقه اللطيف الصدفات على الجانب المواجه للرياح وألقتها بلطف على الرمل دون أن تكسّرها. وقع نظرها على عدة صدفاتٍ نادرةٍ والكثير من المفضّلات لديها، لم يمسّها شيء. سالمة ولؤلؤية. لا زالت تتلألأ.

اختارت الأكثر قيمةً بينها وخبأتها في كومة. قلبت القارب، وأفرغت الماء، وصفّت الصدفات بعناية على طول الوصلة بين أخشاب القارب في القعر. خططت لعودتها بعد دراسة الأمواج وكما تعلمت من الصدفات، ستحدد مسارها من الجهة المقابلة للرياح وتتجه مباشرةً إلى اليابسة. ستتجنب التيارات الأقوى بالكامل.

أدركت أن أحدًا لن يرى هذا الجرف الرملي ثانيةً. كانت العناصر قد خلقت بسمةً خاطفةً ومائلةً من الرمل، على هذه الزاوية. سيصمم التيار التالي، في المد القادم، جرفًا رمليًا آخر، وآخر، ولكن ليس كهذا الجرف. ليس كالجرف الذي التقطها. الجرف الذي أخبرها أشياءً.

تلت قصيدتها المفضلة لأماندا هاملتون، أثناء تجوالها على الشاطئ في وقتٍ لاحق:

«أيها القمر المتناقص، اتبع

خطواتي

عبر الضوء غير المعتَرض

بظلال الأرض وشارك أحاسيسي

التي تشعر بالأكتاف

الباردة للصمت

وحدك تعلم

كيف يمتد جانبٌ واحدٌ من اللحظة

بالعزلة

لأميال

إلى الحافة الأخرى،

وكم من السماء تقبع

في شاطئٍ واحد

حين يتزحلق الوقت إلى الخلف

منطلقًا من الرمل».

إن كان أحدهم قد فهم الوحدة، فهو القمر.

غاصت كيا أكثر فأكثر في الطبيعة الخالية من الكلمات، عائدة إلى

الدورات المألوفة لصغار الضفادع ورقصة الحباحب. بدت الطبيعة كأنها الحجر الوحيد الذي لن يزحلقها في وسط الجدول.

31
كتاب

1968

جثم صندوق البريد الصدئ، على جذعٍ قطعه والدها، عند نهاية الطريق التي لم تحمل اسمًا.انحصر بريد كيا بما يُرسل للجمهور. لم تكن لديها فواتيرٌ لتدفعها، ولا صديقاتٌ، ولا عمّاتٌ مسنّاتٌ ليرسلن إليها رسائلًا حلوةً وسخيفة. كان بريدها عاديًا، باستثناء رسالة أمها لسنوات خلت. وكانت لا تُفرغ بريدها لأسابيع.

لكنها سارت إلى صندوق البريد، في السنة الثانية والعشرين من عمرها، وبعد مرور أكثر من سنةٍ على إعلان تشايس وبيرل لخطوبتهما على الطريق الرملي المتوهج بالحر، يوميًا، ونظرت في داخله. وجدت فيه مغلّفًا ذات صباح، فأخرجت محتوياته - نسخةٌ أولى من كتاب الصدفات

البحرية في الساحل الشرقي، لكاثرين دانيال كلارك - بيدها. أخذت نفسًا، ليس هناك من تريه إياه.

نظرت إلى كل صفحةٍ، وهي جالسةٌ على الشاطئ. كانت مؤسسة النشر قد أرسلت لها عقدًا، ردًا على مراسلتها لهم، والرسومات الإضافية التي أرسلتها بعد أن عرفها تايت عليهم. كانت رسوماتها ونصوصها، عن كل عينة صدف، قد اكتملت لسنوات. كتب محررها، السيد روبرت فوستر، قائلًا أن الكتاب سيُنشر في وقتٍ قياسي، وأن كتابها التالي عن الطيور سوف يتبعه سريعًا. تضمّن البريد خمسة آلاف دولارٍ كدفعةٍ أولى. كان والدها ليتعثر برجله المصابة ويبصق أحشاءه.

حملت، بين يديها، النسخة الأخيرة، كانت كل ضربة فرشاةٍ، كل لونٍ اختارته بعناية، كل كلمةٍ عن تواريخ الطبيعة، مطبوعةً في كتاب. كان هنالك أيضًا رسوماتٌ عن المخلوقات التي تعيش في الداخل - كيف تأكل، وكيف تتنقل، وكيف تتزاوج - لأن الناس ينسون ما يحصل مع المخلوقات التي تعيش في الصدفات.

لمست الصفحات وتذكّرت كل صدفةٍ وقصةُ إيجادها، أين كانت على الشاطئ، والموسم، وشروق الشمس. ألبومٌ عائلي.

وضعت متاجر الهدايا والمكتبات، خلال الأشهر التي تلت، وعلى امتداد شواطئ كارولاينا الشمالية، وكارولاينا الجنوبية، وفيرجينيا، وفلوريدا، ونيو إنجلاند، كتابها في واجهاتها وعلى طاولات العرض. ستأتيها عائدات المبيعات كل ستة أشهر، كما قالوا، وقد تكون عدة آلافٍ من الدولارات في كل دفعة.

صاغت رسالة شكرٍ لتايت، وهي جالسةٌ إلى طاولة المطبخ. ولكن قلبها توقف حين قرأتها مرة أخرى. لم تكن الرسالة كافيةً، فقد يصبح حبها للسبّخة عملها مدى الحياة. حياتها. كل ريشةٍ، وصدفةٍ، أو حشرةٍ جمعتها أصبحت تُشارك مع الآخرين، ولن يكون عليها أن تنبش بالوحل للحصول على عشائها. لن يكون عليها أن تأكل حساء الذرة كل يوم، بسبب جميله.

كان القافز قد أخبرها أن تايت يعمل كخبيرٍ بيئيٍ في المركز الجديد والمختبر بالقرب من «سي أوكس»، تطلّب عمله الحصول على قارب بحثٍ بديع. كانت تراه من بعيد، أحيانًا، فتتجنبه.

ذيّلت الرسالة بحاشية: «إن كنت قريبًا ذات يومٍ، فمر بي. أود أن

أعطيك نسخة من الكتاب». ووجهتها إلى عنوانه في المختبر.

وظفت رجل التصليحات، جيري، في الأسبوع التالي، فأدخل الماء الجاري إلى المنزل، وركب سخّان مياه، وحمّامًا كاملًا مع مغطسٍ أرجله كالمخالب في غرفة النوم الخلفية. ركّب مجلىً في رفٍ علته خزانة، وركب مرحاضًا. وُصلت الكهرباء، ووضع جيري موقدًا يعمل على الغاز وثلاجةً جديدة. أصرت كيا على إبقاء مدفأة الحطب، وكومة حطبٍ مرتبةٍ بجانبها، لأنها تُدفئ الكوخ، وربما لأنها كانت قد خبزت ألف بسكوتةٍ من قلب أمها. ماذا لو عادت أمها وكانت المدفأة قد اختفت؟ صنع خزائن مطبخٍ من لبّ جذوع الصنوبر، وبابًا أماميًا جديدًا، وشبكة للناموس على الشرفة الأمامية، وصنع رفوفًا لعيّناتها من الأرض إلى السقف. اشترت أريكةً، وكراسي، وأسرّةً، وفرشاتٍ، وبُسطًا من متجري «سيرز ورويباك»، ولكنها أبقت على طاولة المطبخ القديمة. أصبح لديها الآن خزانةٌ حقيقيةٌ لتخزّن فيها القليل من الذكريات، خزانة ملاحظاتٍ صغيرة لعائلتها التي تساقطت.

وقف الكوخ بلا صباغٍ من الخارج، كما كان، ألواح خشب الصنوبر المتآكلة والسقف الغني باللون الرمادي والصدأ، والمطلي بالطحلب

الإسباني من شجر السّنديان الممتدة فوقه. كان أقل رثاثةً، ولكنه كان لا يزال منسوجًا بحبكة السبّخة. تابعت كيا النوم في الشرفة، ما عدا أيام الشتاء الأكثر برودةً. كان لديها سريرٌ الآن.

أخبرها القافز ذات صباح، بأنه ثمة مطوّرون قادمون إلى المنطقة مع خطط لتجفيف «المستنقع المظلم» ولبناء فنادق. شاهدت، من وقتٍ لآخر، وعلى مر السنوات الأخيرة، آلاتٍ كبيرةً تقطع مجموعاتٍ من أشجار السنديان في أسبوع، ثم تحفر أقنية لتجفف السبّخة. وتنتقل، حين تنتهي، إلى بقعةٍ أخرى، تاركة خلفها آثارًا من العطش والطين المتحجّر. من الواضح، هم أنهم لم يقرأوا كتاب ألدو ليوبالد.

شرحت قصيدة لأماندا هاملتون ذلك بوضوح.

«طفلٌ لطفل

عينٌ لعين

كبرنا كواحد،

نتشارك الأرواح.

جناحٌ لجناح

ورقةٌ لورقة

تركتِ هذا العالم،

قضيتِ نحبك قبل الطفل.

يا صديقتي، الطبيعة».

لم تعلم كيا إن كانت عائلتها تمتلك الأرض أو أنها احتلتها بغير حق، كما فعل أكثر سكان السبّخة لأربعة قرون. كانت قد قرأت كل قصاصة ورقٍ في الكوخ، على مدى السنوات، وأثناء بحثها عن دليلٍ لمكان تواجد أمها، ولم تكن قد رأت أي وثيقة ملكية.

لفّت كتاب الإنجيل بقطعة قماش، فور عودتها من القافز، وأخذته إلى مبنى المحكمة في «باركلي كوف». جلب كاتب المقاطعة، وهو رجلٌ بجبهةٍ عريضة وكتفين صغيرين، السجل الكبير المغلّف بغلاف جلدي، وبعض الخرائط، وبعض الصور الجوية، ووضعها على المنصة حددت كيا، على الخريطة، هورها، ورسمت خطًا بيانيًا للحدود المبدئية

لما اعتقدته أنه أرضها. راجع الكاتب الرقم المرجعي وبحث عن صك الملكية في خزانة حفظٍ خشبية قديمة.

قال لها: «نعم هذه هي. مسحت، واشتراها السيد نابيير كلارك في العام 1897».

قالت كيا: «هذا جدي». تصفّحت صفحات الإنجيل، وهناك، في سجل الولادات والموتى، وجدت اسم نابيير مورفي كلارك، يا له من اسمٍ عظيم. كاسم أخيها. أخبرت الكاتب أن والدها مات، وهو ما حصل، على الأرجح.

«لم تبع لأحدٍ أبدًا. أنا أقرّ، يا ذات الضفيرة، أن الأرض ملكٌ لكِ. ولكن أخشى أنه عليّ إخبارك بوجود بعض عائدات الضرائب، يا آنسة كلارك، وعليك سدادها للمحافظة على ملكية الأرض. ينص القانون، في الواقع، أن من يسدد عائدات الضرائب يمتلك الأرض حتى وإن لم يكن له حقٌّ فيها».

«كم المبلغ؟» لم تفتح كيا حسابًا مصرفيًا، وكان كل ما تملكه من المال، بعد ترميم البيت، حوالي ثلاثة آلاف دولار، حملتها في حقيبة

الظهر. ولكنهم كانوا يتكلمون عن عائدات ضرائب لأربعين سنة، آلاف وآلاف من الدولارات.

«حسنًا، فلننظر هنا. إنها مصنفةٌ كأرضٍ غير صالحة، فكانت أغلب سنواتها الضريبية بحدود الخمسة دولارات. دعيني أحسبها». اقترب من آلةٍ معدنيةٍ سمينة للجمع، نقر الأرقام عليها، وسحب المقبض بعد كل أدخال فأصدرت الآلة جعجعةً وكأنها تحسب الأرقام.

«يبدو أن المجموع النهائي هو بحدود الثمانمائة دولار، سينظّف ذلك سجل الأرض ويحرّرها».

خرجت كيا من مبنى المحكمة وبحوزتها صك ملكيةٍ باسمها لثلاثمائة وعشرة فدادين من البرك الخصبة، والسبّخة المتلألئة، وغابات السنديان، وشاطئٌ خاصٌ وطويل على الخط الساحلي لكارولاينا الشمالية. «مصنّفةٌ كأرضٍ غير صاحة. مستنقع مظلم».

تحدثت، خلال إبحارها نحو هورها عند الغروب، مع طيور مالك الحزين. «كل شيء على ما يرام. هذه البقعة لكم».

وجدت رسالةً من تايت، بعد ظهر اليوم التالي، في صندوق

بريدها، ما بدا غريبًا ورسميًّا بعض الشيء بما أنه كان يترك الرسائل لها على جذع الرّيش. شكرها لدعوتها إياه لزيارتها وأخْذِ نسخة من كتابها وأضاف أنه سوف يكون عندها في بعد ظهر ذلك اليوم بالذّات.

حملت واحدةً من النسخ الست التي أعطاها إياها الناشرون من كتابها الجديد، وانتظرت عند كوخ القراءة القديم. سمع صوت قارب تايت القديم، بعد ما يقارب العشرين دقيقة، آتيًا من القناة فوقفت. لوحا لبعضهما، حين تقدمت من تحت الأيكة، وابتسما بلطف. اتّسم الاثنان بالحذر. كانت قد رمت وجهه بالأحجار في آخر مرةٍ أتاها.

خرج من قاربه، بعد ربطه، واقترب منها. «كيا، كتابك رائع». انحنى قليلاً إلى الأمام، وكأنه يريد معانقتها، ولكن لحاء قلبها الصلب دفعها إلى الوراء.

سلّمته الكتاب، بدلاً من ذلك. «هذا لك يا تايت».

«شكرًا لكِ، كيا»، قال ذلك وهو يفتحه ويتصفحه. لم يذكر، بالطبع، أنه سبق واشترى نسخةً من مكتبة «سي أوكس بوكشيلف» وأعجب بكل صفحة. «لم يُنشر أي شيءٍ كهذا من قبل. أنا متأكدٌ أن هذا

ليس سوى البداية بالنسبة لك».

أحنت رأسها ببساطة وابتسمت قليلاً.

عاد إلى صفحة العنوان، قال: «أووه، لم توقّعيه. يجب أن توجهيه إلي. أرجوك».

رفعت رأسها فجأة إليه. لم تخطر لها هذه الفكرة من قبل. ما هي الكلمات التي قد تكتبها لتايت؟

أخذ قلمًا من بنطاله الجينز وأعطاها إياه.

أخذته وكتبت، بعد ثوانٍ معدودة:

«إلى صبي الريش
أشكرك
من فتاة السبّخة»

قرأ تايت الكلمات، ثم التفت، محدّقًا بعيدًا عبر السبّخة لأنه لا يستطيع أن يحضنها. رفع يدها أخيرًا، وشدّ عليها.

«شكرًا لك، كيا».

«كان الفضل لك، تايت»، قالت ذلك، وفكرت، «كان الفضل دائمًا لك». كان جزءٌ من قلبها يتوق له، والجزء الآخر يحميها.

وقف لدقيقةٍ، وحين لم تضف شيئًا، استدار ليغادر. ولكنه حين صعد إلى قاربه، قال: «كيا، إن رأيتني خارجًا في السبّخة، أرجوكِ لا تختبئي في الأعشاب كغزالٍ شارد. ناديني فحسب لنستكشف معًا. أيناسبك ذلك؟».

«لا بأس».

«شكرًا، مرة أخرى، على الكتاب».

«إلى اللقاء، تايت». راقبته إلى أن اختفى وراء الأجمة، ثم قالت: «كان من الممكن أن أدعوه على الأقل للدخول وشرب الشاي. لن يضر ذلك. قد أستطيع أن أكون صديقته». ثم، وبفخرٍ نادرٍ، فكّرت في كتابها. «قد أستطيع أن أكون زميلته في العمل».

أبحرت كيا، بعد مغادرة تايت بساعة، إلى رصيف القافز، حاملة

نسخةً ثانيةً من كتابها في حقيبة الظهر. رأته متكئًا على حائط متجره الباهت، حين اقتربت. وقف ولوّح لها، ولكنها لم تلوّح له بالمقابل. انتظر بصمت، عالمًا بوجود شيءٍ ما، لبينما ربطت القارب. سارت باتجاهه، ورفعت يده، ووضعت الكتاب في كفّه لم يستوعب الأمر، بدايةً، ولكنها أشارت إلى اسمها وقالت: «أنا بخير الآن، أيها القافز. أشكرك وأشكر مايبل على كل ما فعلتماه من أجلي».

حدّق بها. في زمانٍ ومكانٍ آخرين، كان لرجلٍ أسودٍ وفتاةٍ بيضاءٍ أن يتعانقا. ولكن ليس هناك، ولا بذلك الوقت. غطّت يده بيدها، واستدارت، وأبحرت بعيدًا. كان صامتًا لأول مرة في حياته. ظلت تشتري الوقود والمؤن منه، ولكنها لم تعد تقبل منه عطاءاتٍ بعدها. وكانت ترى كتابها معروضًا في الواجهة كلما أتته، كما يعرضه الأب تمامًا.

32
حجة غياب

1969

تسارعت غيومٌ قاتمةٌ ومنخفضةٌ فوق بحرٍ من الفولاذ باتجاه «باركلي كوف». ضربت الريح أولاً، فهزت النوافذ بعنفٍ ورمت الأمواج فوق الرصيف. تمايلت القوارب المربوطة إلى المرسى صعودًا وهبوطًا كالألعاب، فيما كان رجالٌ بمعاطف مطرٍ صفراء يربطون هذا الحبل أو ذاك، مثبتين القوارب. ثم ضرب المطر الجانبي القرية، مغطيًا كل شيء عدا اللون الأصفر الغريب المتحرك في الخلفية الرمادية.

صفرت الرياح عبر نافذة الشريف، فرفع صوته. «فإذًا، جو، ألديك ما تخبرني إياه؟».

«بالتأكيد لدي. علمت أين ستدّعي الآنسة كلارك أنها كانت في

الليلة التي مات فيها تشايس».

«ماذا؟ هل استطعت أن تصل إليها أخيرًا؟».

«أتمزح؟ إنها تنسلّ كالإنقليس الملعون. إنها تختفي في اللحظة التي أقترب منها. قدتُ الشاحنة إلى مرساة القافز في هذا الصباح لأرى متى ستأتي في المرّة الثانية. عليها الذهاب إلى هناك للتزود بالوقود، كالآخرين. فعرفت أني قد أجدها عاجلاً أم آجلاً. لن تصدق ماذا اكتشفت».

«هات ما لديك».

«لدي مصدران موثوقان يفيدان أنها كانت خارج البلدة في تلك الليلة».

«ماذا؟ من؟ إنها لا تخرج من البلدة، حتى وإن خرجت، فمن سيعلم بذلك؟».

«أتتذكّر تايت ووكر؟ هو الآن الدكتور ووكر. أنه يعمل في المختبر البيئي الجديد».

«أجل، أعرفه. والده صياد روبيان. سكوبر ووكر».

«حسنًا، يقول تايت أنه يعرف كيا - يدعوها كيا - منذ أن كانا صغيرين».

«أووه؟».

«ليس كما تعتقد. كانا مجرد طفلين. من الواضح أنه علّمها القراءة».

«هل قال لك ذلك بنفسه؟».

«نعم. كان هناك عند رصيف القافز. كنت أسأل القافز إن كان يعرف أين أستطيع أن أسأل فتاة السبّخة بعض الأسئلة وكيف. قال أنه لا يعلم من لحظة إلى أخرى متى قد يراها».

«كان القافز دائمًا طيبًا معها. أشك أنه سيخبرنا بالكثير».

«حسنًا، سألته إن كان، بأي شكل من الأشكال، يعرف بما كانت تقوم به في الليلة التي مات فيها تشايس. وقال أنه يعرف، فعلًا، أتت إلى متجره في الصباح التالي لموت تشايس، وأخبرها بنفسه أنه مات. قال أنها كانت في «غرينفيل» لليلتين، من ضمنهما ليلة موت تشايس».

«غرينفيل؟».

«هذا ما قاله، ثم اشترك تايت، الذي كان واقفًا هناك كل الوقت، بالحديث وقال، نعم، كانت في غرينفيل، وهو الذي أخبرها كيف تشتري بطاقة الحافلة».

قال الشريف جاكسون: «حسنًا، هذه أخبار. ومقنعٌ جدًّا أنهما كانا يخبران القصة نفسها. لماذا قد تذهب إلى غرينفيل؟».

«قال تايت أن دار نشرٍ - كيا ألفت كتابًا عن الصّدف وكتابًا عن الطيور البحرية، كما تعلم - حسنًا، تكفّلوا بمصاريفها للذهاب واللقاء بهم».

«من الصعب أن نتصور أن أصحاب دور النشر الفخمة يريدون اللقاء بها. أعتقد أنه من السّهل أن نتأكد من ذلك. ماذا يقول تايت عن تعليمه لها القراءة؟».

«سألته كيف تعرّف عليها. قال أنه كان يذهب بالقرب منها ليصطاد السمك، وحين اكتشف أنها لا تعرف القراءة، علمها ذلك».

«أمممم. هكذا إذًا؟».

قال جو: «هذا يغيّر كل شيء، على أي حال. لديها، قطعًا، حجة براءة. حجةٌ جيدةٌ. أعتقد أن وجودها في غرينفيل هو حجة غيابٍ جيدة».

«نعم. في ظاهر الأمر. أنت تعلم ماذا يقولون عن الحجج الجيدة. ولدينا أيضًا صياد روبيان يقول أنه رآها تبحر مباشرةً إلى برج النار ليلة سقوط تشايس».

«من الممكن أن يكون على خطأ. كان الجو مظلمًا. لم يكن هناك قمرٌ إلى ما بعد الثانية فجرًا. من الممكن أنها كانت في غرينفيل، وقد يكون رأى أحدًا آخر هناك في قارب يشبه قاربها».

«حسنًا، كما قلت، يجب أن تكون هذه الرحلة المفترضة إلى غرينفيل سهلة الاستقصاء».

انحسرت العاصفة إلى أنينٍ ورذاذ؛ بالرغم من ذلك، وبدلاً من السير إلى المطعم، أرسل رجلا القانون من يأتيهم بطلبٍ خارجيٍ من الدجاج والكفتة، والفاصولياء بالزبدة، وطبقٍ من اليقطين الصيفي، وعصير قصب السكّر، والبسكويت.

سمعا طرقًا على الباب، مباشرةً بعد الغداء. فتحته الآنسة بانسي برينس ودخلت. وقف جو وإد. ازدانت قبعتها القماشية باللون الوردي.

«مساء الخير، آنسة بنسي». أومأ الاثنان برأسيهما.

«مساء الخير. إد. جو. هل لي بمقعدٍ؟ لن آخذ الكثير من الوقت. أعتقد أنه لدي معلومات مهمة عن القضية».

«أجل، بالطبع. تفضلي بالجلوس، أرجوك». جلس الرجلان في حين استقرّت الآنسة بانسي على الكرسي كدجاجةٍ كبيرة الحجم، حاشرةً الريش هنا وهناك، وقد جثمت مفكرة الجيب خاصتها على حضنها كبيضة الجائزة. لم يستطع الشريف الانتظار، فأكمل: «ما القضية يا آنسة بانسي؟».

«أووه، بحق السماء، إد. أنت تعلم القضية. من قتل تشايس أندريوز. تلك هي القضية».

«لا نعلم إن كان قد قتل آنسة بانسي. أتفهمين ذلك؟ الآن ماذا لديك لتعطينا؟».

«أنا أعمل في متجر كريس، كما تعلم» لم تتنازل يومًا بالإشارة إلى الاسم الكامل: كريس فايف آند دايم. انتظرت حتى أخذ الشريف تعليقها بالاعتبار مع إيماءةٍ - رغم أن الكل يعلم أنها تعمل هناك منذ أن كانت تبيعه الجنود الألعاب، وحين كان لا يزال صغيرًا - ثم أكملت. «أعتقد أن فتاة السبّخة مشتبه بها. هل هذا صحيح؟».

«من أخبرك بذلك؟».

«أووه، الكثير من الناس مقتنعون بذلك، ولكن باتي لوف هي المصدر الرئيس».

«فهمت».

«حسنًا، رأيت، وبعض الموظفين من متجر كريس، فتاة المستنقع وهي تصعد وتترجّل من الحافلة في الأيام التي تضعها خارج البلدة في الليلة التي مات فيها تشايس. أنا سأشهد بهذه التواريخ والأوقات».

«هكذا إذًا؟» تبادل جو وإد النظرات. «ما هي التواريخ والأوقات؟».

عدّلت الآنسة بانسي جلستها في الكرسي. «غادرت بالحافلة الساعة

2:30 من بعد الظهر في 28 تشرين أول وعادت في الساعة 1:16 في الثلاثين منه».

«أقلتِ أن الآخرين رأوها، أيضًا؟».

«أجل. أستطيع أن أجلب لك لائحةً إن أحببتَ».

«لن يكون ذلك ضروريًا. سنأتي إلى متجر فايف آند دايم إن أردنا شهادة أحد. شكرًا لك يا آنسة بانسي». وقف الشريف، ففعلت الآنسة بانسي وجو الشيء نفسه.

اتجهت نحو الباب. «حسنًا، شكرًا لوقتكما. كما قلت. تعلم أين تجدني».

تبادلوا الوداع.

عاد جو إلى الجلوس. «حسنًا. ها هي النقطة. تؤكد ما قاله تايت والقافز. كانت في غرينفيل في تلك الليلة، أو على كل حال، صعدت إلى الحافلة وذهبت إلى مكان ما».

زفر الشريف طويلاً. «يبدو كذلك. ولكني على يقينٍ أنه إذا

استطاع أحدهم ركوب الحافلة إلى غرينفيل في النهار، فإنه يستطيع العودة بالحافلة في الليل. يقوم بعمله. يعود بالحافلة إلى غرينفيل. ولا يدري به أحد».

«أعتقد. يبدو الأمر غير محتمل».

«اذهب واجلب جدول مواقيت الحافلات. سنرى إن كان الوقت مناسبًا. سنرى إن كان هناك رحلة عودةٍ في ليلة واحدة».

أكمل إد قبل خروج جو: «قد تكون أرادت أن يشاهدوها في وضح النهار خلال صعودها ونزولها من الحافلات. عندما تفكّر في الموضوع، يجب أن تقوم بشيءٍ يختلف فعله عن العادة لتختلق حجة غياب. لتدعي أنها كانت لوحدها في كوخها في الليلة التي مات فيها تشايس، كما هو الحال دائمًا، لا تُعدّ حجة غياب على الإطلاق. لا شيء. خططت لشيءٍ بحيث يراها الكثير من الناس تفعله. فصنعت حجة غيابٍ عظيمةٍ مباشرةً أمام كل هؤلاء الناس في الشارع الرئيس. عبقريةٌ».

«حسنًا، نعم، هذه نقطةٌ جيدة. على كل حال، ليس علينا أن نلعب دور رجال التحرّي بعد الآن. نستطيع الجلوس هنا لنشرب القهوة

وندع السيدات يدخلن ويخرجن من هنا بالنظريات. سأذهب لأجلب جدول مواعيد الحافلات».

عاد جو بعد خمس عشرة دقيقة.

قال: «حسنًا، أنت على حق. انظر هنا، من الممكن ركوب الحافلة من غرينفيل إلى باركلي كوف والعودة ثانيةً في ليلةٍ واحدة. أمرٌ سهلٌ فعلًا».

«نعم، ثمة ما يكفي من الوقت بين الحافلتين لدفع أحدهم من برج النار. أقول أنه علينا الاستحصال على مذكّرة».

33
الندبة

1968

جلست كيا إلى طاولة المطبخ ذات صباحٍ في شتاء عام 1968، توزع الألوان المائية من برتقالي وزهري على الورقة، خالقة الشكل المنفوخ لحبة الفطر. كانت قد انتهت من إعداد كتابها عن الطيور البحرية، وتعمل حاليًا على دليلٍ عن أنواع الفطر. كان لديها مخططٌ لكتابٍ آخر عن الفراشات والعثّ.

كانت الفاصولياء، والبصل الأحمر، ولحم الخنزير المملح تغلي في القدر القديم المجعّد على مدفأة الحطب، والتي تفضلها على غاز الطبخ الجديد. خاصّةً في الشتاء. غنّى سقف الصفيح تحت المطر الخفيف. ثم، سمعت فجأة صوت شاحنةٍ تتقدم باتجاهها. وقد علا هديرها على

قعقعة السقف. اتجهت إلى النافذة، وقد تزايد خوفها، ورأت الشاحنة الحمراء تناور الأخاديد الموحلة بصعوبة.

كانت رد فعل كيا الأول، الهرب، ولكن الشاحنة كانت قد وصلت إلى الشرفة. ربضت تحت عتبة الشّباك، شاهدت رجلاً في الزي العسكري الأخضر-الرمادي يخرج من الشاحنة. وقف هناك، وباب الشاحنة شبه مفتوح، نظر نحو الغابة، أسفل الممر باتجاه البركة. ثم، أغلق الباب بلطفٍ، وهرول عبر المطر إلى باب الشرفة وطرق عليه.

شتمت. قد يضيع، قد يسأل عن الاتجاهات ويكمل طريقه، ولكنها لم تُرِد أن تتعامل معه. قد تستطيع أن تختبئ هنا في المطبخ، متمنّيةً أن يغادر. ولكنها سمعته ينادي: «يووو! هل من أحدٍ في المنزل؟ مرحبًا»

تغلب فضولها على انزعاجها، سارت عبر الغرفة المفروشة حديثًا باتجاه الردهة. وقف الغريب، طويل القامة مع شعرٍ داكن، على الدرجة الأمامية ممسكًا بباب الخشب الخارجي مفتوحًا، على بعد خمسة أقدام منها. بدا زيّه صلبًا كفاية لدرجة أنه يستطيع الوقوف لوحده، وكأنه يمسكه في مكانه. كان صدر سترته مغطّىً بأوسمةٍ مستطيلةٍ بألوان

مختلفة. ولكن أكثر ما يلفت النظر كان ندبةً حمراءً متعرّجة الجوانب تقطع وجهه إلى نصفين من أذنه اليسرى إلى أعلى شفته. شهقت كيا.

عادت بذاكرتها، فورًا، إلى أحد الفصح قبل ستة أشهر من مغادرة أمها المنزل نهائيًّا. سارت وأمها يدًا بيد عبر غرفة الجلوس إلى المطبخ وهما تغنّيان «روك أوف أيدجز»، وجمعتا البيض الملوّن، الذي كانتا قد لونتاه الليلة السابقة. كان الأطفال الآخرون خارجًا يصطادون السمك، فوجدت هي وأمها وقتًا لإخفاء البيض، ثم أحضرا الدجاج والبسكوت إلى الفرن. كان الأشقاء والشقيقات بالغين كفاية للبحث عن الطعام، ولكنهم كانوا يركضون ويبحثون، ويتظاهرون بأنهم لم يجدوه، ثم يرفعون كل غنيمة يكتشفونها عاليًا في الهواء، ويضحكون.

كانت الأم وكيا تغادران المطبخ ومعهما سلال البيض والشوكولا على هيئة أرانب الفصح من متجر «فايف آند دايم»، في اللحظة التي وصل الوالد فيها إلى الصالة.

انتزع قبعة العيد عن رأس كيا ولوح بها بشكل دائري، صرخ بالأم: «من أين أتيتِ بالمال لأجل هذه الأشياء الجميلة؟ قبعاتٌ وأحذيةٌ جلديةٌ لمّاعة؟ هذه البيضات القيّمة وأرانب الشوكولا؟ قولي. ماذا؟».

«هيا، جايك، أرجوك اسكت. إنه عيد الفصح؛ هذا للأولاد».

دفع بالأم إلى الخلف. «كنتِ تبيعين الهوى، هذا هو الأمر. أجلبتِ المال بهذه الطريقة؟ أخبريني الآن». جذب الأم من ذراعيها وهزّها بقوّةٍ لدرجة أن وجهها بدا كأنه يقعقع حول عينيها اللتين بقيتا ثابتتين ومفتوحتين بشكل واسع. تساقطت البيضات من السلة وتدحرجت بألوان متهادية على الأرض.

«أبي، أرجوك، توقف» صاحت كيا ثم أجهشت بالبكاء.

رفع كفه وصفع كيا صفعةً قويةً على وجنتها. «اخرسي، يا حوض الزرع السخيف الباكي! انزعي هذا الفستان السخيف الشكل والحذاء الجميل عنكِ. هذه ثيابٌ عاهرة».

أحنت رأسها، ويداها تمسكان بوجهها، ملاحقةً البيضات التي كانت أمها قد لونتها بيدها.

«أنا أتكلم معكِ، يا امرأة! من أين أتيتِ بالمال؟» حمل قضيب النار الحديدي من الزاوية واتجه نحو الوالدة.

صاحت كيا بأعلى صوتها وتشبّثت بذراع والدها بينما كان يضرب

صدر أمها بقضيب النار. نفر دمها على ثوبها الصيفي المزركش وأصبح منقطًا. ثم تحرّك جسد ضخمٌ نزولاً إلى الصالة ونظرت كيا لترى جودي يعرقل والدها من الخلف، ما أدى إلى وقوعهما وتدحرجهما على الأرض. دخل أخوها بين أمها وأبيها وصاح بأمه وأخته أن يهربا، ففعلتا. ولكن كيا، وقبل أن تهرب، رأت والدها يرفع قضيب النار ويضرب به على وجه جودي، فالتوى فكّه بشكل مرعب، وتدفق الدم. عاد المشهد يُعرض في عقلها الآن كومضة. تكوّم أخوها على الأرض، مستلقيًا بين البيض الليلكي وأرانب الشوكولا. هربت مع أمها عبر أشجار النخيل واختبأتا في الأجمات. كان فستانها مخضّبًا بالدم، وكانت أمها تقول أنه لا بأس بالوضع، البيض لن ينكسر، ولا زالتا تستطيعان طبخ الدجاج. لم تفهم كيا لماذا بقيتا مختبأتين هناك، كانت متأكدة أن أخاها يحتضر، وبحاجة لمساعدتهما، ولكنها كانت خائفةً من أن تتحرّك. انتظرتا لوقتٍ طويل ثم تسللتا راجعتين، نظرتا من النوافذ لتتأكدا أن الوالد كان رحل.

استلقى جودي على الأرض باردًا، يسبح بدمه الراكد حوله، فصرخت كيا قائلةً أنه قد مات. ولكن أمها رفعته ونقلته إلى الأريكة حيث قطبت وجهه بأبرة الخياطة. أخذت كيا قبعتها القماشية عن

الأرض، عندما هدأ كل شيء، وجرت بسرعةٍ عبر الغابة، ورمتها بأقصى قوتها بين الأعشاب المنشارية.

نظرت في عيني الغريب الواقف على مصطبتها وقالت: «جودي».

ابتسم، تجعّدت الندبة، وأجابها: «كيا، تمنّيت أن تكوني هنا». حدّقا، ببعضهما باحثين عن بعضيهما بعيون أكبر سنًا. لم يعلم جودي أنه كان معها طيلة تلك السنوات، في المرات الكثيرة التي أراها فيها الطريق عبر السبّخة، وعلّمها مرارًا وتكرارًا عن طيور مالك الحزين والحباحب. أرادت أن ترى جودي أو أمها، ثانيةً، أكثر من أي شيءٍ آخر. كان قلبها قد محا الندبة وكل ذلك الألم في تلك المجموعة من الذكريات. لا عجب أن عقلها قد دفن المشهد؛ لا عجب أن أمها قد رحلت. ضُربت بقضيب النار على صدرها. رأت كيا تلك البقع الممحية عن الفستان الصيفي المزركش وكأنها دمٌ مرة أخرى.

أراد أن يضمّها، يطبق عليها بذراعيه، ولكنه حين تحرّك نحوها، أنزلت رأسها إلى الجانب بخجل عميق وتراجعت. دخل إلى البهو، ببساطة.

قالت له: «ادخل». قادته إلى غرفة الجلوس المليئة بعيّناتها. مشهدٌ يخطف الأنفاس.

تأوه متعجبًا وقال: «نعم، رأيت كتابك، كيا. لم أعلم بالتأكيد أنها أنت، ولكن نعم، أستطيع الآن أن أرى أنها أنت. عملك رائع». مشى في أرجاء الغرفة ينظر إلى مجموعاتها ويتفحّص الغرفة بأثاثها الجديد أيضًا، مسترقًا النظر من الصالات نزولاً إلى غرف النوم. لم يرد التجسس، ولكنه أراد استيعاب ما يحصل.

«أتريد القهوة، أو الشاي؟» لم تعلم إن كان قد أتى للزيارة أم للبقاء. ماذا كان يريد بعد كل تلك السنوات؟

«القهوة جيدة. شكرًا لكِ».

تذكّر مدفأة الحطب القديمة في المطبخ وقد قبعت بالقرب من الموقد الجديد والثلاجة. مرّر يده فوق طاولة المطبخ القديمة، والتي تركتها كما كانت. بكل تاريخ طلائها المتقشّر. سكبا القهوة في أكواب، ثم جلسا.

«أنت جنديٌّ إذًا».

خدمت دورتين في فييتنام. سأبقى في الجيش لبضعة أشهرٍ قليلةٍ بعد. كانوا طيبين معي. دفعوا قسط شهادتي الجامعية - هندسة الميكانيك، «جورجيا تيك». أقل ما يمكن فعله هو البقاء قليلاً بعد».

لم تكن جورجيا بعيدةً جدًا، كان يمكنه الزيارة قبل الآن. ولكنه كان هناك الآن.

قالت له: «غادرتم جميعًا. بقي والدي بعدكم لفترة، ثم غادر أيضًا. لا أعلم إلى أين، ولا أعلم إن كان حيًّا أم لا».

«هل كنتِ بمفردكِ منذ ذلك الوقت؟».

«أجل».

«كيا، ما كان عليَّ أن أترككِ مع هذا الوحش. لقد تألّمتُ، وشعرت بالفظاعة جراء ذلك لسنوات. لقد كنت جبانًا، جبانٌ غبي. هذه الأوسمة اللعينة لا تعني شيئًا». ضرب بقوةٍ على صدره. «تركتك طفلةً صغيرةً لتعيشين لوحدكِ في مستنقعٍ مع رجلٍ مجنون. لا أتوقع منك أن تسامحينني، أبدًا».

«جودي، لا بأس. كنت لا تزال طفلاً حينها. ماذا كنت تستطيع أن

تقعل؟».

«كان بإمكاني العودة حين كبرت. كان الوضع، في البداية، العيش يومًا بيومٍ في شوارع أتلانتا الخلفية. غادرت هنا ومعي خمسة وسبعون سنتًا في جيبي. سرقتها من المال الذي تركه والدي في المطبخ؛ أخذته وأنا أعلم أني سأترككِ في عوزٍ. شقّيت طريقي بصعوبةٍ في عدة وظائف وضيعة إلى أن قبلوني في الجيش. ذهبنا مباشرةً، بعد التدريب، إلى الحرب. مرّ وقتٌ طويلٌ بعد عودتي إلى الوطن، ظننت أنك غادرت المنزل منذ فترة. لهذا السبب لم أراسلكِ؛ أعتقد أني سجلت طلب العودة كنوعٍ من عقاب الذات. تمامًا ما أستحقه لأني تركتكِ. كاثرين دانيال كلارك. تحطم قلبي حينها، وقفز من الفرحة في نفس اللحظة. كان عليّ أن أجدك، علمت أنه يجب علي البدء من هنا وأتتبعك».

«حسنًا، ها نحن إذًا». ابتسمت لأول مرّة. كانت عيناه لا تزالان كما كانتا من قبل. تتغيّر الوجوه مع مرور الحياة، ولكن العيون تبقى نافذةً إلى ما كان، وبإمكانها رؤيته هناك. «جودي، آسفة لأنك قلقت لأنك غادرتني. لم أملك أبدًا. كنا الضحايا، ولم نكن المجرمين».

ابتسم. «شكرًا لك، كيا». انهمرت الدموع، ونظرا معًا إلى البعيد.

ترددت، ثم قالت: «قد يبدو هذا صعب التصديق، ولكن والدي كان لطيفًا معي لفترة. قل سكره، وعلمني صيد السمك، وخرجنا معًا كثيرًا بالقارب، طفنا السبّخة كلها. ثم عاد إلى شرب الكحول وتركني أواجه الحياة بنفسي».

أومأ جودي. «أجل، رأيت هذا الجانب منه مراتٍ قليلة، ولكنه كان يعود إلى القارورة مجددًا. أخبرني مرّةً أن الموضوع مرتبطٍ بالحرب. أنا كنت في الحرب ورأيت أشياء قد تدفع بالإنسان إلى السُّكْر. ولكنه ما كان عليه أن ينتقم بسبب ذلك من زوجته، وأطفاله بالذات».

سألته: «ماذا عن أمي، والآخرين هل سمعت عنهم شيئًا، أو علمت أين ذهبوا؟».

«لا أعلم أي شيء عن مورف، أو ماندي، أو ميسي. ما كنت لأعرفهم لو صادفتهم بالشارع. أعتقد أنهم ذهبوا هنا وهناك. ولكن بالنسبة لأمنا كيا، هذا سببٌ آخر لمحاولتي إيجادك. هناك بعض الأخبار عنها».

«بعض الأخبار؟ ماذا؟ أخبرني». سرت قشعريرة من ذراعَي كيا إلى

رؤوس أناملها.

«كيا، الأخبار ليست جيدة. علمت في الأسبوع الماضي فقط أن أمي توفيت منذ سنتين».

انحنت من خصرها مغطية وجهها بكفيها. خرج من حنجرتها أنين ناعم. حاول جودي أن يمسك بها، ولكنها ابتعدت عنه.

أكمل جودي: «لأمي أختٌ، روزماري، والتي حاولت البحث عنّا عبر منظمة الصليب الأحمر عندما توفيت أمي، ولكنهم لم يستطيعوا إيجادنا. ثم وجدوني منذ شهرين من خلال الجيش وأوصلوني إلى روزماري».

تمتمت كيا بصوتٍ أجش: «كانت أمي على قيد الحياة لسنتين خلتا. انتظرت كل هذه السنوات لتعود ماشيةً على المسار». وقفت واستندت على المجلى. «لماذا لم تعد؟ لماذا لم يخبرني أحدٌ أين كانت؟ فات الأوان الآن».

اقترب جودي منها، وأحاطها بذراعيه رغم أنها حاولت الابتعاد عنه. «آسف، كيا. تعالي واجلسي. سأخبرك بما قالته روزماري».

انتظرها، ثم قال: «كانت أمي منهارةً حين تركتنا وذهبت إلى نيو أورليانز، حيث نشأت. كانت مريضةً عقليًّا وجسديًّا. أذكر القليل عن نيو أورليانز. أعتقد أني كنت في الخامسة حين غادرت. كل ما أذكره هو بيتٌ جميل، نوافذٌ كبيرةٌ تطل على حديقة. ولكن والدي، - وحين انتقلنا إلى هنا - لم يكن يسمح لنا بالحديث عن نيو أورليانز، أو أجدادنا، وأي شيء مرتبط بهناك. فانمسح كل ذلك».

أومأت كيا: «لم أعلم بذلك مطلقًا».

أكمل جودي: «قالت روزماري أن أهلها كانوا ضد زواج أمي وأبي منذ البداية، ولكن أمي ذهبت مع زوجها إلى كارولاينا الشمالية، وكانوا مفلسين. في النهاية بدأت أمي بمراسلة روزماري وأخبرتها عن ظروفها، كانت تعيش في كوخٍ في مستنقعٍ مع رجلٍ سِكّيرٍ يضربها ويضرب أطفالها. ثم ظهرت أمي يومًا، بعد حين. كانت تنتعل ذلك الحذاء الذي تحبه والمصنوع من جلد التمساح المقلّد. لم تكن قد استحمت أو مشّطت شعرها لأيام.

بقيت أمي ممتنعةً عن الكلام لأشهرٍ، لم تتفوه بكلمةٍ واحدة. عاشت في غرفتها القديمة في بيت أهلها، بالكاد تأكل. جلبوا لها الأطباء،

بالطبع، ولكن أحدًا منهم لم يستطع معالجتها. اتصل والد أمي بالشريف في باركلي كوف ليسأل إن كان أولادها بخير، ولكن مكتب الشريف أخبره بأنهم لا يحتفظون بسجلاتٍ لسكان السبّخة».

نشجت كيا من حينٍ لآخر.

«أصبحت أمي هيستيريةً، بعد وصولها بسنة، وأخبرت روزماري أنها تذكّرت بأنها كانت قد تركت أطفالها. ساعدتها روزماري على كتابة رسالةٍ إلى أبي تسأله فيها إن كانت تستطيع القدوم وأخذنا للعيش معها في نيو أورليانز. أرسل لها رسالة قال فيها أنّها إن عادت أو اتصلت بنا، فسوف يضربنا حتى نفقد الوعي. كانت تعلم أنه قادرٌ على فعل شيء كهذا».

الرسالة في المغلّف الأزرق. كانت أمها قد سألت عنها، عنهم جميعًا. كانت أمها تريد رؤيتها. ولكن نتيجة الرسالة كانت مختلفة كلّيًّا. أغضبت الكلمات والدها وأعادته إلى شرب الكحول، وكانت كيا قد خسرته أيضًا. لم تذكر لجودي أنها لا تزال تحتفظ برماد تلك الرسالة في قارورةٍ صغيرة.

«قالت روزماري أن أمي لم يكن لديها أصدقاءٌ مطلقًا، لم تتناول الغداء مع العائلة أو تتواصل مع أحدٍ أبدًا. لم تسمح لنفسها بالحياة، ولا بالمتعة. تحدثت أكثر، بعد حين، وانحصر حديثها بأطفالها. قالت روزماري أن أمي أحبّتنا طيلة حياتها ولكنها كانت متجمّدةً في مكانٍ مريعٍ من الاعتقاد بأننا سيصيبنا الأذى إن عادت، وبأنها ستعيش وحيدةً إن لم تفعل. لم تتركنا لتمضي بحياتها؛ كانت قد دفعت نحو الجنون وبالكاد أدركت أنها غادرت».

سألته كيا: «كيف ماتت؟».

«كانت مريضةً بسرطان الدم. قالت روزماري أنه كان من الممكن علاجها، ولكنها رفضت الدواء. ازدادت ضعفًا حتى فارقت الحياة منذ سنتين. قالت روزماري أنها ماتت كما عاشت. في ظلامٍ، وفي صمت».

جلس جودي وكيا دون حراك. فكّرت كيا في قصيدة لجالاواي كينل والتي كانت أمها قد وضعت خطًّا تحت أسطرها في كتابها:

«عليَّ أن أقول أني مرتاحٌ لأن الأمر انتهى:

في النهاية كل ما أحسه هو الشفقة

لتلك الحاجة لحياةٍ أكثر

... الوداع».

وقف جودي وقال: «تعالي معي، كيا، أريد أن أريكِ شيئًا». قادها إلى الخارج حيث شاحنته وصعدا إلى الخلف. أزال، بحذرٍ، عائقًا وفتح صندوقًا من الورق المقوّى، وأخرج ملفاتٍ تحوي لوحاتٍ زيتيةً، الواحدة تلو الأخرى. أوقفهم في خلفية الشاحنة. واحدةٌ من ثلاث فتياتٍ صغيرات - كيا وأخواتها - يجلسن القرفصاء عند البركة، ويراقبن اليعاسيب. كان هناك لوحةٌ أخرى لجودي وإخوتهم يحملون امتلأ امتلأ بالسمك.

«جلبتهم معي في حال كنت لا زلتِ هنا. أرسلتها روزماري إلي. قالت أنّ أمي كانت ترسمنا لسنوات، ليلاً ونهارًا».

أظهرت إحدى الرسومات الأطفال الخمسة كلهم وكأنهم يراقبون الفنانة. حدّقت كيا في عيون أخواتها وإخوتها، عائدةً بالنظر إلى عينيها.

سألته همسًا: «لمن منا يعود كل وجه؟».

«ماذا؟».

«لم يكن ثمة صورٌ. لا أعرف وجوههم. لمن منا يعود كل وجه؟».

«أووه». عجز عن التنفس، قال أخيرًا: «حسنًا، هذا ميسي. ثم مورفي. ثم ماندي. بالطبع، هذا الصغير الوسيم أنا. وهذه أنتِ».

أعطاها بعض الوقت، ثم قال: «انظري إلى هذه».

كانت أمامه لوحةٌ زيتيةٌ رائعة الألوان لطفلين يجلسان القرفصاء بين دواماتٍ من العشب الأخضر والزهور البرية. كانت الفتاة لا تزال تحبو، ربما ثلاث سنوات، وقد انساب شعرها الأملس الأسود فوق كتفيها. كان الصبي، أكبر بقليلٍ، مع خصلٍ شقراء، يشير إلى فراشة ملكية، يمتد جناحاها باللونين الأسود والأصفر فوق أقحوانة. كانت يده على ذراع الفتاة.

قال: «أعتقد أن هذا تايت ووكر. وهذه أنت».

«أعتقد أنك على حق. إنه يشبهه. لما قد ترسم أمي تايت؟».

«كان يأتي إلى هنا في بعض الأحيان، يصطاد السمك معي. كان دائمًا ما يعرض أمامك حشرات وأشياء».

«لماذا لا أذكر ذلك؟».

«كنت صغيرةً جدًّا حينها. أبحر تايت، بعد ظهر أحد الأيام، بقاربه إلى هورنا، حيث كان والدي واقفًا متكئًا على عصاه، سكرانًا تمامًا. كنت تمشين ببطء وكان من المفترض أن ينتبه والدي لك. فجأةً، ودون سبب، أخذك والدي من ذراعك وأخذ يهزّك بعنف لدرجة أن رأسك اندفع إلى الخلف. ثم رماكِ في الوحل وبدأ بالضحك. قفز تايت من القارب وجرى مسرعًا إليك. كان عمره سبع أو ثمان سنواتٍ فحسب، ولكنه صرخ بوجه أبي. صفعه والدي، طبعًا، وصاح به ليخرج من أرضه، وألّا يعود وإلّا فسوف يطلق النار عليه.

جرينا، كلنا، في ذلك الوقت، لنرى ما الذي يحصل. حملك تايت، رغم تهديدات أبي، عن الأرض وسلّمكِ لأمي. تأكد أنك بخيرٍ قبل أن يغادر. بقينا نذهب إلى صيد السمك في بعض الحيان بعد ذلك، ولكنه لم يأتِ إلى منزلنا ثانيةً».

جال بخاطرها: «لم يأتِ إلى أن أرشدني إلى البيت في المرة الأولى التي أخذت فيها القارب إلى السبّخة»، نظرت إلى اللوحة، رقيقةٌ جدًّا، مسالمةٌ جدًّا. استخرج عقل أمي، بطريقة ما، الجمال من الجنون. كان أي شخصٍ ينظر إلى هذه اللوحة سيعتقد أنها تصوّر العائلات الأكثر فرحًا،

يعيشون على شاطئ البحر، ويلعبون تحت أشعة الشمس.

جلس جودي وكيا على حافة خلفية الشاحنة، ناظرين إلى اللوحات بهدوء.

أكمل: «كانت أمي منعزلةً ووحيدة. يتصرف الناس تحت هذه الظروف بطريقةٍ مختلفة».

تأوهت كيا بلطف. «أرجوك، لا تكلّمني عن العزلة. لا أحد يخبرني كيف تغيّر الإنسان. أنا عشتها. أنا العزلة نفسها». قالت ذلك همسًا وبنفس واحد. «أنا أغفر لأمي مغادرتها. ولكني لا أفهم لماذا لم تعد، لماذا هجرتني. قد لا تذكّر أنت، ولكنها بعد أن غادرت، قلت لي أن أنثى الثعلب تترك صغارها أحيانًا إن كانت تموت جوعًا أو كانت تحت ضغطٍ شديد. يموت الصغار - كما قد يحدث على كل حال - ولكن أنثى الثعلب ستعيش لتلد أطفالاً مرة ثانيةً حين تكون الظروف أفضل، حين تكون قادرةً على إنشاء جيلٍ جديدٍ يصل إلى مرحلة البلوغ».

«قرأت الكثير عن هذا منذ ذلك الحين. في الطبيعة - هناك حيث يغني جراد الماء - ترفع هذه التصرفات، التي تبدو عديمة الرحمة في

ظاهر الأمر، من عدد مواليد الأم طوال فترة حياتها، وبذلك تنتقل جيناتها المسؤولة عن هجر صغارها في الأوقات الصعبة إلى الجيل التالي. وتستمر وتستمر. يحدث ذلك في البشر، أيضًا. تؤكد بعض التصرّفات، والتي تبدو قاسيةً بالنسبة لنا الآن، استمرارية حياة الإنسان الأول في أي مستنفعٍ يسكنه في وقت معيّن. لما كنا هنا لولاهم. لا زلنا نحمل هذه الغرائز في جيناتنا، وهي تعبّر عن نفسها حين تظهر ظروفٌ معيّنة. ستبقى بعض الأجزاء منّا على ما كان عليه أجدادنا، وما وجب علينا أن نكون لنستمر بالحياة، منذ قديم الأزمان».

«قد تكون بعض الدوافع الأساسية - بعض الجينات القديمة، والتي لم تعد مناسبةً الآن - دفعت أمنا لتغادرنا بسبب الضغط والهلع والخطر الحقيقي للحياة مع والدنا. هذا لا يصحح الأمور؛ كان عليها أن تختار البقاء. ولكننا علمنا أن هذه الميول تتواجد في بصمتنا الجينية، وقد تساعد الإنسان ليسامح حتى الأم الفاشلة. قد يفسّر هذا مغادرتها، ولكني لا زلت لا أفهم سبب عدم عودتها. لماذا لم تراسلني. كان بإمكانها كتابة الرسالة تلو الرسالة، سنةً بعد سنة، إلى أن تصلني واحدةً أخيرًا».

«أعتقد أن بعض الأشياء عصيةٌ على التفسير، فإمّا أن نغفرها وإمّا

لا. لا أعرف الإجابة. ربما ليس هناك تفسير. أنا آسفٌ لأني جلبت لكِ تلك الأخبار السيئة».

«لم يكن لدي عائلة، لا أخبار عن العائلة طوال حياتي تقريبًا. والآن، وفي غضون دقائقٍ، وجدت أخًا وخسرت أمًّا».

«آسف جدًّا، كيا».

«لا تتأسف. لقد خسرت أمي، في الواقع، منذ سنوات، والآن ها أنت عدت، جودي. لا يمكنني إخبارك كم أردت أن أراك ثانيةً. إنه من أسعد وأحزن الأيام في حياتي». لمست ذراعه بأناملها، وكان يعرفها بما يكفي ليعلم أن هذا شيءٌ نادرًا ما تفعله.

عادا ماشيين إلى الكوخ، ونظر حوله إلى الأشياء الجديدة، والجدار المطلي حديثًا، وخزائن المطبخ المشغولة يدويًّا.

«كيف قدرتِ على ذلك، كيا؟ قبل كتابك، كيف حصلتِ على المال، على الطعام؟».

«أووه، هذه قصة طويلة ومملة. كنت أبيع بلح البحر، والمحار، والأسماك المدخنة للقافز».

رمى جودي برأسه إلى الخلف وضحك بصوتٍ عالٍ. «القافز! لم يخطر على بالي لسنوات. هل لا يزال في الأرجاء؟».

لم تضحك كيا. «كان القافز أفضل صديقٍ لي، ولسنوات كان صديقي الوحيد. عائلتي الوحيدة ما لم تحسب النوارس».

سألها جودي بجديّة: «ألم يكن لديك أصدقاء في المدرسة؟».

«ذهبت إلى المدرسة يومًا واحدًا في حياتي». ضحكت. «سخر الأطفال مني، فلم أعد مطلقًا. أمضيت أسابيع أتلاعب بذكاءٍ على المكلّفين بملاحقة الغائبين. والذي لم يكن - بعد كل ما علمتني - صعبًا جدًّا».

بدا مندهشًا. «كيف تعلّمتِ القراءة؟ لتؤلفي كتابك؟».

«علمني تايت واكر، في الحقيقة، القراءة».

«أرأيته بعد ذلك؟».

«من مرة لأخرى». وقفت مواجهةً للمدفأة. «أتريد المزيد من القهوة؟».

شعر جودي بحياة الوحدة معلّقةً في مطبخها. كان ذلك من خلال الكمية الضئيلة للبصل في سلة الخضار، الصحن الوحيد المعلق في المشكاة، وخبز الذرة الملفوف بعنايةٍ بمنشفة الشاي، كما قد تتصرّا أرملةٌ عجوز.

«شربت الكثير، شكرًا». ثم سألها: «ولكن ما رأيك بجولة حول السبخة؟».

«بالتأكيد. لن تصدق ذلك. أنا أملك محرّكًا جديدًا الآن ولكني لا زلت أستخدم القارب القديم ذاته».

كانت الشمسُ قد اخترقت الغيوم وأشرقت لامعةً ودافئة بالنسبة ليومٍ شتائي. وجهت القارب بهما عبر القنوات الضيقة ومصبّات الأنهار الصافية، فهتف حين تذكّر إحدى العقبات، لا زالت كما هي، وجحر حيوان القندس لا زال مكوّمًا في البقعة ذاتها. ضحكا حين وصلا إلى البركة حيث علقت أمهما، وكيا، وأخواتهما بالوحل.

جهّزت مؤونة نزهةٍ، بعد عودتهما إلى الكوخ، وتناولاها على الشاطئ مع النوارس.

قالت له: «كنت صغيرةً جدًّا حين غادر الجميع. أخبرني عن الآخرين». فأخبرها قصصًا عن أخيهما الأكبر، مورف، والذي حملها على أكتافه عبر الغابة.

«كنت تضحكين كل الوقت. كان يهرول ويدور بك بعيدًا هناك. وضحكتِ، ذات مرة، فبللتِ ملابسكِ الداخلية مباشرة على رقبته».

«أووه، كلا! لم أفعل». انحنت كيا، ضاحكةً، إلى الخلف.

«بلى، فعلتِ. بكى قليلاً، ولكنه استمرّ، وجرى مباشرةً إلى الهور إلى أن أصبح تحت الماء، وكنت لا زلتِ على كتفيه. كنا نشاهد جميعًا - أمي، وميسي، وماندي، وأنا - وضحكنا إلى أن بكينا. كان على أمي أن تجلس على الأرض، كانت تضحك بقوة».

خلق عقلها صورًا تتماشى مع القصص. قصيصات وقطع عائلية لم تعتقد كيا أنها ستمتلكها يومًا.

أكمل جودي: «كانت ميسي أول من بدأ بإطعام النوارس».

«ماذا؟ حقًّا! اعتقدتُّ أنني بدأت ذلك بنفسي، بعد أن غادر الجميع».

«كلا، هي أطعمت النوارس كلما أمكنها ذلك. سمتهم كلهم. أسمت أحدهم الأحمر الكبير، أذكر ذلك. كما تعلمين، بسبب البقع الحمراء على مناقيرهم».

«إنه ليس الطائر نفسه، بالتأكيد، مررت عبر بضعة أجيالٍ من الأحمر الكبير شخصيًا. ذاك الذي على اليسار، هو الأحمر الكبير حاليًا». حاولت أن تتواصل مع الأخت التي أعطتها النوارس، ولكن كل ما استطاعت رؤيته هو الوجه في اللوحة. والذي كان أكثر مما حصلت عليه في السابق.

أدركت كيا أن البقعة الحمراء على منقار النورس كانت أكثر من مجرّد زينة. فقط حين تنقر الفراخ على البقعة بمناقيرها يقدم لهم الأهل الطعام الذي جلبوه. إذا تاهت الفراخ عن البقعة الحمراء ولم يدقوا عليها، فلن يطعمهم الأهل وقد يؤدي ذلك إلى موتهم. حتى في الطبيعة، كينونة الأهل هي خطٌّ أرفع مما يعتقد المرء.

جلسا للحظة، ثم قالت كيا: «لا أذكر الكثير عن كل هذا».

«أنتِ محظوظةٌ إذًا. دعي الأمور كما هي فحسب».

جلسا هناك بهدوء. لا يسترجعان الذكريات.

حضّرت عشاءً جنوبيًّا كما كانت أمها لتفعل: فاصولياء مع البصل الأحمر، ولحم الخنزير المقلي، وخبز الذرة مع المقالي، وفاصولياء الزبدة مطهوة بالزبدة والحليب. فطيرة التوت الأسود مع القشطة القاسية ومشروب البوربون الذي جلبه جودي. أخبرها، أثناء تناولهما الطعام، أنه يود أن يبقى لأيامٍ قليلة، إن لم يكن هناك لديها مانع، فقالت أنه مرحّبٌ به للفترة التي يريدها.

«هذه أرضك الآن، كيا. وأنت استحقيتِها. أنا متمركزٌ في فورت بينينغ لفترة، فلن أستطيع المكوث طويلاً. بعد ذلك من الممكن أن أحظى بوظيفةٍ في أتلانتا وسنبقى على اتصال؛ أحب أن أراك كلما استطعت القدوم إلى هنا. معرفة أنك بخير هو كل ما أردته في حياتي».

«أحب ذلك جودي. أرجوك أن تأتي كلما استطعت».

جلسا على الشاطئ، في مساء اليوم التالي، والأمواج تدغدغ أصابع أقدامهما العارية، فتحدثت كيا بطريقةٍ غريبة، وكان تايت حاضرًا في كل

فقرة. كان هناك الوقت الذي أرشدها، في صغرها، إلى السبّخة حين تاهت. أو القصيدة الأولى التي قرأها تايت لها. تحدثت عن لعبة الريش وكيف علّمها القراءة، وكيف أصبح عالمًا في المختبر الآن. كان حبها الأول، ولكنه تخلّى عنها حين ذهب إلى الجامعة، تركها تنتظر عند شاطئ البركة. وهكذا انتهت القصة.

سألها جودي: «منذ متى كان ذلك؟».

«منذ سبع سنواتٍ، على ما أعتقد. حين ذهب إلى تشابل هيل أول مرة»

«هل رأيته بعد ذلك؟».

«جاء ليعتذر؛ قال إنه لا زال يحبني. هو الذي اقترح أن أنشر كتب المراجع. من الجيد رؤيته من وقتٍ لآخر في السبّخة، ولكني لن أورّط نفسي معه ثانيةً. لا أستطيع الثقة به».

«كيا، كان ذلك منذ سبع سنوات. كان لا يزال صبيًّا، والمرة الأولى التي يغادر فيها بيته، والمئات من الفتيات الجميلات حوله. إن كان قد أتى واعتذر ويقول أنه لا يزال يحبك، ربما من الأفضل أن تعطيه فرصة».

«معظم الرجال ينتقلون من أنثى إلى أخرى. الذين لا قيمة لهم يتبخترون، ويجذبونك بكذباتهم. وقد يكون هذا سبب تورط أمي مع رجلٍ كأبي. لم يكن تايت هو الشخص الوحيد الذي هجرني. حتى تشايس أندريوز فاتحني بشأن الزواج، ولكنه تزوج بفتاةٍ أخرى. حتى أنه لم يخبرني بالأمر؛ قرأت ذلك في الصحيفة».

«أنا آسف لذلك. أنا حقًا آسف، ولكن، كيا، ليس الرجال وحدهم غير مخلصين. تعرّضت بنفسي للغش، للهجران، للدوس عليَّ عدّة مرات. فلنواجه الأمر، لا ينجح الحب في كثير من الأحيان. لكنه يصلك بالآخرين حتى عند الفشل. هذا كل ما تملكينه، في نهاية الأمر، الاتصالات. انظري إلينا؛ نحن الآن لنا بعضنا، فكّري، لو كان لدي أطفال وأنت لديك أطفال، حسنًا، هذا خيطٌ جديد كامل من الاتصالات. وهكذا يستمر الأمر. كيا، إن كنتِ تحبين تايت، فأعطي نفسكِ فرصة».

فكّرت كيا في لوحة أمها لتايت ولها في صغرهما، رأساهما قريبان من بعض، مغموران بالزهور الرقيقة الملوّنة والفراشات. قد تكون هذه رسالة من أمها، في النهاية.

في الصباح الثالث لزيارة جودي، أخرجا لوحات أمهما - عدا

واحدةً أبقاها جودي لنفسه - وعلقاها على الجدران. اتخذ الكوخ شكلاً مختلفًا، وكأن نوافذ أكثر فتحت فيه. تراجعت إلى الوراء ونظرت إليهم، كانت استعادة لوحات أمها على الجدران معجزةً. أنقذتها من النار.

ثم سارت كيا مع جودي إلى شاحنته وأعطته حقيبة طعامٍ حضّرتها لرحلته. نظر الاثنان عبر الأشجار، إلى المسار، في أي مكان عدا عيني بعضهما البعض. قال لها أخيرًا، وهو يحمل قصاصةً من ورقة ملاحظات: «من الأفضل أن أذهب، هذا عنواني ورقم هاتفي». تنفست بصعوبة، وتمسكت بيدها اليسرى بالشاحنة لتستقيم بوقفتها فيما أخذت الورقة بيدها اليمنى. هذا شيءٌ بسيطٌ: عنوان أخٍ على قصاصة ورق. هذا شيءٌ مدهشٌ: عائلةٌ استطاعت إيجادها. رقمٌ تستطيع الاتصال به ويردّ عليها. غصت حين سحبها نحوه، وأخيرًا، بعد عمرٍ كامل، ذابت على صدره وبكت.

«لم أعتقد أني سأراك ثانيةً. اعتقدت أنك رحلت إلى الأبد».

«سأكون دائمًا هنا، أعدكِ. أينما أنتقل، سوف أبعث عنواني الجديد. إن احتجتني، راسليني أو اتصلي، أتسمعي؟».

«سأفعل، وعُد لزيارتي كلما استطعت».

«كيا، ابحثي عن تايت. إنه رجل صالح».

ظل يلوّح لها من نافذة الشاحنة طيلة المسار، كانت تبكي وتضحك معًا وهي تنظر إليه. وحين استدار على الطريق بشاحنته، رأته عبر فتحات الغابة حيث توارى الوشاح الأبيض مرّةً، وظلّت يده تلوّح حتى اختفى.

34
تفتيش الكوخ

1969

قال جو: «حسنًا، ليست هنا مرةً أخرى». وهو يطرق على إطار باب كيا الخارجي. وقف إد على الدرج المصنوع من الإسمنت وألواح الخشب، جامعًا يديه حول الفتحة كالكوب لينظر إلى الداخل. ألقت جذوعٌ كبيرة من السنديان المغطاة بجدائلٍ من الطحالب، الظلال على الألواح المتآكلة والسطح المدبب للكوخ. لمعت نتفاتٌ رماديةٌ للسماء عبر الصباح المتأخر لشهر تشرين الثاني.

«بالطبع هي ليست هنا. لا يهم؛ لدينا مذكرة تفتيش. ادخل، أراهن أنه ليس مقفولاً».

فتح جو الباب، مناديًا: «هل من أحد في البيت؟ أنا الشريف».

حدقا، في الداخل، برفوف معرضها.

«إد، انظر إلى كل هذه الأشياء. إنها تمتد حتى الغرفة التالية هناك، وأسفل الصالة. يبدو أنها غادرت الكرسي الهزاز منذ قليل. مجنونةٌ كفأرةٍ بثلاثة عيون».

«ربما، ولكن من الواضح أنها خبيرةٌ جدًا في السبّخة. أنت تعلم أنها نشرت تلك الكتب. فلنبدأ عملنا. حسنًا، هذه هي الأشياء التي يجب البحث عنها». قرأ الشريف بصوتٍ عالٍ من اللائحة القصيرة. «عينات من قماشٍ أحمرٍ صوفي قد يتطابق مع الألياف الحمراء التي وُجدت على سترة تشايس. دفتر مذكراتٍ، أو تقويمٍ، أو دفتر ملاحظاتٍ، أو شيء قد يذكر أمكنةً أو أزمنةً حيث قد تكون قد ذهبت؛ عقد الصدف؛ أو بطاقاتٍ من حافلاتٍ ليلية. ودعنا لا نعبث بأشيائها. لا سبب لنفعل ذلك. نستطيع النظر تحت كل شيءٍ وحول كل شيء؛ يجب أن لا تحطّم أي من هذه».

«أجل، أسمعك. يكاد يكون كالمعبد. نصف الموجود مبهرٌ، والنصف الآخر مقلقٌ».

«سيكون الأمر مملّاً، أنا متأكد من ذلك». قال ذلك وهو ينظر بحذرٍ خلف صفٍّ من أعشاش الطيور. «سأبدأ من غرفة نومها في الخلف».

أنجز الرجلان عملهما بصمت، عثرا على الثياب في الأدراج، بحثا بدقةٍ في زوايا الخزانة، أزاحا المرطبانات الحاوية على جلود الأفاعي وأسنان القروش بحثًا عن الأدلة.

بعد عشرة دقائق، نادى جو: «تعال انظر إلى هذا»

دخل إد الردهة، قال جو: «هل تعلم أن لإناث الطيور مبيضٌ واحد؟».

«عمّا تتحدث؟».

«انظر. تظهر هذه الرّسومات والملاحظات أن إناث الطيور لها مبيضٌ واحدٌ».

«اللعنة جو. لسنا هنا لأجل درسٍ في علم الأحياء. عد إلى العمل».

«انتظر لثانية. انظر هنا. هذا ريشٌ لذكر الطاووس، وتقول الملاحظة أنه مع الزمن، تصبح الريشات أكبر لجذب الإناث، لدرجة أنه

بالكاد يستطيع الذكور الارتفاع عن الأرض. نادرًا ما يستطيعون الطيران بعدها».

«هل انتهيت؟ لدينا مهمةٌ نقوم بها».

«حسنًا، هذا ملفتٌ للانتباه».

خرج إد من الغرفة: «ابدأ العمل، يا رجل».

بعد عشرة دقائق، نادى جو ثانيةً. خرج إد من غرفة النوم الصغيرة باتجاه غرفة الجلوس، قال: «دعني أحزر. وجدت لعبة فأر محشوة بثلاثة عيون».

لم يتلقَ ردًا، ولكن جو رفع قبعة صوفٍ حمراء حين دخل إد الغرفة.

«أين وجدت هذا؟».

«هنا بالضبط، معلقةً على هذا الصّف من الكتب مع هذه المعاطف، والقبعات الأخرى، وأغراض».

«أمام الجميع بهذه الطريقة».

«هنا تمامًا كما قلت».

أخرج إد، من جيبه، الكيس البلاستيكي الحاوي على الألياف الحمراء المأخوذة من سترة تشايس القاتمة في الليلة التي مات فيها، وحملها بالقرب من القبعة الحمراء.

«تبدو متطابقةً تمامًا. نفس اللون، نفس الحجم والسماكة». قال جو ذلك فيما تفحص الرجلان القبعة والعيّنة.

«يتطابقان. يحوي الاثنان الصّوف المتجعّد باللون البيج الممزوج بالأحمر».

«يا رجل، قد تكون هذه هي».

«يجب أن نرسل القبعة إلى المختبر، بالطبع. ولكن إن تطابقت هذه الألياف، سنجلبها للاستجواب. ضعها في الحقيبة وضع ملصقًا على القبعة».

بعد أربع ساعاتٍ من البحث، التقى الرجلان في المطبخ.

مدّد إد ظهره ثم قال: «أنا متأكدٌ أنه لو كان هناك شيءٌ آخر لكنّا وجدناه. نستطيع العودة دائمًا. فلنذهب».

ناور جو بين أخاديد الطريق عائدًا إلى البلدة وقال: «يبدو أنها لو كانت مذنبةً بهذا الشيء، لكانت خبّأت القبعة الحمراء. لم تكن لتعلقها أمام الجميع هكذا».

«قد لا تكون عارفةً أن خيوطًا منها علقت بسترته. أو أن المختبر قد يتعرّف على الألياف. قد لا تعرف شيئًا من هذا».

«حسنًا، قد لا تعرف ذلك، ولكني أراهن أنها تعرف الكثير. تلك الطواويس الذكور التي تتبختر حولها، تتنافس كثيرًا على الجنس، بالكاد تستطيع الطيران. لست متأكدًا ما يعني كل ذلك، ولكنه لا بد أن يعني شيئًا».

35
البوصلة

1969

ظهر كتاب «الطيور البحرية للشاطئ الشرقي» لكاثرين دانيال كلارك، بعد ظهر أحد أيام تموز في 1969، بعد أكثر من سبعة أشهر على زيارة جودي، - كتابها الثاني، مجلّدٌ حوى التفاصيل الدقيقة والجمال - في صندوق بريدها. مررت أناملها على غلافه الرائع لوحتها لنورس. قالت مبتسمةً: «مرحبًا أيها الأحمر الكبير، لقد وصلت إلى الغلاف».

حملت كيا الكتاب الجديد وسارت بصمتٍ إلى فسحة السنديانة الظلّيلة بالقرب من كوخها، باحثةً عن الفطر. شعرت بالأعشاب المتحللة الرطبة باردةً على قدميها حين اقتربت من مجموعةٍ من الفطر ذات اللون الأصفر الكثيف. توقفت في منتصف سيرها. رأت، على جذع الريش

القديم، علبة حليبٍ كرتونيةٍ صغيرةٍ، حمراء وبيضاء، تمامًا كتلك التي كانت تصلها منذ زمن بعيد. ضحكت بصوت عالٍ، غير متوقعةٍ ذلك.

وجدت بوصلةً نحاسيةً ملفوفةً بمنديلٍ ورقيٍ داخل علبة الكرتون، وقد تلطخت باللون الأخضر الرمادي لطول عهدها. شهقت لرؤيتها. لم تكن بحاجة لبوصلة أبدًا لأن الاتجاهات كانت واضحةً بالنسبة لها. ولكن البوصلة كانت لترشدها في الأيام المليئة بالغيوم، حين كانت الشمس صعبة المنال.

قرأت ملاحظةً في ورقةٍ مغلقة: «عزيزتي كيا، هذه البوصلة كانت لجدي من الحرب العالمية الأولى. أعطاني إياها حين كنت صغيرًا، ولكني لم أستعملها قط، وفكرت أنك قد تستخدمينها بالطريقة الأفضل. مع محبتي، تايت. ملاحظة: أنا سعيدٌ لأنك تستطيعين قراءة الملاحظة!».

قرأت كيا الكلمتين عزيزتي ومحبتي مرة ثانية. تايت. الصبي ذو الشعر الذهبي في القارب، يرشدها إلى منزلها قبل العاصفة، مهديًا إياها ريشاتٍ على الجذع المتآكل، يعلمها القراءة؛ المراهق النضر الذي يقودها خلال دورتها الأولى كامرأة، ويوقظ فيها الرغبات الجنسية الأولى كأنثى؛ العالِم الفتي الذي يشجعها على نشر كتبها.

رغم أنها أهدته كتاب الصدف، فقد كانت لا تزال تختبئ في الأكمات حين تراه في السبّخة وهو يجذف بعيدًا عن النظر. كانت الإشارات الخدّاعة التي ترسله الحباحب هي كل ما تعرفه عن الحب.

حتى جودي قال أنها يجب أن تعطي تايت فرصة ثانية. ولكنها في كل مرةٍ فكّرت به أو رأته، قفز قلبها من الحب القديم إلى ألم الهجران. تمنت لو أن الأمر يستقر على جهةٍ أو أخرى.

أبحرت عبر مصبات الأنهار في الضباب الباكر، بعد أيامٍ عدة، والبوصلة في حقيبة الظهر، رغم أنها قد لن تحتاجها. خططت للبحث عن الزهور البرية النادرة على لسان الرمل المُشجّر الممتد إلى البحر، وبحث جزءٌ منها في الطرق المائية عن قارب تايت.

أصبح الضباب عنيدًا فطال مكوثه، فاتلًا مجساته حول فروع الشجر المقطوعة والأغصان المنخفضة. كان الهواء ساكنًا؛ حتى الطيور كانت هادئةً أثناء مرورها في القناة. سمعت صوتًا قربها: «كلونغ، كلونغ» حين نقر مجذاف يتحرّك ببطء حافة القارب، ثم ظهر من الضباب قاربٌ كالغول.

تشكّلت الألوان، التي كانت العتمة قد كتمتها، حين انتقلت إلى الضّوء. شعرٌ أشقرٌ تحت قبعةٍ حمراء. وقف تايت كالقادم من الحلم، في وسطِ قارب الصيد القديم الذي يمتلكه مبحرًا عبر القناة. أطفأت كيا محركها وجدّفت إلى الخلف حتى دخلت في أجمةٍ لتشاهده خلال مروره. دائمًا في الخلف لتشاهده خلال مروره.

هدأت عند الغروب، عاد القلب في مكانه، وقفت كيا على الشاطئ، وقرأت:

«أوقات الغروب لا تكون أبدًا بسيطة.

ضوء الشفق متكّسرٌ ومعكوسٌ

و لكنه لا يكون حقيقيًّا أبدًا.

المساء هو تنكّرٌ

يغطي الآثار،

يغطي الكذبات

نحن لا نهتم

فهذا الغروب يغش.

نرى ألوانًا رائعة،

ولا نتعلم أبدًا

مالت الشمس

تحت الأرض

في الوقت الذي نرى فيه الحريق.

غروبات الشمس متنكّرة،

تغطي الحقيقة، تغطي الأكاذيب»

«أ.ه».

36
للقبض على الثعلب

1969

سار جو عبر الباب المفتوح إلى مكتب قائد الشرطة. «حسنًا، لدي التقرير».

«فلنلق نظرة».

تفحّصه الرجلان بسرعة حتى آخر صفحة. قال إد: «هذه هي. تطابقٌ كامل. أليافٌ من قبعتها كانت على سترة تشايس الممدد على الأرض، ميتًا». ضرب الشريف بالتقرير على معصمه، ثم أكمل: «فلنراجع ماذا لدينا هنا. أولًا، سيشهد صياد القريدس أنه رأى الآنسة كلارك تبحر بقاربها نحو برج النار مباشرةً قبل أن يقع تشايس ويلقى حتفه. ثانيًا،

سوف يدعمه زميله. قالت باتي لوف أن الآنسة كلارك صنعت عقد الصدف لتشايس، واختفى العقد في الليلة التي توفي فيها. ثالثًا: وجدنا ألياقًا من قبعتها على سترته. رابعًا، الدّافع: ظُلمت المرأة. ويمكننا دحض حجة الغياب. يكفينا هذا».

قال جو: «قد يساعدنا وجود دافعٍ أفضل من هذا، لا يبدو هجرانها دافعًا كافيًا».

«لم ننته من التحقيقات بعد، ولكن لدينا ما يكفي لاستدعائها واستجوابها. بما يكفي، على الأرجح، لتوجيه الاتهام إليها. سنرى ما ستؤول إليه الأمور حالما نأتي بها إلى هنا».

«حسنًا، هذه هي المشكلة، أليس كذلك؟ هزمت الجميع لسنوات. ضبّاط متابعة التغيّب، موظفو الإحصاء، اذكر أي أحد، تفوق الجميع ذكاءً، بما فيهم نحن. إذا خرجنا لنلاحقها عبر أعشاب المستنقع، فسيسخر الناس منا».

«لست خائفًا من ذلك. إن لم يستطع أحد أن يلقي القبض عليها، فهذا لا يعني أننا لا نستطيع. ولكن ذلك ليس أذكى طريقة لنفعلها. أقول

أنه يجب أن ننصب فخًّا».

قال المساعد: «أووه، نعم. حسنًا». وأضاف: «أعرف القليل عن نصب الفخوخ. وحين نذهب لنصب فخٍ للثعلب، فإن الفخ هو الذي يخدع. عنصر المفاجأة ليس إلى جانبنا. كنا هناك خارجًا نطرق على بابها بما يخيف الدب البني. ماذا عن الكلاب؟ هذا سيكون شيئًا مؤكدًا».

صمت الشريف لثوانٍ قليلةٍ. «لا أعلم. قد أكون هرمت وضعفت قدراتي في الواحدة والخمسين. ولكن الجري خلف امرأةٍ بكلاب التتبع لاستجوابها لا يبدو صوابًا. يبدو جيدًا للمدانين الهاربين، من أدين مسبقًا ببعض الجرائم. ولكنها، ككل أحدٍ آخر، بريئةٌ إلى أن تثبت جريمتها، وأنا لا أتقبّل استخدام الكلاب لمشتبهٍ بها أنثى. ربما كحلٍّ أخير، ولكن ليس بعد».

«حسنًا، أي نوع من الفخاخ؟».

«هذا ما علينا أن نفكر به».

فيما كان إد وجو يناقشان خيارات القبض على كيا، وفي الخامس

عشر من شهر كانون الأول، طرق شخص ما الباب. لاح شكلٌ ضخمٌ لرجلٍ من خلف الزجاج المحجّر.

ناداه الشريف: «ادخل».

قال إد، لدى دخول الرجل: «حسنًا، مرحبًا يا رودني. كيف نستطيع أن نخدمك؟».

كان رودني هورن، الميكانيكي المتقاعد، قد أمضى معظم أيامه يصطاد السمك مع صديقه ديني سميث. عرفه القرويون هادئًا ومستقرًّا، ودائمًا في ثياب العمل. لم ينقطع عن الكنيسة أبدًا، ولكنه ارتدى ثياب العمل هناك أيضًا، مع قميصٍ جميلٍ ومكويٍ ومنشّىً كاللوح بواسطة زوجته، إلسي.

خلع رودني قبعته المصنوعة من اللباد وحملها أمام بطنه. قدّم له إد كرسيًا، ولكن رودني هز رأسه بالنفي. قال: «هذا لن يأخذ وقتًا طويلاً. مجرّد شيءٍ قد يكون مرتبطًا بموضوع تشايس أندريوز».

سأله جو: «ماذا لديك؟».

«حسنًا، حصل هذا من فترة طويلة. كنت أصطاد مع ديني في

الثلاثين من شهر آب، من هذه السنة، ورأينا شيئًا عند سابريس كوف. أعتقد أنه قد يهمك».

قال الشريف: «أكمل. ولكن أرجوك أن تجلس، رودني. سنشعر جميعًا براحةٍ أكثر إن جلست».

أخذ رودني الكرسي التي قُدّمت له وروى قصته في الدقائق الخمس التي تلت ذلك. نظر إد وجو إلى بعضهما البعض بعد مغادرته.

قال جو: «حسنًا، لدينا الآن دافعٌ».

«فلنجلبها إلى هنا».

37
القروش الرمادية

1969

أبحرت كيا صباحًا قبل عيد الميلاد بأيامٍ فقط، وأبكر من العادة، ببطءٍ وهدوءٍ إلى متجر القافز. كانت تشتري وقودها ومؤنتها قبل الفجر حين لا يكون هنالك أحد سوى الصيادين، منذ بدأ الشريف ونائبه يذهبان إلى منزلها، محاولين إلقاء القبض عليها في البيت - جهودٌ فاشلةٌ كانت تراقبهما أثناءها من غابة النخيل. انطلقت الغيومُ منخفضةً مسرعةً مباشرةً فوق بحرٍ هائج، وهددت، من الأفق لجهة الشرق، ريحٌ عاصفةٌ - ملتويةٌ بإحكامٍ كالسوط. كان عليها أن تأتي بحاجياتها من متجر القافز قبل أن تضرب العاصفة. شاهدت رصيفه، من مسافة ربع ميل، وقد لفه الضباب. خففت السرعة أكثر ونظرت حولها لترى إن كان ثمة قوارب أخرى في الهدوء الضبابي.

رأت شكل القافز، أخيرًا، من مسافة حوالي أربعين ياردة، جالسًا في الكرسي القديم ومستندًا إلى الحائط. لوحت له. لم يرد التحية. لم يقف. هز رأسه قليلاً، مجرد همسة. أفلتت صمام الوقود.

لوحت له ثانيةً. حدّق القافز بها، ولكنه لم يتحرّك.

ضغطت على صمام الوقود واستدارت فجأةً عائدة إلى البحر. ولكن مركبًا ضخمًا ظهر من الضباب، يقوده الشريف. قاربان آخران، على الجانبين. وخلفهم مباشرةً، العاصفة.

أطلقت العنان لمحركها، وأبحرت بقاربها كأنه إبرةٌ بين القوارب القادمة، يضرب قاربها زبد الموج الأبيض وهي متجهةٌ إلى البحر المفتوح. أرادت أن تعود إلى السبّخة، ولكن الشريف كان قريبًا جدًّا؛ قد يقبض عليها قبل الوصول إلى هناك.

لم يعد البحر يحرّك أمواجه بشكلٍ متوازٍ بل بعشوائية. بدا الماء أكثر خبثًا حين لمسته حافة العاصفة. أطلقت العاصفة مطرًا غزيرًا في ثوانٍ. ابتلت تمامًا، والتصقت خصلٌ من شعرها على وجهها. استدارت مواجهةً الريح لتحاشي الانقلاب، ولكن البحر اندفع فوق مقدمة القارب.

كانت تعلم أن قواربهم أسرع، فأبحرت إلى الأمام باتجاه الريح الهوجاء. قد تستطيع إضاعتهم في هذا الضباب أو تغطس في البحر وتسبح لتنجو. درس عقلها تفاصيل القفز، والذي بدا كأنه الفرصة الأفضل. سيكون هناك ارتجاع للماء أو شقّ على هذه المسافة القريبة من الشاطئ، وسيسحبها تحت الماء، بأسرع مما تستطيع السباحة. تستطيع أن ترفع رأسها لتتنفس بين الفينة والفينة، تستطيع الوصول إلى اليابسة والاختفاء في أدغال الشاطئ.

أسرعت قواربهم خلفها بصوتٍ أعلى من العاصفة. يقتربون. كيف تستطيع أن تتوقف ببساطة؟ لم تستسلم من قبل أبدًا. يجب أن تقفز الآن. ولكنهم أحاطوا بها كالقروش الرمادية، مقتربين ببطء. مر أحد القوارب أمامها فصدمت جانبه. ارتمت إلى الخلف على اللوح الخارجي فاهتز عنقها. مد الشريف يده وأمسك بهيكل القارب، والأمواج المتلاطمة تلعب بهم. صعد رجلان إلى قاربها وقال المساعد: «الآنسة كاثرين كلارك، أنت قيد الاعتقال بجريمة قتل السيد تشايس أندريوز. يحق لك التزام الصمت...».

لم تسمع البقية. لا يستمع أحدٌ للبقية.

38
قاضي الأحد

1970

أغمضت كيا عيناها بوجه النور الساطع الصادر من المصابيح المعلقة فوقها والنوافذ الممتدة إلى السّقف. كانت قد عاشت في العتمة لشهرين، ولمحت الآن حافة السبخة الناعمة في الخارج. سنديانات مستديرةٌ تغطي نباتات السرخس والبهشية القزمة. حاولت أن تبقي نظرها على الأخضر النضر لثانيةٍ أطول، ولكنها اقتيدت بأيدٍ صارمةٍ إلى طاولةٍ طويلةٍ ومقاعدٍ حيث جلس محاميها، توم ميلتون. كان معصماها مكبلين أمامها، ما أجبر يديها على اتخاذ وضعية الصلاة. كانت ترتدي بنطالاً أسود فضفاضًا وقميصًا بيضاء بسيطةً، وقد ضفرت شعرها في ضفيرةٍ واحدةٍ أسدلتها بين لوحي كتفيها، لم تلتفت لتنظر إلى الحضور. لكنها شعرت بالحرارة وخشخشة ثياب الناس المحتشدة في غرفة

المحكمة لمحاكمتها بقضية القتل. شعرت بأكتاف الناس ورؤوسهم تتمايل لرؤيتها. ليروها في الأصفاد. زاد من غثيانها رائحة العرق، والدخان العتيق، والعطرُ الرخيص. توقفت الهمهمة ولكن الصخب ارتفع لدى اقترابها من مقعدها، بدت الجلبة كلها وكأنها قادمةٌ من بعيد، إلا صوت تنفسها المتهدج. حدّقت في ألواح الأرضية - كانت مصنوعةً من لبّ خشب الصنوبر المطلي بفخامة - حين أُزيلت الأصفاد، جلست بثقلٍ في كرسيها.. كانت الساعة التاسعة والنصف صباحًا في الخامس والعشرين من شباط، 1970.

مال توم نحوها وهمس أن كل شيءٍ سيكون على ما يرام. لم تقل شيئًا بل بحثت في عينيه عن الإخلاص، أي شيءٍ للتشبث به. لا لأنها صدقته، بل لأنها، وللمرة الأولى، تسلّم زمام أمورها لأحد. كان طويلًا بالنسبة لشخصٍ في الحادية والسبعين من العمر، ارتدى شعره الأبيض السميك وبذّته الكتانية المحافظة كرجلٍ مهذب. تحرك برقّةٍ وتكلم بهدوءٍ خلف ابتسامةٍ لطيفةٍ عاشت على وجهه.

كان القاضي سيمز قد عيّن محاميًا شابًا للآنسة كلارك، بما أنها لم تفعل ذلك بنفسها، ولكن توم ميلتون، ترك تقاعده حين سمع بهذا، وطلب أن يمثلها لأجل الصالح العام. كان قد سمع قصصًا عن فتاة

السبّخة، كالآخرين، ورآها على مر السنين من مرةٍ لأخرى، إما مارةً عبر الطرق المائية كجزءٍ من التيار، أو مهرولةً من البقالة كحيوان الراكون الهارب من صفيحة القمامة.

أخذوه إلى غرفة صغيرة، حين زار كيا في السجن للمرة الأولى، منذ شهرين، حيث جلست إلى طاولة. لم ترفع نظرها إليه. كانت لديه حاجةٌ ملحّةٌ لمد يده والتربيت على يدها، ولكن شيئًا ما - ربما جلوسها بالشكل المستقيم أو الطريقة التي كانت تحدق بها، عينان خاليتان - حماها من اللمس. حرّك رأسه من عدة زوايا محاولاً أن يلتقط نظرتها، شرح لها إجراءات المحكمة، ماذا عليها أن تتوقع، ثم سألها بعض الأسئلة. ولكنها لم تجبه قط، ولم تنظر إليه أبدًا. استدارت برأسها، حين اقتيدت خارج قاعة المحكمة، وخطفت نظرةً عبر النافذة حيث استطاعت أن ترى السّماء. صرخت طيور البحر فوق مرفأ البلدة، وبدت كيا كأنها تراقب أغانيها.

مد توم يده، في الزيارة التالية، إلى كيسٍ من الورق البني ومرر إليها كتابًا بالحجم المتوسط كالكتب التي توضع على الطاولة للضيوف عنوانه أندر الأصداف في العالم، وهو مفتوحٌ على رسوماتٍ زيتيةٍ بالحجم

الطبيعي للأصداف من أبعد شواطئ للكرة الأرضية. انفرج ثغرها قليلاً، وقلبت الصفحات على مهلٍ، مشيرة إلى بعض العيّنات. أعطاها الوقت. ثم، تكلم إليها ثانيةً، وهذه المرّة نظرت إلى عينيه. شرح لها، بصبرٍ، إجراءات المحكمة ورسم صورةً لقاعة المحكمة، دالّاً على مكان جلوس هيئة المستشارين، ومقعد القاضي، وأماكن جلوس المحامين وأين ستجلس هي. ثم أضاف أشكال القضبان حيث يقف حاجب المحكمة، والقاضي، وكاتب المحكمة، وشرح لها دور كل واحدٍ منهم.

كما حاول أن يشرح الدلائل التي تستخدم ضدها، كما في لقائهما الأول، وأن يسأل أين كانت في الليلة التي توفي فيها تشايس، ولكنها حشرت نفسها في قوقعتها لدى ذِكر أية تفصيل. أعادت الكتاب إلى الطاولة، حين وقفت مغادرةً، ولكنه قال: «كلا، جلبته لكِ. إنه لكِ».

عضّت على شفتيها ورمشت.

حاول أن يشتت انتباهها، في أول مرةٍ لهما في المحكمة، عن الصخب خلفهما بالإشارة إلى أوصاف المحكمة في الرسمة. ولكن تحويل انتباهها فشل. أصبحت القاعة، بحدود الساعة 9:45 صباحًا، كالمعرض

حيث احتشد القرويون حاشرين أنفسهم في كل مقعدٍ بأصواتهم العالية وهم يعلّقون على الدلائل، وعقوبة الإعدام. جلس عشرون آخرون في شرفةٍ صغيرة عند الخلف، ورغم عدم وجود لوحات تفيد ذلك، إلا أن الجميع يعرفون أن الملونين كان يُسمح لهم بالجلوس في الشرفة فقط. كانت القاعة اليوم مليئةً بالبيض غالبًا، مع القليل من السّودِ، بما أن القضية برمتها كانت تخص البيض. جلس بعض الصحافيين في القسم القريب من الأمام من جريدتي «ذا أتلانتا كونستيتيوشن» و«ريلاي هيرالد». تجمّع من لم يجد مقعدًا على طول الحائط الخلفي وعلى طول الجانبين بالقرب من النوافذ. يتململون، ويتمتمون، ويثرثرون. كانت فتاة السبخة قيد المحاكمة، ماذا يريدون أفضل من ذلك؟ مط «قاضي الأحد»، قط قاعة المحكمة - كان وجهه قناعًا أبيضًا وأسودًا حول عينين خضراوين - ظهره في بركةٍ من ضوء الشمس في إحدى عتبات النوافذ. كان يعتبر منذ سنوات من تجهيزات قاعة المحكمة، نظّف القبو من الجرذان وقاعة المحكمة من الفئران، فاستحقّ مكانته.

كانت «باركلي كوف» أول قريةٍ استقرّت في هذا الامتداد لشاطئ كارولاينا الشمالية الممزق والسبخي، فأعلنها الملك مركزًا للمقاطعة وبنى

قاعة المحكمة الرئيسية فيها عام 1754. بقيت «باركلي كوف» المركز الفعلي لحكومة المقاطعة، حتى حين أصبحت بلداتٌ أخرى مثل «سي أوكس» أكثر سكانًا وتطورًا.

ضربت صاعقةٌ قاعة المحكمة الرئيسة في عام 1912، ما أدى إلى احتراق أكثر البنية الخشبية وتحويلها إلى رماد. بُنيت في العام التالي على المربّع نفسه عند نهاية الشارع الرئيس، فكانت من طبقتين من الطوب مع نوافذٍ بطول اثنا عشر قدمًا مؤطرة بالغرانيت. كانت الأعشاب البرية وأشجار النخيل، في الستينات من القرن العشرين، وحتى القليل من نباتات البرك، قد دخلت هناك من السبّخة وتغلّبت على الأرض التي كانت يومًا نظيفة. فاضت بركةٌ مخنوقةٌ بالليلك في جدولٍ، على مر السنين، فأكلت جزءًا من الرصيف الجانبي.

كانت قاعة المحكمة نفسها، المصممة كنسخةٍ مطابقةٍ للأصلية، تفرض نفسها. وقف مقعد القضاة المرتفع، والمصنوع من خشب الماهوغاني الداكن وشعار الولاية الملون، تحت عدة أعلامٍ، ومن ضمنها أعلام الحلفاء. كان الجدار النصفي لصندوق هيئة المحلفين، المصنوع أيضًا من خشب الماهوغاني، مزينًا بخشب الأرز الأحمر، وأطرت النوافذ،

التي اصطفّت على جانب واحد من القاعة، البحر.

أشار توم، لدى دخول المسؤولين إلى قاعة المحكمة، إلى الشخصيات المرسومة كالعيدان في رسمته وشرح لها من يكونون. «هذا حاجب المحكمة، هانك جونز». قال ذلك فيما كان رجلٌ في الستينات من عمره بشعر ممشط إلى خلف أذنيه، ما جعل رأسه نصف أصلع، يمشي إلى مقدمة القاعة. ارتدى زيًّا رماديًّا بحزامٍ عريض، وعلّق عليه جهازًا لاسلكيًا، وكشّافًا، وحزمة لافتة للنظر من المفاتيح، وفيبجعبته مسدس كولت

خاطب السيد جونز الحضور. «آسف أيها الناس، ولكنكم تعرفون قوانين الحريق هنا. إن لم تجد لك مقعدًا فعليك المغادرة».

«هذه الآنسة هينرييتا جونز، ابنة الحاجب، وهي كاتبة المحكمة». قال توم ذلك فيما سارت امرأةٌ شابةٌ، بطول أبيها وجسده، بهدوءٍ وجلست إلى الطاولة بالقرب من مقاعد القضاة. كان محامي الادعاء جالسًا مسبقًا، السيد إيريك تشاستاين، سحب دفتر ملاحظاتٍ من حقيبته. كان إيريك، رجلٌ ذو صدرٍ عريض، ورأسٍ بشعرٍ أحمر، بطول ستة أقدام تقريبًا، يرتدي بزّةً زرقاء وربطة عنقٍ عريضة بلون

فاتحٍ اشتراها من «سيرز، روبياك» في «آشفيل».

نادى حاجب المحكمة جونز: «فليقف الجميع. هذه المحكمة منعقدةٌ. فليتفضل القاضي المبجّل هارولد سيمز». ساد صمتٌ مفاجئ. فتح باب القاعة ودخل القاضي سيمز وأومأ للجميع أن يجلسوا، وطلب من محامي الادعاء ومحامي الدفاع أن يتقدما من المنصّة. رجلٌ ضخم العظام مع وجهٌ مستديرٌ وسوالف بيضاء قليلة الشعر، كان يعيش في «سي أوكس»، ولكنه كان قد تولّى قضايا «باركلي كوف» لتسع سنوات. كان الكل يعرف أنه لا يحب الهراء، وأنه متّزن العقل، وذو أحكام عادلة. انطلق صوته عبر القاعة.

«السيد ميلتون، طلبك لنقل هذه المحاكمة إلى مقاطعةٍ أخرى على أساس أن الآنسة كلارك لا تستطيع أن تحصل على محاكمةٍ عادلةٍ بسبب الأحكام المسبقة عليها من المجتمع هنا مرفوض. أنا أوافق على أنها عاشت في ظروفٍ غير عاديةٍ وتعرضت إلى بعض الأحكام المسبقة، ولكني لا أرى دليلاً على أنها تحمّلت أحكامًا مسبقةً أكثر من معظم الناس الذين يُحاكَمون في البلدات الصغيرة عبر هذه الأمة. وحتى في البلدات الكبيرة، في نفس الظروف. سنستمرّ هنا والآن». انتشرت

إيماءاتٌ بالموافقة عبر القاعة في حين عاد المحاميان إلى مقعديهما.

أكمل: «كاثرين دانيال كلارك من مقاطعة باركلي، كارولاينا الشمالية، أنت متهمةٌ في جريمة قتلٍ من الدرجة الأولى بحق تشايس لورانس أندريوز، سابقًا من باركلي كوف. تُعرّف جريمة القتل من الدرجة الأولى على أنها عملٌ عن سبق إصرارٍ وترصّدٍ، ويسمح للولاية، في تلك الحالات، طلب إنزال حكم الإعدام. أعلن الادعاء أنه سيطلب ذلك في حال ثبوت ذنبك». سرت همهمةٌ في القاعة.

بدا أن توم يقترب قليلاً من كيا، وهي لم تنكر على نفسها هذه الطمأنينة.

«سنبدأ باختيار المحلفين». استدار سيمز نحو الصفين الأماميين الذين امتلأ بالمحلفين المحتملين. وفيما كان يقرأ لائحةً من القوانين والشروط، قفز «قاضي الأحد» من على مصطبة النافذة محدثًا جلبة وبحركة انسيابية واحدة، على منصّة القاضي. ربت القاضي سيمز على رأس القط، لا شعوريًا، وأكمل.

«تسمح ولاية كارولاينا الشمالية، في القضايا الكبرى، باعتذار

أعضاء هيئة المحلفين عن المهمة، ممن لا يؤمن بعقوبة الإعدام. فضلاً، ارفع يدك إن كنت لن تفرض، أو لا تستطيع أن تفرض، حكم عقوبة الإعدام إن صدر الحكم بتجريم المتهمة». لم ترتفع أي يدٍ.

«عقوبة الإعدام» كان كل ما سمعته كيا.

أكمل القاضي: «ثمة سببٌ قانونيٌ آخرٌ لإعفاء أحد أعضاء هيئة المحلفين وهو وجود علاقةٍ قريبةٍ من الآنسة كلارك أو السيد أندريوز، حاليًا أو سابقًا، وهو ما قد يحول دون كونكم موضوعيين في هذه القضية. فضلاً أعلموني الآن إن كنتم تشعرون بأن هذا ينطبق عليكم».

رفعت السيدة سالي كولبيبير يدها، من منتصف الصف الثاني، وذكرت اسمها. كان شعرها الرمادي مسحوبًا بقوةٍ إلى الخلف بعقدةٍ صغيرة، وكان لقبعتها، ولبدلتها، ولحذائها نفس اللون البني الباهت.

قال القاضي: «حسنًا سالي، أخبريني ما يجول بفكرك».

«كنت ضابط ملاحقة الغياب في مقاطعة باركلي، كما تعلم، لما يقرب من خمس وعشرين سنة. كانت الآنسة كلارك واحدةً من القضايا التي عملت عليها، فتعاملت معها قليلاً، أو حاولت أن أفعل ذلك».

لم يكن بمقدور كيا رؤية السيدة كولبيبير، أو أي أحدٍ من الواجهة الرئيسية، إلا إذا استدارت، وهو ما لن يحصل أبدًا، بالطبع. ولكنها تذكرت بوضوح حين جلست السيدة كولبيبير، في آخر مرة زارتها، في السيارة فيما حاول الرجل ذو القبعة أن يتعقبها. تساهلت كيا مع الرجل العجوز قدر الإمكان، منطلقة بصخبٍ داخل توت العلّيق لإعطائه دليلًا، ثمةاستدارت عائدةً واختبأت في الشّجيرات بالقرب من السيارة. ولكن فيدورا جرى بالاتجاه المعاكس نحو الشاطئ.

ضربت كيا غصنًا من شجر الإيلكس بباب السيارة، وهي رابضةٌ خلف الأغصان، فنظرت السيدة كالبيبير عبر نافذة السيارة مباشرةً في عينيها. اعتقدت آنذاك أن ضابطة ملاحقة الغائبين ابتسمت قليلاً. لم تفعل شيئًا لتسليمها عندما عاد فيدورا، الذي شتم، ثم قاد سيارته عبر الطريق ولم يعد أبدًا.

قالت السيدة كالبيبير للقاضي: «حسنًا، بما أني تعاملت معها، لا أعلم إن كان هذا يعني أنه علي أن أتنحّى».

قال القاضي سيمز: «شكرًا لكِ، سالي. قد يكون البعض منكم تعاطى مع الآنسة كلارك في المتاجر أو بطريقةٍ رسميةٍ، كما هو الحال

مع السيدة كالبيبير، ضابط الغياب. زبدة الموضوع هي: هل تستطيعون الاستماع إلى الشهادة المقدمة هنا وتقررون إن كانت مذنبة أم بريئة بناءً على الدلائل، وليس على الخبرات السابقة أو المشاعر؟».

«أجل سيدي، أنا متأكدة أني أستطيع ذلك. سعادة القاضي».

«شكرًا لكِ، سالي، يمكنك البقاء».

جلس سبع نساءٍ وخمسة رجالٍ، عند الساعة 11:30، في مقصورة هيئة المحلفين. استطاعت كيا رؤيتهم هناك واسترقت نظراتٍ سريعةٍ إلى وجوههم. عرفت معظمهم من القرية أو عرفت بعض الأسماء. جلست السيدة كالبيبير في الوسط مباشرةً ما أراح كيا قليلاً. ولكن تيريسا وايت، جلست بالقرب منها. كانت الزوجة الشقراء للمبشّر الميثودي، والتي جرت منذ سنوات من متجر الأحذية وأبعدت ابنتها عن كيا الجالسة بعد تناول طعام العشاء في المطعم مع والدها - لمرةٍ واحدةٍ لم تتكرر - كما جلست السيدة وايت، التي كانت قد قالت لابنتها أن كيا قذرة، مع هيئة المحلفين.

طلب القاضي سيمز استراحة غداءٍ حتى الساعة 01:00 ظهرًا.

سيحضر المطعم سمك التونة، وسلطة الدجاج، وسندويشات لحم الخنزير لهيئة المحلفين، الذين سيأكلون في غرفة المداولة. وقدم مطعم «ذا دوغ غن بير هال»، للعدل بين مؤسستي الطعام الاثنتين في البلدة، النقانق، والفلفل الحار، وشطائر الروبيان يومًا بعد يوم.. كانا دائمًا يجلبان الطعام للقط أيضًا. يفضّل «قاضي الأحد» شطائر الروبيان.

39
تشايس بالصدفة

1969

انقشع الضباب صباح آب/ في العام 1969 فيما كانت كيا تبحر إلى شبه جزيرةٍ بعيدةٍ يدعوها المحلّيون «سايبريس كوف»، حيث رأت مرّةً أنواعًا نادرةً من فطر «مقعد الضفدع». كان آب متأخرًا بالنسبة للفطر، ولكن «سايبريس كوف» كانت باردةً ورطبة، وقد تستطيع إيجاد الفصائل النادرة ثانيةً. كان قد مرّ أكثر من شهرٍ منذ أن ترك تايت البوصلة على جذع الريش، ورغم أنها رأته في السبّخة مرارًا، فهي لم تقترب منه أبدًا لتشكره على الهدية. ولا حتى استخدمت البوصلة، رغم كونها مخبّأةً بأمانٍ في واحدةٍ من الجيوب العديدة في حقيبة ظهرها.

حضنت الأشجار المغطّاة بالطحالب الشاطئ، وشكّلت أغصانها المنخفضة كهفًا قريبًا من الشاطئ الذي اقتربت منه، باحثةً في الأكمات

عن حبوب الفطر الليمونية على سيقانها النحيفة. رأتها أخيرًا، صلعاءٌ ولامعة، ومتشبثةٌ بجوانب جذعٍ قديم. ركنت قاربها، وجلست متربعة في الجون، وأخذت ترسمها

سمعت، فجأةً، صوت أقدامٍ على النثار، ثم صوته يقول: «حسنًا، انظروا من هنا. فتاتي من السبّخة». استدارت بسرعةٍ واقفةً في الوقت نفسه، ووقفت وجهًا لوجهٍ أمام تشايس.

قال: «مرحبًا، كيا». نظرت حولها. كيف وصل إلى هنا؟ لم تسمع صوت قارب. قرأ سؤالها. «كنت أصطاد السّمك، رأيتك خلال مرورك، فنزلت عند اليابسة هناك على الضفّة الأخرى».

قالت: «أرجوك، ارحل فحسب». جمعت أقلامها وأوراق الرسم في حقيبة الظهر.

ولكنه وضع يده على ذراعها. «هيا، كيا. أنا آسف على ما آلت إليه الأمور». انحنى صوبها ورائحة إفطار البوربون تفوح من نفسه.

«لا تلمسني».

«هاي، قلت لكِ إني آسف. أنت تعلمين أننا ما كنا لنستطيع

الزواج. ما كنتِ لتقدرين على العيش بالقرب من البلدة. ولكني دائمًا اهتممت لأمرك؛ بقيت بجانبك».

«بقيت بجانبي! ماذا تعني بذلك دعني وشأني». وضعت حقيبة الظهر تحت ذراعها وسارت نحو القارب، ولكنه أمسكها من ذراعها بقوّة.

«كيا، لن يكون هناك أحدٌ مثلك، أبدًا. وأعلم أنك تحبينني». سحبت ذراعها بقوةٍ من بين يديه.

«أنت مخطئٌ! لست متأكدة أبدًا أني أحببتك يومًا. ولكنك كلمتني عن الزواج، أتذكر؟ تحدّثت عن بناء بيتٍ لك ولي. بدلاً من ذلك اكتشفت خطبتك من فتاةٍ أخرى في الصحيفة. لماذا فعلت ذلك؟ لماذا، يا تشايس».

«هيا كيا. كان ذلك مستحيلاً. كان عليك أن تعلمي أنه لن ينجح. ما هو الضرر في الوضع الذي كانت فيه الأمور؟ فلنعِد أمورنا إلى ما كانت عليه». مدّ يديه إلى كتفيها وسحبها نحوه.

«دعني أذهب». تلوت محاولةً الإفلات، ولكنه أمسكها بيديه

الاثنتين، مؤلمًا ذراعيها. وضع فمه على فمها وقبّلها. رفعت ذراعيها إلى الأعلى محررةً نفسها، وضربت يديه بعيدًا عنها. سحبت رأسها إلى الوراء، وفحت كالأفعى: «أياك أن تجرؤ».

«هذه هي قطتي البرية. الأكثر وحشيةً على الإطلاق». أمسك بكتفيها وأدخل ساقه خلف ركبتيها ودفعها إلى الأرض. ارتطم رأسها بقوى بالتراب. «أعلم أنك ترغبين بي». قال ذلك بخبث.

صرخت: «كلا، توقف». ركع وضربها بركبته في معدتها، قاطعًا تنفسها، وفتح أزرار بنطاله وأنزله.

تراجعت، ودفعته بيديها الاثنتين. لكمها فجأة على وجهها بقبضته اليمنى. رنّ صوتٌ مريضٌ في رأسها. ارتمت رقبتها إلى الخلف، وارتمى جسدها إلى الوراء على الأرض. تمامًا كما كان والدها يضرب أمها. غاب صوابها لثوانٍ من الألم الساحق؛ ثم التوت واستدارت محاولةً أن تتفلّت من تحته، ولكنه كان قويًّا جدًّا. رفع يديها إلى الأعلى فوق رأسها بيدٍ واحدةٍ، فك بنطالها القصير، ومزّق سروالها الداخلي وهي تركله. صرخت، ولكن أحدًا لم يسمع صراخها. راحت تركل الأرض وناضلت لتحرر نفسها، ولكنه أمسك بخصرها وقلبها على معدتها. سحق وجهها المرتجف

بالتراب، ثم مد يده تحت بطنها وسحبها نحوه من حوضها وركع خلفها.

«لن أتركك تفلتين هذه المرّة. أنت لي، شئتِ ذلك أم أبيتِ».

وجدت القوّة في مكانٍ بدائيٍ بداخلها، دفعت على الأرض بركبتيها ويديها ورجعت إلى الوراء، وضربته بكوعها على فكّه في الوقت ذاته. ضربته بقبضتيها بوحشية، حين تأرجح رأسه إلى الوراء، إلى أن فقد توازنه وتمدد على ظهره على التراب. ثم، حددت هدفها، وركلت خصيتيه.

تكور على نفسه واستلقى على جنبه، قابضًا على خصيتيه وهو يتلوّى. ركلته على ظهره وهي تعلم بالظبط أين تقع كليتاه. عدة ركلاتٍ. وبقوة.

رفعت بنطالها القصير، أمسكت بحقيبة الظهر وجرت إلى القارب. سحبت الحبل ناظرةً خلفها فرأته راكعًا على يديه وركبتيه وهو يئنّ. شتمت إلى أن دار المحرك. توقعت أن يلحق بها في أية ثانيةٍ، فأدارت موجه الدفة فجأة وأسرعت بعيدًا عن الضفة في اللحظة التي وقف فيها. أغلقت سحاب بنطالها القصير، بيدين مرتجفتين، وحضنت جسدها بقوةٍ بذراعٍ واحدة. نظرت إلى البحر، وقد اتسعت حدقتاها، فرأت قارب صيدٍ

آخر بالقرب منها، فيه رجلان يحدقان فيها.

40
سابريس كوف

1970

سأل القاضي سيمز محامي الادعاء، بعد الغداء: «إيريك، هل أنتم جاهزون لاستدعاء شاهدكم الأول؟».

«نعم، يا حضرة القاضي». كان إيريك، في قضايا الجرائم السابقة، يطلب الطبيب الشرعي أولاً لأن شهادته كانت تقدّم أدلةً كسلاح الجريمة، وزمان الموت ومكانه، وصورًا لمسرح الجريمة، ما يترك انطباعاتِ قويةً على هيئة المحلفين. أما في هذه القضية، فلم يكن ثمة سلاح جريمة، ولم يكن هناك بصمات أصابع أو آثار أقدام، فنوى إيريك أن يبدأ بالدّافع.

«سيدي القاضي، الشعب يطلب حضور السيد رودني هورن».

شاهد الجميع رودني هورن وهو يصعد إلى منصة الشهود ويردد القسم على قول الحقيقة. تعرّفت كيا على وجهه رغم أنها رأته لثوانٍ قليلة. نظرت بعيدًا. كان ميكانيكيًا متقاعدًا، كان واحدًا منهم، يقضي معظم أيامه في صيد السمك، أو صيد الطيور والحيوانات، أو لعب البوكر في «سوامب غانيا». كان بمقدوره تحمل الشراب كما يحمل البرميل المطر. ارتدى، كعادته، ثوب العمل الكحلي مع قميصٍ نظيفٍ بنقشةِ المربعات، وقبةٍ مكويةٍ بالنشاء لدرجة أنها بدت واقفةً بتأهب. حمل قبعة صيد السمك بيده اليسرى وأدى القسم بيده اليمنى، ثم جلس في منصة الشهود والقبعة على ركبته.

اقترب إيريك من منصة الشهود: «صباح الخير يا رودني».

«صباح الخير، إيريك».

«الآن، رودني، أعتقد أنك كنت تصطاد السمك مع صديقٍ بالقرب من سايبرس كوف في صباح يوم الثلاثين من آب، 1969. هل هذا صحيح؟».

«هذا صحيحٌ تمامًا. كنت أنا وديني هناك نصطاد السمك. كنا هناك منذ الفجر».

«فقط للسجل، كان زميلك ديني سميث؟».

«نعم، أنا وديني».

«حسنًا. أريد منك أن تخبر المحكمة ماذا رأيت في ذلك الصباح».

«حسنًا، كما قلت، كنا هناك منذ الفجر، وكان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة على ما أعتقد، ولم نكن قد أكلنا شيئًا لبعض الوقت، فكنا على وشك سحب خيوط الصيد والخروج من المكان، حين سمعنا جلبةً من بين الأشجار في نقطةٍ م. في الغابة».

«أي نوع من الجلبة؟».

«حسنًا، كانت هناك أصواتٌ، مكتومةٌ في البداية، ثم ارتفعت. رجلٌ وامرأة. ولكننا لم نستطع أن نراهما، سمعناهما فحسب وهما يتجادلان».

«ثم، ماذا حصل؟».

«حسنًا، بدأت المرأة بالصراخ، فاقتربنا لنرى بشكلٍ أفضل. لنرى إن كانت في مأزق».

«ماذا رأيتم؟».

«حسنًا، في الوقت الذي اقتربنا فيه، رأينا امرأةً واقفةً بالقرب من رجلٍ، وهي تركله مباشرة على... نظر رودني نحو القاضي.

قال القاضي سيمز: «أين ركلته؟ تستطيع أن تقول ذلك».

«ركلته مباشرة على خصيتيه فوقع على جانبه، وهو يئنّ ويعنّ. ثم ركلته مرارًا على ظهره. كانت غاضبةً كبغلٍ يمضغ ذكور النحل».

«هل عرفت من هي المرأة؟ هل هي موجودةٌ في قاعة المحكمة اليوم؟».

«أجل، عرفناها. ها هي هناك، المتهمة. تلك التي يدعوها الناس فتاة السبّخة».

مال القاضي سيمز نحو الشاهد. «سيد هورن، اسم المتهمة هو الآنسة كلارك. لا تشر إليها بأي اسمٍ آخر».

«حسنًا، إذًا. كانت الآنسة كلارك هي من رأيناه».

أكمل إيريك. «هل تعرّفت على الرجل الذي كانت تركله؟».

«حسنًا، لم نستطع رؤيته في حينها لأنه كان يتقلّب على الأرض. ولكنه وقف بعد عدّة دقائق فعرفنا أنه تشايس أندريوز، الذي كان الظهير الربعي لسنوات خلت».

«ثم ماذا حصل؟».

«سارت وهي تتعثر نحو قاربها، وحسنًا، كانت عاريةً إلى حدٍ ما. كان بنطالها القصير حول كاحليها وسروالها الداخلي حول ركبتيها. كانت تحاول أن ترفع بنطالها القصير وتجري في نفس الوقت. وكانت تصيح به كل الوقت. ذهبت إلى قاربها، قفزت فيه، وانطلقت بعيدًا، وكانت لا تزال تشد بنطالها. نظرت، حين مرت بالقرب منا، مباشرةً في عيوننا. هكذا عرفت من هي، بالتحديد».

«قلْتَ أنها كانت تصرخ عليه كل الوقت خلال جريها نحو قاربها. هل سمعت ما قالته بالتحديد؟».

«أجل، كنا نسمعها واضحةً وضوح النهار في ذلك الوقت لأننا كنا

قريبين بشكلٍ كافٍ».

«أرجو أن تخبر المحكمة بما سمعتها تقوله».

كانت تصرخ: «اتركني لشأني يا ابن الحرام! إن أزعجتني مرة ثانية، فسأقتلك».

انطلقت همهمةٌ عاليةٌ في قاعة المحكمة ولم تتوقف. ضرب القاضي سيمز بمطرقته. «شكرًا. هذا كافٍ».

قال إيريك لشاهده: «هذا كل شيء، شكرًا لك، رودني. لا مزيد من الأسئلة. الشاهد لك».

مرّ توم أمام إيريك وتوقف عند منصة الشهود.

«الآن، رودني، قلت في شهادتك، بدايةً، أنك حين سمعت تلك الأصوات المكتومة ولكن العالية، لم تستطع أن ترى ماذا كان يحصل بين الآنسة كلارك والسيد أندريوز. هل هذا صحيح؟».

«هذا صحيح. لم نستطع رؤيتهما إلا حين اقتربنا قليلاً».

قلت أيضًا أن المرأة، والتي تبينت لاحقًا أنها الآنسة كلارك، كانت

تصرخ وكأنها في مأزق. أهذا صحيح؟».

«أجل».

«أنتَ لم ترَ أية قبلاتٍ أو أي تصرفٍ جنسيٍ بين بالغين متقبلين لبعضهما البعض. أنت سمعت امرأة تصرخ كأنها هوجمت، وكأنها في مأزق. هل هذا صحيح؟».

«أجل».

«فإذًا، أليس من الممكن أن الآنسة كلارك ركلت السيد أندريوز دفاعًا عن النفس - امرأةٌ وحيدةٌ في الغابة - أمام رجلٍ رياضي، قوي؟ ظهيرٌ ربعيٌّ سابقٌ، هاجمها؟».

«أجل، أعتقد أن ذلك ممكنٌ».

«لا مزيد من الأسئلة».

«هل يريد محامي الادعاء العودة إلى استجواب الشاهد؟».

أجاب أريك: «أجل، يا حضرة القاضي». قالها وهو واقفٌ عند طاولة الادعاء.

«فإذًا، رودني، وبصرف النظر عما إذا كان بعض التصرّف حصل بالتراضي أم لا، هل من الدقة أن تقول أن المتهمة، الآنسة كلارك، كانت غاضبةً جدًّا من المتوفي، تشايس أندريوز؟».

«أجل، كانت غاضبة جدًّا».

«غاضبةٌ بما يكفي لأن تصرخ أنه لو أزعجها ثانيةً، فستقتله. أليس هذا صحيحًا؟».

«أجل، كانت الأمور هكذا».

«لا مزيد من الأسئلة يا حضرة القاضي».

41
قطيعٌ صغير

1969

عبثت يدا كيا بدفة التوجيه وهي تنظر إلى الخلف لترى إن كان تشايس يتبعها بقاربه من «سايبرسس كوف». أبحرت سريعًا إلى هورها ثم جرت، عارجةً، نحو الكوخ على ركبتين منتفختين. انهارت على الأرض باكيةً، في المطبخ، تلمس عينيها المتورمتين وتبصق الذرة من فمها. ثم أصغت لتسمع إن كان قادمًا.

رأت عقد الصّدف. كان لا زال يرتديه. كيف يمكن ذلك؟

قال لها: «أنتِ لي». قد يكون غاضبًا جدًا لأنها ركلته، قد يأتي لأجلها. قد يأتي اليوم. أو ينتظر حتى الليل.

لا تستطيع أن تخبر أحدًا. قد يصر القافز على الاتصال بالشريف، ولكن القانون لن يصدّق أبدًا فتاة السبّخة أكثر من تشايس أندريوز. لم تكن متأكدةً مما رآه صيادا السمك، ولكنهما ما كانا ليدافعا عنها. قد يقولون أنها أتت لأنها - قبل أن يتركها تشايس - شوهدت تتبادل القبلات معه لسنوات، وتتصرف بعكس ما يجب أن تكون عليه السيدة. «تتصرّف كعاهرةٍ»، هو ما قد يقولونه.

عوت الريح القادمة من البحر في الخارج، وأقلقها أنها قد لا تسمع محرّك قاربه قادمًا أبدًا، جمعت البسكوت، والجبن، والجوز في حقيبة الظهر، ببطءٍ بسبب الألم، وأسرعت عبر الأعشاب الطويلة على امتداد القناة، ورأسها منحنٍ أمام العاصفة المهووسة، نحو كوخ القراءة. استغرقت رحلتها نحو خمس وأربعين دقيقة، وجسدها المتيبّس والملتهب يجفل لسماع أي صوتٍ، فيما دار رأسها يمنة ويسرة وهي تتفحّص الأرضية. ظهر، أخيرًا، مبنى الجذع القديم، غارقٌ إلى ركبتيه في الأعشاب الطويلة ومتمسكٌ بضفّة الجدول. كانت الريح أهدأ هنا. والمرج الناعم هادئ. لم تخبر تشايس قبلاً عن مخبئها، ولكنه قد يكون عرف به. لم تكن متأكدة.

اختفت رائحة فأر الغابة. فبعد توظيف تايت في مختبر البيئة، أصلح، وسكوبر، الكوخ القديم ما مكنه من قضاء الليل هناك للقيام ببعض أبحاثه. دعما الجدران، وسوّيا السطح، وجلبا أثاثًا أساسيًّا - سريرٌ مغطى بملحفةٍ، ومدفأةٌ للطبخ، وطاولةٌ وكرسي، وطناجرٌ وقواريرٌ معلقةٌ من خشب السقف - ثم، قبع مجهرٌ على طاولة قابلة للطي، كان غريبًا عن المكان ومغطىً بالبلاستيك. وقفت، في الزاوية، خزانةٌ معدنيةٌ قديمةٌ احتوت على معلّباتٍ من الفاصولياء المخبوزة والسردين. لا شيء مما قد يأتي بالدب إليهم.

أحست أنها مسجونةٌ وهي في الداخل، غير قادرةٍ على معرفة إن كان تشايس آتيًا، فجلست على حافة الجدول، باحثةً في المياه العشبية بعينها اليمنى. كانت العين اليسرى متورمةً ومغلقة.

تجاهلتها خمس إناثٍ من الغزلان أسفل الجدول، وتجوّلت على امتداد الأوراق القاضمة على حافة الماء. ليتها تستطيع الانضمام إليها فحسب، والانتماء إليها. علمت كيا أن القطيع لا ينقص بغياب إحدى الغزلان، ولكن الغزالة تنقص بغياب قطيعها. رفعت إحداها رأسها، عينان غامقتان تبحثان شمالاً في الأشجار، تدوس بقدمها اليمنى، ثم

اليسرى. نظرت الأخريات إلى الأعلى، ثم صفّرت كإنذارٍ. جالت عين كيا السليمة عبر الغابة بحثًا عن إشاراتٍ على وجود تشايس أو مفترسٍ آخر. ولكن كل شيء كان ساكنًا. قد يكون النسيم أجفلها. توقفت عن الضرب بأرجلها ولكنها ابتعدت رويدًا في الأعشاب الطويلة، تاركةً كيا وحيدةً وقلقة.

تفحّصت المرج ثانيةً بحثًا عن الدخلاء، ولكن الإصغاء والبحث امتصّا كل قوتها، فعادت إلى الكوخ. أخذت جبنًا متعفنًا من حقيبتها. ثم جلست على الأرض وأكلت دون اكتراثٍ، متلمّسةً الندبة على خدها. كان وجهها، وذراعاها، ورجلاها مجروحةً وملطخةً بالحصى الدموية. كانت ركبتاها مخدشتين ومرتجفتين. بكت، حاربت العار، ثم بصقت الجبنة فجأةً برذاذٍ كثيفٍ ورطبٍ.

هي التي جلبت ذلك على نفسها. بالغزل وحيدةً. قادتها رغبةٌ طبيعيةٌ إلى النّزل الرخيص، ولكنها لم تكتفِ. الجنس تحت أضواء النيون الومّاضة، موسومٌ فقط بالدم الذي لطّخ الملاءات كآثار الحيوانات.

أغلب الظن أن تشايس تفاخر بما فعلاه أمام الجميع. كان الجميع يتجنبها، لم تكن منتميةً، كانت مقرفةً.

بحثت عبر النافذة الصغيرة، حين ظهر القمر النصفي بين الغيوم المتسارعة، عن أشكالٍ شبه بشريةٍ، تنحني لتسترق النظر. زحفت إلى سرير تايت ونامت تحت لحافه. كانت تصحو أحيانًا، مصغية لخطوات أقدامٍ، ثم تسحب القماش الناعم قريبًا حول وجهها.

تناولت المزيد من الجبنة المفتتة للفطور. أصبح وجهها قاتمًا باللون الأرجواني-الأخضر، عينٌ متورمةٌ كالبيضة المسلوقة، ورقبةٌ متعوّرة. أجزاءٌ من شفتها العليا ملتويةٌ بشكلٍ غريبٍ. متوحشةٌ كأمها، خائفةٌ من الذهاب إلى البيت. أدركت كيا، بوضوحٍ مفاجئٍ، ما تحملته أمها ولماذا غادرت. همست: «أمي، أمي. أنا أفهمك. أفهم أخيرًا لماذا غادرتِ ولم تعودي أبدًا. آسفة لأني لم أعلم، بأني لم أستطع أن أساعدكِ». أحنت كيا رأسها وانتحبت. ثم رفعت رأسها وقالت: «لن أعيش على هذا النحو، سائلةً مدى الحياة، متى ستقع اللكمة التالية، وأين».

مشت إلى البيت بعد ظهر ذلك اليوم، ولكنها لرغم جوعها وحاجتها للمؤن، لم تذهب إلى متجر القافز. قد يراها تشايس هناك. كما أنها لم ترغب بأن يراها أحدٌ بوجهها المحطم، وخاصة القافز.

جلست على سريرها في الشرفة، بعد وجبةٍ بسيطةٍ من الخبز القاسي والسمك المدخن، تحدق عبر النافذة. رأت، في ذات اللحظة، حشرة أنثى فرس النبي تتجول على غصنٍ بالقرب من وجهها. كانت الحشرة تنتف العثّ برجليها ذات المفاصل، ثم تلوكها، وكانت أجنحة العثّ لا زالت ترفرف في فمها. سار ذكر فرس النبي متبختراً، برأسه العالي متفاخرًا كالمهر، ليغوي الأنثى. بدت كأنها مهتمةٌ، كانت تهز بقرون استشعارها كما العصا السحرية. قد تكون معانقته مُحكمة أو لطيفة، لم تستطع كيا أن تحدد، وفيما كان يتحسّس بعضوه التناسلي ليلقح بيضها، أدارت الأنثى عنقها الطويل الأنيق وقضمت رأسه. كان منشغلاً جدًّا بالتزاوج فلم يلاحظ. هزَّ رقبته وهو يكمل فعلته، فيما قضمت قفصه الصدري، ومن ثم جناحيه. ثم نتأت رجله الأمامية من فمها فيما أكمل القسم السفلي من جسده، المنزوع القلب والرأس، عملية التزاوج بإيقاعٍ ممتاز.

تُوقع إناث الحباحب بالذكور عبر إشارات خادعة ثم تأكلهم؛ تلتهم إناث فرس النبي أزواجها. فكرت كيا: تعرف إناث الحشرات كيف تتعامل مع عشاقها.

أبحرت بقاربها نحو السبّخة، بعد أيامٍ، لتكتشف مناطقًا ما كان تشايس ليعرفها، ولكنها كانت سريعة الاهتياج وحذرة، ما جعل الرسم صعبًا عليها. كانت عينها لا زالت منتفخةً حول جرحٍ طفيف، وكانت الندبة قد نشرت ألوانها المقرفة على نصف وجهها. نبض معظم جسدها بالألم. استدارت نحو ثرثرة سنجاب، أصغت بإمعانٍ لإناث الغربان - لغة سادت قبل الكلمات، حين كان التواصل بسيطًا وواضحًا - وخططت، حيث ذهبت، لطريق هروبٍ في عقلها.

42
زنزانة

1970

تدفقت أشعةٌ من ضوءٍ خافتٍ عبر نافذة زنزانة كيا. حدّقت في ذرّات الغبار المتراقصة بصمتٍ في اتجاهٍ واحدٍ وكأنها تتبع قائدًا حالمًا. اختفت الظلال حين لمستها. لم تكن شيئًا بدون الشمس.

سحبت القفص الخشبي، طاولتها الوحيدة، إلى تحت النافذة، والذي كان بارتفاع سبعة أقدام عن الأرض. وقفت على الصندوق مرتديةً بيجاما رماديةٍ وكلمة «سجين المقاطعة» مطبوعةٌ على الخلف، مرئيةٌ فقط من خلف الزجاج السميك والقضبان. تلاطمت قبعات بيضاء، وتضاربت، طيور مالك الحزين، استدارت الرؤوس بحثًا عن السمك، وحلقت فوق الأمواج. شاهدت بالأمس نسرًا يغط نحو سمكة.

يتألّف سجن المقاطعة من ست زنازين بقياس 12x12 قدمًا في مربعاتٍ إسمنتية، في بناءٍ من طابقٍ واحدٍ خلف مكتب الشريف على طرف البلدة. كانت الزنازين في خطٍ واحدٍ على امتداد أسفل البناء، ولجهةٍ واحدة، كي لا يرى السجناء بعضهم البعض. كانت ثلاثةٌ من الجدران من الطوب الإسمنتي الرطب؛ وكان الجدار الرابع من القضبان الحاوية الباب الموصود. كان في كل زنزانةٍ، سريرٌ من الخشب، ومرتبةٌ قطنيةٌ خشنة، ومخدةٌ من الريش، وملاءاتٌ، وبطانيةٌ صوفيةٌ رمادية، بالإضافة إلى مرحاض.

لم يكن فوق المغسلة مرآةٌ، بل صورةٌ للمسيح، أحاط بها إطارٌ كتب عليه «أشغال السيدات المعمدانيات» الشيء الوحيد الذي كان مسموحًا لها، السجينة الأنثى الأولى - عدا عن اللواتي يقضين ليلةً واحدة، خلال سنوات - هو ستارةٌ رماديةٌ من البلاستيك تنشرها حول المغسلة والمرحاض.

وضعت في هذه الزنزانة بدون كفالةٍ، ولشهرين، بسبب محاولتها الفاشلة للهروب بقاربها من الشريف. تساءلت كيا عمّن بدأ باستخدام كلمة «زنزانة» بدلاً من كلمة «قفص». من المؤكد أنه في لحظة ما من

الزمن تطلّبت الإنسانية هذا التغيير. غطت الخدوش ذراعيها. تمعّنت في خصلات شعرها وهي جالسة على سريرها، لدقائق غير محدودة، ونتفتها كالريش. كما تفعل النوارس.

استرجعت بذاكرتها قصيدة لأماندا هاملتون، وهي واقفةٌ على القفص، مادّةً عنقها نحو السبّخة:

«نورس راندون بيتش المكسور

روحٌ مجنّحة، أنت رقصت السماوات،

وأرعبت الفجر بصراخٍ مدوٍّ.

لحقت بالأشرعة والبحر الجريء،

ثم ألقيت القبض على الريح وأرجعتها إليّ.

كسرتَ جناحك؛ مسح الأرض

فحفر علامتك فوق الرمل.

حين تنكسر الريشات، لن تستطيع الطيران،

و لكن من يقرر لحظة الموت؟

اختفيت، لا أعلم أين.

و لكن آثار جناحك لا زالت هناك.

القلب المنكسر لا يستطيع الطيران،

و لكن من يقرر لحظة الموت؟».

رغم أن السجناء عجزوا عن رؤية بعضهم البعض، فإن النزلاء الآخرين - رجلان في النهاية الأبعد من خط الزنازين - أمضيا أكثر أوقات نهارهما وليلهما في الثرثرة. كان الاثنان يقضيان عقوبة ثلاثين يومًا بتهمة الشجار، والتي انتهت بتكسير بعض المرايا والقليل من العظام، على خلفية من يستطيع أن يبصق أبعد من الآخر في حانة «ذا دوغ-غان بير هول». كثيرًا ما استلقيا على سريريهما، ينادي أحدهما الآخر من زنزانتيهما المتقاربتين، اللتين تبدوان كمصيدتي سمك. كان أكثر المزاج

ثرثرةً عما سمعاه عن قضية كيا من الزوار. وخاصةً احتمالات تلقّيها حكم الإعدام والذي لم ينفّذ في المقاطعة منذ عشرين سنة، ولم يكن قد نفّذ بامرأة أبدًا.

سمعت كيا كل كلمة. لم تزعجها فكرة موتها مطلقًا؛ لم تخيفها تهديداتهم بإنهاء ظل الحياة هذا. ولكن عملية قتلها بيد أحدٍ آخر، بعملٍ مخططٍ ومجدول، كان غير مقبولٍ ومنعها من التنفّس.

جافاها النوم، انسلّ عند الحافة، ثم هرب بعيدًا. كان عقلها يهبط عميقًا على طول الجدران من النوم المفاجئ - نعمةٌ فورية - ثم يوقظها جسمها فجأة.

نزلت عن الصندوق وجلست على السرير، واضعةً ركبتيها تحت ذقنها. أرجعوها هنا بعد المحاكمة، قد تكون الساعة السادسة الآن مرّت ساعةٌ واحدةٌ. أو أقل من ذلك.

43
مجهر

1969

سارت، في أوائل شهر أيلول، وبعد أن هاجمها تشايس بأكثر من أسبوعٍ، على طول شاطئها. هاجمت الريح رسالةً كانت في يدها، فشدّتها إلى صدرها. كان محرر كتابها قد دعاها إلى اجتماعٍ معه في «غرينفيل»، مشيرًا إلى أنه أدرك أنها لا تأتي إلى البلدة بشكلٍ متكرر، ولكنه أراد اللقاء بها، وسيتكلّف الناشر بتكاليف الاجتماع.

كان النهار صافيًا وحارًّا، فأبحرت نحو السبّخة. استدارت، عند مصب النهر الضيّق، حول بقعةٍ عشبيةٍ ورأت تايت جاثيًا على جرفٍ رمليٍ واسع، يقطر ماءً في عبوات صغيرة. كان قاربه المخصص للأبحاث مربوطًا إلى جذع وسحبه التيار إلى القناة فأغلقها. ضغطت على موجه

الدفقة. قلّت التورمات والندبات على وجهها، ولكن بقعًا خضراء وأرجوانية كانت لا تزال باديةً حول عينها. ارتعبت. لم ترد ان تدع تايت يرى وجهها المحطم وحاولت أن تستدير بقاربها بسرعة.

ولكنه رفع نظره إليها ولوّح لها. «اقتربي، كيا. لدي مجهر جديد أريدك أن تريه».

كان لهذا التأثير ذاته الذي لمسته حين ذكرت لها ضابطة الغياب شطيرة الدجاج. خفّفت السرعة ولكنها لم تجبْهُ.

«هيا. لن تصدقي هذا التكبير. تستطيعين رؤية أغلفة الخلايا على الأميبا».

لم تكن قد شاهدت الأميبا من قبل، ولا أجزاء جسدها. وأرست رؤية تايت ثانيةً السلام والهدوء. قررت أن تبقي الجانب المتضرر من وجهها بعيدًا عنه، فركنت قاربها وسارت في المياه الضحلة باتجاهه. كانت ترتدي سروال جينز قصير وتيشيرت بيضاء، كان شعرها حرًّا. وقفت على سلّم قاربه الخلفي، مدّ يده إليها، فأمسكتها، مشيحةً بنظرها عنه.

تماهى لون القارب البيج الناعم مع السبّخة، ولم ترَ كيا أجمل من ظهر القارب الخشبي وذراع الدفة النحاسية. «تعالي، انزلي». قال ذلك وهو يخطو إلى داخل القمرة. تمعّنت بطاولة مكتب القبطان، والمطبخ الصغير المجهز بشكلٍ أفضل من مطبخها، ومنطقة الجلوس التي تحولت إلى مختبرٍ ميدانيٍ مع عددٍ من المجاهر وأكياسٍ من قوارير العينات. همهمت تجهيزات أخرى وومضت.

تلمّس تايت أكبر مجهرٍ وعدّل الألواح. «هنا، انتظري دقيقة». قطر نقطةً من ماء السبّخة على لوحٍ، غطاها بلوحٍ آخر، وصوّب العدسة. وقف «ألقي نظرة».

انحنت كيا قليلاً، وكأنها تقبّل طفلاً. انعكس ضوء المجهر على حدقتيها الغامقتين، وأخذت نفسًا عندما ظهرت مخلوقات تدور وتتماوج وكأنها لاعبةٌ بزيٍ موحدٍ في احتفالات ثلاثاء المرفع. زيّنت أغطية رأسٍ رائعةٌ أجسادًا مدهشة توّاقة للمزيد من الحياة، مرحت وكأنها محجوزة في خيمة سيرك، بدون نقطة ماء.

وضعت يدها على قلبها، وقالت وهي ناظرة: «لم أعلم أنها بهذه الكثرة وبهذا الجمال».

عرّف عن بعض الفصائل الغريبة، ثم تراجع، لينظر إليها. «إنها تشعر بنبض الحياة، كما اعتقد، ذلك لأنه لا يوجد حواجز بينها وبين كوكبها».

أراها ألواحًا أخرى.

همست: «كأني لم أرَ النجوم من قبل، ثم أراها فجأةً».

سألها بلطف: «أتودين بعض القهوة؟».

رفعت رأسها. «كلا، كلا، شكرًا». ثم تراجعت عن المجهر، واتجهت نحو مطبخ القارب. أبقت عينها البنية-الخضراء بعيدة عنه، وقد ارتبكت.

كان تايت معتادًا على أسلوب كيا في حماية نفسها، ولكن تصرفها كان أكثر إنعزالًا وأكثر غرابةً من قبل. أبقت رأسها بعيدًا عنه بزاويةٍ معيّنة.

«هيا، كيا. تناولي فنجان قهوة فحسب». كان قد اتجه إلى المطبخ الصغير أصلًا، وسكب ماءً في آلة قطرت قهوةً قوية. جلست على السلّم عند أعلى متن القارب، فناولها كوبًا، مشيرًا لها أن تقف. دعاها للجلوس

على المقعد المنجّد، ولكنها وقف - في مؤخرة القارب. كالقطة التي عرفت طريق الهروب. انحنى الجرف الرّملي الناصع البياض بعيدًا من تحت السنديانات الظلّيلة.

«كيا.».. بدأ بالسؤال، ولكنه رأى الندبة التي كانت على وشك الزوال، حين واجهته، على وجنتها.

«ماذا حصل لوجهك؟» سار نحوها، مدّ يده ليلمس خدّها. استدارت بعيدًا.

«لا شيء. ارتطمت بالباب في منتصف الليل». علم أن ذلك ليس صحيحًا من الطريقة التي ربتت فيها بيدها على وجهها. ضربها أحدهم. أكان ذلك تشايس؟ هل لا زالت تراه رغم زواجه؟ عض تايت على نواجذه. تقدمت كيا لتضع كوب القهوة وكأنها مغادرة.

أرغم نفسه على التصرّف بهدوء. «هل بدأتِ بكتابٍ جديد؟».

«أكاد أن أنتهي من الكتاب عن نباتات الفطر. محرري قادمٌ إلى غرينفيل في وقتٍ ما في نهاية تشرين الأول ويريدني أن ألتقيه هناك. ولكنني لست متأكدةً».

«يجب أن تذهبي. من الجيد أن تلتقي به. هنالك حافلةٌ من باركلي كل يومٍ، وأخرى في الليل، أيضًا. لن تأخذ الطريق وقتًا طويلاً. ربما ساعة وعشرون دقيقة؛ شيء كهذا».

«لا أعلم من أين أشتري بطاقة الحافلة».

«سيعرف السائق كل شيء. كوني هناك فحسب عند موقف الحافلة في الشارع الرئيس؛ وسيخبرك بما عليك القيام به. أعتقد بأن القافز لديه جدولٌ للحافلات في متجره». كاد أن يذكر أنه كان قد ركب الحافلة عدة مراتٍ من «تشابل هيل»، ولكنه ظن أنه من الأفضل ألّا يخبرها ويذكّرها بتلك الأيام، حين كانت تنتظره على الشاطئ في شهر تموز.

بقيا ساكتين لفترة، يحتسيان القهوة، ويصغيان إلى زوجٍ من الصقور يصفّران على حدود غيمةٍ طويلة.

تردد في عرض المزيد من القهوة عليها، لأنه يعرف أنها قد تغادر إن فعل ذلك. فسألها عن كتابها عن نباتات الفطر، شارحًا لها البروتوزونات التي درسها. أي طُعمٍ ليبقيها معه.

أصبح ضوء بعد الظهر ناعمًا وهبّت ريحٌ باردة. وضعت الكوب ثانيةً وقالت: «يجب أن أذهب».

قال: «كنت أفكّر في فتح زجاجة نبيذٍ». نزل إلى المطبخ وعاد ومعه كيسٌ مليءٌ ببقايا الخبز والبسكويت. «أرجوكِ، بلغي تحياتي إلى النوارس».

«شكرًا». نزلت على السلّم.

ناداها وهي تمشي إلى قاربها: «كيا، بدا الجو يصبح باردًا، ألا تريدين معطفًا أو شيئًا كهذا؟».

«كلا، أنا بخير».

«خذي قبعتي على الأقل». ورمى قبعةً حمراء نحوها. أمسكت بها ورمتها إليه. رماها ثانيةً، أبعد، فهرولت عبر الجرف الرملي، انحنت ورفعتها. قفزت إلى قاربها ضاحكةً، أشغلت المحرّك، وأبحرت بالقرب منه، ورمت القبعة داخل قاربه. ابتسم وقهقهت. ثم، توقفا عن الضحك ونظرا إلى بعضهما وهما يرميان القبعة ذهابًا وإيابًا إلى أن التفت حول الجرف البحري. جلست بقوةٍ على المقعد في خلفية القارب ووضعت

يدها على فمها. صرخت بأعلى صوتها: «كلاااا لن أقع في حبه ثانيةً. لن أعيش الجرح ذاته من جديد».

بقي تايت على مؤخرة القارب. ضامًا قبضتيه متخيّلاً صورة الشخص الذي ضربها.

أبحرت بمحاذاة الشاطئ خلف مكسر الموج متجهةً جنوبًا. ستمر هكذا على على شاطئها قبل أن تصل إلى القناة التي تقودها عبر السبّخة إلى الكوخ. لم تتوقف، عادةً، عند شاطئها، ولكنها كانت تبحر عبر متاهة الطرق المائية إلى هورها، ثم تمشي إلى الشاطئ.

رأتها النوارس، وهي مارةٌ، فحامت حول القارب. حطّ «الرأس الأحمر» على متن القارب، هازًا برأسه. ضحكت. «حسنًا. أنت تربح». ركنت قاربها، بعد اجتياز مكسر الأمواج، خلف أعشاب شوفان البحر الطويلة ووقفت على خط الشاطئ وأخذت ترمي الفتافيت التي أعطاها إياها تايت.

نشرت الشمس ضوءها الذهبي والوردي على الماء، وجلست على الرمل وقد استقرّت النوارس حولها. سمعت محرّك قاربٍ فجأةً، ورأت

قارب تشايس المفتوح يسرع نحو القناة. لم يستطع رؤية قاربها خلف أعشاب الشوفان البحرية، ولكنها كانت مرئيةً تمامًا على الرمل المفتوح. استلقت على الأرض فورًا ملتفتةً إلى الجانب، حتى تستطيع مراقبته. وقف على دفة القارب وشعره يتطاير إلى الخلف، ووجهه متجهّمٌ بطريقةٍ بشعة. ولكنه حين انعطف في القناة نحو كوخها لم يكن ينظر نحوها.

استقامت، بعد اختفائه عن النظر. لو لم تكن قد أبحرت إلى هنا مع النوارس لكان قد حظي بها في البيت. تعلّمت مرارًا من أبيها: «هؤلاء الرجال بحاجةٍ لأن تكون لهم الضربة الأخيرة». تركت تشايس معفّرًا بالتراب قد يكون صيادا السمك رأياها وهي تسقطه أرضًا. كان على كيا أن تتعلم درسًا، كما قد يفعل أبوها.

سيأتي إلى شاطئها حين يكتشف أنها ليست في الكوخ. جرت إلى قاربها، وأطلقت العنان للمحرّك، عائدةً إلى تايت. ولكنها لم ترد إخبار تايت بمّا فعله تشايس بها؛ تغلّب الخزي على العقل. أبطأت ودخلت في الأمواج حتى غربت الشمس. كان عليها أن تختبئ وتنتظر إلى أن يغادر تشايس. إن لم تره مغادرًا، فلن تعرف إذا كان من الآمن لها أن تعود إلى

البيت.

انعطفت نحو القناة، مرعوبةً من أن يهجم نحوها في أية ثانية. كان محرك قاربها يمشي فوق الساكن بقليلٍ كي تستطيع أن تسمع قاربه، وذهبت إلى أجمةٍ في المياه الخلفية من الأشجار المخيمة والشجيرات. راحت عميقًا في الأيكات، دافعةً بالأغصان جانبًا إلى أن سترتها طبقاتٌ من أوراق الشجر والليل الهابط.

تنفّست بصعوبةٍ، وأصغت. سمعت صوت محرّكه، أخيرًا، يزعق عبر هواء الليل الناعم. جثت منخفضةً فيما كان يقترب، فقلقت فجأةً لأن مقدمة قاربها كانت ظاهرة. كان الصوت قريبًا جدًّا، وبعد ثوانٍ مرّ قاربه بجانبها. جلست هناك لثلاثين دقيقةٍ تقريبًا إلى أن أصبح الجو مظلمًا تمامًا، ثم أبحرت إلى البيت على ضوء النجوم.

أخذت فراشها إلى الشاطئ وجلست مع النوارس. لم تنتبه إليها، تأنقت بأجنحتها الممتدّة قبل أن تستقر على الرمل كالصخور الريشية. اقتربت كيا منها قدر المستطاع فيما كانت النوارس تضع رؤوسها تحت أجنحتها لتنام. لم تستطع كيا النوم بسبب جلبة النوارس. تقلبت من جانبٍ لآخر، منتصبةً في جلستها كلما قلّدت الريح صوت وقع أقدام.

هدرت أمواج الفجر على ريحٍ تصفى وجنتيها الملسوعتين. جلست بين الطيور التي تجولت حولها، تتمدد وتحفر بالأرض بأقدامها. بدا «الرأس الأحمر» - بعينيه الواسعتين، ورقبته الممدودة - وكأنه وجد شيئًا أكثر إمتاعًا تحت جناحيه، حركةٌ كانت لتجعل كيا تضحك في الظروف العادية. ولكن الطيور لم تجلب لها أية سلوى.

سارت إلى حافة المياه. لن يترك تشايس هذه الحادثة تمر. كانت حياة العزلة شيئًا؛ أما حياة الرعب فشيءٌ آخر.

تخيلت نفسها تأخذ الخطوة تلو الأخرى نحو البحر الهائج، غارقةً في السّكون تحت الأمواج، تتعلّق خصلٌ من شعرها كالألوان المائية في البحر الأزرق الشّاحب، وتندفع أناملها نحو شعلة الضوء الخلفية للسطح. ترتفع أحلام الهرب - حتى مع الموت - دائمًا نحو الضّوء. ستبقى جائزة السلام اللامعة المتدلية أمامها، بعيدة المنال إلى أن يهبط جسدها أخيرًا إلى القعر ويستقر في الهدوء المظلم. بأمان.

من يقرر في أي وقت يموت؟

44
زميل الزنزانة

1970

وقفت كيا في منتصف زنزانتها. ها هي في السجن. لو لم يتركها كل الذين أحبتهم، ومن ضمنهم جودي وتايت، لما كانت هنا. يتركك الاتكال على أحدهم، على الأرض.

لمحت طريقًا للعودة إلى تايت قبل أن يُقبض عليها، فتحةٌ في قلبها. يتهادى الحب قريبًا من السطح. ولكنها رفضت رؤيتها حين حاول زيارتها، بأكثر من مناسبةٍ، في السجن. لم تدر لم أغلق السجن قلبها بإحكامٍ أشد. لماذا لم تتقبل الراحة التي يستطيع منحها إياها في هذا المكان. بدا لكيا، أنها كلما انكشفت أكثر، كلما قلت ثقتها بالآخرين. كانت تقف في أكثر الأماكن هشاشةً في حياتها، فتوجهت إلى الشبكة

الوحيدة التي تعرفها، نفسها.

أوضح لها كونها سجينة بدون كفالةٍ، مدى وحدتها. ذكّرها عرض الشريف بأن تجري اتصالاً، لا يوجد من تتصل به. كان الرقم الوحيد الذي تعرفه في العالم رقم جودي، وكيف تستطيع الاتصال بأخيها لتخبره أنها في السجن ومتهمةٌ بجريمة قتل؟ كيف تستطيع أن تزعجه بمشاكلها، بعد كل تلك السنوات؟ قد يكون الإحساس بالعار لعب دورًا.

هجروها لتبقى وتدافع عن نفسها. فها هي هنا، وحيدة. - فتحت كتاب عجائب الأصداف الذي كان توم ميلتون قد أهداها إياه، والذي كان إلى حدٍّ كبير مجلّدها المفضل. كانت بعض نصوص علم الأحياء مرصوصةً على الأرض، والتي قال الحارس أن تايت جلبها، ولكنها لم تستطع أن تضع الكلمات في مكانها الصحيح. تاهت الجمل في اتجاهاتٍ متعددة، عائدةً إلى حيث بدأت. كانت صور الصدف أسهل.

دوت خطواتٌ على ألواح الأرض الرخيصة وظهر جايكوب، رجلٌ أسودٌ قصيرٌ يعمل حارسًا، أمام بابها. حمل رزمةً كبيرةً غلفت بأوراقٍ بنية. «آسف على إزعاجك يا آنسة كلارك، ولكن لديك زائر. عليك أن تأتي معي».

«من هو؟»

«إنه محاميك، السيد ميلتون». ارتفع صوت صرير المعدن على المعدن، حين فتح جايكوب الباب وسلمها الرّزمة. «وهذه لك من القافز». ألقت الرزمة على السرير وتبعت جايكوب نزولاً إلى الصّالة ومن ثم إلى غرفة أصغر من زنزانتها. قام توم ميلتون عن مقعده حين دخلت. أومأت كيا له ونظرت خارج النافذة، حيث هبّت غيومٌ ركاميةٌ ضخمةٌ بخدودٍ منفوخةٍ بلون الخوخ.

«مساء الخير كيا».

«سيد ميلتون».

«كيا أرجوك، ناديني توم. وما بال ذراعك؟ هل آذيتِ نفسك؟».

نفضت يدها، وغطّت الخدوش التي تسببت بها لذراعها. «لدغات بعوضٍ فحسب، شكرًا لك».

«سأكلم الشريف؛ لا يجب أن يكون هناك بعوض في غرفتك».

أحنت رأسها وقالت: «أرجوك، لا تفعل، لا بأس بالوضع. لست قلقة بشأن الحشرات».

«حسنًا، بالتأكيد، لن أقوم بشيءٍ لا ترغبين أنت به. كيا، أتيت لأتحدث عن خياراتك».

«أية خيارات؟».

«سأشرح. من الصعب أن نعرف في هذه المرحلة على ماذا يستند القاضي. للمدعي العام موقفٌ جيدٌ في القضية. أدلّته ليست صلبةً أصلًا، ولكن، وبناء على تحيز الناس في هذه المدينة، يجب أن تكوني مستعدةً لحقيقةٍ هي أنه من الصعب أن نكسب هذه القضية. ولكن هناك خيار طلب الصفقة. هل تعلمين إلى ماذا أرمي؟».

«ليس تمامًا».

«أنت أعلنت أنك لست مذنبةً بجريمة قتلٍ من الدرجة الأولى. إن خسرنا، فستخسرين الكثير: السجن مدى الحياة أو، كما تعلمين، إنهم يسعون لحكم الإعدام. خيارك أن تلتمسي الذنب للحصول على حكمٍ أخف، مثلاً، قتلٌ غير متعمّد. إن كنت مستعدةً للقول أنك بالفعل ذهبتِ إلى البرج في تلك الليلة، وقابلتِ تشايس هناك، واختلفتما، ثم خطا خطوةً إلى الخلف، في حادثٍ مريع، فوقع في الفتحة، قد تنتهي

المحاكمة في الحال، ولكن عليك أن تعيشي هذه الدراما أكثر من ذلك، وقد نستطيع أن نفاوض النائب العام حول حكمٍ ما. بما أنه لم يجرِ اتهامك بأي شيءٍ من قبل، قد يحكمون عليك بعشرة سنواتٍ، وقد تستطيعين الخروج بعد ست سنواتٍ تقريبًا. أعلم أن هذا يبدو سيئًا، ولكنه أفضل من حكمٍ بالسجن مدى الحياة أو من الخيار الآخر».

«كلا، لن أقول شيئًا يدل ضمنًا على الذنب. لن أذهب إلى السجن».

«كيا، أنا أفهمك، ولكن أرجوك أن تأخذي بعض الوقت لتفكّري في الأمر. لا تريدين أن تعيشي حياتك كلها في السجن، ولا تريدين الخيار الآخر».

نظرت كيا خارج النافذة ثانيةً: «لا أريد أن أفكر في الموضوع. لن أبقى في السجن».

«حسنًا، ليس علينا أن نقرر الآن. لدينا بعض الوقت. سنرى كيف تسير الأمور. قبل أن أغادر، هل هناك ما تريدين أن تناقشيه معي؟».

«أرجوك أن تخرجني من هنا، بطريقة أو بأخرى».

«سأبذل قصارى جهدي لأخرجك، كيا. ولكن لا تستسلمي. وأرجوك، ساعديني. كما ذكرت سابقًا، يجب أن تشاركي، انظري إلى هيئة المحلّفين من مرة لأخرى..».

ولكن كيا كانت قد استدارت لترحل.

قادها جايكوب عائدةً إلى الزنزانة، حيث رفعت الرزمة التي أرسلها لها القافز، كان الحارس قد فتحها وأعاد ربطها بسرعة. فتحتها، وحفظت ورق الغلاف. كان في الداخل سلةٌ فيها بعض قوارير الألوان الصغيرة، وفرشاةٌ، وألوانٌ، وقطعٌ من مافن الذرة في كيسٍ من الورق من صنع مايبل. كانت السلة مخططةً بقش الصنوبر، وبعض أوراق السنديان، والقليل من الأصداف، وخصلةٌ طويلةٌ من زهور ذيل القط. شمّتهم كيا بعمق. عضّت على شفتها، القافز. مايبل.

كانت الشمس قد غربت؛ ليس ثمة ذرّات غبارٍ لتلحقها.

أخذ جايكوب صينية عشائها لاحقًا. «أقول، آنسة كلارك، لم تأكلي الكثير. ما زالت قطع لحم الخنزير والخضار كما هي». ابتسمت له قليلاً،

ثم استمعت إلى صوت خطواته حين مشى متثاقلاً إلى نهاية الردهة. انتظرت إلى أن سمعت باب المعدن السميك يطبق بإغلاقٍ ثقيل.

ثم تحرّك شيءٌ على أرض الردهة، خارج القضبان مباشرةً. تأرجحت عيناها نحوه. جلس «قاضي الأحد» على قائمتيه الخلفيتين محدّقًا بعينيها الغامقتين بعينيه الخضراوين.

تسارعت دقات قلبها. كانت محبوسةً كل تلك الأسابيع، والآن استطاع هذا المخلوق أن يمر بين القضبان كالساحر. أن يبقى معها. كسر «قاضي الأحد» التحديق ونظر أسفل الردهة، حيث يتكلّم السجناء. كانت كيا خائفةً من أن يتركها ويذهب إليهم. ولكنه نظر إليها، ورمش بسأم، وعصر نفسه بسهولة بين القضبان. إلى الداخل.

تنفست كيا الصّعداء. همست: «أرجوك أن تبقى».

أخذ وقته وراح يشمّ طريقه حول الزنزانة، باحثًا في الجدران الإسمنتية الرطبة، والأنابيب الظاهرة، والمغسلة، كل ذلك ليفرض على نفسه تجاهلها. أثار شقٌّ صغير في الحائط اهتمامه. علمت ذلك لأنه نفض أفكاره في ذيله. أنهى جولته بالقرب من السرير الصغير. ثم قفز،

وبشكلٍ تلقائي إلى حضنها واستدار، وقوائمه الكبيرة البيضاء تجد ملمسًا ناعمًا عند ردفيها. جلست كيا دون حراك، رافعةً ذراعيها قليلاً، حتى لا تتعارض مع حركاته. استقر أخيرًا، وكأنه كان يأتي إليها طوال حياته كل ليلة. نظر إليها. لمست رأسه بلطفٍ، ثم حكت عنقه. انفجرت منه خرخرةٌ كالتيار. أغلقت عينيها لأجل ذلك القبول السهل. وقفةٌ عميقةٌ في حياةٍ من الشّوق.

جلست جامدةً، خوفًا من الحركة، حتى تخدرت رجلاها، ثم تململت قليلاً لتمدد عضلاتها. انسلّ «قاضي الأحد»، دون أن يفتح عينيه، عن حجرها وتكوّر بجانبها. استلقت بكامل ثيابها، وقد حضن كل منهما الآخر. شاهدته وهو يغفو، ثم نامت بعده. كان هناك اهتزازٌ ثم انجرافٌ، ثم هدوءٌ تام.

فتحت عينيها مرة خلال الليل، وشاهدته نائمًا على قفاه، ومخلباه الأماميان ممدودان إلى جهة، والخلفيان إلى الجهة الأخرى. ولكنه كان قد رحل حين استفاقت فجرًا. جاهدت أنةٌ ضد قوة حنجرتها.

وقف جايكوب، في وقتٍ لاحقٍ خارج زنزانتها، يحمل صينية الفطور بيدٍ، ويفتح الباب باليد الأخرى. «لدي وجبتك، آنسة كلارك».

أخذت الصينية، وقالت: «جايكوب، كان القط الأبيض والأسود، الذي ينام في قاعة المحكمة، هنا في الليلة الماضية».

«أووه، أنا آسفٌ للغاية. هذا «قاضي الأحد». ينام عندي أحيانًا ولا أراه بسبب حمل صواني العشاء. انتهى بي الأمر وقد أغلقت عليه الباب معكم». كان لطيفًا بما فيه الكفاية كي لا يقول «سجنته معكم».

«لا بأس. أحببت أن يكون هنا. أرجوك، أتسمح له بالدخول في أي وقت تراه بعد العشاء؟ أو في أي وقت».

نظر إليها بعينين ناعمتين. «بالطبع أستطيع. سأفعل ذلك، آنسة كلارك، بالتأكيد سأفعل. أرى أنه رفقة عظيمة».

«شكرًا لك، جايكوب»

عاد جايكوب تلك الليلة. «تفضّلي طعامك، آنسة كلارك. دجاجٌ مقليٌ، وبطاطا مهروسة، مع صلصة مرق اللحم من المطعم. أتمنى لو تستطيعين أكل شيءٍ هذه الليلة. تفضلي».

وقفت كيا تنظر حول قدميه. أخذت الصينية. «شكرًا لك، جايكوب. هل رأيت القط؟».

«كلا. مطلقًا. لكني سأبحث عنه».

أومأت كيا. جلست على السرير، المكان الوحيد للجلوس، وحدّقت في الصحن. وجدت هنا في السجن أن الطعام أفضل مما رأته في حياتها كلها. تلاعبت بالدجاج، أبعدت الفاصولياء بالزبدة. فقدت شهيتها حين حضر الطعام.

ثم، سمعت صوت القفل يستدير، وتأرجح باب المعدن الثقيل.

سمعت جايكوب يقول، في نهاية الردهة: «ها أنت ذا، يا سيد قاضي الأحد».

حدّقت كيا بالأرض خارج زنزانتها وقد حبست أنفاسها، وظهر «قاضي الأحد» في غضون ثوانٍ. كانت علاماته قويةً وناعمةً في الوقت نفسه بشكل غريب. دخل زنزانتها دون ترددٍ وسار نحوها. وضعت الصحن على الأرض فأكل الدجاج - سحب العظام مباشرة على الأرض - ثم لعق الصلصة. تجاهل فاصولياء الزبدة. ابتسمت خلال ذلك كله، ثم نظّفت الأرض بمنديلٍ.

قفز على السرير ولفّهما معًا نومٌ حلو.

وقف جايكوب خارج بابها في اليوم التالي. «آنسة كلارك، لديك زائرٌ آخر».

«من هو؟».

«إنه السيد تايت ثانيةً. لقد أتى عدة مراتٍ حتى الآن، آنسة كلارك، وهو إما يجلب شيئًا أو يطلب رؤيتك. ألن ترينه اليوم آنسة كلارك ؟ اليوم هو السبت، لا محكمة، لا شيء تفعلينه هنا طوال اليوم».

«حسنًا، جايكوب».

قادها جايكوب إلى ذات الغرفة الحقيرة حيث كانت قد التقت توم ميلتون. قام تايت عن كرسيه، حين دخلت من الباب، وسار نحوها بسرعة. ابتسم قليلاً، ولكن عيناه أظهرتا الحزن لرؤيتها هنا.

«كيا، تبدين بحالة جيدة. كنت قلقًا جدًّا. شكرًا لقبولك رؤيتي. اجلسي». جلسا مقابل بعضهما البعض فيما وقف جايكوب في الزاوية يقرأ الجريدة بتركيزٍ ملحوظ.

«مرحبًا، تايت. شكرًا على الكتب التي جلبتها». تصرّفت بهدوء، ولكن قلبها تفتت قطعًا.

«ماذا أستطيع أن أفعل لك غير ذلك؟».

«ربما تستطيع أن تطعم النوارس إذا مررت من طريقي».

ابتسم. «نعم، كنت أطعمهم. من يوم لآخر». جعل الأمر يبدو سهلاً ولكنه كان يأتي بشاحنته أو بقاربه إلى بيتها كل فجرٍ وكل مغربٍ ليطعمهم.

«شكرًا لك».

«كنت في المحكمة، كيا، جالسًا خلفك مباشرةً. لم تلتفتي أبدًا، فلم أدرِ إن كنت تعلمين بذلك. ولكني سأكون هناك كل يوم».

نظرت خارج النافذة.

«توم ميلتون جيدٌ جدًّا، كيا. ربما أفضل محامٍ في هذا الجزء من المقاطعة. سوف يخرجكِ من هنا، اصمدي فحسب».

استمرّ حين لم تجبه: «سنعود، بعد أن تخرجي من هنا، إلى اكتشاف البرك كما في الأيام الماضية».

«تايت، أرجوك، يجب أن تنساني».

«لم أنسك أبدًا ولن أنساكِ، كيا».

«أنا مختلفة، كما تعلم ولا أندمج بالآخرين. لا أستطيع أن أكون جزءًا من عالمك. أرجوك، ألا تستطيع أن تفهم، أنا أخاف من الاقتراب من أحدٍ مرّةً ثانيةً. لا أستطيع».

«لا ألومك، كيا، ولك....».

«تايت، استمع إلي. تُقت لسنواتٍ لأكون مع الناس. اعتقدت أن أحدًا سوف يبقى معي، وأنه سوف يكون لي أصدقاءٌ وعائلةٌ فعلًا. أكون جزءًا من مجموعة. ولكن لم يبقَ أحدٌ. لا أنت ولا أي فردٍ من عائلتي. تعلّمت الآن، أخيرًا، كيف أتعامل مع الموضوع وكيف أحمي نفسي. ولكني لا أستطيع أن أتحدث عن ذلك الآن. أقدّر لك قدومك لتراني هنا، حقًا أقدّر. وقد نستطيع يومًا أن نكون أصدقاء، ولكني لا أستطيع أن أفكر فيما سيأتي لاحقًا. ليس هنا».

«حسنًا. أنا أتفهّم. حقًا، أتفهم ذلك».

قال بعد صمتٍ قصير: «بدأت طيور أبو منقار بالنداء».

أومأت، كادت أن تبتسم.

«أووه، وفي الأمس، حين كنت في بيتك، ولن تصدقي ذلك، ولكن صقرَ كووبر ذكرًا وقف مباشرةً أمام درجاتك».

ابتسمت أخيرًا لدى التفكير بالصّقر. واحدةٌ من ذكرياتها العديدة الخاصة. «نعم، أعتقد ذلك».

قال جايكوب، بعد عشر دقائق، أن وقتهما انتهى وأن على تايت أن يغادر. شكرته كيا ثانيةً للقدوم.

«سوف استمر بإطعام النوارس، كيا. وسأجلب لك بعض الكتب».

هزّت رأسها وتبعت جايكوب.

45
قبعةٌ حمراء

1970

عندما اقتيدت كيا، صباح يوم الاثنين، بعد زيارة تايت، إلى قاعة المحكمة بواسطة الحاجب، أبقت عينيها بعيدًا عن المراقبين، كما فعلت سابقًا، ونظرت عميقًا في الأشجار الظلّيلة خارجًا. ولكنها سمعت صوتًا مألوفًا، ربما قحّة ناعمة، وأدارت رأسها. كان القافز ومايبل، في الصف الأول من المقاعد، جالسين مع تايت. ارتدت مايبل قبعة الكنيسة المزيّنة بوردةٍ من الحرير. همهم الناس حين دخلا مع تايت وجلسا في الأسفل في «منطقة البيض». ولكن حين أخبر الحاجب القاضي سيمنز بذلك، وكان لا يزال في غرفته، أخبره القاضي أن يعلن أن أي شخصٍ من أي لونٍ أو عقيدةٍ يستطيع الجلوس في أي مكانٍ يريد في قاعة المحكمة هذه، وإن كان هناك من لا يعجبه هذا الإجراء، فهو حرٌّ بالمغادرة. وسيتأكد، في

الواقع، من مغادرتهم.

شعرت كيا، لدى رؤية القافز ومايبل، بشيءٍ من القوة، واستقام ظهرها قليلاً.

كان الشاهد التالي لجهة الادعاء، الدكتور ستيوارد كون، الطبيب الشرعي، شعره مائلٌ للرمادي ومقصوصٌ بشكلٍ قصير، يضع نظّارة على أرنبة أنفه، وهي عادةٌ أجبرته على إمالة رأسه إلى الوراء ليرى من خلال العدسات. اتجه تفكير كيا إلى النوارس حين أجاب الدكتور على أسئلة إريك. اشتاقت إليها خلال الشهور الطويلة في السجن، اشتاقت إليها، ولكن تايت كان يطعمها دائمًا. ما كانت النوارس لتُهجر. فكّرت بالـ«الأحمر الكبير»، وكيف كان يمشي عند أصابع قدميها حين كانت ترمي لهم فتافيت الخبز.

رمى الطبيب الشرعي رأسه إلى الخلف ليعدّل نظارته، فأعادت هذه الحركة تركيز كيا على المحكمة.

«فلنلخص الأمر، أدليت بشهادتك أن تشايس أندريوز توفي بين منتصف الليل والساعة الثانية فجرًا من ليلة 29 تشرين الأول وصباح الثلاثين منه في العام 1969. كان سبب الوفاة جروح طولية في الدماغ

والنخاع الشوكي تسبب بها الوقوع من خلال فتحةٍ في برج النار، ومن ارتفاع ثلاثة وستون قدمًا من الأرض. ارتطمت مؤخرة رأسه بعارضة الدعم، حين سقط، وهي حقيقةٌ مدعومةٌ بعيّناتٍ من الدم والشعر أخذت من العارضة. هل كل ما ذُكر صحيح كما ورد، برأيك المعتبر؟».

«أجل».

«الآن، دكتور كون، لماذا قد يخطو شابٌ ذكيٌ ورياضيٌ كتشايس أندريوز ويقع في الفتحة ويسقط إلى موته؟ هل كان هناك كحولٌ أو أية مادةٍ أخرى في دمه ما قد يضعف حكمه على الأمور؟».

«كلا، لم يكن هناك شيءٌ».

«تظهر الأدلة المقدمة سابقًا أن تشايس أندريوز ضرب رأسه بعارضة الدعم، لا جبينه». وقف إيريك أمام القاضي وخطا خطوة كبيرة. «ولكني حين أخطو إلى الأمام، يكون رأسي متقدمًا قليلاً على جسدي. لو كنت سأقع في حفرةٍ أمامي، لكانت قوة الدفع ووزن رأسي سيدفعانني إلى الأمام أليس كذلك؟ كان تشايس أندريوز ليصدم جبينه بالعارضة، لا مؤخرة جمجمته، لو كان يسير إلى الأمام. فإذًا ألا تشير الأدلة، دكتور

كون، إلى أن تشايس كان يسير إلى الخلف حين سقط؟».

«أجل، يدعم الدليل هذا الاستنتاج».

«فإذًا نستطيع أن نستنتج أنه إن كان تشايس أندريوز واقفًا وظهره إلى الفتحة ودفع من قبل شخصٍ ما، فهو سيقع إلى الخلف لا إلى الأمام». قال ايريك بسرعة، وقبل أن يستطيع توم الاعتراض: «أنا لا أطلب منك بأن تعلن أن هذا دليلٌ حاسمٌ بأن تشايس دفع إلى الخلف ما تسبب بموته. أنا أوضح فحسب أنه إذا قام أحدهم بدفع تشايس إلى الخلف عبر الفتحة، فستتوافق الجروح التي في رأسه من العارضة مع تلك التي وجدت هنا. هل هذا صحيح؟».

«أجل».

«حسنًا. دكتور كون، عندما عاينت تشايس أندريوز في العيادة، صباح الـ 30 من تشرين الأول، هل كان يرتدي عقدًا من الصدف؟».

«كلا».

ركّزت كيا على «قاضي الأحد» وهو يتباهى بنفسه على عتبة الشباك، لمحاربة الإحساس المتصاعد بالغثيان. تجمّد في وضعيةٍ غير

معقولة، رِجلٌ واحدة مستقيمة في الهواء، وراح يلعق الجزء الداخلي من رأس ذيله. بدا استحمامه الخاص وكأنه يشغله ويمتعه كليًّا.

بعد عدة دقائق، كان محامي الادعاء يسأل: «هل صحيحٌ أن تشايس أندريوز كان يرتدي سترةً من الجينز القاتم ليلة وفاته؟».

«أجل، هذا صحيح».

«بالعودة إلى تقريرك الرسمي، دكتور كون، ألم تجد ألياف صوفٍ حمراء على سترته؟ أليافٌ لم تأت من أي قطعةٍ من الملابس التي كان يرتديها؟».

«أجل».

حمل إيريك كيسًا شفافًا من البلاستيك يحتوي على قطعٍ صغيرةٍ من الصوف الأحمر. «هل هذه هي الألياف الحمراء التي وُجدت على سترة تشايس أندريوز؟».

«أجل».

رفع إيريك كيسًا كبيرًا من على طاولته. «أوليس صحيحًا أن ألياف

الصوف الحمراء على سترة تشايس تطابق تلك التي على هذه القبعة؟»
سلّمها للشاهد.

«أجل. هذه عيّناتي الموسومة، وتتطابق الألياف من القبعة والسترة تمامًا».

«أين وُجدت هذه القبعة؟».

«وجد الشريف هذه القبعة في مكان إقامة الآنسة كلارك». لم يكن هذا معلومًا للجمهور، فانتشرت الهمهمة بين الحضور.

«هل من دليلٍ على أنها كانت قد اعتمرت هذه القبعة سابقًا؟».

«أجل. وُجدت خصل من شعر الآنسة كلارك في القبعة».

دفعت مشاهدة «قاضي الأحد» كيا إلى التفكير في أن عائلتها لم تربِّ حيوانًا أليفًا أبدًا في السّابق. لا كلبٌ ولا قط. كان أقرب ما امتلكوه للحيوان الأليف أنثى الظربان - مخلوقةٌ حريريةٌ، فاتنةٌ، ووقحة - عاشت تحت الكوخ. دعتها أمها شانيل.

عرفوا بعضهم بعضًا بعد إخفاقاتٍ قليلة، وأصبحت شانيل مهذبةً

جدًّا، يلمع سلاحها فقط عندما يصبح الأولاد مشاكسين بشكلٍ مفرط. كانت تأتي وتذهب، أحيانًا بين أقدام أي شخصٍ كان يصعد أو ينزل الدرج المصنوع من الطوب والألواح.

كانت ترافق جراءها، في كل ربيعٍ، في غزواتٍ داخل غابة السنديان وعلى طول الجدول. فيهرولون خلفها، متعثرين ببعضهم البعض، كتلٌ مرتبكةٌ من الأسود والأبيض.

كان أبوها، بالطبع، يهدد بأنه سوف يتخلص منها، ولكن جودي، مظهرًا بعض النضوج بشكلٍ أكثر من والده، جمّد ملامح وجهه وقال: «ستحلّ أخرى مكانها، أعتقد أن أنثى الظربان التي تعرفها أفضل من أنثى الظربان التي لا تعرفها». ابتسمت كيا الآن، وهي تفكّر بجودي. ثم تمالكت نفسها.

«فإذًا، دكتور كون، في ليلة وفاة تشايس أندريوز، في الليلة التي وقع فيها إلى الخلف من الفتحة - وضع متماثل مع كونه دفع من قبل أحدٍ - كان ثمة أليافٌ على سترته من قبعةٍ حمراء وُجدت في مكان إقامة الآنسة كلارك. وكانت هناك خصلات من شعر الآنسة كلاري على القبعة».

«أجل».

«أشكرك، دكتور كون. لا مزيد من الأسئلة».

ألقى توم ميلتون نظرةً قصيرةً على كيا، والتي كانت تراقب السّماء. مالت القاعة ماديًا نحو محامي الادعاء وكأن الأرضية مالت، ولم يساعد كون كيا جلست جامدةً وشاردة الذهن - منحوتةً من الثلج - الأمر. نفض شعره الأبيض من على جبينه وتوجه إلى الطبيب الشرعي لتوجه الأسئلة المضادة.

«صباح الخير، دكتور كون».

«صباح الخير».

«دكتور كون، أدليت بشهادتك أن الجرح على قفا رأس تشايس أندريوز يتماشى مع الوقوع إلى الخلف من خلال الفتحة. أليس صحيحًا أنه لو رجع إلى الخلف بنفسه ووقع من خلال الفتحة صدفةً، ستكون هناك نفس النتيجة لاصطدام خلفية رأسه؟».

«أجل».

«هل كان ثمة ندباتٌ على صدره أو يديه قد تتقاطع مع كونه

دُفع؟».

«كلا. لقد كانت هناك، بالطبع، ندباتٌ حادةٌ على جسده كله من أثر السقطة. أغلبها على جسده من الخلف وعلى رجليه. ولا يمكن اعتبار أي منها على أنه ناتج من دفعة».

«أليس صحيحًا، في الواقع، أنه ليس هناك دليلٌ، وبأي شكلٍ من الأشكال، أن تشايس أندريوز دُفع عبر الفتحة؟».

«هذا صحيح. ليس هناك من دليلٍ أعلمه بأن تشايس أندريوز قد تعرّض للدفع».

«فإذًا، دكتور كون، ليس هناك إثباتٌ - من خلال معاينتك المحترفة لجثة تشايس أندريوز - أن ما حدث جريمةٌ وليست حادثًا؟».

«كلا».

أخذ توم وقته، فاسحًا المجال أمام الإجابة لتستقر في وعي هيئة المحلفين، ثم أكمل. «الآن، فلنتحدّث عن هذه الألياف الصوفية الحمراء على سترة تشايس. هل هناك طريقةٌ لتحديد كم من الزمن مرّ على وجود هذه الألياف على السترة؟».

«كلا. نستطيع أن نحدد من أين أتت، ولكن ليس متى»

«بكلامٍ آخر، قد تكون هذه الألياف موجودةً على السترة منذ سنةٍ، أو حتى منذ أربع سنوات»

«هذا صحيح».

«حتى ولو غسلت السترة؟».

«أجل».

«فإذًا ليس هناك دليلٌ على أن هذه الألياف قد التصقت على السترة في ليلة وفاة تشايس؟».

«كلا».

«ثمة إفادةٌ تقول أن المدّعى عليها كانت تعرف تشايس لأربع سنواتٍ سبقت موته. فإذًا أنت تقول أنه خلال السنوات الأربع تلك، ولدى ارتدائهم هذه الملابس، كان من الممكن أن تنتقل الألياف من القبعة إلى السترة».

«مما رأيت، أجل».

«فإذًا لا تثبت هذه الألياف أن الآنسة كلارك كانت مع تشايس أندريوز في ليلة وفاته. هل هناك دليلٌ،أصلًا، على أن الآنسة كلارك كانت في جوار تشايس أندريوز في تلك الليلة؟ مثلاً، أجزاء من جلدها على جسده، تحت أظافره، أو بصماتها على أزرار سترته؟ خصلات من شعرها على ملابسه أو جسده؟».

«كلا».

«فإذًا، في الواقع، وبما أن الألياف كان من الممكن أن تكون على السترة منذ ما يقارب الأربع سنوات، ليس هنان دليل بأي شكل من الأشكال على أن الآنسة كاثرين كلارك كانت قريبةً من تشايس أندريوز ليلة وفاته».

«هذا صحيحٌ، وفقًا لمعاينتي».

«شكرًا لك. لا مزيد من الأسئلة».

أعلن القاضي سيمز استراحةً مبكرةً للغداء.

لمس توم كوع كيا بلطفٍ وهمس أنها كانت إعادة استجوابٍ جيدة. أومأت برأسها قليلاً فيما وقف الناس وانتشروا. بقي أغلبهم

لمشاهدة كيا مكبلة اليدين ومساقةً خارج القاعة.

تردد صدى خطوات جايكوب، في آخر البهو بعد أن تركها في زنزانتها. جلست كيا على سريرها بقوة. لم يسمح لها، في بداية سجنها، أن تأتي بحقيبة ظهرها إلى الزنزانة ولكنهم أتاحوا لها أن تجلب بعض محتوياتها معها في كيسٍ من الورق البني. مدت يدها إلى الكيس وسحبت منه قصاصة الورق التي تحتوي على رقم هاتف جودي وعنوانه. كانت تنظر إلى الورقة كل يومٍ تقريبًا، منذ سجنت، وفكّرت أن تتصل بأخيها وتتطلب منه أن يأتي ويكون معها. علمت أنه سوف يأتي، وكان جايكوب قد قال أنها تستطيع استخدام الهاتف للاتصال به. ولكنها لم تفعل. كيف تصوغ الكلمات: «أرجوك أن تأتي؛ أنا في السجن، ومتهمةٌ بجريمة قتل».

أعادت الورقة بحذرٍ إلى الكيس وأخرجت بوصلة الحرب العالمية الأولى التي كان تايت قد أعطاها إياها. تركت إبرة الإشارة لتدل نحو الشمال وشاهدتها تستقر بالاتجاه الصحيح. حملتها مقابل قلبها. أين يحتاجها المرء أكثر من هنا؟

ثم همست كلمات إيميلي ديكنسون:

«تنظيف القلب

ووضع الحب بعيدًا

يجب ألا نريد استخدامه ثانية

حتى الأبدية».

46
ملك العالم

1969

تلألأ بحر أيلول وسماؤه باللون الأزرق الباهت في الشمس الناعمة، فيما أبحرت كيا متجهةً إلى متجر القافز للحصول على برنامج الحافلة. أفقدتها فكرة سفرها بالحافلة مع الناس الغرباء إلى البلدة الغريبة ثقتها بنفسها، ولكنها أرادت أن تلتقي بالمحرر، روبرت فوستر. تبادلا الملاحظات القصيرة - رسائل طويلة أحيانًا - لفترة. كانا يناقشان، عادةً، تعديلات المقدمة للنص والصور في كتابها، ولكن المراسلة، المكتوبة في معظم الأحيان بعبارات علوم الأحياء الممزوجة بالأوصاف الشاعرية، كانت قد أصبحت لُحمةً لها لغتها الخاصة. أرادت أن تلتقي بهذا الشخص الموجود على الجانب الآخر من خط البريد، والذي كان يعلم كيف يتكسّر الضوء العادي من خلال الموشورات الدقيقة في أجنحة

عصافير الطائر الطنان، ما خلق اللون القزحي لحنجرته الذهبية الحمراء. وكيف يقال ذلك بكلماتٍ مبهرةٍ كما الألوان.

حياها القافز لدى سيرها على الرصيف، وسألها إن كانت بحاجة للوقود.

«كلا، شكرًا، ليس هذه المرة. أنا بحاجةٍ لكتابة جدول الحافلة. لديك نسخة، أليس كذلك؟».

«بالطبع لدي. إنها ملصقةٌ على الحائط مباشرةً، إلى يسار الباب. تفضلي».

خرجت من المتجر ومعها الجدول، فسألها: «هل أنت ذاهبةٌ في رحلة إلى مكان ما، يا آنسة كيا؟».

«قد أذهب. دعاني محرري إلى غرينفيل لألتقي به هناك. لست متأكدة بعد».

«حسنًا، إذًا، هذا جيدٌ جدًّا. إنها بقعةٌ بعيدةٌ ولكن الرحلة ستفيدك».

استدارت كيا عائدةً إلى القارب، انحنى القافز نحوها ونظر إليها

من مسافة أقرب. «آنسة كيا، ماذا حصل لعينك، لوجهك؟ يبدو كأنك تعرّضتِ للضرب، آنسة كيا». أشاحت بوجهها بسرعة. تحولت الندبة من أثر ضربة تشايس منذ حوالي شهر إلى بقعةٍ صفراء باهتة، اعتقدت كيا أن أحدًا لن يلاحظها.

«كلا، خطوت باتجاه بابٍ في..».

«لا تختلقي لي قصة يا آنسة كيا. لم آت إلى هذه الدنيا فجأةً وكأني سقطت من عربة الفجل. من ضربك على هذا النحو؟».

وقفت صامتةً.

«هل كان السيد تشايس هو من ضربك؟ أنت تعلمين أنك تستطيعين إخباري. في الحقيقة، سنبقى واقفين هنا إلى أن تخبريني».

«أجل، كان تشايس». لم تصدق كيا أن الكلمات خرجت من فمها. لم تعتقد أبدًا أنه لديها من تخبره بأشياءٍ كهذه. استدارت ثانيةً، مجالدةً دموعها.

اكفهر وجه القافز. لم يتكلم لعدّة ثوانٍ. ثم قال: «ماذا فعل لك غير ذلك؟».

«لا شيء. أقسم. حاول أيها القافز، ولكني قاومته وأبعدته».

«يجب أن يُجلد هذا الرجل بسوط الحصان، ثم يُنفى خارج هذه البلدة».

«أيها القافز، أرجوك، لا يمكنك أن تخبر أحدًا. أنت تعلم أنك لن تستطيع أن تخبر الشريف أو أي أحد. سوف يحشرونني في مكتب الشريف ويرغموني على إخبارهم بما حصل أمام مجموعة من الرجال. لا أستطيع تحمل ذلك». وضعت كيا رأسها بين يديها.

«حسنًا، يجب القيام بشيءٍ ما. لا يستطيع القيام بما فعله، ثم يتجوّل بقاربه الرائع في الأرجاء على راحته. وكأنه ملك العالم».

«أيها القافز، أنت تعلم كيف هو الأمر. سيقفون بجانبه. سوف يقولون أني أفتعل مشكلةً فحسب. كأنها محاولةٌ مني لأستحصل على بعض المال من أهله أو ما شابه ذلك. فكّر فيما سيحصل لو أن فتاةً من بلدة الملونين اتهمت تشايس أندريوز بالاعتداء عليها ومحاولة اغتصابها. لن يفعلوء شيئًا. صفر». زادت الرجفة في صوت كيا. «سينتهي الأمر بمشكلةٍ كبيرةٍ للفتاة. سيكتبون في الصحيفة. سيتهمها الناس بالعهر.

حسنًا، سيفعلون ذلك معي أيضًا، وأنت تعلم هذا. أرجوك أن تعدني أنك لن تخبر أحدًا». أنهت كلامها وانفجرت بالبكاء.

«أنتِ على حق آنسة كيا. أعلم أنك على حق. لا تقلقي، فلن أفعل ما يزيد الأمر سوءًا. ولكنك كيف تعلمين أنه لن يلاحقك مرة ثانية؟ وأنت دائمًا ما تكونين لوحدك هنا؟».

«لطالما حميت نفسي في السابق؛ سقطت في هذه المرة لأني لم أره قادمًا. سأبقي نفسي في مأمن، أيها القافز. إن قررت الذهاب إلى غرينفيل، فقد أعيش، حين أعود، خارجًا في كوخ القراءة لفترة. لا أعتقد أن تشايس يعلم بوجوده».

«حسنًا، إذًا. ولكني أريد منكِ أن تأتي إلى هنا أكثر من السابق. أريدك أن تأتي وتخبريني بما يجري. تعلمين أنك تستطيعين القدوم دائمًا والبقاء مع مايبل ومعي، تعلمين ذلك».

«أشكرك، أيها القافز. أعلم ذلك».

«متى ستذهبين إلى غرينفيل؟».

«لست متأكدةً. ذكرت رسالة المحرر أن اللقاء سيكون في أواخر

تشرين الأول. لم أقم بالتحضيرات بعد، حتى أني لم أقبل الدعوة بعد».

أدركت أنها لن تستطيع الذهاب حتى تختفي الندبة بشكلٍ كاملٍ.

«حسنًا، عليكِ إخباري بوقت ذهابك إلى هناك وبوقت عودتك. أتسمعين؟ يجب أن أعلم إن كنت ذاهبةً خارج البلدة. لأني إن لم أركِ ليوم أو أكثر سوف أخرج إلى مكانك بنفسي. سأجلبك بنفسي إن احتاج الأمر».

«سأفعل. شكرًا لك، أيها القافز».

47
الخبير

1970

كان محامي الادعاء، إيريك تشاستاين، يستجوب الشريف عن الصّبيّين الذين اكتشفا جثة تشايس أندريوز عند قاعدة برج النار في 30 تشرين الأول، وعن معاينة الطبيب، وعن التحقيق الأولي.

أكمل إيريك: «أرجو أن تخبرنا، أيها الشريف، عمّا دفعك للاعتقاد أن تشايس أندريوز ما كان ليقع عن طريق الصدفة. ما الذي دعاك للتفكير بأن جريمة ما قد حصلت؟».

«حسنًا، كان أول ما لاحظته عدم وجود آثار أقدامٍ حول جثة تشايس، ولا حتى آثار أقدامه. باستثناء أثار أقدام الصبيين الذين وجداه،

فاستنتجت أن أحدًا مسحها ليغطّي على جريمة».

«أليس صحيحًا، أيضًا، أيها الشريف، أنه لم يكن هناك أية بصماتٍ وأية آثار عجلاتٍ لمركبةٍ في مسرح الجريمة؟».

«أجل، هذا صحيح. ذكرت تقارير المختبر أنه لم يكن هناك بصماتٌ حديثةٌ في البرج. ولا حتى على مسرب الشبك الحديدي، والذي على أحدهم فتحه. بحثت مع نائبي عن آثار لعجلات مركبةٍ، ولم يكن هناك آثارٌ أخرى أيضًا. كل ذلك يدل على أن أحدًا دمر الأدلة عامدًا».

«فإذًا، حين أثبتت تقارير المختبر أن الألياف الصوفية الحمراء من قبعة الآنسة كلارك وُجدت على ثياب تشايس في تلك الليلة، أنت..».

قال توم: «أعترض، يا حضرة القاضي، هذا توجيهٌ للشاهد. بالإضافة إلى ذلك، أثبتت الشهادة على أن الألياف الحمراء قد تكون انتقلت من ثياب الآنسة كلارك إلى ثياب السيد أندريوز قبل ليلة 29 إلى 30 من تشرين أول».

دوّى صوت القاضي: «مقبول».

«لا مزيد من الأسئلة. الشاهد لك». كان إيريك يعلم أن شهادة

الشريف ستكون ضعيفة للإدعاء - كيف تتصرف بغياب سلاح الجريمة، وغياب البصمات، أو آثار الأقدام، أو عجلات المركبة - ولكن كان هناك ما يكفي من اللحم والذرة لإقناع هيئة المحلفين بأن أحدهم قتل تشايس، وباعتبار الألياف الحمراء، قد يكون أحدهم هذا هو الآنسة كلارك.

سار توم ميلتون إلى منصة الشهود. «أيها الشريف، هل طلبت أنت أو أي أحد أخر من خبير- أن يبحث عن آثار أقدامٍ أو دلائلٍ على أن آثار الأقدام مُسحت؟».

«لم يكن ذلك ضروريًّا. أنا الخبير. معاينة آثار الأقدام هو جزءٌ من تدريبي الرسمي. لم أكن بحاجة لخبيرٍ آخر».

«فهمت. هل كان هناك دليلٌ على أن آثار الأقدام مُسحت؟ أعني، مثلاً، هل كان هناك علامات لفرشاةٍ أو لغصنٍ استُخدم ليغطي الآثار؟ أو هل كان هناك وحل انتقل فوق وحلٍ آخر؟ أي دليلٍ، أو صورٍ تثبت ذلك الفعل؟».

«كلا. أنا هنا لأشهد كخبيرٍ على أنه لم يكن هناك آثار أقدامٍ تحت البرج إلا آثار أقدامنا وأقدام الصبيين. فلا بد أن أحدهم محاها».

«حسنًا. ولكن، أيها الشريف، من الخصائص الفيزيائية للسبّخة أنه حين يأتي المدّ داخلاً وخارجًا، ترتفع المياه الجوفية وتنخفض - حتى بعيدًا خلف المدّ - ما يجعل بعض المساحات جافةً لفترة، ثم يرتفع الماء ثانيةً خلال عدة ساعات. يغمر الماء، في أماكن عدة، وحين يرتفع إلى الأرض ماحيًا كل العلامات التي كانت في الوحل، كآثار الأقدام. صحنٌ نظيفٌ. أليس كذلك؟».

«حسنًا، أجل، قد يحصل ذلك على هذا النحو. ولكن ليس هناك دليلٌ على أن شيئًا كهذا حصل».

«لدي هنا جدول المد لليلة 29 تشرين الأول وصباح 30 تشرين الأول، وانظر، أيها الشريف جاكسون، إنه يظهر أن المدّ المنخفض كان حوالي منتصف الليل. فإذًا، في الوقت الذي وصل فيه تشايس إلى البرج وسار نحو الدرج، فمن الممكن أنه ترك آثارًا في الوحل. ثم حين أتى المدّ إلى الداخل وارتفعت المياه الجوفية، محيت آثاره. ولذا تسببتم أنتم والصبيان بآثار عميقة، ولنفس السبب اختفت آثار أقدام تشايس. هل توافق على أن هذا ممكن؟».

أومأت كيا قليلاً - ردة الفعل الأولى لشهادةٍ منذ أن بدأت

المحاكمة - كانت قد رأت مياه السبّخة عدة مرات تبتلع قصة الأمس: آثار للغزلان أو علامات قطٍ بريٍ بالقرب من ظبيٍ ميت، اختفت.

أجاب الشريف: «حسنًا، لم أره من قبل يمسح شيئًا بشكلٍ كاملٍ كهذا، فلا أعلم».

«ولكن، يا أيها الشريف، وكما قلتَ أنت، أنت الخبير المدرب على معاينة آثار الأقدام. وتقول الآن أنك لا تعلم إن كان الحدث قد حصل في تلك الليلة أم لا».

«حسنًا، لن يكون إثبات ذلك بطريقةٍ أو بأخرى صعبًا، أليس كذلك؟ نخرج إلى هناك وقت المدّ المنخفض، ننشئ بعض العلامات، ونرى إن كانت ستختفي عند عودة المدّ إلى هنا».

«أجل، لن يكون من الصعب أن نبرهن ذلك بطريقةٍ أو بأخرى، فلماذا لم تقوموا بذلك؟ ها نحن في المحكمة، وليس لديك دليلٌ على أن أي شخصٍ مسح آثار الخطوات ليغطي جريمة. الأقرب إلى الواقع هو أن تشايس أندريوز ترك فعلاً آثارًا تحت البرج، وأنها اختفت بارتفاع المياه الجوفية. وإن كان قد وُجد معه بعض الصحبة ليتسلق البرج للاستمتاع،

فإن آثار خطواتهم كانت لتختفي أيضًا. في ظل هذه الظروف العالية الاحتمال، ليس هناك فرضيةٌ على وقوع جريمةٍ في أيّ حالٍ من الأحوال. أليس هذا صحيحًا أيها الشريف؟».

تمايلت عينا إد يمينًا وشمالاً، يمينًا وشمالاً، وكأن الإجابة كانت مكتوبةً على الجدران. تحرّك الناس في مقاعدهم.

كرر توم: «أيها الشريف؟».

«برأيي الاحترافي، يبدو أنه من غير المحتمل أن تقوم دورة ارتفاع المياه الجوفية بمسح خطوات الأقدام بشكلٍ كلّي لتختفي كما حصل في هذه القضية. على كل حالٍ، بما أنه لا يوجد دليلٍ على تغطية الأدلة، فغياب آثار الخطوات، بحد ذاته، لا يثبت وجود جريمة. ولكن..».

«شكرًا لك». استدار توم نحو هيئة المحلفين وكرر كلمات الشريف: «غياب آثار الخطوات لا يثبت وجود جريمة. لنكمل أيها الشريف، ماذا بشأن الفتحة التي تُركت على مصراعيها في أرضية برج النار؟ هل عاينتموها لتروا إن كانت بصمات الآنسة كلارك عليها؟».

«أجل، بالتأكيد فعلنا».

«وهل وجدتم بصمات الآنسة كلارك على الفتحة أو على أي شيءٍ في البرج؟».

«كلا. كلا، ولكننا لم نجد بصمات لأشخاصٍ آخرين أيضًا، ف....».

انحنى القاضي: «أجب على الأسئلة فحسب، إد».

«ماذا بشأن الشعر؟ للآنسة كلارك شعرٌ طويلٌ أسود، إن كانت قد تسلقت كل المسافة إلى القمة وكانت منشغلة عند المنصة، تفتح الفتحة وما إلى ذلك، أتوقع وجود خصلٍ من شعرها. هل وجدت أيًّا منها؟».

«كلا». لمع جبين الشريف.

«أدلى الطبيب الشرعي في شهادته أنه بعد معاينة جثة تشايس، لم يكن هناك أية دليلٍ على أن الآنسة كلارك كانت قريبةً منه في تلك الليلة. أووه، كانت هناك تلك الألياف، ولكنها قد تكون هناك منذ أربعة أعوام. والآن، أنت تقول لنا أنه ليس هناك أي دليلٍ وبأي شكلٍ من الأشكال بأن الآنسة كلارك كانت حتى على برج النار في تلك الليلة. هل هذه العبارة صحيحة؟».

«أجل».

«فليس لدينا دليلٌ يثبت أن الآنسة كلارك كانت على برج النار في الليلة التي سقط فيها تشايس أندريوز ومات. هل هذا صحيح؟».

«هذا ما قلته».

«إذًا فالإجابة هي نعم».

«أجل. الإجابة هي نعم».

«أليس صحيحًا، أيها الشريف، أن تلك الفتحات في أعلى البرج كانت غالبًا ما تترك مفتوحةً من قبل الأطفال الذين كانوا يلعبون هناك؟».

«أجل، كانت تُترك مفتوحةً في بعض الأحيان. ولكن كما قلت سابقًا، كانت تلك التي عليك فتحها للاعتلاء إلى قمته، وليست الفتحات الأخرى».

«ولكن أليس صحيحًا أن الفتحة عند الدرج والفتحات الأخريات كانت تُترك مفتوحةً أغلب الأوقات وكانت تُعتبر خطرةً لدرجة أن مكتبك بعث برسالة إلى منظمة خدمة الغابة الأميركية لتصحيح الوضع؟» حمل توم مستندًا وأعطاه للشريف. «هل هذا هو الطلب

الرسمي إلى خدمة الغابات في 18 تموز من العام الماضي؟» نظر الشريف إلى الصفحة.

«أجل. هذا هو».

«من كتب هذا الطلب، تحديدًا؟».

«أنا كتبته بنفسي».

«فإذًا، أرسلت طلبًا خطيًا لخدمة الغابات، وقبل ثلاثة أشهر من وقوع تشايس أندريوز ليلقى حتفه عبر الفتحة في برج النار، تطلبون منهم أن يغلقوا البرج، أو يعملوا على تأمين الفتحات حتى لا يصاب أحدٌ بأذى. أهذا صحيح؟».

«أجل»

«هلا قرأت من فضلك، أيها الشريف، أمام هيئة المحكمة الجملتين الأخيرتين من هذا الخطاب الذي أرسلته إلى خدمة الغابات؟ الجملة الأخيرة فحسب، هنا». سلّم الخطاب للشريف مشيرًا إلى السطر الأخير.

قرأ الشريف السطر بصوتٍ عالٍ أمام هيئة المحكمة: «عليّ أن أكرر، هذه الفتحات خطيرةٌ للغاية وإن لم يُتّخذ إجراءُ ما، فقد يحدث ضررٌ عظيمُ أو حتى موت».

«ليس لدي المزيد من الأسئلة».

48
رحلة

1969

أبحرت كيا في 28 تشرين الأول 1969، إلي رصيف مرفأ القافز لتودعه، كما وعدت، ثم قادت قاربها إلى مرسى البلدة، حيث توقف، كالعادة، صيادو السمك وصيادو الروبيان عن العمل ونظروا إليها. تحاشتهم، وربطت القارب ثم حملت حقيبة ملابسٍ متآكلةٍ - مأخوذةً من الجهة الخلفية من خزانة أمها القديمة - واتجهت نحو الشارع الرئيس. لم يكن لديها حقيبة يدٍ، ولكنها حملت حقيبة الظهر المليئة بالكتب، وبعض قطع لحم الخنزير المقدد والبسكويت، وكميةً قليلةً من النقود، بعد أن دفنت القسم الأكبر من مالها في علبة صفيحٍ بالقرب من الهور. بدت، لمرةٍ، عاديةً جدًّا، ترتدي ثيابًا بنّية من ماركة «سيرز»، وتنورةً من ماركة «روبياك»، وقميصًا أبيض، وحذاءً بكعبٍ مسطح. كان

أصحاب المتاجر مشغولين، ويهتمون بالزبائن، ويمسحون الأرصفة، وينظرون إليها، جميعهم.

وقفت عند الزاوية تحت علامة موقف حافلة وانتظرت إلى أن توقفت حافلة «ترايلوايز» بفحيح فراملها الهوائية، حاجبةً رؤية المحيط. لم يصعد أحد أو ينزل فيما تقدّمت كيا واشترت بطاقة إلى «غرينفيل» من السائق. أعطاها جدولًا مطبوعًا حين سألت عن أوقات العودة وتواريخها، وخزن حقيبتها. تمسكت بحقيبة الظهر بإحكام وصعدت إلى الحافلة. وقبل أن يتاح لها وقت للتفكر في الموضوع، كانت الحافلة، والتي بدت بطول البلدة، قد انطلقت مغادرةً «باركلي كوف».

ترجلت كيا بعد يومين، في الساعة 1:16 ظهرًا، من حافلة «ترايلوايز» القادمة من «غرينفيل». تجمهر المزيد من القرويين حولها، يحدقون بها ويتهامسون خلف ظهرها، فيما أسدلت شعرها فوق كتفيها، وأخذت الحقيبة من السائق. اجتازت الشارع نحو المرسى، وصعدت إلى قاربها، وقادت القارب مباشرةً إلى البيت. أرادت أن تتوقف عند القافز وتخبره بعودتها، كما وعدته أن تفعل، ولكنها فكرت أن تعود في اليوم التالي. كما أنها، بهذه الطريقة تستطيع أن تعود للنوارس بوقتٍ

أسرع.

وفي صباح اليوم التالي، 31 تشرين الأول، وفيما كانت متجهةً نحو رصيف القافز، نادته فخرج من المتجر الصغير.

«مرحبًا أيها القافز، أتيت فقط لأعلمك بعودتي إلى البيت. عدت بالأمس». لم يقل شيئًا وهو يتقدّم نحوها.

قال، حين بدأت تخطو باتجاه رصيف المرسى: «آنسة كيا أنا..».

رفعت رأسها فجأةً إليه: «ماذا هناك؟ ما خطب؟».

وقف ممعنًا النظر فيها. «كيا، هل سمعتِ الأخبار عن السيد تشايس؟».

«كلا. أية أخبار؟».

هز رأسه. «مات تشايس أندريوز. مات في منتصف الليل فيما كنتِ هناك في غرينفيل».

«ماذا؟» نظر الاثنان معًا، كيا والقافز عميقًا في عيني بعضهما البعض.

«وجدوه صباح يوم أمس عند قاعدة برج النار مع... حسنًا، يقولون أن عنقه كُسِرت وجمجمته تحطمت إلى الداخل. ويؤكدون أنه وقع مباشرةً من القمة».

بقيت شفتا كيا منفرجتين..

أكمل القافز. «ضجت البلدة كلها بالقصة. يضع بعض الناس الأمر في خانة الحادث، ولكن يقال أن الشريف ليس مقتنعًا كثيرًا. أم تشايس غاضبةٌ تمامًا، وتقول أن ثمة أمرٌ غير سويٍ في القضية. إنها فوضى عارمة».

سألت كيا: «لماذا يعتقدون أن ثمة أمرٌ غير سوي..؟».

«كانت إحدى الفتحات على منصة البرج مفتوحةً، ووقع كالرصاصة عبرها، وقد أكدوا أن ذلك، أمرٌ يدعو للشك. يقول بعض الناس أن تلك الدرف كانت مفتوحةً كل الوقت لأن أطفالاً كانوا يعبثون هناك، ومن الممكن أن سقوط السيد تشايس كان حادثًا. ولكن بعض الناس يصرون على أنها جريمة».

صمتت كيا، فأكمل القافز. «كان أحد أسباب اعتقادهم بأنها جريمة أنهم حين وجدوا السيد تشايس، لم يكن يضع عقد الصدف الذي

كان يرتديه كل يومٍ لسنوات، وتقول زوجته أنه كان يرتديه بالتحديد في تلك الليلة التي غادر فيها البيت، وقبل أن يذهب إلى أصدقائه لتناول العشاء. كان دائمًا يرتديه، كما قالت».

جفّ فمها لدى ذكره للعقد.

«ثم أن الصبيين الذين وجدا تشايس، حسنًا، لقد سمعا الشريف يقول أنه لم يكن هناك آثار أقدامٍ في المكان. وكأن أحدهم محا الأدلة. والصّبيّان ينشران الأخبار في أرجاء البلدة».

أخبرها القافز عن موعد الجنازة ولكنه كان يعلم أن كيا لن تذهب، سيكون عرضًا لنساء الخياطة ومجموعات دراسة الكتاب المقدّس. ستشمل التخمينات والثرثرة كيا بالتأكيد. جال بخاطر القافز: «أشكرك يا إلهي أنها كانت في غرينفيل في لحظة وفاته، وإلا سوف يضعون الأمر برمّته على عاتقها».

أومأت كيا للقافز وعادت إلى البيت. وقفت على الضفة الموحلة للهور، وتمتمت إحدى قصائد أماندا هاميلتون:

«لا تستخف

بالقلب أبدًا،

فهو قادرٌ على الانجازات

التي يعجز العقل عنها.

يعطي القلب الاملاءات بالتحديد كما يشعر.

كيف تستطيع أن تفسّر، بطريقةٍ أخرى

المسار الذي أخذته،

و الذي أخذته أنت

الطريق الطويل عبر هذا الممر؟».

49
تمويهات

1970

أفاد أن اسمه هو السيّد لاري برايس - رجلٌ بشعرٍ أبيضٍ مجعّد، قصيرٌ، ويرتدي بذّة زرقاء تلمع برخصٍ - وأنه كان يقود حافلة «ترايلوايز» على طرقٍ مختلفةٍ في منطقة كارولاينا الشمالية، وهو الشاهد التالي وقد نوديَ ليقسم اليمين. أكد السيد برايس، أثناء استجواب إيريك له أنه من الممكن للحافلة أن تمضي من «غرينفيل» إلى «باركلي كوف» وتعود في الليلة ذاتها. أكد أنه كان يقود الحافلة برحلة ذهابٍ وإيابٍ من «غرينفيل» إلى «باركلي كوف» في الليلة التي مات فيها تشايس، وأن أحدًا من المسافرين لم يشبه الآنسة كلارك.

قال إيرك: «سيد برايس، أخبرت الشريف خلال التحقيقات أنه كان هناك مسافرة نحيفةٌ على الحافلة قد تكون امرأةً طويلةً متنكرةً

بزي رجل. هل هذا صحيح؟ أرجوك أن تصف هذه المسافرة».

«أجل، هذا صحيح. شابٌ أبيض البشرة. أعتقد أن طوله حوالي خمسة أقدام وعشرة بوصات، وبنطاله معلق عليه وكأنه خرقة على سورٍ. كان يعتمر قبعةً كبيرةً ضخمةً زرقاء. أبقى رأسه منخفضًا، ولم ينظر إلى أحدٍ».

«الآن وقد رأيت الآنسة كلارك، هل تعتقد أنه من الممكن لذلك الرجل النحيف الذي كان في الحافلة أن يكون الآنسة كلارك متنكّرةً؟ هل يمكن لشعرها الطويل أن يختبئ تحت القبعة الضخمة تلك؟».

«أجل، أعتقد ذلك».

سأل إيرك القاضي أن يطلب من كيا الوقوف، ففعلت وتوم ميلتون واقف بقربها.

قال أيريك: «تستطيعين الجلوس، آنسة كلارك». ثم التفت إلى الشّاهد: «هل تقول أن ذلك الشاب الذي كان على الحافلة له نفس الطول والقامة كالآنسة كلارك؟».

قال السيد برايس: «أقول أنه تقريبًا مثلها».

«فإذًا باعتبار كل ما سبق، هل تستطيع القول أنه من المحتمل أن الشاب النحيف الذي كان في الحافلة خلال رحلة الساعة 11:50 ليلاً، والمسافر من غرينفيل إلى باركلي كوف في ليلة 29 تشرين الأول من العام الماضي، كان في الحقيقة المتهمة، الآنسة كلارك؟».

«أجل، أقول أن ذلك ممكن».

«أشكرك سيد برايس. لا مزيد من الأسئلة. الشاهد لك».

وقف توم أمام منصة الشهود، واستخلص، بعد خمس دقائق من استجواب السيد برايس، ما يلي. «ما أخبرتنا به هو هذا: أولاً، لم تكن هناك امرأةٌ تشبه المتهمة على الحافلة من غرينفيل إلى باركلي كوف في ليلة 29 تشرين الأول، 1969؛ ثانيًا، كان هناك رجلٌ نحيفٌ وطويلٌ على الحافلة، ولكنك، في الوقت ذاته، ورغم رؤيتك لوجهه عن قرب، لم تتعتقد أنه امرأةٌ متنكّرة؛ ثالثًا، خطرت لك فكرة التنكر فقط حين اقترحها الشريف».

أكمل توم قبل أن يستطيع الشاهد الإجابة. «سيد برايس، أخبرنا كيف تأكدت أن الرجل النحيف كان على متن الحافلة في رحلة الساعة

11 مساءً في 29 تشرين الأول ؟ هل دوّنت ملاحظةً، كتبتها؟ ربما كان ذلك في الليلة التي سبقتها أو تلك التي تلتها. هل أنت متأكدٌ مئةً بالمئة أن التاريخ كان 29 تشرين الأول؟».

«حسنًا، أفهم ما ترمي إليه. بدا أن الرجل كان على متن الحافلة حين كان الشريف ينشط ذاكرتي، أما الآن، أعتقد أني لست متأكدًا مئةً بالمئة».

«بالإضافة إلى ذلك، يا سيد برايس، ألم تكن الرحلة متأخرةً تلك الليلة؟ في الواقع، كانت متأخرةً لخمس وعشرين دقيقةً ولم تصل إلى باركلي كوف حتى الساعة 1:40 صباحًا. هل هذا صحيح؟».

«أجل». نظر السيد برايس إلى إيريك. «أنا أحاول المساعدة هنا، أقوم بالأمر الصحيح».

أكّد له توم: «لقد قدمت مساعدةً عظيمة، سيد برايس. أشكرك كثيرًا. لا مزيد من الأسئلة».

نادى إيريك شاهده التالي، سائق الحافلة لرحلة 2:30 صباحًا من

«باركلي كوف» إلى «غرينفيل» صباح 30 تشرين الأول، السيد جون كينغ. شهد بأن المتهمة، الآنسة كلارك، لم تكن على متن الحافلة، ولكن كانت هناك امرأةٌ أكبر سنًا، «... طويلةٌ كالآنسة كلارك، ولديها شعرٌ رمادي، قصيرٌ مع خصلاتٍ مجعّدةٍ، كموجةٍ ثابتة».

«انظر إلى المتهمة، سيد كينغ، هل من الممكن أن تكون الآنسة كلارك قد تنكّرت كسيدةٍ عجوز، لتبدو تمامًا كتلك الامرأة على متن الحافلة؟».

«حسنًا، من الصعب تصوّر ذلك. ربما».

«فإذا، هل ذلك ممكن؟».

«أجل، أعتقد ذلك».

قال توم، محرجًا إياه: «لا يمكننا قبول كلمة أعتقد في محاكمة بجريمة قتل. هل رأيت المتهمة، الآنسة كلارك، في حافلة الساعة 2:30 صباحًا من باركلي كوف إلى غرينفيل في الصباح الباكر من 30 تشرين الأول، 1969؟».

«كلا، لم أرها».

«وهل كان ثمة رحلة حافلةٍ أخرى من باركلي كوف إلى غرينفيل في تلك الليلة؟».

«كلا».

50
المفكرة

1970

رنت كيا، حين اقتيدت إلى قاعة المحكمة في اليوم التالي، بنظرها نحو تايت، والقافز، ومايبل وأمسكت بنَفَسها لرؤية زيٍّ عسكري، ابتسامةٌ خفيفةٌ على وجهٍ به ندبة. جودي. أومأت قليلاً، وتساءلت كيف علم بمحاكمتها. ربما عبر جريدة أتلانتا. خفضت رأسها بخجل.

وقف إيريك. «سيدي القاضي، إن كان ذلك يناسب هيئة المحكمة، فالادعاء ينادي السيدة سام أندريوز». تنفست القاعة الصعداء في حين سارت باتي لوف، الأم الثكلى، إلى منصة الشهود. أدركت كيا عبثية الفكرة لدى رؤية المرأة التي تمنت يومًا أن تكون حماتها. بدت باتي لوف وهي مرتديةٌ أجمل الحرير الأسود، حتى في هذا الجو المتجهم مهتمةً بمظرها

الخاص وأهميته. جلست بشكلٍ مستقيمٍ وحقيبة يدها اللامعة جاثمةٌ على حضنها، كان شعرها الداكن مصففًا بعنايةٍ على شكل كعكةٍ تحت قبعةٍ، موضوعةٍ تلقائيًا، مع شبكٍ دراميٍ أسودٍ يغطي عينيها. لن تتقبّل أبدًا أن تتخذ ساكنة السبّخة حافية القدمين كنّةً لها.

«سيدة أندريوز، أعلم أن هذا صعبٌ عليك، فسأختصر بالقدر الإمكان. هل صحيح أن ابنك، تشايس أندريوز، كان يرتدي طوقًا من الجلد الطبيعي مع صدفة؟».

«أجل، هذا صحيح».

«ومتى، وبأي وتيرةٍ، كان يرتدي ذلك العقد؟».

«في كل الأوقات. لم ينزعه أبدًا. لم أره مرّةً بدون العقد لأربع سنوات».

ناول إيريك السيدة أندريوز مفكرةً بغلافٍ جلدي. «هل تستطيعين أن تعرّفي هذا الكتاب لهيئة المحكمة؟».

حدّقت كيا في الأرض، وعضت على شفتيها، مستشيطةً غضبًا من التعدي على خصوصيتها حين حمل المدعي العام مفكرتها أمام

الموجودين في المحكمة ليروها. كانت قد أعدتها لتشايس بعد فترةٍ قصيرةٍ من لقائهما. حرمت فرحة تلقي الهدايا لمعظم حياتها، حرمانٌ قلَّ من يفهمه. غلفت المفكرة، بعد العمل عليها لليالٍ طويلة، بورقٍ بنيٍ وزينته بأوراق شجر السرخس الخضراء الجميلة والريش الأبيض من أوزات الثلج. أخرجتها وقدمتها لحظة خروج تشايس من قاربه على شاطئ الهور.

«ما هذا؟».

قالت: «شيء مني فحسب». وابتسمت.

قصةٌ مرسومةٌ لأوقاتهما معًا. البداية، رسمٌ بالحبر لهما وهما جالسان أمام الأخشاب الطافية، وتشايس يعزف على الهارمونيكا. كانت الأسماء اللاتينية لأعشاب شوفان البحر والأصداف المنتشرة مكتوبةً بيد كيا. دوامةٌ من الألوان المائية أظهرت قاربه وهو يبحر تحت ضوء القمر، مع كلمات «يجذف مايكل بالقارب إلى الشاطئ» سابحةً في الغيوم. صورةٌ أخرى لها ترقص بين النوارس الفضية على الشاطئ الفضي.

كان تشايس قد قلب الصفحات بتساؤل. مرّر أنامله بلطفٍ على

بعض الرسومات، ضحك على بعضها، ولكنه بقي صامتًا لمعظم الوقت، يومئ.

«لم أرَ شيئًا كهذا قط». قال وهو ينحني ليقبلها: «شكرًا لك كيا». جلسا على الرمل لبرهة، ملتحفين بالشراشف، يتحدثان، ويمسكان بأيدي بعضهما البعض.

تذكّرت كيا كيف خفق قلبها لفرح العطاء، لم تتخيّل أبدًا أن أحدًا سيرى مفكرتها. وقطعًا ليس كدليلٍ خلال المحاكمة بجريمة قتل.

لم تنظر نحو باتي لوف حين أجابت على سؤال إيريك. «إنها مجموعة من الرسومات كانت الآنسة كلارك قد أعدّتها لتشايس. أعطته إياها كهدية». تذكرت باتي لوف أنها وجدت المفكرة تحت رزمةٍ من الألبومات بينما كانت تنظف غرفته. من الواضح أنه أخفاها عنها. جلست على سرير تشايس وفتحت الغلاف السميك. كان ابنها هناك، في رسومٍ واضحةٍ، مستلقيًا أمام الأخشاب الطافية مع تلك الفتاة. فتاة السبّخة. ابنها تشايس مع الحثالة. بالكاد استطاعت أن تتنفس. «ماذا لو عرف الناس؟» شعرت بقشعريرةٍ في الأول، ثم عرقت، وترنّح جسدها.

«سيدة أندريوز، هلّا شرحتِ لنا ماذا ترين في هذه الصورة التي كانت المتهمة، الآنسة كلارك، رسمتها».

«هذه رسمة لتشايس والآنسة كلارك وهما على قمة برج النار».

سرت همهمة في القاعة.

«ماذا يحدث غير ذلك؟».

«هناك، بين يديهما، إنها تقدم له عقد الصدف».

جال بخاطر باتي لوف: «وهو لم ينزعه. ظننت أنه قد أخبرني بكل شيء. اعتقدت أني خلقت رابطًا مع ابني أكثر من الأمهات الأخريات؛ هذا ما قلته لنفسي. ولكني لم أكن أعلم بشيء».

«فإذًا، ولأنه أخبركِ، وبسبب دفتر المذكرات هذا، علمتِ بأن ابنك كان يقابل الآنسة كلارك، وعلمتِ أنها أعطته العقد؟».

«نعم».

«عندما أتى تشايس إلى بيتك للعشاء في ليلة 29 تشرين الأول، هل كان يرتدي العقد؟».

«أجل، لم يغادر بيتنا إلا بعد الساعة الحادية عشرة، وكان يرتدي العقد».

«وحين ذهبتِ إلى العيادة في اليوم التالي لتتعرفي على تشايس، ألم يكن يرتدي العقد؟».

«كلا، لم يكن يرتديه».

«هل أنتِ على علم لِمَ قد يريد أحدٌ من أصدقائه أو أي شخص آخر، باستثناء الآنسة كلارك، أن ينزع العقد عن تشايس؟».

«كلا».

نادى توم بسرعة من مقعده: «أعترض، يا حضرة القاضي. إشاعةٌ. استحضار افتراضيات. لا تستطيع أن تتكلم عمّا يفكر به الآخرون».

«مقبول. يا هيئة المحلفين، عليكم تجاهل السؤال والجواب الأخيرين». ثم أحنى رأسه مؤنبًا محامي الادعاء قائلاً: «انتبه لخطواتك، إيريك. بالله عليك، أنت أفضل من ذلك».

أكمل إيريك غير متأثرٍ بما حصل: «حسنًا، نعرف من رسوماتها أن المتهمة، الآنسة كلارك، تسلقت برج النار مع تشايس مرة واحدةً؛ نعرف

أنها أعطت طوق الصدف له. وأنه ارتداه بشكلٍ دائمٍ حتى ليلة وفاته، ثم اختفى العقد. هل هذا كله صحيح؟».

«نعم».

«شكرًا لك. لا مزيد من الأسئلة. الشاهدة لك».

قال توم: «لا أسئلة».

51
قمر متناقص

1970

لم تكن لغة المحكمة، بالطبع، شاعريةً كلغة السبّخة. ورغم ذلك، رأت كيا تشابهًا بين طبيعتيهما. كان القاضي، المعتدّ برجولته، آمنًا في موقعه، كان وضعه مفروضًا، ولكنه مرتاحٌ وغير مهددٍ كخنزير المستعمرة. نضح توم ميلتون، أيضًا، بالثقة والمركز بحركاته السهلة وبموقفه. فحلٌ قويٌ، ومعروفٌ بذلك. اعتمد محامي الادعاء، بالمقابل، على ربطات عنقٍ عريضةٍ زاهية، وستراتٍ ذات أكتافٍ عريضةٍ ليعزز من موقفه. كان يرمي بثقله بتحريك يديه أو رفع صوته. يحتاج الأقل ذكورةً إلى رفع صوته، كي يلاحظه الآخرون. مثّل حاجب المحكمة المستوى الأقل من الذكورة والذي اعتمد على حزامه المعلّق به مسدسٌ لامعٌ، وحفنة من المفاتيح الرنّانة، وجهاز لاسلكي جعجاع ليدعم بهم موقعه. جال

بخاطر كيا: «يعزز مسلسل السيطرة من الثبات في التجمعات السكنية الطبيعية، وبعض التجمعات الأقل طبيعية».

تقدّم محامي الادعاء، مرتديًا ربطة عنقٍ قرمزيةٍ، فجأةً إلى الأمام ونادى الشاهد التالي، هال ميلر، شابٌ نحيفٌ كعصا المجرفة، ذو ثمانٍ وعشرين سنة، وبشعرٍ بنيٍّ كالممسحة.

«سيد ميلر، أرجوك أن تخبرنا أين كنت وماذا رأيت في ليلة 29 إلى 30 تشرين الأول، 1969، حوالي الساعة 1:45 صباحًا».

«كنت أنا وآلن هانت نعمل لدى تيم أونيل على قاربه لصيد الروبيان، وكنا عائدين بإتجاه باركلي كوف بوقتٍ متأخرٍ، ورأيناها. الآنسة كلارك، في قاربها، من مسافة حوالي الميل، شرق الجون، متجهةً إلى الشمال-الشمال الغربي».

وإلى أين يأخذها هذا الاتجاه؟».

«مباشرة إلى ذالك الجون بالقرب من برج النار».

ضرب القاضي سيمز بمطرقته إثر الضجة التي سادت المكان لدقيقةٍ كاملة.

«أليس من الممكن أنها تتجه إلى مكان آخر؟».

«حسنًا، أعتقد، ولكن ليس هناك شيءٌ في ذلك الاتجاه سوى أميالٌ من الغابات والمستنقع. لا مقصد سوى برج النار».

تسارعت مراوح السيدات في الغرفة الحارة القلقة. هبط «قاضي الأحد» النائم على مصطبة الشباك، على الأرض وسار باتجاه كيا. ولأول مرة في قاعة المحكمة حكّ جسده برجلها، ثم قفز على حضنها واستقرّ. توقف إيريك عن الكلام ونظر باتجاه القاضي، ربما أراد أن يعترض على ذلك العرض المفتوح للمحبّة، ولكن لم يكن هناك سابقةٌ قانونية.

«كيف تستطيع أن تكون متأكدًا أنها كانت الآنسة كلارك؟».

«أووه، كلنا نعرف قاربها. كانت تتجول به في أرجاء المنطقة لسنوات».

«هل كان ثمة أنوارٌ على قاربها؟».

«كلا، لا أنوار. كدنا أن نصدمها لو لم نرها».

«أليس من غير القانوني الإبحار بالقارب في الظلام بدون أنوار؟».

«أجل، كان من المفترض أن يكون لديها أنوار. ولكنها لم تفعل».

«فإذًا، ليلة وفاة تشايس أندريوز عند برج النار، كانت الآنسة كلارك تبحر مباشرةً في ذلك الاتجاه، لدقائقٍ فقط قبل وفاته. هل هذا صحيح؟».

«أجل، هذا ما رأيناه»

جلس إيريك.

سار توم نحو الشاهد. «صباح الخير، سيد ميلير».

«صباح الخير».

«سيد ميلير، كم مرّ على خدمتك كعضو في طاقم العمل على قارب تيم أونيل لصيد الروبياك؟».

«قريبًا من الثلاث سنوات الآن».

«أخبرني، من فضلك، في أي ساعةٍ طلع القمر في ليلة 29 إلى 30 من تشرين الأول؟».

«كان متناقصًا، ولم يطلع إلّا إلى بعد أن رسينا في باركلي كوف. في

وقتٍ ما بعد الثانية فجرًا. على ما أعتقد».

«فهمت. فإذًا عندما رأيت القارب الصغير مبحرًا باتجاه باركلي كوف في تلك الليلة، لم يكن هنان قمرٌ. لا بد أن الجو كان مظلمًا جدًّا».

«أجل. كان الجو مظلمًا. كان هناك ضوء النجوم ولكن، أجل، مظلم جدًّا».

«هل بإمكانك أن تخبر المحكمة ماذا كانت الآنسة كلارك ترتدي حين كانت تبحر بالقرب منكم في قاربها في تلك الليلة».

«حسنًا، لم نكن بالقرب الكافي لنرى ماذا كانت ترتدي».

«أووه؟ لم تكن بالقرب الكافي لترى ثيابها؟»، نظر توم إلى هيئة المحلفين حين قال هذا. «حسنًا، كم كنتم تبعدون عنها؟».

«أعتقد كنا على بعد ستين ياردةٍ على الأقل».

«ستون ياردة». نظر توم إلى هيئة المحلفين ثانية. «هذه مسافةٌ بعيدةٌ للتمكن من التعرف على القارب الصغير في الظلام. أخبرني، سيد ميلير، ما هي الأوصاف، ما هي الأوصاف والخصائص لهذا الشخص التي

جعلتك متأكدًا أنها الآنسة كلارك؟».

«حسنًا، كما قلت، أغلب الناس يعرفون قاربها، كيف يبدو عن قريبٍ وعن بعيد. نحن نعرف شكل القارب وشكلها حين تجلس في وسطِ الهيكل، طويلة، ونحيفةٌ. شكلٌ محددٌ بذاته».

«شكلٌ محددٌ بذاته. فأي شخصٍ له نفس الشكل، أي إنسانٍ طويلٍ ونحيفٍ بهذا الشكل في هذا النوع من القوارب سيبدو كأنه الآنسة كلارك. أهذا صحيح؟».

«أعتقد أن شخصًا آخر قد يبدو مثلها، ولكننا نعرف القوارب وأصحابها جيدًا، كما تعلم، لكوننا موجودين هناك كل الوقت».

«ولكن، يا سيد ميلير، هل لي أن أذكرك، بأن هذه محاكمة جريمة قتل. عليك أن تكون أكثر جديةً من هذا، وفي هذه الحالات يجب أن نكون متأكدين. لا نستطيع أن نأخذ الأمور بالأشكال أو الهيئات التي تُرى من مسافة ستين ياردةٍ في الظلام. فإذًا، أرجو أنك تستطيع إخبار هيئة المحكمة أنك متأكدٌ أن الشخص الذي رأيته في ليلة 29 تشرين الأولى 30 تشرين الأول، 1969، كان الآنسة كلارك؟».

«حسنًا، كلا، لا أستطيع أن أكون متأكدًا بشكلٍ تام. لم أقل مطلقًا أني متأكدٌ أنها كانت هي. ولكني متأك..».

«هذا كل شيءٍ، سيد ميلير. شكرًا لك».

قال القاضي سيمز: «تابع، إيريك».

قال أيريك من مقعده: «هال، قلت في شهادتك أنك كنت ترى الآنسة كلارك في قاربها، وتتعرف عليها، لثلاث سنواتٍ على أقل تقدير. أخبرني، هل فكّرت يومًا أنك رأيت الآنسة كلارك في قاربها من مسافة ما ثم اقتربت، فاكتشفت أنها ليست الآنسة كلارك أصلاً؟ هل حصل ذلك مطلقًا؟».

«كلا، ولا مرة».

«ولا مرةٍ واحدةٍ في ثلاث سنوات؟».

«ولا مرة في ثلاث سنوات».

«سعادة القاضي، انتهت الولاية من عرض قضيتها».

52
نزل الجبال الثلاثة

1970

دخل القاضي سيمز قاعة المحكمة وأشار إلى طاولة الدفاع. «سيد ميلتون، هل أنت جاهزٌ لاستدعاء شاهدك الأول للدفاع؟».

«جاهز يا سعادة القاضي».

«تابع».

أقسمت الشاهدة اليمين وجلست، فقال توم: «أرجو أن تذكري اسمكِ وما هو عملك في باركلي كوف. رفعت كيا رأسها بشكلٍ كافٍ لترى الامرأة العجوز القصيرة بشعرها الأبيض المائل إلى الأرجواني وتموّجه المحكم والتي كانت قد سألتها منذ سنوات لماذا كانت تأتي لوحدها إلى

البقالة. ربما كان شعرها أقصر وخصلاته مربوطة بإحكامٍ أكثر، ولكنها لا زالت بذات الهيئة بشكلٍ ملحوظ. كانت السيدة سينجلتاري تبدو فضوليةً ومتسلطةً، ولكنهد أعطت كيا الجوارب المحاكة لعيد الميلاد، مع الصفّارة الزرقاء في وسط الشتاء، بعد أن غادرت أمها. كان هذا هو عيد الميلاد الوحيد الذي احتفلت به كيا.

«أنا سارة سينجلتاري، وأنا موظفةٌ في متجر بيغلي ويغلي في باركلي كوف».

«سارة، هل صحيح أنك تستطيعين رؤية محطة وقوف حافلات ترايلوايز من موقع عملك على صندوق الدفع في متجر بيغلي ويغلي؟».

«أجل، أستطيع أن أراها بوضوح»

«في 28 تشرين الأول من العام الماضي، هل رأيت المتهمة، الآنسة كاثرين كلارك، منتظرةً عند موقف الحافلة عند الساعة 2:30 بعد الظهر؟».

«أجل، رأيت الآنسة كلارك واقفة هناك». عند ذلك، رنت سارة إلى كيا وتذكّرت الطفلة الصغيرة القادمة حافية القدمين إلى المتجر منذ عدّة

سنوات. لا أحد سيعلم، ولكن قبل أن تتعلم كيا الحساب، كانت سارة قد أعطتها فلوسًا أكثر من المطلوب حين ردّت لها بقية المال - ذلك المال الخاص الذي كان عليها أن تدفعه من حقيبة يدها لتعدّل حساب المتجر - بالطبع، كانت كيا تتعامل بكمياتٍ صغيرةٍ أصلًا، فساهمت سارة فقط بنقودٍ من فئة خمسة وعشرة سنتات، والتي كان يجب أن تساعدها.

«كم انتظرَت؟ وهل رأيتِها حقًا وهي تصعد إلى الحافلة الساعة 2:30 بعد الظهر؟».

«انتظرت لحوالي عشرة دقائق، أعتقد. كلنا رأيناها وهي تشتري بطاقة الحافلة من السّائق، وتعطيه حقيبة ثيابها، وتصعد إلى الحافلة. سارت الحافلة بعيدًا، وكانت بكلّ التأكيد على متنها».

«أعتقد أنكِ رأيتها، أيضًا، وهي عائدةٌ بعد يومين في 30 تشرين الأول في حافلة الساعة 1:16 بعد الظهر. هل هذا صحيح؟».

«أجل، بعد يومين، بعد 1:15 بعد الظهر بقليل، رفعت نظري حين توقفت الحافلة، وكانت الآنسة كلارك تخرج منها. دَلَلْتُ سيدات الحساب الأخريات عليها».

«ماذا فعلت بعد ذلك؟».

«سارت إلى رصيف الميناء، صعدت إلى قاربها، واتجهت جنوبًا».

«شكرًا لكِ، سارة. هذا كلّ شيء»

سأل القاضي سيمز: «هل من أسئلة، إيريك؟».

«كلا، سعادة القاضي، لا أسئلة لدي. في الحقيقة، أرى من لائحة الشهود أن الدفاع ينوي استدعاء العديد من سكان البلدة ليشهدوا أن الآنسة كلارك صعدت ونزلت من حافلة ترايلوايز في التواريخ والأوقات التي ذكرتها السيدة سينجلتاري. لا يدحض الادعاء هذه الشهادة. في الواقع، من الثابت في قضيّتنا أن الآنسة كلارك سافرت على هذه الحافلات في تلك الأوقات، وإن كان ذلك يسرّ المحكمة، فليس من الضروري أن نستمع للشهود الآخرين عن هذا الموضوع».

«حسنًا. سيدة سينجلتاري، تستطيعين النزول. ماذا عنك يا سيد ميلتون؟ إن كان الادعاء يقبل حقيقة أن الآنسة كلارك صعدت على حافلة الساعة 2:30 في 28 تشرين الأول، 1969، وأنها عادت حوالي الساعة 1:16 في 30 تشرين الأول، 1696، فهل أنت بحاجةٍ لتطلب

حضوا شهودٍ آخرين لهذه النقطة؟».

«كلا، حضرة القاضي». بدا وجهه هادئًا، ولكن توم شتم في سرّه. تركزت حجة غياب كيا على أنها كانت خارج البلدة وقت وفاة تشايس. كانت من أقوى النقاط لجهة الدفاع. ولكن إيريك ميع الحجة بنجاحٍ حين قبلها ببساطة، حتى أنه ذكر أنه ليس بحاجةٍ للاستماع لشهادة أن كيا سافرت من وإلى «غرينفيل» خلال ذلك اليوم. لم يكن ذلك مهمًا بالنسبة للادعاء لأنهم ادعوا أن كيا عادت إلى «باركلي» في الليل وارتكبت الجريمة. كان توم قد تنبّأ بالخطر، ولكنه اعتقد أنه من المهم أن تستمع هيئة المحلفين للشهادة، ليتخيلوا كيف تركت كيا البلدة في ضوء النهار ولم تعد إلّا بعد الحادثة. يعتقدون الآن أن حجّة غيابها لم تكن مهمةً بالشكل الكافي لتحصل على التأكيد.

«دُوّنت. أرجوك أن تتابع مع شاهدك التالي».

شهد السيد لانج فورلو، وهو أصلعٌ وبدينٌ، ومعطفه مبكّل الأزرار حول كرشٍ مدوّر، أنه يمتلك نُزل الجبال الثلاثة في «غرينفيل»، وأن الآنسة كلارك أقامت في النزل من 28 تشرين الأول إلى 30 تشرين الأول، 1969.

كرهت كيا الاستماع لهذا الرجل ذي الشعر الدهني، والذي لم تعتقد مطلقًا أنها سوف تراه ثانيةً، وها هو هنا يتكلم عنها وكأنها ليست موجودة. شرح كيف أرشدها إلى غرفتها في النزل، ولكنه فشل في ذكر أنه أطال البقاء. بقي يفكّر في أسبابٍ للبقاء في غرفتها إلى أن فتحت له الباب، مشيرةً له أن يغادر. حين سأله توم كيف يستطيع أن يكون متأكّدًا من مجيء الآنسة كيا إلى النُّزل ومغادرتها إياه، ضحك وقال أنها من النوع الذي يلاحظه الرجال. أضاف أن تصرفاتها كانت غريبة، لا تعرف كيف تستخدم الهاتف، تمشي من محطة الحافلات ومعها حقيبة ملابسٍ من الورق المقوى، وتجلب معها طعامها في كيس.

«سيد فورلو، عملت في الليلة التالية، والتي هي 29 تشرين الأول، 1969، ليلة وفاة تشايس أندريوز، على منصة الاستقبال كل الليل. هل هذا صحيح؟».

«نعم».

«بعد أن عادت الآنسة كلارك إلى غرفتها في الساعة العاشرة ليلاً مع محررها، هل رأيتها تغادر ثانيةً؟ خلال ليلة 29 تشرين الأول وحتى ساعات الصباح الأولى من 30 تشرين الأول في أي وقت، هل رأيتها تغادر

غرفتها أو تعود إليها؟».

«كلا. كنت هناك كل الليل ولم أرها تغادر غرفتها. كما قلت، كانت غرفتها مباشرةً على الجهة المقابلة لمنصة الاستقبال، فكنت لأراها لو غادرت».

«شكرًا لك، سيد فورلو، هذا كل شيء. الشاهد لك».

بعد عدة دقائقٍ من الاستجواب، أكمل إيريك. «حسنًا، سيد فورلو، حتى الآن عرفنا أنك غادرت منطقة الاستقبال كلها لتسير إلى شقتك مرتين، لتستخدم المرحاض، وتعود؛ موصّل البيتزا يجلب البيتزا؛ أنت تدفع له، إلى آخره؛ أربعة نزلاءٍ يسجّلون الخروج؛ وبين كل ذلك، أكملتَ حساب استقبالاتك. الآن، أنا أسلّم، يا سيد فورلو، أنه خلال كل ذلك الهياج، كان هناك ما يكفي من الأوقات التي استطاعت أن تخرج بهدوء من غرفتها، وتعبر الشارع بسرعة، دون أن تتسنى لك رؤيتها. هل هذا مقبول؟».

«حسنًا، أعتقد أنه ممكن. ولكني لم أرَ شيئًا مطلقًا. لم أرَها تغادر في تلك الليلة، وهو ما أقوله».

«أفهم ذلك، سيد فورلو. وما أقوله أنه من الممكن أن الآنسة كلارك تركت غرفتها، وسارت إلى محطة الحافلات، وركبت الحافلة إلى باركلي كوف، وقتلت تشايس أندريوز، وعادت إلى غرفتها، ولم ترَها مطلقًا لأنك كنتَ منشغلاً بمهامك. لا مزيد من الأسئلة».

بعد استراحة الغداء، وحين استقرّ الجميع في أماكنهم وجلس القاضي في مقعده، ولج سكوبر قاعة المحكمة. التفت تايت ليرى والده، كان لا يزال في ثياب العمل وجزمة البحر الصفراء، وهو يمشي في الممر. لم يكن سكوبر قد حضر المحاكمة من قبل لانشغاله بالعمل، كما قال، ولكن السبب الأهم كان أن انجذاب ابنه الطويل الأمد إلى الآنسة كلارك أربكه. يبدو أن تايت لم يحمل مشاعر لأية فتاةٍ أخرى، وبدا أنه ناضجٌ، ومحترفٌ، ولا يزال مغرومًا بهذه الامرأة الغريبة الغامضة. الامرأة المتهمة الآن بجريمة قتل.

زفر سكوبر طويلًا في تلك الظهيرة، فيما كان واقفًا في قاربه، والشباك مكوّمةٌ حول جزمته. لفح العار وجهه حين علم أنه - مثل بعض القرويين الجاهلين - كان قد أصدر أحكامًا مسبقةً ضد كيا لأنها نشأت في

السبّخة. تذكّر تايت وهو يريه بفخرٍ كتاب كيا الأول عن الصدف، وكيف انبهر سكوبر نفسه بقدرتها العلمية والفنّية. كان قد اشترى نسخةً من كل كتابٍ من كتبها ولكنه لم يذكر ذلك لتايت. يا له من هراء.

كان فخورًا بابنه، كيف أنه طالما أدرك ما يريد، وكيف يحققه. حسنًا، فعلت كيا ذلك في وجه صعوباتٍ أكبر بكثير.

كيف له ألّا يكون هناك لأجل تايت؟ لا معنى لشيءٍ له سوى دعم ابنه. رمى بالشبكة عند قدميه، وغادر القارب، ضاربًا الرصيف البحري بقدميه، وسار مباشرةً إلى قاعة المحكمة.

وقف جودي، حين وصل سكوبر إلى الصف الأول، والقافز، ومايبل سامحين له بأن يحشر نفسه بالقرب من تايت. أومأ الأب والابن لبعضهما البعض، وفارت الدموع في عيني تايت.

انتظر توم ميلتون جلوس سكوبر، وعودة الصمت إلى القاعة، ثم قال: «سيدي القاضي، ينادي الدفاع روبرت فوستر». كان السيد فوستر، ببذلته الصوفية الخشنة وربطة العنق وبنطاله الكاكي، رجلاً جذّابًا، متوسّط الطول، وله لحيةٌ مرتبةٌ وعينان لطيفتان. سأله توم عن اسمه

وعمله.

«اسمي روبرت فوستر، وأنا محررٌ رئيسٌ في شركة هاريسون موريس للنشر في بوسطن، مساتشوسيتس». حدقت كيا، ويدها على جبينها، في الأرض. كان محررها هو الشخص الوحيد الذي لم ينظر إليها على أنها فتاة مستنقع، والذي احترمها، والذي يبدو متأثرًا بمعرفتها وموهبتها. ها هو يراها الآن في المحكمة جالسةً في منصة المتهمين، وهي متهمةٌ بجريمة قتل.

«هل أنت محرّر كُتب الآنسة كاثرين كلارك؟».

«نعم، أنا كذلك. إنها عالمة طبيعةٍ، وفنّانةٌ، وكاتبةٌ موهوبة. وهي من المؤلفين المفضلين لدينا».

«هل تستطيع التأكيد أنك سافرت إلى غرينفيل، كارولاينا الشمالية، في 28 تشرين الأول، 1969، واجتمعت مع الآنسة كلارك خلال التاسع والعشرين والثلاثين من الشهر؟».

«هذا صحيح. كنت أحضر مؤتمرًا هناك، وعلمت أنه سيكون لدي بعض الوقت الإضافي خلال وجودي في البلدة ولكن وقتي ما كان ليسمح

لي بالسفر إليها، فدعوت الآنسة كلارك إلى غرينفيل لنجتمع هناك».

«هل تستطيع إخبارنا عن الوقت المحدد الذي أعدتها فيه بسيارتك إلى النُّزل في ليلة 29 تشرين الأول، من العام الماضي؟».

«تناولنا طعام العشاء، بعد اجتماعنا، في الفندق، ثم قدت سيارتي وأوصلت كيا إلى النُّزل في الساعة 9:55 مساءً».

استعادت كيا صورة وقوفها على عتبة غرفة العشاء، وقد امتلأت الطاولات بالشموع المنتصبة على شمعدانات ناعمة. تناولت وروبرت سمك كارولاينا الشمالية النهري، مطهوًا باللوز المكسّر، والأرز البري، والسبانخ بالكريمة، ولفائف المعجنات. شعرت كيا بالراحة حين أدار هو المناقشة بسهولة، مركزًا على مواضيعٍ مرتبطةٍ بالطبيعة المعروفة لديها.

تذكر ذلك الآن، كانت مندهشةً كيف سار الأمر برمته. ولكن المطعم، بكل لمعانه، لم يكن، في الواقع، بعظمة النزهة المفضلة لديها. كان تايت، حين كانت في الخامسة عشرة من عمرها، قد أتى فجر أحد الأيام إلى كوخها، ثم، بعد أن لفّ ملاءة حول كتفيها، أبحرا إلى المنطقة الداخلية عبر متاهةٍ من الطرق المائية إلى غابةٍ لم تكن تعرفها من قبل.

تسلّقا مسافة ما يقارب الميل إلى حافة مرجٍ مغمورٍ بالمياه حيث انبثق العشب اليافع من الوحل، وفرش الملاءة هناك تحت السراخس الكبيرة كالمظلات.

«ننتظر الآن» قال ذلك وهو يسكب الشاي الحار من «الترموس» ويناولها «كرات الراكون»، مزيجٌ من عجينة البسكويت المخبوزة، والسجق الحار، وجبنة الشيدير الحادة والتي كان قد أعدّها لهذه المناسبة. كانت تذكر، حتى هنا في جو قاعة المحكمة البارد، دفء كتفيه وهما يلمسان كتفيها تحت الملاءة، ويتناولان إفطار النزهة.

لم يكن عليهما الانتظار طويلاً. دوى صوت مشاجرةٍ عالٍ، بعد لحظات، كصوت مدفعٍ آت من جهة الشمال. قال تايت: «ها هم قادمون».

ظهرت غيمةٌ رقيقةٌ سوداء عند الأفق وتعالت نحو السماء. ارتفعت قوة الصراخ وحدته كلما اقتربت منهما، حتى ملأت الغيمةُ السماءَ فجأة، واختفت كل بقعةٍ زرقاء. غطت مئات الآلاف من أوزات الثلج المنطقة كلها وهي ترفرف، وتصفّر، وتنزلق هابطةً نحو الأرض. حامت أعدادٌ كبيرة وباشرت بالهبوط. توهّج نصف مليون جانحٍ أبيض

معًا، في حين تدلّت أرجلٌ زهريةٌ - برتقاليةٌ إلى الأسفل، وهبطت عاصفةٌ من الطيور على الأرض. غطت الأرض بطانيةٌ ثلجية اللون، واختفى كل شيء آخر، قريبًا أكان أم بعيدًا. هبطت أوزةٌ لوحدها، ثم عشرةٌ معًا، ثم المئات معًا على مسافة ياردات قليلة من حيث جلست كيا وتايت تحت السراخس. فرغت السماء فيما امتلأ المرج الرطب وغمره ثلج أملس.

لا تقارن غرفة عشاءٍ فاخرةٍ بذلك، وشكلت كرات الراكون طعامًا أطيب من سمك النهر باللوز المكسّر، وأغنى.

«هل رأيت الآنسة كلارك تذهب إلى غرفتها؟».

«بالتأكيد. فتحت لها الباب ورأيتها تدخل بأمانٍ قبل أن أقود سيارتي مبتعدًا».

«هل رأيت الآنسة كلارك في اليوم التالي؟».

«اتفقنا أن نلتقي على الفطور، فأقلّيتها عند الساعة 7:30 صباحًا. تناولنا الطعام في مطعم ستاك إم هاي للفطائر المحلاة. أعدتها إلى النزل عند الساعة 9:00. وكانت هذه آخر مرة أراها فيها حتى الآن». نظر إلى كيا، ولكنها نظرت إلى الطاولة.

«شكرًا لك، سيد فوستر. ليس لدي المزيد من الأسئلة».

وقف إيريك وسأل: «سيد فوستر، كنت أتساءل لماذا نزلت في فندق ذا بيدمونت، والذي هو أفضل فنادق المنطقة، فيما دفعت شركة النشر الخاصة بك للآنسة كلارك - والتي هي تلك الكاتبة الموهوبة، وواحدةٌ من المفضّلات، كما ذكرت أنت - لتبقى في ذلك النزل الرخيص، الجبال الثلاثة؟».

«حسنًا، نحن عرضنا، بل وأوصينا أن تقيم الآنسة كلارك في فندق ذا بيدمونت، ولكنها أصرت على الإقامة في النّزل».

«هكذا إذًا؟ هل عرفتْ اسم النّزل؟ هل طلبت بالتحديد أن تقيم في نزل الجبال الثلاثة؟».

«أجل، كتبت رسالةً تقول فيها أنها تفضّل الإقامة في نزل الجبال الثلاثة».

«هل ذكرت سبب ذلك؟».

«كلا، لا أعلم السبب».

«حسنًا، لدي فكرة. هذه خريطةٌ سياحيةٌ لغرينفيل». لوّح إيريك

بالخريطة وهو يقترب من منصة الشهود. «تستطيع أن ترى هنا، سيد فوستر، أن فندق ذا بيدمونت - فندق الأربع نجوم الذي عرضته على الآنسة كيا - يقع في منطقة وسط البلد. يقع نزل الجبال الثلاثة، من جهة أخرى، على الطريق السريع 258، بالقرب من محطة ترايلوايز للحافلات. في الحقيقة، لو تتفحّص الخريطة التي لدي هنا، سترى أن نزل الجبال الثلاثة هو النزل الأقرب إلى محطة الحافلا..».

نادى توم: «أعترض، سعادة القاضي. السيد فوستر ليس مرجعًا في تخطيط غرينفيل».

«كلا، ولكن الخريطة مرجعٌ. أفهم إلامَ ترمي، إيريك، سأسمح بذلك. استمر».

«سيد فوستر، إن كان أحدهم يخطط لرحلةٍ سريعةٍ إلى الحافلة في منتصف الليل، فإنه من المنطق أن يختار الجبال الثلاثة بدلاً من ذا بيدمونت. وخاصةً إن كان يخطط للسير. كل ما أحتاجه منك أن تؤكد أن الآنسة كلارك طلبت بالتحديد أن تقيم في الجبال الثلاثة وليس في ذا بيدمونت».

«كما قلت، هي طلبت الجبال الثلاثة».

«لا مزيد من الأسئلة».

سأل القاضي سيمز: «استجوابٌ مضاد؟».

«أجل، سيدي القاضي. سيد فوستر، كم سنة عملت مع الآنسة كلارك؟».

«ثلاث سنوات».

«حتى ولو لم تلتقِ الآنسة كلارك لتاريخ زيارة غرينفيل في تشرين الأول الماضي، هل تستطيع القول أنك أصبحت تعرف الآنسة كلارك جيدًا من خلال المراسلة كل تلك السنوات؟ إن كان الأمر كذلك، فكيف تصفها؟».

«أجل، أعرفها. إنها شخصٌ خجولٌ وراقٍ، كما أعتقد. تفضّل أن تكون لوحدها في الطبيعة؛ استغرق إقناعها للقدوم إلى غرينفيل بعض الوقت. تتحاشى التواجد في الجمهور».

«جمهورٌ كذلك الذي قد يواجهه الإنسان في فندقٍ ضخمٍ كفندق ذا بيدمونت؟».

«أجل».

«في الواقع، ألا تعتقد، يا سيد فوستر، أنه ليس من المفاجئ بالنسبة للآنسة كلارك - التي تفضل المكوث وحدها - أن تختار نزلاً صغيرًا وبعيدًا، نسبيًا، وتفضّله على فندقٍ كبيرٍ صاخبٍ في وسط البلدة؟ وأن هذا الخيار قد يتناسب وشخصيتها؟».

«أجل، أعتقد ذلك».

«ثم، أليس من المنطق أن الآنسة كلارك، والتي لا خبرة لها بالنقل العام، وتعلم أن عليها السير من محطة القطار إلى فندقها ذهابًا وإيابًا، حاملةً حقيبةً، أليس منطقيًا أن تختار فندقًا أو نزلاً أقرب إلى المحطة؟».

«أجل»

«شكرًا لك. هذا كل شيء».

جلس روبرت فوستر، بعد مغادرة منصة الشهود، مع تايت، وسكوبر، وجودي، والقافز، ومايبل، خلف كيا.

عاد توم، بعد ظهر ذلك اليوم، ونادى الشريف كشاهده التالي.

علمت كيا من لائحة الشهود التي أعدها توم، أنه لم يتبقَّ الكثير لمناداتهم، وأشعرتها، هذه الفكرة، بالمرض. ستأتي المداولات الختامية بعد ذلك، ثم الحكم. قد تستطلع الأمل بالبراءة، أو بتأجيل الحكم، طالما أن هناك سيلٌ من الشهود الذين يدعمونها. إن استمرت إجراءات المحكمة إلى الأبد، فلن يكون هناك من حكمٍ لتقدمه. حاولت أن توجه عقلها نحو حقول أوز الثلج كما كانت تفعل عند بداية المحاكمة، ولكنها رأت، بدلاً من ذلك، صورًا للسجن، وللقضبان، ولجدرانٍ إسمنتيةٍ رطبةٍ فقط. صورٌ عقليةٌ بين الفينة والأخرة لكرسي الإعدام الكهربائي. بأحزمتها الكثيرة.

شعرت فجأة بصعوبةٍ في التنفس، وبأنها لا تستطيع الجلوس هنا أكثر من ذلك. انحنت قليلاً، واستدار توم من الشريف إلى كيا حين سقط رأسها على يديها. جرى نحوها.

«سيدي القاضي. أطلب من حضرتكم استراحة. تحتاج الآنسة كلارك إلى استراحة».

«لك ذلك. تُعلّق المحكمة لفترة خمس عشرة دقيقة كاستراحة».

ساعدها توم على الوقوف وسار بها خارج الباب الجانبي إلى غرفة المؤتمرات الصغيرة، حيث غرقت في إحدى الكراسي. جلس بجانبها وقال: «ما بك؟ كيا، ما خطب؟».

دفنت رأسها في يديه. «كيف تسأل هذا السؤال؟ أليس هذا واضحًا؟ كيف يستطيع الإنسان العيش في هذه الظروف؟ أشعر بالضعف، بالتعب الشديد من الجلوس هنا. هل عليَّ ذلك؟ ألا تستطيع المحكمة الاستمرار بدوني؟» كان كل ما كانت قادرةً عليه، كل ما أرادته، هو أن تعود إلى زنزانتها وتكوّم نفسها مع «قاضي الأحد».

«أخشى أن ذلك غير ممكنٍ. يتطلب القانون حضورك في قضايا مهمة كهذه».

«ماذا لو كنت لا أستطيع؟ ماذا لو رفضت؟ كل ما يستطيعون فعله هو زجّي في السجن».

«كيا، هذا هو القانون. يجب أن تكوني حاضرةً، وعلى كل حال، من الأفضل أن تحضري. من الأسهل على هيئة المحلفين أن تحكم على متهمٍ غائب، ولكن الأمر، يا كيا، لن يطول أكثر من ذلك».

«هذا لا يشعرني بأي تحسّن، ألا ترى؟ ما يأتي بعد ذلك أسوأ من هذا».

«لا نعلم ذلك. لا تنسي، نستطيع الاستئناف إن لم تسر الأمور كما نريد».

لم تُجب كيا. أزعجتها فكرة الاستئناف أكثر، نفس المسار الإجباري عبر غرف المحكمة المختلفة، بعيدًا عن السبخة، بلداتٌ كبيرةٌ. سماءٌ بدون نوارس. خرج توم من الغرفة وعاد ومعه كوبٌ من الشاي المثلّج المُحلّى وعلبةٌ من الفول السوداني المملح. شربت الشاي؛ رفضت الفول السوداني. طرق حاجب المحكمة الباب، بعد عدة دقائق، وأعادهما إلى المحكمة. تحرّك عقل كيا، داخلًا في الواقع وخارجًا منه، ملتقطًا نتفًا من الإفادة فقط.

قال توم: «أيها الشريف جاكسون، يدعي الادعاء أن الآنسة كلارك تسللت خارج النُّزل في الليل، وسارت من نُزل الجبال الثلاثة إلى محطة الحافلات - رحلةٌ قد تأخذ عشرين دقيقة على الأقل - وأنها بعد ذلك ركبت في حافلة الساعة 11:30 ليلاً من غرينفيل إلى باركلي كوف، ولكن الحافلة كانت متأخرةً، ولم تصل إلى باركلي كوف حتى الساعة 1:40

صباحًا. ويدعون أيضًا أنها سارت من موقف الحافلة في باركلي، إلى رصيف الميناء - ثلاثةٌ أو أربع دقائق - ثم أبحرت بقاربها إلى جونٍ قريبٍ من برج النار - عشرون دقيقةٍ على الأقل - وسارت إلى البرج، ثمان دقائقٍ أخرى؛ وتسلّقت في الظلام الدامس، قلْ، أربعةٌ أو خمس دقائقٍ على الأقل؛ وفتحت الدرفة، ثوانٍ قليلة؛ وانتظرت تشايس - لا تقدير للوقت - وتكرر الأمر في طريق العودة.

قد تكون هذه الأحداث حصلت على الأقل في ساعةٍ وسبع دقائقٍ، دون حساب وقت انتظار تشايس. ولكن الحافلة العائدة إلى غرينفيل، والتي كان عليها أن تستقلها، غادرت بعد خمسين دقيقةٍ من وصولها. فإذًا، وهذه حقيقةٌ بسيطة: لم تكن تمتلك الوقت الكافي لترتكب هذه الجريمة المزعومة. أليس هذا صحيحًا أيها الشريف؟».

«قد يكون الوقت ضيقًا، هذا صحيح. ولكنها قد تكون هرولت من القارب إلى البرج وعادت، قد تكون اختصرت دقيقةً من هنا ودقيقةً من هناك».

«اختصار دقيقةٍ من هنا وأخرى من هناك لن ينفعها. احتاجت إلى عشرين دقيقةٍ إضافيةٍ. على الأقل. كيف لها أن تختصر عشرين

دقيقة؟».

«حسنًا، ربما لم تستعمل قاربها على الإطلاق؛ قد تكون سارت أو جرت من محطة الحافلات في الشارع الرئيس، مرورًا بالمسار الرملي إلى البرج. قد يكون هذا أسرع بكثيرٍ من الذهاب بالبحر». حملق إيريك تشاستاين، من مقعده على طاولة الادعاء، بالشريف. كان قد أقنع هيئة المحكمة أنه كان هناك وقتٌ كافٍ لكيا لترتكب الجريمة وتعود إلى الحافلة. لا يحتاجون إلى إقناعٍ أكثر من ذلك. بالإضافة إلى ذلك، لديهم شاهدٌ مهمٌ، صائد الروبيان، والذي شهد أنه رأى الآنسة كلارك متجهةً إلى البرج بالقارب.

«هل لديك أي دليلٍ ومن أي مصدرٍ، على أن الآنسة كلارك ذهبت إلى البرج عن طريق البر، أيها الشريف؟».

«كلا. ولكن الذهاب بالبر نظريةٌ قوية».

«نظرية!» التفت توم إلى هيئة المحلفين. «كان وقت النظريات قبل أن تعتقل الآنسة كلارك، قبل أن ترميها في السجن لشهرين. الحقيقة هي أنك لا تستطيع أن تثبت أنها ذهبت عبر البر، ولم يكن

لديها وقتٌ كافٍ لتذهب عبر البحر. لا مزيد من الأسئلة».

واجه إيريك الشريف للقيام بالاستجواب المضاد. «أيها الشريف، أليس صحيحًا أن المياه بالقرب من باركلي كوف معرّضةٌ لتياراتٍ قويةٍ، وتياراتٍ معاكسةٍ، وتياراتٍ سفليةٍ، والتي تستطيع التأثير على سرعة القارب؟».

«أجل، هذا صحيح. كل من يعيش هنا يعرف ذلك».

«قد يستطيع الشخص الذي يمكنه الاستفادة من تيارٍ كهذا أن يبحر بسرعةٍ عاليةٍ إلى البرج من الميناء. في هذه الحالة، سيكون بالإمكان اقتطاع عشرين دقيقةٍ من رحلة العودة. أليس هذا صحيحًا؟» كان إيريك منزعجًا من طرحه لنظريةٍ أخرى، كان كل ما احتاج إليه هو التركيز على مفهومٍ معقولٍ تبتلعه هيئة المحلفين فيصطادهم.

«أجل، هذا صحيح».

«شكرًا لك». وقف توم ليكمل الاستجواب حين استدار إيريك مبتعدًا عن منصة الشهود.

«أيها الشريف، أجب بنعم أو بكلا، هل لديك أي دليلٍ على أن

تيارًا، أو تيارًا معاكسًا، أو رياحًا قويةً حدثت في ليلة 29 إلى 30 تشرين الأول ما قد يكون قلص من الوقت اللازم لأحدهم ليبحر من ميناء باركلي كوف إلى برج النار، أو أي دليلٍ يثبت أن الآنسة كلارك ذهبت إلى البرج عبر البر؟».

«كلا، ولكني متأكد أن هنا..».

«أيها الشريف، ليس مهمًا ما أنت متأكدٌ منه أم لا. هل لديك أي دليلٍ أن تيارًا عكسيًا قويًا تواجد في ليل 29 تشرين الأول، 1969؟».

«كلا، ليس لدي».

53
حلقةٌ مفقودة

1970

استدعى توم شاهدًا واحدًا فقط في صباح اليوم التالي. بطاقته الأخيرة. نادى تيم أونيل، الذي كان يدير قاربه الخاص لصيد الروبيان في المياه المقابلة لـ«باركلي كوف» لثمانٍ وثلاثين سنة. كان تيم قد قارب الخامسة والستين من العمر، طويلٌ وممتلئٌ، له شعرٌ بنيٌ غزيرٌ مع مسحات من اللون الرمادي ولحيةٌ غزيرةٌ بيضاء. يعرفه أبناء البلدة على أنه هادئٌ وجديٌ، وشريفٌ ومنعمٌ، ويفتح الباب للسيدات دائمًا. الشاهد الأخير الأفضل.

«تيم، هل صحيح أنك في ليلة 29 إلى 30 تشرين الأول من العام الماضي، كنت تبحر بقاربك إلى ميناء باركلي كوف حوالي الساعة 1:45 إلى

2:00 صباحًا؟».

«أجل».

«شهد اثنان من طاقمك، السيد هال ميلير، الذي أدلى بشهادته هنا، والسيد آلان هانت، الذي وقّع على شهادةٍ، وادّعى الاثنان أنهما رأيا الآنسة كلارك تبحر شمالاً متجاوزةً الميناء في قاربها عند الأوقات المذكورة تقريبًا. هل أنت على علم بما أعلناه؟».

«أجل».

«هل رأيت نفس القارب، في نفس المكان ونفس الزمان، الذي رآه الإثنان، السيدان ميلير وهانت؟».

«أجل، فعلت».

«وهل تتفق وقولهما أن الآنسة كلارك كانت في قاربها والذي رأيته يبحر شمالاً؟».

«كلا. لا أتفق معهما».

«لِمَ لا؟».

«كان الجو مظلمًا. لم يكن هناك قمرٌ حتى ساعةٍ متأخرة. وكان القارب بعيدًا جدًّا لنتعرف عليه بالتأكيد. أعرف كل من لديه قاربٌ من ذلك الطراز في المنطقة، ورأيت الآنسة كلارك في قاربها عدة مراتٍ، وعلمت فورًا أنها هي. ولكن الظلام، في تلك الليلة، كان دامسًا جدًا لنتعرف على ذلك القارب أو من كان على متنه».

«شكرًا لك، تيم. لامزيد من الأسئلة».

سار إيريك إلى منصة الشهود. «تيم، حتى وإن كنت لم تستطع التعرّف على القارب، أو من كان على متنه، هل توافق على أن قاربًا بنفس حجم قارب الآنسة كلارك وشكله كان متوجهًا ناحية برج النار لباركلي كوف عند الساعة 1:45 صباحًا تقريبًا، في الليلة التي مات فيها تشايس أندريوز عند برج النار حوالي ذلك الوقت؟».

«أجل، أستطيع أن أقول أن القارب كان يشبه بالشكل والحجم قارب الآنسة كلارك».

«أشكرك كثيرًا».

تكلم توم، في إعادة الاستجواب، من حيث كان واقفًا. «تيم،

للتأكيد، أدليتَ بشهادتكَ أنك تعرّفت على الآنسة كلارك في قاربها عدة مرات، ولكن في تلك الليلة، لم ترَ شيئًا على الإطلاق لتتعرف على القارب أو على الربّان على أنه الآنسة كلارك في قاربها. هل هذا صحيح؟».

«صحيح».

«وهل تستطيع إخبارنا إن كان هناك الكثير من القوارب التي لها ذات الحجم والشكل كقارب الآنسة كيا في هذه المنطقة؟».

«أووه أجل، هذا الطراز الأكثر انتشارًا في المنطقة. هناك الكثير من القوارب المماثلة تمامًا لقاربها تبحر هنا».

«فإذًا، قد يكون البحّار الذي رأيته في تلك الليلة أيًا من الآخرين في قاربٍ من نفس الطراز؟».

«بالتأكيد».

«شكرًا لك. سعادة القاضي، انتهت مرافعة الدفاع».

قال القاضي سيمز: «سنأخذ استراحة لعشرين دقيقة. رفعت المحكمة».

ارتدى أريك، في مطالعته الختامية، ربطة عنقٍ بخطوطٍ عريضةٍ ذهبيةٍ وعنّابية. كانت القاعة بحالة ترقبٍ حين توجّه إلى هيئة المحلفين ووقف عند السور الفاصل، ناقلاً عينيه بتأنٍّ من أحدهم إلى الآخر.

«سيداتي وسادتي في هيئة المحلفين، أنتم أعضاءٌ في مجتمعٍ، في بلدةٍ مميزةٍ وفخورة. خسرتم في العام الماضي واحدًا من أبنائكم. شابٌ، نجمٌ مشعٌّ في جيرتكم، كان يتطلع إلى حياةٍ مديدةٍ مع زوجته الجميل..».

بالكاد سمعته كيا وهو يكرر قصته كيف أنها قتلت تشايس أندريوز. جلست، ومرفقيها على الطاولة، ورأسها بين يديها، ملتقطة قصاصاتً من مرافعته.

«.. شاهد رجلان معروفان في هذا المجمع الآنسة كلارك وتشايس في الغابة... سمعاها وهي تقول كلمات سوف أقتلك!... قبعةٌ صوفيةٌ حمراء تركت أليافها على سترة الجينز... من غيرها قد يريد انتزاع العقد... أنتم تعلمون أن هذه التيارات والرياح تستطيع زيادة السرعة بشكل جذري... نعرف من أسلوب حياتها أنها قادرةٌ تمامًا على الإبحار في الليل، وتسلّق البرج في الظلام. كله يتناسب مع بعضه كعمل الساعة. كل حركةٍ قامت بها في تلك الليلة واضحة. أنت تستطيعون، ويجب أن

تجدوا، أن المتهمة مذنبةٌ في جريمة القتل من الدرجة الأولى. شكرًا لكم للقيام بواجبكم».

أومأ القاضي سيمز لتوم، الذي توجه إلى منصة هيئة المحلفين.

«سيداتي وسادتي في هيئة المحلفين، نشأت في باركلي كوف، وسمعت قصصًا كثيرة، في شبابي، عن فتاة السبّخة. نعم، فلنقل ذلك علنًا. نحن ندعوها فتاة السبّخة. ولا يزال الكثيرون منا ينادونها بذلك. كان بعض الناس يهمسون بأنها نصف ذئبٍ أو حلقةٌ مفقودةٌ بين القرد والإنسان. بأن عينيها كانتا تلمعان في الظلام. لكنها لم تكن، في الواقع، سوى طفلةٌ منبوذةٌ، فتاةٌ صغيرةٌ تصارع للبقاء، وحيدةً في مستنقع، جائعةٌ وباردة، ولكننا لم نساعدها. وباستثناء أحد أصدقائها القلائل، القافز، لم تقم أيًا من كنائسنا أو جمعياتنا المدنية بتقديم الطعام أو الثياب. وسمناها، بدلاً من ذلك، ونبذناها لأننا ظننا أنها مختلفة. ولكن، سيداتي وسادتي، هل أبعدنا الآنسة كلارك لأنها كانت مختلفة، أم أنها كانت مختلفة لأننا أبعدناها؟ لو أننا تقبّلناها على أنها واحدةٌ منّا، أعتقد أنها ستكون كذلك اليوم. لو كنا قد أطعمناها، وألبسناها، وأحببناها، ودعوناها إلى كنائسنا وبيوتنا، لم نكن لنرمي عليها أحكامًا مسبقة.

وأعتقد أنها لن تكون جالسةً هنا متهمةً بجريمة. إن الحكم على هذه الشابة الخجولة، المنبوذة يقع على عاتقكم، ولكن عليكم أن تركّزوا على الحقائق المقدّمة في هذه القضية، في قاعة المحكمة هذه، لا على الإشاعات أو الأحاسيس في الأربع والعشرين السنة الماضية».

«ما هي الحقائق الصادقة والثابتة؟». التقط عقل كيا، وكما حصل مع مرافعة الادعاء تمامًا، نتفًا من هذه المرافعة. «... لم يثبت الادعاء أن هذه الحادثة جريمةٌ ولم تكن مجرّد حادثةٍ مأساويةٍ ببساطة. لا سلاح جريمة، لا جروح من عملية الدفع، لا شهود، لا بصمات...

«واحدةٌ من أهم الحقائق المثبتة هي أن الآنسة كلارك تملك حجة غيابٍ منطقية. نحن نعلم أنها كانت في غرينفيل في ليلة وفاة تشايس... لا دليل على أنها تنكّرت بزيّ رجلٍ، وركبت الحافلة إلى باركلي... في الحقيقة، فشلت جهة الادعاء في إثبات أنها كانت أصلًا في باركلي كوف في تلك الليلة، وفشلت في إثبات أنها ذهبت إلى البرج، أقول ثانيةً: ليس هناك أيّ جزءٍ من أيّ دليلٍ يثبت أن الآنسة كلارك كانت على برج النار، في باركلي كوف، أو أنها قتلت تشايس أندريوز. وقد شهد الربّان، السيد أونيل، والذي عمل على قاربه الخاص لصيد الروبيان لثمانٍ وثلاثين سنة،

أن الجو كان مظلمًا ما تعذر معه التعرّف على ذلك القار،... الألياف على سترته، والتي من الممكن أنها كانت هناك لأربع سنوات... هذه الحقائق لا نزاع عليها... لم يكن أي شخصٍ من شهود جهة الادعاء متأكدًا مما رآه، ولا أي شخص. بالرغم من ذلك في جهة الدفاع عنها، كان كل شاهدٍ متأكدًا مئة بالمئة»

وقف توم للحظةٍ أمام هيئة المحلفين. «أعرف معظمكم جيّدًا، وأعلم أنكم ستضعون جانبًا أية أحكامٍ مسبقةٍ ضد الآنسة كلارك. حتى وإن كانت قد ذهبت إلى المدرسة ليومٍ واحدٍ في حياتها - لأن الأطفال الآخرين تنمّروا عليها - فقد علّمت نفسها وأصبحت اختصاصيةً في الطبيعة، وكاتبةً مشهورة. نحن نسمّيها فتاة السبّخة؛ وتعرفها المؤسسات العلمية بخبيرة السبّخة، أنا مؤمنٌ بأنكم تستطيعون أن تضعوا كل الإشاعات والأخبار الملفقة جانبًا. أنا مؤمن أنكم سوف تصلون إلى حكمٍ يستند إلى حقائقٍ سمعتموها في قاعة المحكمة هذه، وليس إلى الإشاعات الكاذبة التي سمعتموها لسنوات، آن الوقت، أخيرًا، بالنسبة لنا، لنكون عادلين مع فتاة السبّخة».

54
بالعكس

1970

أشار توم إلى كراسٍ غير متناسقةٍ في غرفة الاجتماعات الصغيرة، وعرض الجلوس على تايت، وجودي، وسكوبر، وروبرت فوستر. جلسوا حول الطاولة المستطيلة، والملطّخة بدوائر من أكواب القهوة. كانت الجدران بلونين من الجير المتساقط: جيرٌ أخضرٌ عند القمّة، وجيرٌ أخضرٌ داكنٌ في القعر. سادت رائحة الرطوبة من الجدران ومن السبّخة.

قال توم: «يمكنكم الانتظار هنا». وهو يغلق الباب خلفه. «هناك آلة قهوةٍ في آخر الصالة مقابل غرفة المستشار، ولكنها لاتصلح لبغلٍ بثلاثة عيون. يقدم المطعم قهوةً لا بأس بها. لنرى، إنها بعد الحادية عشر بقليل. سنخطط للغداء لاحقًا».

سار تايت نحو النافذة التي تخللتها شبكةٌ من القضبان البيضاء، وكأن أحد منتظري الأحكام السابقين حاول الفرار. وجّه السؤال لتوم: «أين سيأخذون كيا؟ إلى زنزانتها؟ هل عليها الانتظار هناك بمفردها؟».

«أجل، إنها في زنزانتها. سأذهب لأراها الآن».

سأل روبرت: «كم ستستغرق هيئة المحلفين؟».

«من المستحيل القول. حين نعتقد أنه سيكون سريعًا، يأخذ أيامًا، والعكس صحيح. معظمهم وصل إلى قرارٍ فعلاً - وهو ليس في صالح كيا - إن كان ثمة أعضاءٌ في هيئة المحلفين ممن لديهم شكوك ويحاولون إقناع الآخرين بأن الذنب لم يُثبت بشكلٍ نهائي، فلدينا فرصة».

أومأوا بصمتٍ، مثقلين بكلمة «بشكلٍ نهائي»، وكأن الذنب قد أُثبت، ولكن ليس بشكلٍ قطعي.

«حسنًا». أكمل توم: «سأذهب لكيا ثم أعود إلى العمل. يجب أن أجهّز طلب الاستئناف وأن أشير إلى أخطاء في المحاكمة بسبب الأحكام المسبقة. تذكروا، إن أدينتْ، فهذه ليست نهاية الطريق. سأدخل وأخرج وأُعلمكم إن كانت هناك أخبارٌ جديدة».

قال تايت: «شكرًا لك»، ثم أضاف: «أرجوك أخبر كيا أننا هنا، وسنبقى معها إن أرادت ذلك». قال هذا رغم أنها رفضت رؤية أحدٍ في الأيام القليلة الماضية ولم تر أحدًا لحوالي الشهرين.

«سأخبرها، بالطبع». غادر توم.

كان على القافز ومايبل أن ينتظرا الحكم بين أشجار النخيل وأعشاب المنشار في الساحة، جالسين مع بعض السود الآخرين. أجبرتهما الرياح، بعد أن انتهيا من وضع شراشف ملونة على الأرض، وإخراج البسكويت والسجق من أكياس الورق، على جمع الأغراض والجري ليحتموا تحت مظلة محطّة «سينج أويل». صاح السيد لاين أن عليهم الانتظار خارجًا - وهي حقيقة يعلمونها منذ مئة سنة - وألا يعرقلوا طريق أيٍ من الزبائن. تجمّع بعض الناس من البشرة البيضاء في المطعم أو في مقهى «دو- غان»، وتجمهر آخرون في الشارع تحت مظلات لمّاعة. قفز الأطفال على البرك الآنية ناثرين المياه، وأكلوا كعك «كراكر جاك»، متوقعين عرضًا.

اعتقدت كيا أنها تعرف الوحدة كونها تعلمت من ملايين الدقائق التي قضتها وحيدة. عمرٌ من التحديق في طاولة المطبخ القديمة، وفي

غرف النوم الفارغة، وعبر امتداد الأشجار والأعشاب اللامتناهي. لم يكن هناك من تشاطره فرحة إيجاد ريشةٍ، أو إتمام رسمةٍ بالألوان المائية، أو قراءة قصيدةٍ للنوارس.

ساد صمتٌ باردٌ بعد أن أغلق جايكوب باب زنزانتها فقعقعت قضبانها، ثم اختفى في آخر الردهة، وأقفل الباب الثقيل مع صدمةٍ أخيرةٍ. أتى انتظارها للحكم في محاكمتها عن الجريمة بعزلةٍ من نوعٍ آخر. لم يدر ببالها ما إذا كانت ستحيا أو ستموت، ولكنها باءت بالخوف الأعظم من العزلة لسنواتٍ بدون سبختها. لا نوارس، ولا بحر في مناطقٍ خاليةٍ من النجوم.

كان نزلاء الزنازين المزعجون قد أُطلقوا. تكاد تفتقد ثرثرتهم الدائمة - حضورٌ إنسانيٌ مهما كان وضيعًا - كانت تسكن النفق الإسمنتي من الأقفال والقضبان وحدها.

كانت تعلم حجم الأحكام المسبقة ضدها، وأن الحكم المبكر يعني أنه لم تكن هناك مداولات كافية، ما يعني إدانة. قفزت إلى عقلها فكرة مرض تشنّج العضلات، الحياة المعذبة للمحكوم عليه.

فكّرت كيا في نقل القفص إلى أسفل النافذة والبحث عن الجوارح فوق السبّخة. لكنها جلست دون حراك. في صمت.

فتح توم باب الغرفة حيث كان تايت، وسكوبر، وروبرت فوستر بانتظاره، بعد ساعتين، وقرابة الواحدة ظهرًا. «حسنًا، هناك بعض الأخبار».

«ماذا؟» رمى تايت برأسه إلى الوراء. «ألم يصدر حكم بعد؟».

«كلا، كلا. لا حكم. ولكني أعتقد أنها أخبارٌ جيدة. طلب مني أعضاء هيئة المحلفين أن أريهم سجل المحكمة لشهادات سائقي الحافلات. هذا يعني، على الأقل، أنهم يفكّرون في الأمر ولا يقفزون إلى الحكم ببساطة. سائقو الحافلات شهودٌ رئيسون، بالطبع، وقال الاثنان أنهما متأكدان أن كيا لم تكن على متن حافلتيهما ولم يكونا متأكدين بالنسبة للتنكّر أيضًا. رؤية الشهادات بالأبيض والأسود يجعل الأمور أكثر تحديدًا لأعضاء هيئة المحلفين. سنرى، ولكنه قبسٌ ضئيلٌ من الأمل».

قال جودي: «نقبل بالقبس».

«انظروا، مضى وقت الغداء. لماذا لا تذهبون كلكم إلى المطعم؟ أعدكم بأن أعلمكم إن حدث أي شيء».

قال تايت: «لا أعتقد ذلك. سيتكلم الناس هناك عن مدى ذنبها».

«أفهم ذلك. سأرسل كاتبي ليأتيكم ببعض البيرغر. ما رأيك؟».

«جيد، شكرًا لك». قال سكوبر ذلك وسحب بعض الدولارات من محفظته.

عاد توم في الساعة 2:15 ليخبرهم بأن أعضاء هيئة المحلفين طلبوا أن يروا شهادة الطبيب الشرعي. «لا أعلم إن كان ذلك لصالحنا أم لا».

«تبًّا». شتم تايت. «كيف يمكن لأحدٍ أن يتحمل كل هذا؟».

«حاول أن تسترخي؛ قد يستغرق هذا أيامًا. سأبقيكم على اطلاع».

فتح توم الباب ثانيةً عندالساعة الرابعة وهو متجهم وشاحب الوجه. «حسنًا، أيها السادة، توصّل أعضاء هيئة المحلفين إلى حكم. أمر القاضي الجميع بالعودة إلى قاعة المحكمة».

وقف تايت: «ماذا يعني ذلك؟ حصول الأمر بهذه السرعة؟».

لمس جودي ذراعه. قائلاً: «هيا تايت، فلنذهب».

انضموا، في الردهة، إلى سيلٍ من أهل البلدة الذين تدافعوا من الخارج. رافقهم هواءٌ رطبٌ عابقٌ برائحة دخان السجائر، وشعورهم المبتلة بالمطر، وثيابها الرطبة.

امتلأت قاعة المحكمة في أقل من عشرة دقائق. فشل الكثيرون في الحصول على مقعدٍ فتجمهروا في البهو أو على الدرجات الأمامية. قاد حاجب المحكمة كيا، عند الساعة 4:30، إلى مقعدها. ساندها من مرفقها للمرّة الأولى، وبدت، في الواقع، وكأنها ستنهار إن لم يفعل. لم تحد عينيها عن الأرض. راقب تايت كل رعشةٍ في وجهها. ناضل تنفسه ضد الغثيان.

دخلت الآنسة جونز، مدوّنة جلسة المحكمة، وأخذت مقعدها. ثم ملأ أعضاء هيئة المحلفين قفصهم، كجوقة الجنازة، مهيبةٌ وكئيبةٌ. استرقت السيدة كولبيبير نظرةً إلى كيا. أبقى الآخرون نظرهم إلى الأمام. حاول توم أن يقرأ وجوههم. لم تكن هناك أية قحةٍ أو حركةٍ من الرّواق.

«فليقف الجميع».

فتح باب القاضي سيمز، فدخل وجلس في مقعده. «أرجوكم تفضلوا بالجلوس. حضرة رئيس هيئة المحلفين، هل صحيح أن هيئة المحلفين قد توصلت إلى حكم؟».

وقف السيد توملينسون، وهو رجلٌ هادئٌ يملك متجر «باستر براون» شو للأحذية، في الصفّ الأوّل. «أجل توصّلنا، يا حضرة القاضي».

نظر القاضي سيمز إلى كيا: «هلّا وقفت المتهمة من فضلها لقراءة الحكم». لمس توم ذراع كيا وساعدها على النهوض. وضع تايت يده على الحاجز مقتربًا من كيا بقدر المستطاع. رفع القافز يد مايبل وأمسك بها.

لم يختبر أحدٌ ممن في هذه القاعة هذا الكمّ من القلوب النابضة، وهذا النقص المشترك بالقدرة على التنفّس. تنقلت النظرات، تعرّقت الأيادي. عصر أحد طاقم عمل صيادي الروبيان، هال ميلير، عقله، مجاهدًا ليؤكّد أنه ما رآه في تلك الليلة كان قارب الآنسة كلارك. وماذا لو كان مخطئًا. حدّق أكثر الموجودين بالأرض وليس بمؤخرة رأس كيا. حدقوا بالجدران. بدا وكأن القرية - وليس كيا - تنتظر الحكم، وشعر بعضهم بالنشوة العاهرة لما توقعوه في هذه اللحظة.

سلّم رئيس هيئة المحلفين، السيد توملينسون، قطعةً صغيرةً من الورق إلى حاجب المحكمة والذي سلّمها بدوره إلى القاضي. فضّها وقرأها بوجهٍ فارغٍ من التعابير. ثم أخذها الحاجب من القاضي وسلّمها إلى الآنسة جونز، مدوّنة جلسة المحكمة.

قال تايت بعنف: «هلّا قرأها أحدٌ لنا».

وقفت الآنسة جونز وواجهت كيا، فضّت الورقة، وقرأت: «نحن هيئة المحلّفين نجد أن الآنسة كاثرين دانيال كلارك غير مذنبةٍ بما اتهمت به في جريمة القتل من الدرجة الأولى وهي قتل السيد تشايس أندريوز». انهارت كيا وجلست. وتبعها توم.

رمش تايت. شهق جودي. انفجرت مايبل بالبكاء. جلست الردهة ساكنة. يبدو أنهم أساؤا الفهم. «هل قالت غير مذنبة؟». ارتفع سيلٌ من الهمسات متحولًا بسرعةٍ إلى أسئلةٍ غاضبة. صاح السّيد لاين: «هذا ليس حقًا».

ضرب القاضي بمطرقته. «صمتًا! آنسة كلارك، وجدتكِ هيئة المحلفين في المحكمة غير مذنبةٍ بما اتهمت به. أنت حرّةٌ، وأعتذر منك

باسم الولاية لأنك قضيتِ شهرين في هذا السجن. يا أعضاء هيئة المحلفين، نشكركم لوقتكم ولخدمتكم هذا المجتمع. انتهت المحاكمة».

تجمّع سربٌ صغيرٌ من الناس حول أهل تشايس. انتحبت باتي لوف. تجهّمت سارة سينجلتاري كما الآخرين، ولكنها شعرت براحةٍ عظيمة. تمنّت الآنسة بانسي ألا يرى أحد فكها ساقطًا. جرت دمعةٌ وحيدةٌ على خد السيدة كولبيبر، ثم ظل ابتسامةٍ لهاربة المستنقع الصغيرة تهرب من جديد.

وقفت مجموعةٌ من الرجال بثياب العمل في الخلف. «على أعضاء هيئة المحلفين تقديم بعض الشروحات».

«ألا يستطيع إيريك أن يعلن عن خطأٍ في المحاكمة. أن يعيد كل ذلك ثانية؟».

«كلا. أتذكر؟ لا يمكن المحاكمة بجريمةٍ مرتين. هي حرّة. أفلتت بعملتها».

«ما خرب الأمور على إيريك سوى الشريف. لم يستطع أن يلتزم بقصته، ويلتزم بها طيلة المحاكمة. نظريةٌ من هنا، ونظريةٌ من هناك».

«كان يتبختر وكأنه في برنامج جانسموك».

ولكن هذه الفرقة الصغيرة من الغضب العارم تفرّقت بسرعة، وخرج بعضهم من الباب، متحدثين عن العمل المتأخر عليهم؛ وساعد المطر على تهدئة الأمور.

كان جودي و تايت قد هرعا عبر البوّابة الخشبية إلى طاولة الدفاع. تبعهم سكوبر، والقافز، ومايبل، وروبرت وأحاطوا بكيا. لم يلمسوها، ولكنهم وقفوا قريبًا منها فيما جلست هناك دون حراك.

قال جودي: «كيا، يمكنك الذهاب إلى البيت. هل تريدين مني أن أقلّك؟».

«أجل، أرجوك».

وقفت كيا وشكرت روبرت لقدومه كل تلك المسافة من بوسطن. ابتسم. «انسي كل هذا الهراء واستمرّي في عملكِ الرائع». لمست يد القافز، وضمتها مايبل إلى صدرها العرم. ثم استدارت كيا نحو تايت. «أشكرك على الأشياء التي جلبتها لي». استدارت إلى توم فضاعت الكلمات. احتضنها بين ذراعيه. ثم نظرت نحو سكوبر. لم تكن قد

تعرّفت عليه من قبل، ولكنها عرفته من عينيه. أومأت بلطف بتعبير «شكرًا لك». فوجئت حين وضع يده على كتفها وشد عليه بلطف.

ثم، تبعت حاجب المحكمة، سائرةً وجودي إلى الباب الخلفي لقاعة المحكمة. مدت يدها، حين مرّت بالقرب من عتبة النافذة، ولمست ذيل «قاضي الأحد». تجاهلها، فأثنت على تظاهره التام بأنه لا يحتاج الوداع.

شعرت بنفس البحر على وجهها حين فتح الباب.

55
زهور العشب

1970

تكلم جودي بلطفٍ مع كيا، فيما ارتطمت شاحنته بطريق السبّخة الرملي، متعديةً الرصيف. قالت أنها بخير؛ يستغرق الأمر بعض الوقت. عاينت أعشاب البرك، وطيور مالك الحزين، وأشجار الصنوبر، وبرك الماء، وهي تلمع خلال مرورهم. رفعت رقبتها لترى حيوانَيْ قندس يجذفان في الماء. كان عقلها ينبض بالشوق إلى المنزل، وبالتوقعات، كعصفورة الخرشنة المهاجرة التي حلّقت آلاف الأميال إلى مسقط رأسها. بالكاد سمعت ثرثرة جودي. تمنّت لو أنه يصمت ويستمع إلى صوت الطبيعة في داخله. وقد يرى حينها.

عاد تنفّسها طبيعيًا حين استدار جودي عند المنعطف الأخير للمسار الملتوي، وظهر الكوخ القديم للعيان، قابعًا تحت أشجار

السنديان. ارتمت الطحالب الإسبانية بلطفٍ مع النسيم فوق السطح الصدء، ووقف طائر مالك الحزين على ساقٍ واحدة تحت ظلال الهور. قفزت كيا خارج الشاحنة في اللحظة التي أوقفها جودي فيها، وأسرعت نحو الكوخ، تتلمس السرير، والطاولة، والمدفأة. حمل كيسًا من كسرات الخبز في خلفية الشاحنة، وهو عارفٌ بما تريده، فجرت إلى الشاطئ، بطاقةٍ متجددةٍ، حاملة الكيس معها، والدموع تنهمر على وجنتيها. طارت النوارس نحوها من كل الجهات. هبط «الرأس الأحمر» وجال حولها ورأسه يتمايل.

جثت على الشاطئ، محاطةً بجوقة الطيور، ارتجفت. «لم أطلب من الناس أي شيء سابقًا. قد يدعوني لشأني الآن».

أخذ جودي مقتنياتها القليلة إلى داخل البيت وحضّر الشاي بالإبريق القديم. جلس إلى الطاولة وانتظر. سمع باب الشّرفة يفتح، أخيرًا، وحين دخلت المطبخ، قالت: «أووه، لا زلت هنا». بالطبع، كان لا يزال هناك، كانت شاحنته ظاهرةً للعيان بشكلٍ واضحٍ في الخارج.

قال: «أرجوك، أجلسي لدقيقة، هلا فعلتِ؟ أريد أن أتحدّث».

لم تجلس. «أنا بخير، جودي. حقًا».

«فإذًا، هل تريدين مني المغادرة؟ كيا، قضيتِ الشهرين الماضيين لوحدك في تلك الزنزانة، وأنت تعتقدين أن البلدة بأكملها ضدكِ. بالكاد سمحتِ لأحدٍ ما بزيارتكِ. أنا أفهم كل ذلك، حقًّا، ولكني لا أظن أنه علي أن أقود شاحنتي مبتعدًا وأتركِك وحيدة. أريد أن أبقى معكِ لبضعة أيام. هل هذا مناسب؟».

«عشت وحيدة تقريبًا معظم حياتي، وليس لشهرين فقط! ولم أعتقد، أني أعلم أن البلدة بأكملها كانت ضدي».

«كيا، لا تدعي هذا الشيء الرهيب يبعدكِ عن الناس أكثر. كانت معضلةً تكسر الروح، ولكن الأمر يبدو وكأنه فرصةٌ ثانيةٌ للبدء من جديد. ربما يكون هذا الحكم أسلوبهم في القول أنهم سيتقبلونكِ».

«ليس على معظمهم أن يُبرّأوا من جريمة ليتقبّلهم الغير».

«أعلم، ولك كل الحق أن تكرهي الناس. لا ألومك، ولك..».

«هذا ما لا يفهمه أحدٌ عني». رفعت صوتها، «لم أكره الناس يومًا. بل هم كرهوني. ضحكوا عليّ. هجروني. أزعجوني. هاجموني. حسنًا، هذا

حقيقي، تعلّمت كيف أعيش بدونهم. بدونك أنت. بدون أمي! أو أي أحد».

حاول أن يمسك بها، ولكنها تفلتت منه.

«جودي، ربما أني لست متعبةً فحسب الآن. في الحقيقة، أنا مرهقةٌ. أرجوك، علي أن أتخطّى كل هذا - المحكمة، السجن، فكرة أني مرهقة - بنفسي، لأن نفسي هي كل ما عرفته كل حياتي. لا أعرف كيف أتلقّى المواساة. أنا متعبةٌ جدًّا حتى للقيام بهذه المحادثة. أن ... - خَفُتَ صوتها -».

لم تنتظر جوابًا بل سارت من الكوخ إلى داخل غابة السّنديان. لم يتبعها لعلمه أن ثنيها عن ذلك عقيمٌ، سينتظر. كان قد زوّد الكوخ بالبقالة، في اليوم السّابق - فقط في حالة البراءة - والآن ها هو يقطّع الخضار لأجلها: فطيرة دجاجٍ منزلية التحضير. ولكن حين غابت الشمس لم يعد يستطيع أن يتحمّل فكرة أن يبقيها بعيدة عن كوخها لدقيقة أخرى، ترك الفطيرة الحارّة تبقبق على سطح المدفاة وسار خارج الباب. كانت قد استدارت إلى الشاطئ، وحين سمعت شاحنته تسير ببطءٍ أسفل المسار، ركضت نحو البيت.

ملأت نسماتٌ من المعجّنات الذهبية الكوخ إلى السقف، ولكن كيا كانت لا تزال غير جائعة. أخرجت، في المطبخ، ألوانها ورسمت مخططًا لكتابها التالي عن أعشاب السبّخة. نادرًا ما كان الناس يلاحظون الأعشاب إلا وقت الجزّ، والسحق، أو التسميم. مسحت فرشاتها بغضب على شاشة الرسم بلون أقرب إلى الأسود منه إلى الأخضر. ظهرت صورٌ قاتمة، لمروجٍ تحتضر تحت هبّات العاصفة. كان من الصعب التحديد. أحنت رأسها وانتحبت. «لماذا أنا غاضبةٌ الآن؟ لماذا الآن؟ لماذا أنا لئيمةٌ جدًّا مع جودي؟» مشت وهي تعرج، فتزحلقت نحو الأرض كلعبة الخرق. كوّرت جسدها ككرةٍ باكيةً، كل ما تمنته هو أن تستطيع معانقة المخلوق الوحيد الذي تقبلها كما هي. ولكن القط كان لا يزال في السجن.

سارت كيا، قبل حلول الظلام، عائدةً إلى الشاطئ حيث كانت النوارس تحوم وتستقرّ للّيل. خدشت، لدى اجتيازها الموج، شظايا من الأصداف وصفائح من السرطانات، أصابع قدميها، وهي تتقلّب عائدة إلى البحر. انثنت وتناولت ريشتين لطائر مالك الحزين تمامًا كالتي وضعها تايت في مكان حرف «م» من القاموس الذي أهداها إياه لعيد الميلاد منذ سنوات.

همست أبياتًا لأماندا هاميلتون:

«ها أنت أتيت ثانيةً،

مسبّبًا العمى لعيني

كوميض الشمس فوق البحر.

في اللحظة التي شعرت فيها بالحرية

سيسكب القمر وجهك على العتبة.

في كل مرّة أنساك

تطارد عيناك قلبي فيسقط بلا حراك

فإذًا الوداع

إلى أن تأتي في المرة التالية،

إلى أن أتوقف عن رؤيتك أخيرًا».

في اليوم التالي قبيل الفجر، استقامت كيا بجلستها على سريرها في الردهة وتنفست الشّذى الغني للسبّخة إلى داخل قلبها. طبخت لنفسها بعض الذرة، والبيض المخفوق، والبسكويت، خفيفةٌ ورقيقةٌ كالتي كانت تصنعها أمها، حين دخل ضوء صافٍ إلى المطبخ. التهمت كل لقمة. ثم، حين ارتفعت الشمس، أسرعت نحو قاربها ومخرت عبر البركة، مغمّسةً أناملها في الماء الصافي العميق.

تكلّمت مع السلاحف وطيور المالك الحزين، أثناء مرورها في القناة، ورفعت ذراعيها عاليًا فوق رأسها. موطنها. قالت: «سوف أجمع كل النهار، كل ما أريد». راودتها فكرة رؤية تايت، عميقًا في عقلها. قد يكون يعمل بالقرب منها أو قد تمر هي به. قد تدعوه للعودة إلى الكوخ ليشاركها في فطيرة الدجاج التي طهاها جودي.

خاض تايت المياه الضحلة، على بعد أقل من ميل، واضعًا عيناتٍ في قوارير مختبرٍ صغيرة. انتشرت هالات من تموّجاتٍ لطيفةٍ مع كل خطوة، مع كل غمسة. خطط للمعيشة بالقرب من سكن كيا. قد تبحر بقاربها في السبّخة، وقد يلتقيا. إن لم يحصل ذلك، فقد يذهب إلى كوخها في تلك الليلة. لم يكن قد قرر بالتحديد ماذا سيقول لها، ولكن فكرة

التقبيل جالت بخاطره.

جلجل محرّكٌ غاضبٌ من بعد، بنبرة أكثر ارتفاعًا وأعلى من محرّك القارب، متغلّبًا على صوت السبّخة الناعم. تتبّع الضجة حين تحركت باتجاهه، وفجأة ظهر للعيان قارب نفخٍ جديدٌ، من طراز لم يره من قبل. تزحلق متوهجًا فوق الماء، وفوق الأعشاب، مرسلاً خلفه ذيلًا من الرذاذ. مصدرًا ضجة عشرة صفارات إنذار.

شقّ القارب ممرّه الخاص عبر السبّخة، محطمًا الأعشاب والأغصان الصغيرة، ثم أسرع باتجاه النهر. كانت طيور مالك الحزين والبلشون الأبيض تزعق. كان ثلاثة رجالٍ على متنه، ولدى رؤيتهم تايت، انعطفوا باتجاهه. عرف الشريف جاكسون، ونائبه، ورجلٌ آخر.

انحنى القارب إلى الوراء حين خفّت السرعة واقترب. صاح الشريف شيئًا لتايت، ولكنه رغم تكوير يديه على أذنيه واقترابه منهم، لم يستطع أن يسمع شيئًا فوق صوت الهدير. ناوروا قريبًا إلى أن قبع القارب بالقرب من تايت، موجهًا الرذاذ إلى فخذيه. انحنى الشريف مقتربًا وتكلم.

كانت كيا قد سمعت أيضًا صوت القارب الغريب، وحين اقتربت بقاربها منهم، شاهدت قاربهم يقترب من تايت. تراجعت إلى أجمة وشاهدته يستمع إلى كلمات الشريف، ثم يقف جامدًا، رأسه منخفضٌ، وكتفاه متدليان باستسلام. قرأت الخيبة في وقفته حتى من هذه المسافة. صاح الشريف ثانية، فاقترب تايت وسمح لنائب الشريف أن يسحبه إلى القارب. قفز الرجل الآخر في الماء وصعد في قارب تايت. ذقنه منخفضة، عيناه شاخصتان إلى الأسفل، وقف تايت بين الرجلين بالزي العسكري فيما استداروا وأسرعوا عائدين عبر السبّخة إلى «باركلي كوف»، يتبعهم الرجل الآخر في قارب تايت.

حدّقت كيا إلى أن اختفى القاربان خلف بقعةٍ من أعشاب الإنقليس المائية. «لماذا قبضوا على تايت؟ هل كان لذلك علاقةٌ بموت تشايس؟ هل اعتقلوه؟».

مزّقها الألم. ثم اعترفت أخيرًا، وبعد وقت طويل، أنها فرصةٌ لرؤية تايت، كان الأمل بالالتفاف حول منعطف لانحناءة جدولٍ ومراقبته من خلال القصبات، هو ما جذبها إلى داخل السبّخة كل يومٍ من حياتها منذ أن كان عمرها سبع سنوات. عرفت البُرك المفضلة لديه والممرات عبر

المستنقعات الصعبة؛ تتبعه دائمًا على مسافةٍ آمنة. تتسلل حوله، تسرق الحب. لم تفصح عن ذلك أبدًا. لن يصيبك مكروه إن كنت تحب شخصًا ما من الجهة الأخرى لمصب النهر. خلال كل تلك السنوات التي رفضته فيها، كانت تستمر بالحياة لأنه كان في مكانٍ ما في السبّخة، منتظرًا. ولكنه الآن قد لا يكون هناك مطلقًا.

حدقت في الضجة المتناقصة للقارب الغريب. يعرف القافز كل شيء، قد يكون علم لماذا ألقى الشريف القبض على تايت وما يمكنها فعله في هذا الشأن.

أطلقت محرّك القارب وأسرعت عبر السبّخة.

56
مالك الحزين الليلي

1970

تمتد مقبرة «باركلي كوف» تحت نفقٍ من أشجار السنديان الداكنة. تدلت الطحالب الإسبانية كستائرٍ طويلةٍ، خالقةً ملاذًا آمنًا يشبه الكهوف لشواهد القبور القديمة - بقايا شواهدٍ لعائلة هنا، بقايا لقبرٍ منفردٍ هناك - دون أي تنظيم. كانت أنامل الجذور النكدة قد حولت شواهد القبور إلى أشكال محدودبة لا أسماء لها. بهتت علامات الموت كلها وتحولت إلى أكوازٍ صغيرة بالحياة. غنّى البحر والسماء، في المدى، بلمعانٍ باهرٍ، لهذه الأرض الجادة.

اكتظت المقبرة في الأمس بالقرويين، كالنملات الثابتة، بما فيهم صيادو السمك وأصحاب المتاجر، الذين قدموا لدفن سكوبر. تجمهر

الناس في صمتٍ أخرق فيما تقدم تايت بين أهل البلدة المألوفين والأقرباء غير المألوفين. مشى تايت، وتصرف، كما قيل له، منذ اللحظة التي وجده الشريف فيها، وأخبره أن والده توفي، كان يمشي ويتصرف كما يقال له - يدٌ خلف ظهره، ولكزةٌ في جانبه - لم يذكر منها شيئًا، ومشى عائدًا إلى المقبرة اليوم ليلقي الوداع.

اشتاق لكيا خلال تلك الأشهر، كان يتلهّف عليها، ويحاول أن يزورها في السجن، ولم يقض وقتًا يذكر مع سكوبر. احتاج الشعور بالذنب والندم ما يزيلهما. لو لم يكن مشغولًا بقلبه، لربما كان انتبه أن قلب والده كان يضعف. كانت كيا قد أبدت استعدادها للعودة، قبل القبض عليها - أهدته نسخةً من كتابها الأول، وصعدت إلى قاربه لتنظر في المجهر، وضحكت على رميه للقبعة - ولكن تجنبها للناس ازداد مع بدء المحاكمة حتى انعزلت أكثر من ذي قبل. خطر له أن السجن يفعل ذلك بالناس.

وجد نفسه يفكر بكيا، وهو سائرٌ إلى القبر الجديد، حاملاً حقيبةً من البلاستيك البني، أكثر من التفكير بوالده فشتم نفسه لذلك. اقترب من كوم التراب الحديث تحت أشجار السنديان، وقد بدا البحر الواسع

خلفها. كان القبر مجاورًا لقبر أمه؛ وكان قبر أخته إلى الجانب وقد سورت جميعًا بحائطٍ صغيرٍ من الحجارة الخشنة وإسمنتٍ اختلط بالأصداف. بقي مسافةٌ كافيةٌ له. لم يشعر أبدًا أن والده كان هنا. قال تايت وهو يكاد يبتسم: «كان يجب أن أحرق جثتك كما حصل مع سام ماكغي». ثم نظر بعيدًا إلى المحيط، متمنيًا لسكوبر قاربًا حيثما كان. قاربٌ أحمر.

وضع حقيبة البلاستيك - جهاز تشغيل أسطوانات يعمل على البطاريات - على الأرض بالقرب من القبر ووضع أسطوانة من ذوات الـ78 دورة. تحركت الذراع وإبرتها وهبطت على الأسطوانة فارتفع صوت ميليزيا كورخاس الفضي فوق الأشجار. جلس بين قبر أمه وبين كوم التراب المغطى بالزهور. بدت الرائحة الحلوة للتراب المقلوب حديثًا، وبطريقةٍ غريبةٍ، أقرب ما تكون إلى البداية منها إلى النهاية.

تكلّم بصوت عالٍ، وقد أحنى رأسه، طلب من والده أن يسامحه لأنه أمضى الكثير من الوقت بعيدًا، وعلم أن سكوبر سامحه. تذكّر تايت كيف عرّف والده الرّجل: الرجل هو ذاك الذي يستطيع البكاء بحريةٍ، ويستشعر الشعر وموسيقى الأوبرا في قلبه، ويفعل كل ما في وسعه للدفاع عن امرأة. كان سكوبر ليفهم كيف أن المرء قد يخوض في الوحل

وراء الحب. جلس تايت هناك هادئًا وقد وضع إحدى يديه على أمه، والأخرى على والده.

لمس القبر مرةً واحدةً وأخيرة، وسار عائدًا نحو شاحنته، وقادها باتجاه قاربه عند مرسى البلدة. سيعود إلى عمله، ويغرق نفسه في أشكال الحياة المتلوية. سار نحوه العديد من صيادي السمك، فوقف شاعرًا بعدم الارتياح، يستقبل التعازي كالأخرق.

أحنى رأسه مصممًا على المغادرة قبل أن يقترب أحدٌ آخر، صعد على متن قاربه. ولكنه رأى، وقبل أن يجلس خلف المقود، ريشةً بنيةً باهتةً ممدة على مسند المقعد. عرف مباشرةً على أنها ريشة صدرٍ ناعمةٍ لأنثى مالك الحزين الليلي، مخلوق يتحاشى الناس، بأقدامٍ طويلةٍ ويعيش وحيدًا في السبّخة. رغم ذلك كان الطير هنا، قريبًا جدًا من البحر.

نظر حوله. كلا، لا يمكن أن تكون هنا، ليس بهذا القرب من البلدة. أدار المفتاح، وانعطف جنوبًا عبر البحر، وأخيرًا السبّخة.

مر بسرعةٍ هائلةٍ في الأقنية، واحتكّ بالأغصان المنخفضة التي صفعت القارب. تراقصت الأمواج الهائجة على الضفة فيما سحب

القارب إلى هورها وربطه بالقرب من قاربها. كان الدخان يتصاعد من مدخنة الكوخ، متماوجًا وحرًّا.

صرخ: «كيا، كيا».

فتحت الباب الخارجي ووقفت تحت شجرة السنديان. كانت ترتدي تنورةً بيضاء، طويلةً، وسترةً صوفيةً زرقاء باهتة - ألوان الأجنحة - وشعرها مسدولٌ على كتفيها.

انتظرها حتى سارت نحوه، ثم أمسك بكتفيها وشدها إلى صدره. ثم دفعها وتراجع.

«أحبك، كيا، أنت تعلمين ذلك. لطالما علمتِ ذلك ولوقتٍ طويل».

قالت له: «أنت هجرتني كما الآخرين».

«لن أتركك ثانيةً أبدًا».

قالت: «أعلم».

«كيا، هل تحبينني؟ لم تنطقي بهذه الكلمات لي من قبل».

«لطالما أحببتك. حتى في طفولتي، أحببتك منذ وقت لا أذكره».

أحنت رأسها.

قال بلطف: «انظري إلي». تردّدت، وقد أحنت رأسها. «كيا، أحتاج لأن أعلم أن الهروب والاختباء قد انتهيا. وأنك تستطيعين الحب دون الشعور بالخوف».

رفعت وجهها ونظرت إلى عينيه، ثم اقتادته عبر الغابة إلى بستان السنديان، مكان الرّيش.

57
اليراعة

ناما في الليلة الأولى على الشاطئ، ثم انتقل معها إلى الكوخ في اليوم التالي. وضبا أغراضهما في مدٍّ واحدٍ. كما تفعل مخلوقات الرمل.

أخذ بيدها، وهما يسيران على امتداد خط المدّ في وقت متأخر من بعد الظهر، ونظر إليها. «هل تقبلين بالزواج بي، كيا؟».

قالت له: «نحن متزوجان. كما طيور الأوز».

«حسنًا، أستطيع التعايش مع ذلك».

استفاقا فجر كل صباح، وفيما كان تايت يقطّر القهوة، كانت كيا تقلي الفطائر في مقلاة أمها الحديدية - سوداء ومبعجة - أو تقلب حساء الذرة والبيض مع اقتراب الشروق من الهور. كان طائر مالك

الحزين واقفًا على ساقٍ واحدة في الضباب. أبحرا عبر الأنهار، وخاضا غمار الطرق المائية، ودخلا الجداول الضيقة، وهما يجمعان الريش والأميبا. كانا يتجوّلان في قاربها القديم، بعيد العصر، حتى المغيب، ثم يسبحان عاريين في ضوء القمر أو يمارسان الحب في أسرّة من نبات السّرخس البارد.

عرضت مؤسسة مختبرات آركبولد وظيفةً على كيا، ولكنها رفضتها وتابعت الكتابة. استأجرت، وتايت، خدمات رجل الإصلاحات ثانية، فبنى لهما مختبرًا واستوديو - من الخشب غير المعالج، وأعمدةً محفورةً يدويًّا، وسقفًا من الصفيح - لها خلف الكوخ. أعطاها تايت مجهرًا وركب طاولات عمل، ورفوفًا، وخزانة لعيّناتها. صوانٍ من الأدوات واللوازم. ثم جدّدا الكوخ، فأضافا غرفة نومٍ جديدةٍ وحمامًا، وغرفة جلوسٍ أكبر. أصرّت على إبقاء المطبخ كما كان والقسم الخارجي بدون دهان، فبقي المنزل وقد زاد عن كونه كوخًا، متآكلاً وحقيقيًّا.

اتصلت بجودي، من هاتفٍ في «سي أوكس»، ودعته وزوجته، ليبي، لزيارتها. استكشف الأربعة معًا السبّخة واصطادوا بعض السمك. صاحت كيا، عندما اصطاد جودي سمكة إبراميم كبيرة: «انظروا هناك.

لديك سمكة بحجم ولاية ألاباما» قلوا السمك ومعجنات بحجم بيض الأوز.

لم تذهب كيا إلى «باركلي كوف» ثانيةً أبدًا، وقضت وتايت وقتهما في السبّخة معًا. رآها القرويون فقط كشكلٍ بعيدٍ يتحرّك عبر الضباب، ومع مرور السنوات أصبحت غوامض قصتها أسطورة، يخبرها الناس ويكررونها مع الفطائر المحلاة بزبدة الحليب وسجق لحم الخنزير الحار خلال العشاء. لم تتوقف النظريات والثرثرة حول كيفية موت تشايس أندريوز أبدًا.

اتفقت الأغلبية، مع الزمن، أنه ما كان على الشريف أن يعتقلها. لم يكن هنان دليلٌ قويٌ ضدها أصلًا، لا إثبات حقيقي لجريمة. كان عملاً وحشيًا حقًا أن يعاملوا مخلوقًا خجولاً وطبيعيًا بهذه الطريقة. انتخبوا شريفًا جديدًا من حين لآخر - لم ينتخبوا جاكسون مرةً ثانيةً أبدًا - فكان الشريف يفتح الملف، ويقوم ببعض الاستقصاءات بشأن مشتبهٍ بهم آخرين، ولكن ذلك لم يغنِ فتيلًا. تحوّلت القضية أيضًا، على مر السنين، إلى أسطورة. ورغم أن كيا لم تتعافَ مطلقًا من السخرية واشتباه المحيطين بها، فقد سكنت نفسها في اطمئنان ناعمٍ وشبه سعادة.

استلقت كيا على البساط الحيوي الناعم بالقرب من الهور ذات ظهيرة، منتظرة عودة تايت من رحلة جمع العينات. تنفست بعمق، لعلمها أنه سيعود دائمًا، وأنها، وللمرة الأولى في حياتها، لن تُهجر. سمعت خرخرة القارب العميقة، يشق القناة؛ تستطيع الإحساس بالاهتزاز الهادئ عبر الأرض. انتصبت حين اندفع القارب عبر الأجمات فلوّحت له حين رأته في قمرة القيادة. لوّح لها ولكنه لم يبتسم. وقفت.

ربط قاربه بالمرسى الصغير الذي كان قد بناه قبلاً وسار نحوها على الشاطئ.

«كيا، أنا آسف. لدي أخبار سيئة. مات القافز في الليلة الماضية أثناء نومه».

ضغط ألمٌ على قلبها. كان كل من هجرها قد فعل ذلك عمدًا. هذا مختلف. هذا ليس هجرانًا؛ هذا يشبه عودة الصقر كوبر إلى السّماء. انهمرت الدموع على وجنتيها فحضنها تايت.

ذهب تايت، وكل من كان في البلدة تقريبًا، إلى جنازة القافز. لكن

كيا لم تفعل. ذهبت إلى منزل القافز ومايبل، بعد الصلاة على الجنازة، ومعها بعض مربى التوت الأسود الذي تأخر استحقاقه.

انتظرت كيا قليلاً عند السور. وقف الأصدقاء وأفراد العائلة في الباحة الترابية، والتي كانوا قد نظفوها تمامًا. تكلم البعض، وضحك البعض الآخر على قَصص القافز، وانتحب البعض. نظر الجميع إليها حين فتحت البوّابة، ثم تنحّوا جانبًا ليسمحوا لها بالمرور. وقفت على المصطبة، فركضت مايبل إليها. تعانقتا، تمايلتا إلى الأمام والخلف، باكيتين.

قالت مايبل: «يا إلهي، أحبَّكِ وكأنك ابنته».

أجابت كيا: «أعلم ذلك، وهو كان والدي».

سارت كيا لاحقًا إلى شاطئها وودّعت القافز بكلماتها الخاصة، وبطريقتها الخاصة، ولوحدها.

جالت في ذهنها أفكار عن أمها، خلال تجوّلها على الشاطئ متذكّرةً القافز. وكأن كيا قد عادت مرةً أخرى طفلةً في السادسة، رأت أمها تمشي على المسار الرملي بحذاء جلد التمساح، مناورةً بين أخاديد

الأرض العميقة. ولكن أمها، في هذه النسخة، توقفت عند نهاية الطريق ونظرت إلى الوراء، ولوّحت بيدها عاليًا مودعة. ابتسمت لكيا، وعادت إلى الطريق، واختفت في الغابة. وهذه المرة، أخيرًا، كان لا بأس بذلك.

همست كيا، لوحدها ودون دموع: «وداعًا يا أمي». فكّرت بالآخرين بشكلٍ مقتضب، بوالدها، بأخيها بأخواتها. ولكنها لم تحظَ بما يكفي من تلك العائلة الراحلة لتودعها.

تناقص الندم إلى أن اختفى، حين بدأ جودي و ليبي بجلب طفليهما - مورفي وميندي - لزيارة كيا وتايت عدة مراتٍ في السنة. كبر البيت، مرةً أخرى، مع عائلةٍ حول مدفأة الطبخ القديمة، قدمت فطائر الذرة التي كانت تقدمها أمها، والبيض المخفوق، والطماطم المقطعة. ولكن الجو كان مليئًا بالضحك والمحبة هذه المرة.

تغيّرت «باركلي كوف» على مرّ السنين. أنشأ رجلٌ من «رالاي» ميناءً فاخرًا في المكان الذي قبع فيه كوخ القافز لأكثر من مئة سنة. مع سقيفةٍ زرقاء لمّاعةٍ فوق كل مرسى للقوارب. تفسّح قادة القوارب أعلى وأسفل الخط السّاحلي إلى «باركلي كوف» ودفعوا 3.50 دولار لفنجان

الإسبريسّو.

انتشرت مقاهي الرصيف الصغيرة، مع مظلاتٍ ملونةٍ جميلةٍ، ومعارض الفنون في الشارع الرئيس. افتتحت سيدة من نيويورك محلاً لبيع الهدايا، فباعت ما لا يحتاجه أهل القرية، وما كان على السّياح امتلاكه. وضع كل دكانٍ تقريبًا طاولة عرضٍ خاصة لكتب كاثرين دانيل كلارك ~ كاتبة محلّية ~ عالمة أحياءٍ حاصلةٍ على جوائز. كانت الذرة على لوائح الطعام كعصيدةٍ بصلصة الفطر وكلفت 6 دولارات. سارت امرأةٌ من أوهايو إلى داخل مطعم «دوغ غان بير هول»، ذات يوم، وطلبت الروبيان الحار بصحن ورقٍ على شكل القارب، وبيرة، من البرميل مباشرةً. يستطيع البالغون الآن من الجنسين ومن أي لونٍ كان أن يسيروا عبر الباب، ولكن الشباك، الذي اقتُطِع من الحائط لتستطيع النساء الطلب من الرصيف كان لا يزال هناك.

استمرّ تايت في عمله في المختبر، ونشرت كيا سبعة كتبٍ أخرى حازت على جوائز. ورغم حصولها على جوائز عديدة - ومن ضمنها درجة دكتوراه فخرية من جامعة كارولاينا الشمالية في تشابيل هيل - فهي لم تقبل أبدًا الدعوات للتحدث في الجامعات والمتاحف.

تمنى تايت وكيا أن يحصلا على عائلة، ولكنهما لم يرزقا بطفل. دفعتهما خيبة الأمل أقرب إلى بعضهما، وكان من النادر أن يفترقا لأكثر من ساعاتٍ قليلةٍ في اليوم.

سارت كيا إلى الشّاطئ لوحدها، أحيانًا. وحين رسم مغيب الشمس خطوطًا في السماء، شعرت بأن الأمواج تسحق فؤادها. كانت تنحني وتلمس الرمل، ثم تمد ذراعاها نحو الغيوم. تستشعر الترابطات. ليست الترابطات التي تحدثت عنها أمها ومايبل - لم يكن لكيا رفقةٌ مع الأصدقاء - ولا الترابطات التي وصفها جودي، لأنها لم تحصل على عائلتها الخاصة مطلقًا. غيرت سنوات العزلة الكثير من تصرّفاتها فأصبحت مختلفةً عن الآخرين، لم يكن خطؤها أنها كانت وحيدة. تعلمت معظم ما تعرفه من الطبيعة. كانت الطبيعة قد غذّتها، ودرّستها، وحمتها حين لم يفعل أحد آخر ذلك. إن كان قد نتج عن تصرفاتها المختلفة شيءٌ، فقد كان أساسًا لوظائفٍ حياتية.

أقنعها إخلاص تايت أخيرًا، في النهاية، أن الحب الإنساني هو أكثر من مبارزات غريبة للتزاوج لمخلوقات السبّخة، ولكن الحياة علّمتها أيضًا

أن الجينات القديمة لغريزة البقاء لا زالت مثابرةً في بعض الأشكال غير المحببة بين ثنايا الشيفرة الجينية للإنسان.

كان كافيًا، بالنسبة لكيا، أن تكون جزءًا من هذا التسلسل الطبيعي الأكيد كالمدّ والجزر. ارتبطت بكوكبها وبالحياة عليه بطريقة اختبرها قليلون. كانت جذورها ضاربةً في هذه الأرض. وقد ولدت لها.

كان شعر كيا الأسود الطويل، في الرابعة والستين، قد ابيض كالرمل. لم تعد، ذات ليلةٍ من رحلة التجميع، فذهب تايت إلى السبّخة، يبحث عنها. اقترب من منعطف، قبيل المغيب، ورآها مبحرة بقاربها في الهور محاطة بأشجار الجمّيز التي تعانق السّماء. كانت مستلقية إلى الخلف، وقد أسندت رأسها إلى حقيبة الظهر القديمة. نادى اسمها بلطف، ورفع صوته حين لم تتحرّك، ثم صاح. سحب قاربه إلى قرب قاربها، مصطدما به بعنف. مدّ ذراعيه الطويلتين، وأمسكها من كتفيها وهزّها بلطف. سقط رأسها إلى الجانب. عيناها لا تريان.

صاح: «كيا، كيا، كلا، كلا!».

لا زالت شابةً وجميلةً جدًّا، كان قلبها قد توقف بصمت. عاشت حياةً طويلةً بما يكفي لترى عودة طيور العقاب الأغر؛ كانت الحياة، بالنسبة لكيا طويلةً بما يكفي. ضمّها بين ذراعيه، وترنح، منتحبًا، إلى الأمام والخلف. لفّها بملاءة وسحب قاربها عائدًا إلى هورها عبر متاهة الجداول والأنهار، مارًّا بطيور مالك الحزين والغزلان للمرة الأخيرة.

وسأخبئ الفتاة في شجرة السرو

حين تكون خطوات الموت قريبة

استحصل على إذنٍ خاص يدفنها في أرضها تحت شجرة سنديانٍ مطلةٍ على البحر، وخرجت البلدة كلها في الجنازة. لم تكن كيا لتصدّق وجود الخط الطويل من المنتحبين الذي يشيعونها على مهل، جاء جودي وعائلته، بالطبع، وجاء كل أبناء عمومة تايت. حضر بعض الفضوليّين، ولكن معظم الناس قدموا احترامًا لقدرتها على العيش في سنوات من العزلة لوحدها في البرية. تذكّر بعضهم الفتاة الصغيرة، التي ترتدي ثيابًا بمقاسات أكبر منها، ومعطفًا رثًّا، وتبحر إلى الميناء، وتسير حافية القدمين

إلى البقالة لتشتري الذرة. قدم آخرون إلى جانب قبرها لأنهم كانوا قد تعلّموا من كتبها كيف تربط السبّخة البرَّ بالبحرِ، وكيف أنّ الاثنان يحتاجان لبعضهما البعض.

استوعب تايت، حينها، أن لقبها لم يكن بهذه الوحشية. القلائل فقط يصبحون أسطورة، فاختار التالي ليكون نقشًا على شاهد قبرها:

كاثرين دانيال كلارك

«كيا»

فتاة السبّخة

1945 - 2009

دخل تايت إلى مختبرها اليدوي، ليلة جنازتها، وبعد أن غادر الجميع. كانت عيّناتها المصنّفة بعناية، والتي تعود لأكثر من خمسين عامًا، الأطول عملاً، والأكثر اكتمالاً بين مثيلاتها من نوعها. كانت قد أوصّت أن تُمنح لمختبر «آركبولد لاب»، وسينفذ الوصية يومًا. لكن مفارقتها الآن كان بعيدًا عن التفكير.

شعر تايت، وهو يدخل الكوخ - كما أسمته دائمًا - أنّ الجدران تتنشّق أنفاسها، والبلاط يتنفّس خطواتها بوضوحٍ لدرجة أنه نادى باسمها. ثم وقف أمام الجدران، وانتحب. رفع حقيبة الظهر القديمة وضمّها إلى صدره.

كان الموظفون في المحكمة قد طلبوا من تايت أن يبحث عن وصيتها وشهادة ميلادها. بعثر محتويات خزانتها، في غرفة النوم الخلفية القديمة، والتي كانت يومًا لأهلها، ووجد صناديقًا عن حياتها محشورةً في العمق، ومخبّأة تقريبًا، تحت بعض الملاءات. سحب الصناديق على الأرض وجلس بقربها.

فتح علبة السيجار القديم بحرص، الصندوق حيث بدأت عملية الجمع. كان لا يزال للصندوق رائحة التبغ والطفلة الصغيرة. قبعت القارورة الصغيرة ورماد رسالة أمها، بين ريشات الطيور الصغيرة، وأجنحة الحشرات، والبذور، وقارورة طلاء الأظافر اللمّاع من ريفلون. جزيئات وعظام الحياة. أحجارٌ من جدولها.

كانت أوراق الملكية مدسوسةً في العمق، والتي كانت كيا قد خبّأتها لحفظها، لتحميها من هجوم العمران. سيبقى هذا الجزء من

السبّخة، على الأقل، برّيًّا إلى الأبد لم يكن هناك من وصيةٍ أو أوراقٍ شخصية، ما لم يفاجئهُ؛ لم تكن لتفكّر في أشياء كهذه. خطط تايت ليعيش أيامه في منزلها، لعلمه أنها كانت قد أرادت ذلك وأن جودي لن يعترض.

قلب مزيج الذرة للنوارس، في أواخر النهار، وحين كانت الشمس تغرق خلف البركة، ونظر إلى أرض المطبخ بدون تفكير. أرجع رأسه حين انتبه للمرة الأولى أن المشمّع لم يكن موضوعًا تحت كومة الأخشاب أو المدفأة القديمة. كانت كيا قد أبقت حطب المدفأة مكوّمًا عاليًا، حتى في الصّيف، أما الآن فارتفاعها منخفض، ورأى مكان القطع في ألواح خشب الأرضية. أزاح أعواد الخشب المتبقية جانبًا ورأى بابًا سريًّا في ألواح الخشب. جثا، وفتحه بهدوءٍ ليجد حجرةً بين العوارض، احتوت، بين أشياء أخرى، على علبةٍ كرتونيةٍ مغطّاةٍ بالغبار. سحبها خارجًا ووجد في داخلها أعدادًا من المغلفات الكبيرة وصندوقًا صغيرًا. كانت كل المغلفات موسومة بالأحرف الأولى أ. هـ. وسحب منها صفحاتًا وصفحات من شِعر أماندا هاميلتون، الشاعرة المحلية التي كانت قد نشرت أبياتًا بسيطة في مجلات إقليمية. كان تايت يعتقد أن قصائد هاميلتون ضعيفة، ولكن

كيا كانت دائمًا تحتفظ بقصاصات من القصائد المنشورة، وها هنا مغلّفاتٌ مليئةٌ بها. كان ثمة قصائدُ كاملة، ولكن معظمها كانت غير مكتملة، بسطورٍ مشطوبة وبضع كلمات معاد كتابتها على الهامش بخط الشاعرة - خط كيا.

كانت كيا هي أماندا هاملتون. كانت كيا الشاعرة.

لم يصدق تايت عيناه. لا بد أنها كانت تضع القصائد في صندوق البريد الصدئ، لترسلهم إلى وسائل الإعلام المحلية كل هذه السنوات. كانت مختبئة تحت اسمٍ مستعار. ربما أحبت أن تصل إلى الناس، طريقة للتعبير عن شعورها لأحدٍ ما غير النوارس. مكان ما لترسل كلماتها إليه.

مرّ بنظره على بعض القصائد، التي كان معظمها عن الطبيعة أو الحب. كانت إحداها محفوظة بترتيب في مغلف خاص بها. أخرجها وقرأ:

«حبحة

كان إغراؤه سهلاً

الأحبة الوامضين.

و لكن كالحبحب الأنثى

أخفوا نداءً سريًّا للموت.

لمسة أخيرة،

غير مكتملة؛

الخطوة الأخيرة، فخ.

يسقط أرضًا

لا زالت عيناه تمسكان بعينَي

إلى أن تريا عالمًا آخر.

رأيتهما يتغيّران،

أولاً سؤال، ثم جواب،

أخيرًا نهاية.

و الحب بنفسه يمرّ

إلى ما كان عليه قبل أن يبدأ».

أ. هـ

كان ما زال جاثيًا على الأرض، فقرأها ثانية. حمل الورقة قريبًا إلى قلبه الخافق داخل صدره. نظر خارج النافذة، ليتأكد أنه أحدًا لم يكن قادمًا على المسار - قد لا يأتوا، ولماذا يأتون؟ - أحب أن يتأكد، ففتح الصندوق الصغير، عالمًا بما سوف يجده. وجد هناك، عقد صدف تشايس، والذي كان يرتديه ليلة موته، ملفوفًا بعناية في القطن.

جلس تايت إلى طاولة الطعام لفترةٍ طويلة، يستوعب الموضوع، تخيلها مستقلة حافلة الليل، وخائضة غمار الأمواج، ومخططةً وفق حالة

القمر. نادت تشايس بلطفٍ في الظلام ودفعته إلى الخلف. ثم ربضت في الوحل تحت البرج، ورفعت رأسه وقد أثقله الموت لتستعيد العقد. وغطت آثار أقدامها فلم تترك أثرًا.

كسّر أعوادًا لأجزاءٍ صغيرةٍ، وأشعل نارًا في مدفأة الحطب القديمة، وأحرقها مغلّفًا تلو الآخر، أحرق القصائد. احتاج لأن يحرقها كلها، ربما كان عليه حرق واحدةٍ فقط، ولكنه لم يكن يفكّر بوضوح. أصدرت الأوراق الصفراء القديمة أزيزًا بارتفاع قدم، ثم احترقت. أزال الصدفة عن قطعة الجلد الطبيعي، رمى قطعة الجلد في النار، وأعاد الألواح إلى مكانها على الأرض.

ثم سار إلى الشّاطئ، قريب المغيب، ووقف على فرشة حادة من قواقع المحارات البيضاء وقطع السرطانات. حدّق لثانيةٍ بصدفة تشايس وقد جلست في قبضته المفتوحة ثم أسقطها على الرمل. ضاعت بين الأصداف المماثلة. كان المدّ قادمًا، وتكسرت موجة على قدميه، آخذةً معها المئات من الأصداف البحرية في عودتها إلى البحر. كانت كيا قطعةً من هذه الأرض ومن هذا الماء؛ سيستعيدانها الآن ويحفظا أسرارها عميقًا.

أتت النوارس بعد ذلك. وحلقت في دوامةٍ فوق رأسه، حين رأته.

تنادي. تنادي.

سار تايت عائدًا إلى الكوخ. وقد هبط الظلام، ولكنه توقف لدى وصوله إلى الهور توقّف تحت المظلة العميقة وشاهد مئات الحباحب تشير من بعيد إلى عمق الأرجاء المظلمة للسبّخة. هناك بعيدًا، حيث يغني جراد الماء.

إقرار

إلى أخي التوأم، بوبي دايكس، أقدم شكري العميق لحياة كاملة من التشجيع والدعم الذين يفوقان الخيال. أقدم الشكر لأختي هيلين كوبر، لأنها كانت دائمًا جاهزة لدعمي، ولأخي لي دايكس، لإيمانه بي. أنا شاكرة جدًا لأصدقائي الأبديين وعائلتي لدعمهم الذي لا يتزعزع، ولتشجيعهم، ولضحكهم: أماندا ووكر هول، ومارغريت ووكر ويذرلي، وباربارا كلارك كوبلاند، وجوان وتيم كايدي، ومونا كيم براون، وبوب آيفي وجيل باومان، وماري دايكس، ودوج كيم براون، وكين إيستويل، وجيسي تشاستاين، وستيف أونيل، وآندي فان، ونابيير مورفي، وليندا دينتون، وللحصان ومسارات التزلج، وسابين دالمان، وجريج وأليس جونسون.

أتقدم بالشكر، للقراءة والتعليق على المخطوطة: لجوان وتيم كايدي - قراءات متعددة!- وجيل باومان، وبوب آيفي، وكارولين تيستا،

وديك بورغيم، وهيلين كوبر، وبيتير ماتسون، وماري دايكس، وأليكساندرا فولر، ومارك أونز، وديك هاوستون، وجانيت جوس، وجينيفر دوربين، وجون أوكونر، وليسلي آن كيلير.

إلى وكيلي راسل جالن، أشكرك لمحبتك وفهمك كيا واليراعات، وتصميمك الحماسي لرواية هذه القصة.

شكرًا لك، دار ج. ب. بوتنامز سانز لنشر كلماتي. أنا شاكرة جدًّا لمحررتي، تارا سينج كارلسون لتشجيعك، ولتحريرك الجميل، ولرؤيتك لقصتي. كما أوجه شكري أيضًا، وفي دار بوتنام لهيلين ريتشارد لمساعدتها عند كل منعطف.

شكر خاص لهانا كايدي لمساعدتك المرحة في بعض المهام المبتذلة والحازمة - كالنار المضرمة في الهواء الطلق - لكتابة رواية.

الفهرس

Notes

[1 ←]

رقصة فولوكلورية أمريكية.

[2 ←]

أغنية فولوكلورية للأطفال

[3 ←]

منطقة مائية تمتد على الشاطئ الجنوبي للولايات المتحدة، وهي مليئةٌ بالسبخات.